نوع گزارش : نمايش متن
روز:١٣٨٧/١٢/٢٨ ساعت:۴ : ١٢

تفسير الكاشف، ج۲، ص ۵

الجزء الثاني

الجزء الثالث

سورة آل عمران

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الم (١) اللهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراٰةَ وَ الإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقٰانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ اللهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَ اللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقٰامٍ (٤)

إِنَّ اللهَ لاٰ يَخْفىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لاٰ فِي السَّمٰاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحٰامِ كَيْفَ يَشٰاءُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)

الاعراب:

مصدقا حال من الكتاب، و هدى مفعول من أجله لا نزل، و يجوز أن يكون حالا، و كيف محل نصب قائم مقام المفعول المطلق، أي يصوركم تصويرا أيّ تصوير يشاؤه، مثل أفعل كيف شئت، و المعنى أيّ فعل شئت، و يجوز أن تكون حالا.

المعنى:

(الم). مر تفسيرها في أول سورة البقرة. (اللهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ).

مر تفسيرها في أول آية الكرسي ٢٥٥ سورة البقرة.

تفسير الكاشف، ج۲، ص ۶

(نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ). المراد بالكتاب القرآن، و هو مصدق للكتب المنزلة على الأنبياء السابقين، و بديهة ان تصديق ما انزل على الأنبياء لا يستلزم تصديق الكتب التي ينسبها اليهم بعض الطوائف .. و ها نحن المسلمين نؤمن بقول رسول اللّه (ص)، و مع ذلك لا نؤمن بكل ما في كتب الحديث المروية عنه، أما من يؤمن بالكتب المنزلة على الأنبياء السابقين فعليه أن يؤمن حتما بالقرآن، و إلا ناقض نفسه بنفسه، لأن القرآن مصدق لتلك الكتب، فتكذيبه تكذيب لها بالذات.

(وَ أَنْزَلَ التَّوْراٰةَ وَ الإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ). و وصف التوراة و الإنجيل بالهدى يستلزم انهما قد انزلا بالحق، كما ان وصف القرآن بأنه نزل بالحق يستلزم أن يكون هدى للناس .. إذن، فكل واحد من الكتب الثلاثة حق و هدى.

و المراد بالهدى هنا بيان اللّه سبحانه للحلال و الحرام على لسان أنبيائه، و هذا البيان يفيد العلم بأحكام اللّه، أما العمل بها فيحتاج إلى هدى من نوع آخر زائدا على البيان، و لا أجد لفظا أعبّر عنه سوى التوفيق، و هو المشار اليه بقوله تعالى: «إِنَّكَ لاٰ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ- القصص ٥٦».

التوراة و الإنجيل:

يطلق القرآن لفظ التوراة على ما أنزله اللّه تعالى من الوحي على موسى (ع)، و يطلق لفظ الإنجيل على الوحي الذي أنزله على عيسى (ع). و لكن القرآن قد بيّن و سجّل ان التوراة و الإنجيل اللذين يعترف بهما هما غير التوراة و الإنجيل الموجودين الآن عند اليهود و النصارى، قال تعالى في الآية ٤٥ من سورة النساء:

«مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ». و قال في الآية ١٤ من سورة المائدة: «وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارىٰ أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ».

و في الآية ١٥ من السورة المذكورة: «يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٧

و المبشرون المسيحيون أعرف الناس بهذه الحقيقة، و مع ذلك يدلسون و يوهمون العوام بأن القرآن يعترف بالتوراة و الإنجيل اللذين لعبت بهما يد التحريف .. ان القرآن بكامله هو كلام واحد، و جملة واحدة، لا يجوز الايمان ببعضه، و الكفر ببعضه الآخر.

و التوراة كلمة عبرانية، و معناها الشريعة، و تطلق عند أهل الكتاب على خمسة أسفار: الأول سفر التكوين، و فيه الكلام عن بدء الخليقة، و أخبار الأنبياء، الثاني سفر الخروج، و فيه تاريخ بني إسرائيل و قصة موسى، الثالث سفر التثنية، و فيه أحكام الشريعة اليهودية، الرابع سفر اللاويين، و اللاويون هم نسل لاوي أحد أبناء يعقوب، و فيه العبادات و المحرمات من الطيور و الحيوانات، الخامس سفر العدد، و فيه احصاء لقبائل بني إسرائيل و جيوشهم، و هذه الأسفار الخمسة هي من مجموعة أسفار تبلغ تسعة و ثلاثين سفرا، و يطلق النصارى عليها اسم العهد القديم.

أما الإنجيل فكلمة يونانية الأصل، و معناها البشارة، و الأناجيل عند المسيحيين أربعة: الأول إنجيل متى، و يرجع تاريخ تأليفه إلى حوالي سنة ٦٠ بعد الميلاد، و قد ألف باللهجة الآرامية. الثاني إنجيل مرقص، و ألفه باللغة اليونانية حوالي سنة ٦٣ أو ٦٥، الثالث إنجيل لوقا، ألفه باللغة اليونانية بتاريخ إنجيل مرقص، الرابع إنجيل يوحنا، ألفه باللغة اليونانية حوالي سنة ٩٠ بعد الميلاد.

و قد استقر رأي المسيحيين في أوائل القرن الخامس الميلادي على اعتماد سبعة و عشرين سفرا من أسفارهم، و قالوا: انها موحى بها لأصحابها من الرب، و لكن بمعانيها لا بألفاظها، و أطلقوا عليها اسم العهد الجديد، للمقابلة بينها، و بين ما اعتمد من أسفار اليهود المقدسة التي أطلقوا عليها اسم العهد القديم، فالقديم يرجع إلى عهد موسى، و الجديد الى عهد عيسى، و معنى العهد الميثاق «١».

و مر ما يتصل بهذا الموضوع عند تفسير الآية ٣ من سورة البقرة فقرة «يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ».

(وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ). الفرقان مصدر فرق، و هو ما يفرق بين الحق و الباطل،

---

(١) تلخيص من كتاب «الاسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام» لعلي عبد الواحد وافي.

و قد اختلفوا في المراد منه: هل هو العقل، أو الزبور، أو القرآن، أو كل دلالة فاصلة بين الحق و الباطل، و اختار الشيخ محمد عبده العقل، و صاحب مجمع البيان القرآن. و لفظ الآية يحتمل المعنيين.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ اللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ إِنَّ اللهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ). قال المفسرون: ان ستين رجلا من نصارى نجران اليمن وفدوا على رسول اللّه السنة التاسعة للهجرة، و هي السنة المعروفة بعام الوفود، حيث توافد فيه الناس على النبي (ص) من شتى بقاع الجزيرة العربية يخطبون وده بعد أن نصره اللّه على أعداء الإسلام «١» و احتج وفد نجران لعقيدة النصارى بالتثليث و ألوهية عيسى، احتج بأن عيسى ولد من غير أب، و بما جرى على يديه من المعجزات التي اعترف بها القرآن.

و قال المفسرون أيضا: ان سورة آل عمران من أولها إلى نحو ثمانين آية نزلت في نصارى نجران، و الرد عليهم، فبدأ اللّه سبحانه بذكر التوحيد نفيا للتثليث، ثم ذكر القرآن و التوراة و الإنجيل، لأن هذه الكتب الثلاثة تنزه اللّه عن الولد، و الحلول أو الاتحاد، و تنفي عن عيسى طبيعة الالوهية، ثم ذكر سبحانه: **(إِنَّ اللهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ)** للرد على قول النصارى بأن عيسى كان يعلم الغيب.

ثم ذكر جل و علا انه **(هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)**. ذكر سبحانه هذا ليبطل به قول النصارى بأن عيسى إله لأنه من غير أب، و وجه البطلان ان الإله لا يخلق و يوجد في الأرحام، و إنما الإله هو الخالق المصور للمخلوق في رحم أمه، فان شاء خلقه و صوره بواسطة الأب، و ان شاء خلقه بغير هذه الواسطة حسبما تستدعيه حكمته القدسية.

و خلاصة القول ان الإخبار ببعض المغيبات، و إحياء بعض الأموات، و الولادة بلا أب لا يدل شيء منها على ان عيسى إله، لأن الإله هو الذي يعلم جميع المغيبات، لا بعضها، و الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض و لا في السماء،

---

(١) التفصيل عند تفسير الآية ٦١ المعروفة بآية المباهلة. فإلى هناك.

و الذي يحيي جميع الأموات، دون استثناء، و الذي يقدر على كل شيء، حتى على الخلق من غير أب، و إيجاد الشيء من لا شيء .. و بديهة ان عيسى لم يكن يعلم جميع المغيبات، و لا يقدر على إحياء جميع الأموات، و لم يخلق أحدا في رحم أمه بواسطة الأب أو بلا أب، بل العكس هو الصحيح فإنه هو الذي خلق في الرحم.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٧ الى ٩]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (٧) رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (٩)

اللغة:

أحكم الأمر إذا أتقنه، و المراد بالمحكم هنا اللفظ الواضح الذي لا يحتاج إلى تفسير، و المتشابه ما يحتاج إلى التفسير، و الزيغ مطلق الميل، و المقصود به هنا الميل عن الحق، و التأويل من آل إلى كذا، و المراد به هنا التفسير، و الرسوخ الثبوت.

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ١٠

الإعراب:

منه متعلق بمحذوف خبر مقدم، و آيات مبتدأ مؤخر، و محكمات صفة، و هن أم الكتاب مبتدأ و خبر، و آخر صفة لآيات محذوفة، و ابتغاء مفعول من أجله ليتبعون، و ليوم اللام بمعنى في، و ربنا منادى، أي يا ربنا.

المعنى:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ).

تنقسم آيات القرآن بالنظر الى الوضوح و الخفاء إلى نوعين: محكم و متشابه:

و المحكم هو الذي لا يحتاج إلى تفسير، و يدل على المعنى المقصود منه دلالة واضحة قطعية لا تحتمل تأويلا و لا تخصصا و لا نسخا، و لا تترك مجالا للذين في قلوبهم مرض أن يضللوا و يفتنوا بالتأويل و التحريف .. و من أمثلة المحكم قوله تعالى: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ .. وَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .. لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ .. إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ .. وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها، و ما إلى ذلك مما يستوي في فهمه العالم و الجاهل.

و المتشابه ضد المحكم، و هو على أنواع:

«منها»: ما يعرف معناه على سبيل الإجمال دون التفصيل، مثل قوله تعالى:

فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا .. فان منتهى معرفتنا بالروح انها سر إلهي يحدث للإنسان بسببه الإدراك و الشعور، أما معرفة هذا السر بكنهه و حقيقته فهو من أمر ربي لا يعرفه، حتى العلماء، و ليس الشرط لصحة الخطاب بالشيء أن يعرفه المخاطب بالتفصيل، بل تكفي المعرفة الاجمالية.

و «منها»: أن يدل اللفظ على شيء يأباه العقل، مثل ثم استوى على العرش .. فلفظ العرش يدل على السرير، و العقل يرفض هذه الدلالة، لأن اللّه سبحانه فوق الزمان و المكان، فيتعين التأويل، و هو من اختصاص أهل العلم، إذ لا بد للتأويل من دليل صحيح يصرف اللفظ الى معنى صحيح، و لا يعرف هذين إلا أهل الاختصاص.

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ١١

و «منها»: أن يتردد اللفظ بين معنيين أو أكثر، مثل قوله تعالى:

وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ، حيث يطلق القرء على الطهر و الحيض معا.

و «منها» أن يكون اللفظ عاما يشمل بظاهره جميع المكلفين، و لكن المراد منه بعض أفراده، لا جميعها، مثل قوله تعالى: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما .. مع العلم بأن السارق لا يقطع إذا كان أبا لصاحب المال، و لا في سنة المجاعة، و لا إذا كان المسروق في غير حرز، أو كان دون ربع دينار.

و «منها»: الحكم المنسوخ، كالصلاة الى بيت المقدس، حيث دل الدليل على ثبوت هذه القبلة و استمرار حكمها في بدء الدعوة، ثم جاء دليل الناسخ، و حوّلها إلى الكعبة.

و ليس من شرط المتشابه ان لا ترجى معرفته إطلاقا، حتى للعلماء، و بشتى أنواعه .. كلا، فان جميع أنواع المتشابه- ما عدا النوع الأول- يمكن لعلماء الأصول العارفين بطرق التأويل، و أحكام الخاص و العام، و الناسخ و المنسوخ، و الترجيح بين المتعارضين- ان يستخرجوا الخاص من العام، و يميزوا بين الناسخ و المنسوخ، و الراجح و المرجوح، و المعنى المعقول الذي أوّلت به الدلالة اللفظية بعد أن رفضها العقل .. و على هذا يكون المتشابه بالنسبة إلى العالم واضحا، و لكن بعد البحث و الاستقصاء، و عملية الموازنة و المقارنة بين المتشابه، و بين ما يتصل به من القرائن و الدلائل .. أجل، يبقى المتشابه على أشكاله بالنسبة إلى الجاهل الذي لا يجوز له أن يؤوّل، أو يأخذ بظاهر يقبل التخصيص أو النسخ.

و خلاصة القول ان العلماء يعلمون معاني القرآن، و هو بلاغ مبين بالنسبة اليهم إذ لا يجوز بحال أن ينزل اللّه كلاما لا معنى له، أو لا يفهمه أحد، حتى العلماء .. كيف؟ و قد أمر الله بتدبر القرآن، و لا يكون التدبر و التعقل إلا للمعقول .. و الذي لا يفهم لا يمكن تدبره و تعقله.

و تسأل: ان اللّه قد وصف كتابه العزيز بأن آياته كلها محكمة، قال عز من قائل في الآية ١ من سورة هود: «كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ» .. و أيضا وصف كتابه بأن آياته كلها متشابهة، قال في الآية ٢٣ الزمر: «اللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتٰاباً مُتَشٰابِهاً» .. و أيضا وصف كتابه بأن بعض آياته محكمة،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٢

و بعضها متشابهة، قال في الآية التي نحن بصددها: «**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتٰابَ مِنْهُ آيٰاتٌ مُحْكَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتٰابِ وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ**» .. فما هو طريق الجمع بين هذه الآيات؟.

الجواب: ان المراد بقوله تعالى: (أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ) أنها أحكمت في النظم و الإتقان، و انها جميعا فصيحة اللفظ، صحيحة المعنى، و المراد بقوله: (كِتٰاباً مُتَشٰابِهاً) ان بعضه يشبه بعضا في البلاغة و الهداية، قال أمير المؤمنين: القرآن ينطق بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض، و المراد بقوله: (**مِنْهُ آيٰاتٌ مُحْكَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتٰابِ وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ**) ان بعضها واضح المعنى لا يحتاج إلى تفسير، و بعضها غامض يحتاج فهمه إلى تفسير، و التفسير يحتاج إلى المعرفة و العلم بالصناعة، كما أشرنا .. فلا تهافت بين الآيات الثلاث بعد اختلاف الجهة، فهي أشبه بقول القائل: أحب السفر، و لا أحب السفر، ثم أوضح مراده بقوله: أحب السفر برا، و لا أحبه بحرا، قال بعض الصوفية مخاطبا ربه:

يـا مـن أراه و لا يـرانـي يـا من يـرانـي و لا أراه

يريد أرى اللّه مفضلا عليّ، و لا يراني مطيعا له، و يراني عاصيا، و لا أراه معاقبا.

سؤال ثان: ما هو المراد من الأم في قوله تعالى: **هُنَّ أُمُّ الْكِتٰابِ**؟.

الجواب: بعد أن أوضح سبحانه ان في كتابه آيات متشابهات لا يعلمها إلا اللّه و الراسخون في العلم قال: و لكن الآيات التي وردت في أصول العقيدة، كالايمان باللّه و نفي الشريك عنه، و كالايمان بنبوة محمد (ص) و اليوم الآخر، ان هذه الآيات واضحة المعنى بيّنة القصد، لا التباس فيها و لا غموض، و لا مجال فيها للتأويل، أو التخصيص، أو النسخ، و يستوي في فهمها العالم و الجاهل، و هي في نفس الوقت الأصل و الأساس في كتاب اللّه، لأنها في العقيدة، و ما عداها

يتفرع عنها، و يرجع اليها.

و على هذا فلا وجه، و لا مبرر لوفد نجران اليمن و غيره أن يطلب الآيات المتشابهة، مثل الآية التي وصفت عيسى بأنه روح اللّه، و يتجاهل تلك الآيات

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ١٣

الواضحة التي نفت الربوبية عن عيسى، لا مبرر لمن يتجاهل المحكم، و يطلب المتشابه إلا مرض القلب، و القصد الفاسد.

سؤال ثالث: لما ذا قال: هن أم الكتاب، و لم يقل أمهات الكتاب؟

الجواب: انه أفرد الأم لبيان ان الآيات المحكمات بمجموعها هي ام الكتاب و أصله، و ليست كل آية بمفردها اما، و مثله قوله تعالى: (وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً) و لم يقل آيتين، لأن كلا منهما جزء متمم للآية، فهي لا تكون آية إلا به، و هو لا يكون آية إلا بها.

(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ).

معنى الزيغ هنا الميل و الانحراف عن الحق، و ابتغاء الفتنة اشارة إلى أن أصحاب المقاصد الفاسدة يطلبون المتشابه و يؤلونه تأويلا باطلا ليفسدوا القلوب، و يفتنوا الناس عن دين الحق، و يستشهدوا بمثل قوله تعالى: فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا على أن المسيح من جنس اللّه، لأن كلا منهما روح، و يتجاهلون الآيات المحكمة الواضحة، مثل قوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ- المائدة ١٦. و قوله: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ- المائدة ٧٤، و قوله: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ- آل عمران ٥٩ .. بالإضافة إلى أن اللّه سبحانه نفخ في آدم من روحه، حيث قال عز من قائل: «فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي- الحجر ٢٩». فينبغي أن يكون آدم على زعمهم إلها، و الفرق تحكم.

جاء في مجمع البيان ان أوائل سورة آل عمران الى نيف و ثمانين آية نزلت بوفد نجران، و كانوا ستين راكبا قدموا على رسول اللّه (ص) بالمدينة، و حين حانت صلاتهم أقبلوا يضربون بالناقوس، و قاموا فصلوا في مسجد رسول اللّه، فقال الأصحاب: يا رسول اللّه هذا في مسجدك؟ فقال: دعوهم، فصلّوا إلى المشرق .. و بعد أن انتهوا من الصلاة قال النبي (ص) للسيد و العاقب، و هما رئيسا الوفد: أسلما قالا له: قد اسلمنا قبلك. قال: كذبتما، يمنعكم من الإسلام الزعم بأن للّه ولدا، و عبادة الصليب، و أكل لحم الخنزير.

قالا: ان لم يكن عيسى ابن اللّه فمن أبوه؟ قال: ألا تعلمون ان الولد

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ١٤

يشبه أباه؟ قالوا: بلى. قال: ألا تعلمون ان اللّه حي لا يموت، و ان عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: ألا تعلمون ان اللّه قيم على كل شيء؟

قالوا: بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟ قالوا: لا. قال:

ألا تعلمون ان اللّه لا يأكل و لا يشرب و لا يحدث؟ قالوا: بلى. قال: ألا تعلمون ان عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم أرضعته، و غذي كما يغذى الصبي، و انه كان يأكل و يشرب و يحدث؟ قالوا: بلى. قال: فكيف يكون ربا؟ فسكتوا عجزا و إفحاما، فأنزل اللّه فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع و ثمانين آية.

(وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ). قال بعض الناس، يجب الوقوف عند لفظ الجلالة. أما الراسخون في العلم فكلام مستأنف، و المعنى ان اللّه قد استأثر وحده بعلم المتشابه دون العلماء الراسخين في العلم ..

و يلاحظ على هذا القول بأن اللّه سبحانه حكيم لا يخاطب الناس بأشياء لا يفهمونها، و لا يريد أن يفهموها .. كما سبق بيانه .. و الصحيح ان الراسخين في العلم معطوف على لفظ الجلالة، و ان المعنى يعلم تأويل المتشابه اللّه و الراسخون في العلم، قال الإمام أمير المؤمنين (ع): ذاك القرآن الصامت، و أنا القرآن الناطق، و كان ابن عباس يقول: أنا من الراسخين في العلم، أنا أعلم تأويله ..

و تجمل الاشارة إلى أن العالم الحق هو الذي يحجم عن القول من غير علم، بل من الرسوخ في العلم الاحجام عن القول من غير علم، و في الحديث: الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات.

و تسأل: لما ذا جعل اللّه سبحانه بعض آيات القرآن محكمة يفهمها الجميع، و بعضها متشابهة لا يفهمها إلا الراسخون في العلم، و لم يجعلها واضحة بكاملها، يستوي في فهمها العالم و الجاهل؟.

و أجيب عن هذا السؤال بأجوبة عديدة، أرجحها ان دعوة القرآن موجهة إلى العالم و الجاهل، و الذكي و البليد، و ان من المعاني ما هو معروف و مألوف للجميع، و لا تحتاج معرفته إلى علم و دراسة، فيكشف عنه بعبارة واضحة يفهمها كل مخاطب، و منها ما هو عميق و دقيق لا يفهم إلا بعد الدرس و العلم،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٥

و لا يمكن فهمه من غير مؤهلات لذلك مهما كان التعبير، و هذه حقيقة يعرفها كل انسان .. فالواقع - إذن - هو الذي يحتم أن تكون بعض الآيات ظاهرة المعنى، دون بعض .. بالاضافة الى أن الحكمة تستدعي أحيانا الإبهام، كقوله تعالى، على لسان نبيه في الآية ٢٤ من سورة سبأ: «وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ».

(يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا). هذا كلام مستأنف، و المعنى ان العالم المؤمن حقا يقول: ان كلا من المحكم و المتشابه وحي من اللّه .. و من تجاهل المحكم، و تشبث بالمتشابه ابتغاء الدس و الفتنة فهو فاسد القصد، مريض القلب.

(وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ) الذين يدركون الحكمة من وجود المحكم و المتشابه في القرآن، و لا يتخذون من المتشابه وسيلة للتمويه و التضليل، شأن من يحاول الطعن في الإسلام.

(رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ). دعاء يدعو به كل عالم مخلص خشية أن يقع في الخطأ، و يقصر في البحث عن الصواب.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٠ الى ١٣]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (١٢) قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ أُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَ اللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (١٣)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٦

اللغة:

الوقود بفتح الواو حطب النار، و الدأب العادة، و المهاد الفراش، و الآية العلامة، و العبرة مأخوذة من العبور من جانب الى جانب، و المراد بها هنا العظة، لأنها تنتقل بالإنسان من الجهالة إلى التدبر.

الإعراب:

شيئا مفعول مطلق، لأن المراد به هنا شيء من الإغناء، و كدأب متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير دأبهم كدأب آل فرعون، فئة مرفوع بالابتداء، و الخبر محذوف، أي من الفئتين فئة، و يجوز الجر على انها بدل بعض من فئتين و النصب على الحال، و رأي العين مفعول مطلق ليرونهم.

المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ). من يتتبع آي الذكر الحكيم، و حديثه عن الأثرياء و أرباب المال يرى انه قد وصفهم بأقبح الأوصاف و الرذائل، منها الطغيان، كما جاء في الآية ٦ من سورة العلق: «إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى» و منها الغرور و الجحود: وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً- الكهف ٣٦. و منها الطمع و طلب المزيد:

«وَ جَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً- إلى قوله- ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ- المدثر ١٥.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٧

و منها التوهم الباطل بأن الأموال تصونهم من عذاب اللّه و عقابه: «وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» ٣٥ سبأ.

و دفع اللّه سبحانه هذا التوهم بأن الأموال و الأولاد لا يغنيان صاحبهما شيئا، بل ان الأموال تجعل صاحبها غدا وقودا للنار، تماما كالحطب و الخشب، و قد يظن أهل الباطل ان لهم من أموالهم و أولادهم حماية و وقاية في هذه الحياة، حتى إذا وقفوا مع أهل الحق وجها لوجه في ساحة القتال و الجهاد استبان لهم عجزهم و ضعفهم، لأن اللّه يؤيد الصادقين بنصره، و يذل من هو مسرف كذاب.

أرباب المال:

ما عرف التاريخ أسوأ و أفدح و أعظم من اسواء أرباب المال و الثروات المكدسة في هذا العصر .. انهم يثيرون الفتن و الحروب و يدبرون المكائد و المصائد ضد كل حركة تحررية في أي طرف من أطراف العالم .. فيبثون كتائب العملاء، و وحدات الأساطيل، و جواسيس المخابرات في كل بقعة من بقاع الأرض، ليحوّلوا العالم بكامله إلى شركة مساهمة يملكها أصحاب الملايين .. انهم لا يؤمنون باللّه، و لا بالانسانية، و لا بشيء إلا بالأسهم، تدفع الشعوب أرباحها من خبزها و دمائها و مستقبلها، و يستغلون دولهم لاشاعة الرعب و التخويف و الضغط الاقتصادي و السياسي على الضعفاء، و يعملون بكل سبيل لتجزئة البلد الواحد، و تفتيت الوحدة الوطنية، ليخضع الجميع لاستثماراتهم و احتكاراتهم .. و من أجل هذا حرّم الإسلام الاحتكار، و الثراء غير المشروع، و استخدام القوة و الضغط على الضعفاء، و هدد الذين يكنزون الأموال و لا ينفقونها في سبيل اللّه، و وصفهم بالطغاة العتاة.

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ). أي ان كثرة المال و الولد ليست سببا للفوز و النجاة، فكثيرا ما تغلّب الفقراء على الأغنياء، و القلة على الكثرة، و التاريخ مملوء بالشواهد

على هذه الحقيقة .. فلقد كان لفرعون و قومه الجاه و السلطان، و المال

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٨

و العدة و العدد، و مع ذلك خذلهم اللّه، و نصر موسى و قومه، و لا مال لهم و لا عدة و لا عدد، كما نصر من قبل نوحا على قومه، و ابراهيم على النمرود، و هودا على عاد، و صالحا على ثمود .. فالكثرة و الثروة- اذن- ليستا بضمان و لا أمان، و عليه فالذين كذبوا محمدا (ص) معرّضون لنفس المصير.

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلىٰ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ). جاء في مجمع البيان ان اللّه سبحانه لما نصر نبيّه ببدر قدم المدينة، و جمع اليهود، و قال لهم: احذروا من اللّه أن يصيبكم ما أصاب قريشا ببدر، و أسلموا .. فقالوا: لا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب، و لو قاتلناك لعرفت أنّا نحن الناس، فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية. و قد صدق اللّه وعده، فقتل المسلمون بني قريظة الخائنين، و أجلوا بني النضير المنافقين، و فتحوا خيبر، و ضربوا الجزية على من عداهم من اليهود.

(قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ أُخْرىٰ كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَ اللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ). وعظ اللّه بهذه الآية اليهود و النصارى و المسلمين و أولي الأبصار أجمعين، و عظهم بوقعة بدر، حيث التقى حزب الرحمن، و هم محمد و أصحابه، مع حزب الشيطان، و هم أبو سفيان و أذنابه، و مكان العظة في هذه الواقعة ان حزب الشيطان كانوا أكثر من ألف مدججين بالسلاح الكافي الوافي، و كان حزب الرحمن بمقدار ثلثهم عددا، لا يملكون من العدة إلا فرسين، و سبعة أدرع، و ثمانية سيوف، و مع ذلك كتب اللّه النصر للفئة القليلة على الفئة الكثيرة، و أرى اللّه المشركين ان المسلمين مثليهم مع قلة عددهم، و هذه الآية نظير الآية ٤٤ من سورة الأنفال: «وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَ إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ». و أمر اللّه سبحانه هو أن يتخاذل المشركون، و يهابوا المسلمين، و ينصرهم اللّه على أعدائه.

و بهذه المناسبة نذكر نصيحة الإمام علي (ع) للخليفة الثاني حين استشاره في غزو الروم بنفسه، قال الإمام:

«الذي نصر المسلمين، و هم قليل لا ينتصرون، و منعهم، و هم قليل لا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٩

يمتنعون حي لا يموت، انك متى تسر الى هذا العدو بنفسك، فتلقهم بشخصك فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم، ليس بعدك مرجع يرجعون اليه، فابعث اليهم رجلا مجربا، و احفز معه أهل البلاء و النصيحة، فان أظهر اللّه فذاك ما تحب، و ان تكن الأخرى كنت ردءا للناس، و مثابة للمسلمين».

[سورة آل‌عمران (٣): آية ١٤]

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)

المعنى:

زين مبني للمجهول، و قد اختلف المفسرون في فاعل التزيين من هو؟ فمنهم من قال: انه اللّه. و قال آخرون: بل هو الشيطان. و الصحيح ان اللّه سبحانه أنشأ الإنسان على طبيعة تميل إلى اللذائذ و الرغبات .. و الشيطان يوسوس و يحسّن

للإنسان الأعمال القبيحة، و يقبّح له الأعمال الحسنة، و حب النساء و البنين و المال ليس قبيحا في ذاته، و اللّه سبحانه لم يحرّم شيئا من هذه الأنواع الستة، و لم يرد بهذه الآية التنفير منها .. كيف؟ و هو القائل: قل أحل لكم الطيبات ..

قل من حرم زينة اللّه التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق .. و قال الرسول الأعظم (ص): أحب من دنياكم ثلاثا: الطيب و النساء و قرة عيني الصلاة؟!.

و المراد بالشهوات هنا الأشياء المرغوب فيها التي يشتهيها الإنسان، و يشعر بالغبطة و السعادة إذا حصل عليها، كما يريد.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٠

و تسأل: ان الشهوة تتضمن معنى الحب، كما ان الحب يتضمن معنى الشهوة، و عليه يكون معنى الآية ان الناس يحبون الحب، و يشتهون الشهوة ..

و مثل هذا ليس بمستقيم، و كلام اللّه يجب أن يحمل على أحسن المحامل؟.

الجواب: ان حب الإنسان للشيء على نوعين: الأول أن يحبه، و لا يحب ان يحبه، أي انه يود من أعماق نفسه لو انقلب حبه لهذا الشيء كرها و بغضا، كمن اعتاد على مشروب ضار، و هذا يوشك أن يرجع عن حبه يوما ..

النوع الثاني: ان يحب الشيء، و هو راض، و مغتبط بهذا الحب، كمن اعتاد على فعل الخير، قال تعالى حكاية عن سليمان: إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ- ٣٢ صاد. و هذا أقصى درجات الحب، و صاحبه لا يكاد يرجع عنه.

و القناطير المقنطرة كناية عن الكثرة، و في الحديث: لو كان لابن آدم و اديان من ذهب لتمنى لهما ثالثا، و لا يملأ جوفه إلا التراب .. اما الخيل المسومة فقيل: هي الراعية من السوم. و قيل: المعلّمة بالزينات. و الأرجح انها المطهمة الحسان. و بديهة ان زمن الخيل قد ولّى، و جاء زمن السيارة و الطيارة ..

و المراد بالانعام الإبل و البقر و الغنم .. و هذه أيضا قد ذهب التكاثر و التفاخر بها، و جاء زمن المصانع و ناطحات السحاب .. و الحرث الزرع على اختلاف أنواعه.

و حب الثلاثة: النساء و البنين و الأموال لا يختص بعصر دون عصر، بل هي شهوة كل النفوس في كل عصر، أما حب الخيل و الانعام و الحرث فقد خصها اللّه بالذكر لأنها كانت مثلا أعلى للرغائب في ذاك العصر.

و قد أطال كثير من المفسرين، و منهم الرازي و صاحب المنار، أطالوا في ذكر ما لكل واحد من الأنواع الستة من اللذة و المتعة .. و لكنهم أتوا بالبديهيات التي يعرفها و يحسها الجميع، لذا لم نشغل أنفسنا و القارئ بها .. و رأينا من الأفضل ان نتكلم عن السعادة في الفقرة التالية.

السعادة:

يرى بعض المؤلفين ان السعادة تتم للإنسان إذا توافرت له هذه الأركان

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢١

الأربعة: الصحة، و الزوجة الملائمة، و المال الذي يسد الحاجة، و الجاه الذي يحفظ الكرامة .. و أحسب ان صاحب هذا الرأي قد نظر الى السعادة من خلال نفسه و حاجته، لا من خلال الواقع .. و إلا فأين الشعور بمشاكل العالم، و آلام الناس؟. و أين الخوف من الوقوع في الأخطاء، و من سوء العاقبة و المصير؟.

و أين حملات الكذب و التشهير؟. إلى ما لا نهاية من الهموم التي تتكدس و تتراكم على القلب.

و الحق ان السعادة المطلقة في كل شيء و سائر الأحوال لم تتحقق لإنسان ..

و أحسب انها لن تتحقق إلا في غير هذه الحياة .. أما السعادة نسبيا و آنيا فقد مرت بكل انسان، و لو في عهد طفولته .. و من المفيد أن نوضح السعادة النسبية بالبيان التالي:

ان للاستمتاع بالحياة مظاهر شتى، منها التمتع بالربيع و الأشجار، و الشلالات و الأنهار، و منها تذوق الشعر و الفن، و منها الاطمئنان و الخلود الى الزوجة و الصديق، و منها التلذذ بالحديث و المطالعة، إلى غير ذلك من المتع و اللذائذ الروحية.

و من مظاهر المتع المادية النساء و المال و البنون، أما الخيل و الانعام و الحرث فتدخل في المال، لأنها من جملة أقسامه و أفراده، تماما كالذهب و الفضة، و لكن هذه اللذائذ و الرغائب بشتى مظاهرها لا تحقق السعادة المطلقة للإنسان، لأن الدنيا لا تصفو لأحد من جميع الجهات .. فان كان في يسر من العيش شكا الأمراض و الاسقام، و ان جمع بين الصحة و الثراء شكا من بيته أو أرحامه قال الإمام أمير المؤمنين (ع): «و ان جانب منها اعذوذب و احلولى أمرّ منها جانب فأوبى، لا ينال امرؤ من غضارتها رغبا إلا أرهقته من نوائبها تعبا».

أما السعادة النسبية، أي في حال دون حال، فلا يخلو منها إنسان. و خير مثال يوضح هذه السعادة ما قرأته في بعض الكتب، قال صاحب الكتاب:

«خرجت عائلة الى النزهة، فيها نساء و أطفال، و عم و خال، و أب وجد ..

و لما بلغوا جميعا المتنزه تقلب طفل على العشب، و نضد آخر عقودا من الأقحوان، و صنعت الأم شطيرة و سندويش، و نهش العم تفاحة ذات ماء، و أدار الخال اسطوانة على الحاكي، و تمدد الأب على الثرى، يتطلع إلى قطيع من الغنم،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٢

و استغرق الجد في تدخين غليونه».

ان كل واحد من هؤلاء استشعر الغبطة من نفسه، و لكن في هذا الحال، لا في سائر الأحوال، لأن الحكمة الإلهية قضت أن لا توجد هذه السعادة إلا في الحياة الآخرة .. و لأجل هذا قال عز من قائل بعد ذكر النساء و البنين و الأموال: «قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ».

و رأيت رواية عن الإمام جعفر الصادق (ع) تعتبر التوفيق الإلهي ركنا من الأركان الأساسية للسعادة، و قد أدركت هذه الحقيقة بالحس و التجربة.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٥ الى ١٧]

قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ أَزْوٰاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوٰانٌ مِنَ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنٰا إِنَّنٰا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنٰا ذُنُوبَنٰا وَ قِنٰا عَذٰابَ النّٰارِ (١٦) الصّٰابِرِينَ وَ الصّٰادِقِينَ وَ الْقٰانِتِينَ وَ الْمُنْفِقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحٰارِ (١٧)

الإعراب:

اؤنبئكم الهمزة للاستفهام، و الشيء المستفهم عنه ينتهي عند قوله تعالى **(عِنْدَ رَبِّهِمْ)** و جنّات كلام مستأنف، كأنه قيل: ما هو ذاك الخير؟. فقيل:

هو جنات، فجنات خبر مبتدأ محذوف، و الذين يقولون ربنا محل نصب على

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٣

المدح، أي أعني أو امدح الذين الخ، و مثله الصابرين، و بقية الصفات معطوفة على الصابرين.

المعنى:

(قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ أَزْوٰاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوٰانٌ مِنَ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ بَصِيرٌ بِالْعِبٰادِ).

ذكر سبحانه أولا حب الناس للنساء و المال و البنين، ثم نعت هذه الأشياء و ما اليها بمتاع الحياة الدنيا، و الدنيا بما فيها الى زوال، ثم بيّن ان اللّه عنده حسن المآب، أي ان الإنسان بعد رجوعه إلى ربه يجد عنده خيرا من النساء و المال و البنين، و من الدنيا كلها، ثم فصّل في هذه الآية، و هي: قل اؤنبئكم الخ ما أجمله في الآية السابقة، و هو قوله: «وَ اللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ».

(جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا وَ أَزْوٰاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوٰانٌ مِنَ اللّٰهِ). هذه الثلاثة هي خير من النساء و المال و البنين، و هي حسن المآب: الأول منها جنات لا تزول كالحرث و الخيل و الانعام، الثاني: أزواج مطهرة من الحيض و الأحداث و الأخباث، و من كل ما تنفر النفوس منه، الثالث:

رضوان اللّه، و هو أكبر و أعظم من الدنيا و الآخرة مجتمعتين، كل ذلك جعله اللّه جزاء لمن خاف مقام ربه، و نهى النفس عن الهوى.

(الصّٰابِرِينَ وَ الصّٰادِقِينَ وَ الْقٰانِتِينَ وَ الْمُنْفِقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحٰارِ) الصابر هو الذي يكافح و يناضل متكلا على اللّه، و يرضى بنتيجة كفاحه مهما تكن، و الصادق هو الذي يؤثر الصدق، حيث يضره على الكذب، حيث ينفعه، و القانت هو العابد المطيع، و المنفق هو الذي ينفق أمواله على نفسه و عياله، و في سبيل اللّه، و السحر هو الوقت الذي قبل الفجر، و هو خير الأوقات كلها للعبادة و الدعاء، كما جاء في الحديث، لأنه أبعد عن شبهة الرياء، و لأنه الوقت الذي يطيب فيه النوم، و يشق القيام، و أفضل الأعمال أشقها و أحمزها، مع العلم بأن خدمة الإنسان أفضل من عامة الصلاة و الصيام.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٤

ثمرة الإيمان:

و هذه الأوصاف الخمسة، أي الصبر و الصدق و القنوت و الإنفاق و الاستغفار هي ثمرة لأصول الدين الثلاثة، و أعني بها الإيمان باللّه الواحد الأحد، و نبوة محمد (ص) و باليوم الآخر. ان هذه الأصول ليست مجرد شعار ديني يرفعه الإسلام، و يكتفي به، بل لها ثمرات و حقائق يجمعها الخلق الكريم، و العمل النافع في الحياة، قال تعالى: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ- ٢٣ الأنفال. ان كل أصل من أصول الإسلام، و كل فرع من فروعه يقوم على هذا المبدأ، مبدأ ربط الدين بالعمل من أجل الحياة:

فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كٰانُوا يَعْمَلُونَ- ٩٢ الحجر. أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمّٰا يَعْلَمِ اللّٰهُ الَّذِينَ جٰاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصّٰابِرِينَ- ١٤٢ آل عمران.

و تواتر في الحديث ان أفضل أنواع العبادات و الطاعات هو العمل لحياة أفضل، و ان أكبر الكبائر و المعاصي هو الفساد و العدوان على العباد، قال الرسول الأعظم (ص): أقرب ما يكون العبد الى ربه إذا أدخل على قلب أخيه مسرة ..

و قال الإمام أمير المؤمنين (ع): بئس الزاد الى المعاد العدوان على العباد، و قال حفيده الإمام الباقر (ع): ان للّه عبادا ميامين يعيشون و يعيش الناس في أكنافهم، و هم في عباده مثل القطر، و ان للّه عبادا ملاعين يعيشون و لا يعيش الناس في أكنافهم، و هم في عباده بمنزلة الجراد، لا يقعون على شيء الا أتوا عليه.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٨ الى ٢٠]

شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (٢٠)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٥

اللغة:

شهد الشيء إذا حضره، و شهد بالشيء إذا أخبر به، و لكن كثر استعمال كلمة شهد في أداء الشهادة، فانصرفت إلى هذا المعنى وحده، الا مع القرينة، و القسط العدل، و حاجّوك من الحجاج، و معناه الجدال.

الإعراب:

قائما حال من اسم اللّه، و بغيا مفعول من أجله لاختلف، و اتّبعن أصلها بالياء، و حذفت للتخفيف و من فاعل لفعل محذوف، و التقدير و أسلم من اتبعني، و لا يجوز أن تكون مفعولا معه، لأن وجهي مفعول به لأسلمت، فيلزم أن يكون التابع للرسول (ص) شريكا له في وجهه.

المعنى:

(شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). شهادة اللّه لنفسه بالوحدانية عبارة عن أفعاله التي لا يقدر عليها إلا هو، قال تعالى: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٦

الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ- ٥٣ فصلت. أما شهادة الملائكة للّه بالوحدانية فلأنهم مفطورون على الايمان. و المراد بأولي العلم هنا الأنبياء و جميع العلماء باللّه الذين أقامهم مقام الأنبياء في الدعوة اليه سبحانه، و شهادة العالم تقترن بالحجة التي من شأنها أن تقنع طالب الحقيقة، و المراد بالقسط في قوله: **(قائِماً بِالْقِسْطِ)** العدل في الدين و الشريعة، و في سنن الطبيعة و نظامها، قال تعالى: «وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ- ١٦ الأنبياء».

و تسأل: ما هو الغرض من تكرار **لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ** في آية واحدة؟

الجواب: ان المعروف من طريقة القرآن أن يكرر و يؤكد أصول العقيدة و المبادئ الهامة بخاصة الوحدانية دفعا لكل شبهة، و تكلمنا عن التكرار بفقرة مستقلة عند تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة، و قيل: ان الغرض من قوله أولا: لا إله إلا هو ان يعلم انه هو وحده يستحق العبادة، و من قوله ثانية:

لا إله إلا هو ان يعلم انه لا أحد يقوم بالعدل سواه.

ان الدين عند اللّه الإسلام:

و تسأل: ان ظاهر هذه الآية يدل على ان جميع أديان الأنبياء، حتى دين ابراهيم و غيره من الأنبياء ليست بشيء عند اللّه الا دين محمد فقط، مع العلم بأن كل ما جاء به الأنبياء حق و صدق باعتراف محمد (ص) و القرآن؟.

الجواب: ان هذه الآية تدل تماما على العكس مما تقول، فإن ظاهرها ينطق بلسان مبين أن كل دين جاء به نبي من الأنبياء السابقين يتضمن في جوهره الدعوة الاسلامية التي دعا اليها محمد بن عبد اللّه (ص). و اليك هذه الحقائق الثلاث:

١- ان الإسلام يرتكز قبل كل شيء على أصول ثلاثة: الايمان باللّه و وحدانيته، و الوحي و عصمته، و البعث و جزائه .. و كلنا يعلم علم اليقين، و يؤمن ايمانا لا يشوبه ريب بأن اللّه سبحانه ما أرسل نبيا من الأنبياء الا بهذه الأصول، لاستحالة تبديلها أو تعديلها، و لذا قال الرسول الأعظم (ص): «إنّا معاشر

الأنبياء ديننا واحد» .. و قال: «الأنبياء اخوة لعلات، أبوهم واحد، و أمهاتهم شتى.»

٢- ان لفظ الإسلام يطلق على معان، منها الخضوع و الاستسلام، و منها الخلوص و السلامة من الشوائب و الأدران، و ليس من شك ان كل دين جاء به نبي من أنبياء اللّه فهو خالص و سالم من الشوائب، و على هذا يصح أن نطلق اسم الإسلام على دين الأنبياء جميعا.

٣- ان مصدر القرآن واحد لا اختلاف بين آياته كثيرا و لا قليلا، بل ينطق بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض- كما قال الإمام علي (ع)- فإذا وردت فيه آية في مسألة من المسائل، أو موضوع من الموضوعات فلا يجوز أن ننظر اليها مستقلة، بل يجب أن نتتبع كل آية لها صلة بتلك المسألة، و ذاك الموضوع، و نجمعها جميعا في كلام واحد، معطوفا بعضها على بعض، ثم نستخرج معنى واحدا من الآيات المتشابكة، مجتمعة لا متفرقة «١».

و إذا نظرنا الى الآيات المشتملة على لفظ الإسلام في ضوء هذه الحقائق نجد أن اللّه سبحانه قد وصف جميع الأنبياء بالإسلام في العديد من الآيات، و بذلك نعلم ان الحصر في قوله تعالى: «**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاٰمُ**» هو حصر لجميع الأديان الحقة بالإسلام، لا حصر للإسلام بدين دون دين من الأديان التي جاء بها الأنبياء من عند اللّه .. و السر في ذلك ما أشرنا اليه من أن جميع أديان الأنبياء تتضمن الدعوة الاسلامية في حقيقتها و جوهرها، عنيت الإيمان باللّه و الوحي و البعث .. و التنوع و الاختلاف انما هو في الفروع و الأحكام، لا في أصول العقيدة و الإيمان.

و تعال معي الآن لنقرأ الآيات التي وصف بها اللّه أنبياءه بالإسلام من عهد

---

(١) و أوضح مثال على ذلك ما ذكرناه عند تفسير الآية ٧ من هذه السورة .. فقد وصف اللّه سبحانه كتابه بأن جميع آياته محكمة، حيث قال في الآية ١ من سورة هود: «**كِتٰابٌ أُحْكِمَتْ آيٰاتُهُ**».

و وصفه بأن آياته كلها متشابهة في الآية ٢٣ الزمر: «**اللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتٰاباً مُتَشٰابِهاً**» **و وصف بعض آياته بالمحكمة و بعضها بالمتشابهة بقوله: مِنْهُ آيٰاتٌ مُحْكَمٰاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتٰابِ وَ أُخَرُ مُتَشٰابِهٰاتٌ- آل عمران ٧. انظر تفسير هذه الآية لترى وجه الجمع.**

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٨

نوح (ع) إلى عهد محمد (ص). قال تعالى في حق نوح: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ- إلى قوله- وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ- يونس ٧٢.

و قال تعالى في ابراهيم و يعقوب: «وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ. وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا. وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ .. وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ- ١٣٣ البقرة».

و قال عن يوسف: «أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ- ١٠١ يوسف».

و قال عن موسى: «وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ- ٨٤ يونس.»

و قال عن أمة عيسى: «وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ- ١١١ المائدة».

و الآية التي هي أصرح من الكل، و تعم الأولين و الآخرين من الأنبياء و تابعيهم، و تابعي التابعين قوله تعالى في الآية ٨٥ من سورة آل عمران: «وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ». و إذا لم يقبل اللّه إلا من المسلمين، و قد قبل من آدم و نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و جميع النبيّين، و التابعين لهم بإحسان فتكون النتيجة الحتمية ان النبيين من عهد آدم، حتى محمد (ص) و المؤمنين بهم كلهم من المسلمين.

قال الإمام علي (ع): الإسلام هو التسليم، و التسليم هو اليقين، و اليقين هو التصديق، و التصديق هو الإقرار، و الإقرار هو الأداء، و الأداء هو العمل.

(وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ). قيل:

المراد بأهل الكتاب هنا اليهود. و قيل: بل النصارى. و قيل: هما معا، و هو الصواب، لأن اللفظ عام، و لا دليل على التخصيص، و يؤيد العموم ان اللّه سبحانه أشار إلى اختلاف النصارى بعضهم مع بعض في الآية ١٤ من سورة المائدة: «وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٩

فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ». و أشار إلى اختلاف اليهود في الآية ٦٤ من السورة المذكورة: «وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ- الى قوله- وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ».

و من الأمور التي اختلف فيها اليهود الحياة بعد الموت .. فبعض فرقهم تقول:

لا بعث أبدا لا في هذه الحياة، و لا في غيرها، و ان عقاب المسيء، و ثواب المحسن يحصلان في هذه الحياة. و تقول فرقة أخرى: ان الصالحين من الأموات ينشرون في هذه الأرض ثانية، ليشتركوا في ملك المسيح الذي يأتي في آخر الزمن، كما نقل عنهم، الى غير ذلك من الاختلافات.

أما العقيدة المسيحية فقد تطورت، و اجتازت أكثر من مرحلة قبل أن تستقر على التثليث، فقد كانت في البدء تدعو الى عبادة إله واحد، ثم انقسم المسيحيون فرقتين: فرقة جنحت الى الشرك، و فرقة بقيت على التوحيد، ثم اختلفوا فيما بينهم: هل لعيسى طبيعتان: إلهية، و اخرى ناسوتية، أو طبيعة إلهية فقط؟

إلى غير ما هو مسطور في كتب تاريخ الأديان، و قد أدت الاختلافات الدينية المسيحية الى مجازر لا مثيل لفظاعتها في

تاريخ الانسانية.

و لم يكن اختلاف كل من اليهود و النصارى فيما بينهم عن جهل بالحقيقة، فقد جاء اليهود العلم بالبعث و النشر، كما جاء النصارى العلم بأن عيسى عبد من عباد اللّه، و لكنهم اختلفوا لارادة العلو في الأرض بالبغي و الفساد.

تفترق أمتي ٧٣ فرقة:

اشتهر عن النبي (ص) انه قال: افترقت اليهود على احدى و سبعين فرقة، و افترقت النصارى على اثنتين و سبعين فرقة، و تفترق أمتي على ثلاث و سبعين فرقة.

و قد كثر الكلام و طال حول هذا الحديث، فمن قائل: انه ضعيف لا يعول عليه. و قائل: انه خبر واحد، و هو ليس بحجة في الموضوعات. و قال ثالث:

إن «كلها في النار» من دسائس الملاحدة للتشنيع على المسلمين. و رواه رابع

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٠

بلفظ «كلها في الجنة الا الزنادقة». و نحن على شك من هذا الحديث، لأن الأصل عدم الأخذ بما ينسب الى الرسول (ص) حتى يثبت العكس .. و لكن إذا خيّرنا بين: كلها في النار، و بين: كلها في الجنة، نختار الجنة على النار .. أولا انها أقرب الى رحمة اللّه. ثانيا ان الفرق الإسلامية على أساس الاختلاف في الأصول لا تبلغ ٧٣، و الاختلاف في الفروع لا يستدعي الدخول في النار، لأن الخطأ فيها مغتفر إذا حصل مع التحفظ، و بعد الجد و الاجتهاد .. و ما أبعد ما بين هذا الحديث المنسوب إلى النبي (ص) و قول ابن عربي في كتاب الفتوحات:

لا يعذّب أحد من أمة محمد (ص) ببركة أهل البيت .. (أنظر تفسير الآية ٣٩ من سورة البقرة، فقرة أهل البيت).

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ) .. كثيرا ما يبتلى العالم المحق بالمبطل اللجوج .. و لا دواء لهذا الا الإعراض عنه .. و من خاصم المشاكس المشاغب شاركه في الإثم. قال الإمام علي (ع): من بالغ في الخصومة أثم .. و من أجل هذا، أمر اللّه نبيه الكريم أن يترك المبطلين المعاندين و شأنهم، حيث لا مزيد من البينات و البراهين، «انما عليك و علينا الحساب».

(قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ) أي اليهود و النصارى **(وَ الْأُمِّيِّينَ)** أي مشركي العرب، و نسبهم اللّه الى الأمية لجهلهم بالقراءة و الكتابة الا النادر **(أَ أَسْلَمْتُمْ)** بعد ما جاءتكم البينات **(فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا)**. حيث لا شيء وراء الإسلام الا الكفر و الضلال، و الا الزيغ و الباطل **(وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ)**.

و بالبلاغ تنتهي وظيفة الرسول عن اللّه، إذ به تتم الحجة (وَ اللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ) يعامل كلا بما هو أهل له.

و الذي نستفيده من هذه الآية ان اللّه سبحانه قد اختار محمدا (ص) لرسالته، و انه قد رسم له منهجا لتبليغها، و هو الدعوة بالحجة و البرهان، مع ضبط النفس، و تجنّب الخصومة مع اللجوج المعاند، و بهذا الأسلوب الحكيم تتم الحجة على من خالف و عاند، و لم يبق له من عذر يتشبث به، و يلجأ اليه .. و أولى الناس باتباع الرسول و السير على منهجه هم أهل العلم بدينه و شريعته، الداعون الى الأخذ بتعاليمه و سنته.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣١

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٢١ الى ٢٣]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)

المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ). و تسأل: ان الشرائع بكاملها السماوية و الوضعية تحرم القتل، بل جميع الناس يرون القاتل مجرما، بخاصة إذا كان المعتدى عليه من أهل الخير و الصلاح، و على هذا يكون الاخبار بأن القاتل مجرم يستحق العذاب و العقاب أشبه بتوضيح الواضحات، مع العلم بأن كلام اللّه يجب أن يحمل على أحسن المحامل؟

الجواب: ان المقصود بالآية اليهود و النصارى الذين كانوا في عهد النبي (ص)، و رفضوا الإسلام. و قد أشارت الآية إلى أنه لا غرابة في رفضهم و عنادهم للإسلام ..

لأن أسلاف اليهود قتلوا الأنبياء كزكريا و يحيى، و أسلاف النصارى قتلوا من جاهر بالوحدانية و بشرية المسيح، قتلوهم لا لشيء إلا لأنهم أمروا بالقسط و العدل و عملوا به، فالآية تقريع و توبيخ، كما هي تهديد و وعيد.

سؤال ثان: ان القتل لم يقع من أهل الكتاب الذين كانوا في زمن محمد (ص) فكيف صحت نسبته اليهم؟

الجواب: سبق أكثر من مرة ان الأمة في تكافلها تجري مجرى الشخص الواحد، و ان الخلف قد رضي بفعل السلف، و من رضي بفعل قوم شاركهم فيه، و كثيرا ما يضاف صنع الأب الى الابن.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٢

سؤال ثالث: ان قتل الأنبياء لا يكون الا بغير حق، فما الفائدة من هذا القيد؟

الجواب: للاشارة الى أن فظاعة قتل الأنبياء لم تكن لمكانتهم و عظمتهم، بل لأنه لا مبرر له إطلاقا .. و بكلمة ان المسألة ليست مسألة أشخاص و فئات، و انما هي مسألة حق و عدم حق.

(أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ). أما الحبط في الدنيا فلأنهم ملعونون على كل لسان، لما تركوه من سوء الآثار، و أما في الآخرة فلأنهم معاقبون.

الأمر بالمعروف مع خوف الضرر:

ذكر الفقهاء للأمر بالمعروف و النهي عن المنكر شروطا، منها أن لا يخاف الآمر الضرر على نفسه و أهله و ماله .. و بعض الفقهاء أنكر هذا الشرط، و أوجب الأمر بالمعروف، و ان أدى الى القتل، و استدل بهذه الآية، و وجه الدلالة بزعمه ان الأنبياء قد أمروا بالمعروف، و نهوا عن المنكر، و قتلوا في هذه السبيل بشهادة القرآن الكريم.

و الذي نراه ان للأنبياء في التبليغ عن اللّه شأنا غير شأن العلماء، لأنهم يقدمون و يحجمون بوحي من اللّه سبحانه، فإذا قتلوا في سبيل التبليغ فإنهم قد أقدموا بأمر منه تعالى، أما العلماء فيعتمدون على ما يفهمونه من مدارك الأحكام و مصادرها، و الذي نفهمه نحن من هذه الأدلة و المصادر ان أي انسان يسوغ له السكوت عن المنكر إذا غلب على ظنه ان الإنكار لا يحقق أية فائدة دينية، و في الوقت نفسه يؤدي الى المضرة و المفسدة.

أما إذا غلب على ظنه ان وجود المنفعة الدينية من الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، مع تضرره منه فتجب، و الحال هذه، المقارنة بين دفع الضرر عن النفس، و بين المنفعة المترتبة على الأمر و النهي، فإن كانت المنفعة الدينية أهم، كالقضاء على الكفر و الظلم و الفساد في الأرض جاز تحمّل الضرر في هذه السبيل،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٣

و قد يجب .. و ان كان دفع الضرر عن النفس أهم من انكار المنكر، كالنهي عن أكل المتنجس- مثلا- جاز الاحجام دفعا للضرر، و قد يجب، فالمسألة، اذن، تختلف باختلاف الموارد، و بهذا يتبين معنا ان قياس غير الأنبياء على الأنبياء في هذا المقام قياس مع وجود الفارق .. و قد نعود الى الموضوع بمناسبة ثانية.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٢٣ الى ٢٥]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلىٰ كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّٰارُ إِلاّٰ أَيّٰاماً مَعْدُودٰاتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذٰا جَمَعْنٰاهُمْ لِيَوْمٍ لاٰ رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ (٢٥)

الإعراب:

جملة يدعون حال من الضمير في أوتوا، و جملة هم معرضون حال مؤكدة من يتولى فريق، لأن التولي معناه الاعراض، و يجوز معدودة و معدودات و كلاهما ورد في القرآن الكريم، و تقول جبال شامخة و شامخات، و كيف خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير كيف حالهم، لأن كيف موضوعة للسؤال عن الأحوال، لا عن الأعيان.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٤

المعنى:

(أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلىٰ كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلّٰى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ). قال المفسرون: المقصود من الذين أوتوا نصيبا من الكتاب هم اليهود، و إنما قال هنا أوتوا نصيبا من الكتاب، و لم يقل أوتوا الكتاب، أو أهل الكتاب، كما في الكثير من الآيات، لأن اليهود الذين حاجوا النبي (ص)، و دعاهم الى التوراة لتحكم بينهم لم يحفظوا كل ما فيها، و إنما حفظوا بعضا منها، كما قال كثير من المفسرين، أو حفظوا ألفاظ التوراة، و لم يتدبروا معانيها، كما قال الشيخ محمد عبده.

و كثيرون هم الذين يدعون الايمان بالكتب السماوية و القيم الانسانية، و لا يعملون بها، و إذا احتج عليهم بما يؤمنون توانوا أو تأولوا، و الأمثلة على ذلك لا تحصيها كثرة، منها: ان الذين أثاروا الحروب و قتلوا الملايين يزعمون انهم من أنصار السلام.

و منها: ان الدول التي اضطهدت الأحرار و الملونين تدعي الايمان بالحق و العدالة.

و منها: اليهود الذين دعاهم النبي (ص) إلى كتابهم و توراتهم، و قال لهم:

هلموا اليها، فإن فيها صفتي، فاعرضوا و عاندوا .. فنزلت هذه الآية: «**يُدْعَوْنَ إِلىٰ كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلّٰى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ**».

و قال جماعة من أهل التفسير: انها نزلت في يهودي زنى بيهودية، و اختلف اليهود في أمرهما الى فريقين: فريق أراد الرجم، و فريق أراد التخفيف، و لما اشتد بينهم النزاع تحاكموا الى النبي (ص)، فحكم بالرجم، فرفض الفريق الذي لا يتفق الرجم مع أهوائهم، فدعاهم النبي (ص) الى حكم التوراة التي نصت على الرجم فتولوا، و هم معرضون.

و مهما يكن سبب النزول، فان الآية جارية و شاملة لكل من أعلن شعارا، ثم تجاهله، و أعرض عنه عند العمل، لأن العبرة

بالأعمال، لا بالسمات و الشعائر، قال الإمام علي (ع): لن يفوز بالخير الا عامله، و لا يجزى جزاء الشر الا فاعله.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٥

(ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّٰارُ إِلاّٰ أَيّٰاماً مَعْدُودٰاتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ). لقد سجل اللّه على اليهود في كتابه العزيز ألوانا من القبائح و الرذائل .. منها: قتلهم الأنبياء الذي ذكره في العديد من الآيات. و منها عبادتهم العجل. و منها: قولهم: لن يدخل الجنة الا من كان هودا. و منها:

انهم أبناء اللّه و أحباؤه. و منها: زعمهم بأن النار لن تمسهم الا قليلا.

و نقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده انه قال: «ليس في كتب اليهود التي بين أيديهم وعد بالآخرة و لا وعيد» .. و نقل عن اليهود عدم ايمانهم بالآخرة كثيرون من أهل التتبع و التثبت، و هذا النقل يتنافى مع قول القرآن عنهم: لن تمسنا النار الا أياما معدودات، و قولهم: لن يدخل الجنة الا من كان هودا .. و غير بعيد أن أسلاف اليهود كانوا مؤمنين بالآخرة، ثم حرّف الخلف و حذف من كتبهم الدينية كل ما له صلة بالآخرة .. و في تفسير المنار نقلا عن الشيخ عبده أيضا ان الباحثين الأوروبيين أثبتوا ان التوراة كتبت بعد موسى (ع) بمئات السنين.

و أغرب من كل ذلك ادعاء اليهود بأن اللّه متحيز لهم، و انه لهم وحدهم، و انه خلق من عداهم من الناس لخدمتهم و مصلحتهم، تماما كالحيوانات .. و من أجل هذا يسمّون أنفسهم بشعب اللّه المختار ..

و بصرف النظر عن استحالة هذا الزعم و بطلانه بحكم العقل فإنه رجم بالغيب، و تحكّم على اللّه، حيث لا يعرف أمر من أمور الغيب الا بوحي من اللّه تعالى، و قد نطق الوحي بلعنهم و خزيهم و عذابهم، و سيتجلى لهم هذا الخزي و العذاب في يوم لا حيلة لهم في دفعه .. و الى هذا أشار سبحانه بقوله: (فَكَيْفَ إِذٰا جَمَعْنٰاهُمْ لِيَوْمٍ لاٰ رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ). فلا ينقص من ثواب المطيع شيئا، و قد يزداد، و لكن لا يزاد أبدا على عقاب العاصي، و قد ينقص العقاب، بل قد يعفو اللّه و يصفح.

و اني على علم اليقين بأن من رجا اللّه في دنياه هذه، و لم يرج سواه، متكلا عليه وحده في النوائب مهما تكن النتائج، مؤمنا ان من عداه ليس بشيء الا أن يكون وسيلة و أداة، انا على يقين ان هذا سيجد عند اللّه ما يرضيه لا محالة برغم ما له من سيئات و هفوات.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٦

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٢٦ الى ٢٧]

قُلِ اللّٰهُمَّ مٰالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشٰاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشٰاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشٰاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشٰاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهٰارِ وَ تُولِجُ النَّهٰارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشٰاءُ بِغَيْرِ حِسٰابٍ (٢٧)

الإعراب:

اللهم، أي يا اللّه، و مالك الملك منصوب على أنه منادى ثان، أي يا مالك الملك، و من في من تشاء مفعول ثان لتؤتي، و بيدك الخير مبتدأ و خبر، و الجملة حال من الضمير في تؤتي.

المعنى:

ان ظاهر الآية ينطبق تماما على حال المسلمين في بدء الدعوة الاسلامية، حيث لم يكن لهم آنذاك شيء من الملك و عزة السلطان، فلقد بدأ الإسلام غريبا، كما قال رسول اللّه (ص)، و كان الملك و السلطان موزعا بين الفرس و الروم ..

و بعد أن جاء نصر اللّه انعكست الآية، و أصبح الذليل عزيزا، و العزيز ذليلا، و صار الفرس و الروم محكومين للمسلمين بعد أن كانوا حاكمين، و المسلمون حكاما بعد أن كانوا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس، و تحققت ارادة اللّه تعالى التي بيّنها بقوله: «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ- القصص ٥.

(قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ). المراد بملك اللّه للملك قدرته على كل شيء، فكأنه قال: اللّه مالك القدرة، و انما أطلق لفظ الملك على القدرة، لأن أبرز

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٣٧

آثار الشيء المملوك هي قدرة المالك على التصرف فيه، و لا أحد يقدر على شيء، أو يملك شيئا إلا أن يملكه اللّه إياه، و يمنحه القدرة عليه .. شأن الممكن مع الواجب: «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ». **(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ)**. و قد أعطاه المسلمين الأول، حين استجابوا لدعوة الإسلام، و به كانوا يعملون.

(وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ). نزعه من الفرس و الروم لكفرهم باللّه و الحق.

(وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ). و هم المسلمون. **(وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ)**. الفرس و الروم و مشركو العرب. **(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)**. المراد بيد اللّه قدرته، و الخير يشمل كل ما فيه منفعة محللة معنوية كانت أو مادية، و قد ساق اللّه للمسلمين خيرا كثيرا ببركة الإسلام. **(إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**. و من دلائل قدرته سبحانه انه نزع الملك من الأقوياء، و أعطاه للضعفاء.

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ). حيث تتحرك الأفلاك بقدرته و عنايته، و يدور بعضها حول بعض، فتتعدد الفصول، و يأخذ الليل من النهار في فصل، حتى يصير ١٥ ساعة، و النهار ٩ ساعات، و يأخذ النهار من الليل في فصل، حتى يصير ١٥ ساعة، و الليل ٩. **(وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)**.

من ذلك إخراج المؤمن من الكافر، و العزيز من الذليل. **(وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)**. و منه إخراج الكافر من المؤمن، و الذليل من العزيز. **(تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ)**. تماما كما رزق المسلمين الأول الملك و علو الشأن ببركة الإسلام.

و إذا سألت: هل ملك الحاكم الجائر و سلطانه من اللّه، و بإرادته و مشيئته؟.

فإنك تجد الجواب عن سؤالك هذا في تفسير الآية ٢٤٦ من سورة البقرة.

و بعد، فإن ظاهر الآية يعزز ما قاله جماعة من المفسرين في سبب نزولها، و خلاصته ان رسول اللّه (ص) لما خط الخندق عام الأحزاب بإشارة سلمان الفارسي قطع لكل عشرة من أصحابه أربعين ذراعا، و كان سلمان رجلا قويا، فأراد الأنصار أن يكون معهم في الحفر، و قالوا: سلمان منا. و أراده المهاجرون، و قالوا: بل سلمان منا. فقال النبي كلمته المتواترة: سلمان منا أهل البيت، و بينما سلمان يحفر إذ اعترضته صخرة لا تعمل المعاول فيها شيئا، فرفع الأمر إلى رسول اللّه (ص)، فأخذ المعول من يد سلمان، و فتت الصخرة بثلاث ضربات

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٣٨

برقت منها ثلاث مرات، رأى النبي من خلالها قصور الفرس و الروم و اليمن، و قال لأصحابه: ان أمته ستستولي على ملك كسرى و قيصر، و لما سخر المنافقون من هذه النبوءة أنزل اللّه: «**قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ**

تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ».

و سواء أ كان هذا هو سبب الآية، أو لم يكن فإن ظاهر اللفظ لا يأباه، و وقائع التاريخ تؤيده.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٢٨ الى ٣٠]

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَ اللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (٣٠)

اللغة:

أولياء واحده ولي، و المراد به هنا النصير، و تقاة من الوقاية، و الأمد المدة التي لها حد معلوم، و محضرا، أي حاضرا.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٩

الإعراب:

في شيء متعلق بمحذوف خبر ليس، و من اللّه متعلق بمحذوف حال من شيء، و جاز أن يكون صاحب الحال نكرة لتأخره، كما قال النحاة. و قال صاحب مجمع البيان: ان المصدر من أن تتقوا مجرور بباء محذوفة .. و الذي نراه انه مفعول من أجله، أي الا أن تفعلوا ذلك لاتقاء شرهم، و يعلم ما في السموات برفع يعلم لا بجزمها لأن الواو للاستئناف، و يوم تجد يوم منصوب بمحذوف، أي احذروا يوم تجد الخ، و قيل: منصوب بتود، و محضرا حال من الضمير في تجد، و ما عملت الواو للاستئناف، و ما موصولة مبتدأ، و جملة تود خبر.

المعنى:

(لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ). لم يكتف سبحانه بالنهي عن موالاة الكافر، لنقول: انها محرمة، و كفى، كالكذب و الغيبة، بل اعتبرها كفرا بدليل قوله: (وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ) فإن الظاهر منه ان اللّه بريء ممن يتولى الكافرين، و من تبرأ اللّه منه فهو كافر ..

و يؤيد هذا قوله تعالى: «وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ- المائدة ٥١» .. و قوله:

«لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ- المجادلة ٢٢». فهذه الآيات تدل بظاهرها على ان من يتولى الكافر فهو كافر .. أجل، ان لموالاة الكافر أقساما شتى، منها ما يستوجب الكفر، و منها لا يستوجبه، و التفصيل في الفقرة التالية.

أقسام موالاة الكافر:

كل من قال: لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه كان له ما للمسلمين،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٠

و عليه ما عليهم إلا في حالات، منها أن يتولى الكافرين على التفصيل التالي:

١- أن يكون راضيا عن كفرهم، و هذا يستحيل أن يكون مسلما، لأن الرضى بالكفر كفر.

٢- أن يتقرب إلى الكافرين على حساب الدين .. فيؤوّل آيات اللّه تعالى و أحاديث رسوله (ص) بما يتفق مع أهواء

الكفار أعداء اللّه و الرسول، على ان يتنافى تأويله مع أصول الإسلام و العقيدة .. يفعل ذلك عن علم و عمد. و هذا كافر أيضا.

و تسأل: ان الذي يفعل ذلك جاحدا للإسلام يكون كافرا بلا ريب، أما إذا فعله عن تهاون فينبغي أن يكون فاسقا، لا كافرا، تماما كمن ترك الصلاة، و هو مؤمن بوجوبها، و شرب الخمر، و هو جازم بتحريمها؟.

الجواب: ان التفصيل بين المتهاون و الجاحد انما يتأتى في الفروع، كالصلاة و شرب الخمر، أما فيما يعود الى أصول الدين و العقيدة، كالوحدانية، و نبوة محمد، و ما اليهما فإن النطق بإنكار شيء منها يستوجب الكفر، سواء أ كان الناطق متهاونا أو جاحدا، جادا أو هازلا.

٣- أن يكون عينا و جاسوسا للكافرين على المسلمين .. و هذا ينظر في أمره ..

فإن فعل ذلك طمعا في المال أو الجاه فهو مجرم فاسق، و ان فعله حبا بالكافرين، بما هم كافرون، و بغضا للمسلمين بما هم مسلمون فهو كافر من غير شك.

٤- أن يلقي بالمودة الى أهل الكفر، و هو على يقين انهم حرب على المسلمين، يعملون على إذلالهم و استعبادهم و نهب مقدراتهم .. و هذا مجرم آثم، و شريك للظالم في ظلمه، حتى و لو كان الظالم مسلما.

٥- أن يستعين بالكفار المسالمين على الكفار المحاربين .. و هذه الاستعانة جائزة بالإجماع، فقد نقل أهل التاريخ و التفسير ان النبي (ص) حالف خزاعة، مع انهم كانوا مشركين، و استعان بصفوان بن أمية قبل إسلامه على حرب هوازن، كما استعان بيهود بني قينقاع، و خصهم بشيء من المال، بل جاء في تذكرة العلامة الحلي ان جماعة من الفقهاء أجازوا الاستعانة بالكفار على حرب أهل البغي من المسلمين، لأن الاستعانة بهم كانت لاحقاق الحق، لا لابطال الباطل.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤١

٦- أن يصادق المسلم الكافر، لأسباب عادية، و مألوفة، كالجوار، و تلاؤم الأخلاق، و الزمالة في الدرس، و المشاركة في المهنة، أو في التجارة، و ما اليها مما لا يمس بالدين .. و هذه الصداقة جائزة أيضا بالإجماع، لأن مودة الكافر انما تكون حراما إذا استدعت الوقوع في الحرام، أما إذا لم تكن وسيلة للمعصية فلا تحريم، بل قد تكون راجحة إذا عادت بالنفع و الخير على بلد من البلدان، أو أي انسان كان، بل ان اللّه سبحانه أمر بالحب و الالفة و التعاون بين الناس أجمعين من غير نظر الى دينهم و ملتهم، قال سبحانه: «عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللهُ قَدِيرٌ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ- الممتحنة ٨.

و نحن لا نشك ان في (الكافرين) من هو أحسن سيرة و أنبل خلقا- من حيث الصدق و الأمانة و الوفاء-، أحسن بكثير من الذين نسميهم و يسمون أنفسهم (مسلمين) و ان صداقته خير للانسانية و الصالح العام من العملاء الخونة الذين يتظاهرون بالدين و الإسلام .. و ألف صلاة و سلام على من قال: القريب من قربته الأخلاق .. رب قريب أبعد من بعيد، و رب بعيد أقرب من قريب.

و هذه حقيقة يدركها الإنسان بفطرته و ينساق معها بغريزته من غير شعور.

التقية:

يبتدئ تاريخ التقية بتاريخ الإسلام يوم كان هذا الدين ضعيفا .. و بطلها الأول الصحابي الشهير عمار بن ياسر، حيث

أسلم هو و أبوه و أمه، و عذبوا في سبيل اللّه، فاحتملوا الأذى و العذاب من غير شكاة .. مر رسول اللّه بآل ياسر، و هم يعذبون، فلم يزد ياسر على ان قال: الدهر هكذا يا رسول اللّه. فقال النبي (ص): صبرا آل ياسر، فان موعدكم الجنة، و كان ياسر و امرأته سمية أول شهيدين في الإسلام.

و أكره المشركون عمارا على قول السوء في رسول اللّه، فقاله دفعا للضرر

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٢

عن نفسه، فقال بعض الأصحاب: كفر عمار. فقال النبي: كلا، ان عمارا يغمره الايمان من قرنه إلى قدمه .. و جاء عمار الى النبي، و هو يبكي نادما. فمسح النبي عينيه و قال له: لا تبك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت.

فنزل في عمار قوله تعالى: «مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ- النحل ١٠٦». و لم يختلف اثنان في أن هذه الآية نزلت في عمار ..

و بديهة ان العبرة بعموم اللفظ، لا بسبب النزول، و اللفظ هنا عام يشمل كل من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان.

ثم نزلت الآية ٢٨ من سورة آل عمران التي نحن في صددها تؤكد آية عمار ابن ياسر، و مثلها الآية ٢٧ من سورة المؤمن: «وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ». و الآية ١١٩ من سورة الانعام: «إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ» ..

و كما جاءت الرخصة في كتاب اللّه بالتقية فقد جاءت أيضا في سنة رسوله، قال الرازي في تفسيره الكبير، و السيد رشيد رضا في تفسير المنار، و غيرهما كثير، قالوا: ان مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول اللّه، فقال لأحدهما: أتشهد اني رسول اللّه؟ قال: نعم. فأطلقه. و قال للثاني: أتشهد اني رسول اللّه؟ فلم يشهد. فقتله. و لما بلغ رسول اللّه ذلك قال: أما المقتول فمضى على يقينه و صدقه، فهنيئا له، و أما الآخر فقبل الرخصة فلا تبعة عليه.

و جاء في تفسير المنار: «ان البخاري نقل في صحيحه عن عائشة ان رجلا استأذن على رسول اللّه، فقال النبي: بئس ابن العشيرة، ثم اذن له، و لما دخل ألان له الرسول القول. و بعد أن خرج قالت عائشة للنبي: قلت في هذا الرجل ما قلت، ثم ألنت له القول؟ فقال: ان من شر الناس من يتركه الناس اتقاء فحشه. و في البخاري أيضا في حديث أبي الدرداء: إنّا لنكشر- أي نبتسم- في وجوه قوم، و ان قلوبنا لتلعنهم».

هذا، بالاضافة الى أحاديث أخرى تدل بعمومها على جواز التقية مثل حديث:

«لا ضرر و لا ضرار». و حديث: «رفع عن أمتي ما اضطروا اليه» ..

و هذان الحديثان متواتران عند السنة و الشيعة.

و استنادا إلى كتاب اللّه، و سنة نبيّه المتواترة أجمع السنة و الشيعة قولا واحدا على جواز التقية، قال الجصاص- من أئمة الحنفية- في الجزء الثاني من كتاب

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٣

أحكام القرآن ص ١٠ طبعة ١٣٤٧ هـ ما نصه بالحرف: «الا أن تتقوا منهم تقاة»، يعني أن تخافوا تلف النفس، أو بعض الأعضاء، فتتقوهم بإظهار الموالاة من غير اعتقاد لها .. و عليه جمهور أهل العلم». و نقل الرازي في تفسيره عن الحسن البصري انه قال: التقية جائزة إلى يوم القيامة، و أيضا نقل عن الشافعي انه أجاز التقية و عممها للمسلم إذا خاف من المسلم لما بينهما من الاختلاف فيما يعود الى مسائل الدين.

و قال صاحب تفسير المنار عند تفسير قوله تعالى: **إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً** ما نصه بالحرف: «من نطق بكلمة الكفر

مكرها وقاية لنفسه من الهلاك، لا شارحا للكفر صدرا، و لا مستحبا للدنيا على الآخرة لا يكون كافرا، بل يعذر، كما عذر عمار بن ياسر، و قال الشيخ مصطفى الزرقا في كتاب الفقه الاسلامي في ثوبه الجديد مادة ٦٠٠: «التهديد بالقتل للإكراه على الكفر يبيح للشخص التظاهر به مع اطمئنان قلبه بالإيمان». الى غير ذلك كثير.

و بالاضافة الى كتاب اللّه، و سنّة رسوله، و اجماع المسلمين سنّة و شيعة على جواز التقية فإن العقل يحكم بها أيضا و يبررها لقاعدة: «الضرورات تبيح المحظورات».

و بهذا يتبين معنا ان التقية قاعدة شرعية يستند اليها المجتهد الشيعي و السني في استنباط الأحكام، و ان الدليل عليها الكتاب و السنة و الإجماع و العقل، و عليه تكون التقية مبدأ اسلاميا عاما تؤمن به جميع المذاهب الإسلامية، و ليست مذهبا خاصا بفريق دون فريق، و مذهب دون مذهب، كما يتوهم- الا الخوارج- و هنا سؤال يفرض نفسه، و هو إذا كانت التقية جائزة كتابا و سنة و عقلا و اجماعا من الشيعة و السنة فلما ذا نسبت الى الشيعة فقط، حتى ان كثيرا من شيوخ السنة شنعوا على الشيعة، و نسبوهم الى البدعة من أجلها؟.

الجواب: أما نسبتها الى الشيعة فقط، أو اشتهار الشيعة بها فقد يكون سببه ان الشيعة اضطروا للعمل بها أكثر من غيرهم بالنظر لما لا قوه من الاضطهاد في

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٤

العصر الأموي و العصر العباسي، و ما تلاهما «١» و من أجل اضطرار الشيعة الى الأخذ بالتقية كثيرا أو أكثر من غيرهم اهتم بها فقهاؤهم، و ذكروها في مناسبات شتى في كتب الفقه، و حددوا مفهومها، و بينوا قيودها و حدودها، متى تجوز؟

و متى لا تجوز .. و خلاصة ما قالوه: انها تجوز لرفع الضرر عن النفس، و لا تجوز لجلب المنفعة، و لا لادخال الضرر على الغير.

أما من خصّ التقية بالشيعة فقط، و شنّع بها عليهم فهو اما جاهل، و اما متحامل، و مهما يكن، فلا موضوع اليوم و لا موجب للعمل بالتقية من غير فرق بين السنة و الشيعة فتوى و عملا بعد أن ولّى زمن الخوف و الاضطهاد.

(وَ يُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ). أي ذاته التي تعلم كل شيء، و تقدر على كل شيء، و تجازي كل انسان حسب عمله. **(وَ إِلَى اللهِ الْمَصِيرُ)**. و المرجع، و هناك توفى كل نفس ما عملت.

(قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ). بعد ان أجاز سبحانه التقية، و رخّص بها للمضطر قال: ان المعول عند اللّه على ما في القلوب، و هو يعلم ما تنطوي عليه، سواء أسررتم، أم أعلنتم.

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً). لما كان اللّه سبحانه عالما بكل شيء، و قادرا على كل شيء، و جامع الناس ليوم لا ريب فيه، و عادلا لا يظلم أحدا، لما كان كذلك نحتم أن يجد كل انسان في ذاك اليوم جزاء عمله.

و قال البعض: ان الإنسان غدا يرى عمله مجسما في تمثال جميل مؤنس ان كان خيرا، و قبيح موحش ان كان شرا .. و يلاحظ ان العمل من الأمور العرضية التي لا تبقى، و لا يمكن إعادتها و رؤيتها، فيتعين أن يكون المراد ان الإنسان يوم القيامة يرى جزاء عمله، لا عمله بالذات.

(١) انظر كتابنا «الشيعة و الحاكمون» و كتاب «مقاتل الطالبيين». و أول الجزء الثالث من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .. و ستجد في هذه الكتب ألوانا من اضطهاد الحكام للشيعة لا يتصورها العقل.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٥

(وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً). الواو للاستئناف، و المعنى ان من يعصي اللّه في هذه الحياة يتمنى غدا أن لا يرى جزاء عمله، بل يتمنى أن يكون بينه و بين ذاك اليوم بعد المشرقين. **(وَ اللهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ)**. حتى العاصين منهم لأنه كلفهم بما يطيقون، و حذرهم عاقبة العصيان، و فتح باب التوبة لمن سوّلت له نفسه، و لم يبق عذرا لمعتذر.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٣١ الى ٣٢]

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (٣٢)

المعنى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي). من أحب اللّه يلزمه حتما أن يحب رسول اللّه و أهل بيته لحب الرسول لهم، و من أحب الرسول يلزمه حتما أن يحب اللّه، و التفكيك محال، قال تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ- النساء ٨٠، لأن الرسول هو لسان اللّه و بيانه .. و العكس صحيح، أي من نصب العداء للرسول و آله فقد نصب العداء للّه من حيث يريد أو لا يريد.

فأهل الأديان الأخر الذين يدعون الايمان باللّه، ثم ينصبون العداء لمحمد (ص) هم من أعدى أعداء اللّه.

و ان قال قائل: ان جهلهم بنبوة محمد عذر مبرر. قلنا في جوابه لا عذر إطلاقا لمن اتبع أهواءه، و قلّد آباءه الا بعد التثبت و النظر الى جميع الدلائل

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٦

على نبوة محمد، و ما نظر عارف الى هذه الدلائل نظرة عدل و انصاف إلا آمن و أذعن.

و لا معنى لحب الصغير للكبير، و العبد للسيد إلا الطاعة و المتابعة .. و كل من أحب ما أبغض اللّه و رسوله، و أبغض ما أحب اللّه و رسوله فهو عدو للّه و رسوله، و ان خيل اليه انه من المحبين. لأن ما يظن انه حب دون أن يبرز له أثر ملموس فهو مجرد و هم و خيال.

(قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ) ظاهر هذه الآية ان حقيقة الدين هي طاعة اللّه و الرسول، و ان ترك هذه الطاعة يستلزم الكفر، بل هو الكفر بالذات، لأنه قال تعالى: **(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ)** و لم يقل: ان اللّه يمقت العاصين أو يعاقبهم، أي انه اعتبر سبحانه العصيان كفرا، لا سببا للمقت و العقاب فقط.

و هذا شيء خطير و مخيف جدا، حيث لا يبقى واحد على الدين و الإسلام إلا النادر النادر .. اللهم إلا ان يراد بالكفر هنا العصيان، مثل قوله تعالى:

وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ- ٩٧ آل عمران.

و على أية حال، فنحن مأمورون دينا و شرعا أن نعامل من نطق بالشهادتين معاملة المسلم من حيث الإرث و الزواج و الطهارة، و صيانة المال و الدم، و ما عدا ذلك متروك الى اللّه سبحانه، و لسنا مسؤولين عنه.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٣٣ الى ٣٧]

إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى وَ اللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٧)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٧

اللغة:

الاصطفاء الاختيار، و المراد بمحرر هنا الخالص لخدمة اللّه و عبادته، و مريم في اللغة العبرية خادم الرب، و المحراب هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح، و هو مقصورة في مقدم المعبد يصعد اليها بسلّم، و عند المسلمين مقام الإمام في المسجد.

الإعراب:

نوح اسم أعجمي، و فيه علتان توجبان منعه من الصرف، و هما العلمية و العجمة، و لكن لما كان ثلاثيا ساكن الوسط كان خفيفا في التلفظ، و لذا صرف مثل هند، و عمران ممنوع من الصرف للعلمية و العجمة، و لو كان عربيا لمنع أيضا لزيادة الألف و النون، و ذرية منصوب على انه بدل من آل ابراهيم و آل عمران، و يجوز أن يكون حالا منهما، و بعضها من بعض مبتدأ و خبر، و الجملة صفة ذرية، و إذ ظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر، و محرّرا حال

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٨

من **(ما فِي بَطْنِي)** و أنثى حال، و نباتا مفعول مطلق بمعنى إنباتا كي يطابق الفعل، و هو أنبتها.

المعنى:

(إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ). قال محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي في تفسيره الكبير المسمى بالبحر المحيط، قال: «قرأ عبد اللّه و آل محمد على العالمين». و سواء أصحت هذه القراءة، أم لم تصح فإن آية التطهير: «إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً- ٣٣ الأحزاب». ان هذه الآية كافية وافية في الدلالة على اصطفاء اللّه لآل محمد، و منزلتهم و عظمتهم .. ان محمدا (ص) أفضل الأنبياء جميعا، فآله أيضا أفضل الآل جميعا، بل ان علماء أمته كأنبياء بني إسرائيل، أو أفضل من أنبياء بني إسرائيل، و لا أذكر لفظ الحديث، فبالأولى إذا كان العلماء من آله الأطهار بشهادة اللّه تعالى.

و مهما يكن، فقد ابتدأ اللّه سبحانه بذكر آدم، لأنه أبو البشر الأول، و ثنى بنوح، و هو أبو البشر الثاني، لأن جميع سكان الأرض من نسله وحده، من أولاده الثلاثة: سام، و حام، و يافث، حيث قضى الطوفان على جميع الناس إلا نوحا .. و

اصطفى اللّه كلا من آدم و نوح بشخصه، و لذا لم يقترن اسمهما بآل، أما ابراهيم و عمران فقد اصطفاهما مع الآل .. و كما ان آدم و نوحا هما أبوا البشر فان ابراهيم أبو الأنبياء جميعا بعد نوح، حيث لا نبي منذ ابراهيم إلا من نسله.

و الظاهر ان المراد بعمران في قوله: (آل عمران) هو أبو مريم جد عيسى لا أبو موسى الكليم، لتكراره في الآية الثانية: **(إِذْ قٰالَتِ امْرَأَتُ عِمْرٰانَ)** فهو نظير تكرار الاسم في جملتين وردتا في سياق واحد، نحو أكرم زيدا ان زيدا رجل صالح، و على هذا يكون المراد بآل عمران السيد المسيح و أمه مريم، و قيل:

انه كان لعمران أبي موسى الكليم بنت اسمها مريم أكبر من موسى سنا، و ان بين

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٩

عمران هذا، و عمران جد المسيح ألف و ثمانمائة سنة. و المراد بقوله تعالى: **(عَلَى الْعٰالَمِينَ)** ان اللّه قد اختار كل واحد ممن ذكرهم، لأنه كان الصفوة الممتازة في أهل زمانه، لا في كل زمان.

(ذُرِّيَّةً بَعْضُهٰا مِنْ بَعْضٍ). ليس من شك أن نوحا فرع عن آدم، و ابراهيم و آله فرع عن نوح، و آل عمران فرع عن ابراهيم، و بيان هذا أشبه بتوضيح الواضح و كلام اللّه يجب أن يحمل على أحسن المحامل .. اذن، ما هو القصد من هذا الاخبار؟

الجواب: ليس القصد الاخبار عن ان المتأخر فرع عن المتقدم، و انما القصد- كما هو ظاهر السياق- مدحهم و الثناء عليهم، و انهم كانوا أشباها و نظائر في القداسة و الفضيلة .. و بعد هذا التمهيد ينتقل الى قصة امرأة عمران أم مريم و جدة عيسى (ع).

و خلاصتها ان قوفاذ بن قبيل الاسرائيلي كان له بنتان: اسم إحداهما حنة، و تزوجها عمران، و هو اسرائيلي أيضا، و أولدها مريم، و اسم الثانية ايشاع، و تزوجها زكريا و ولدت منه يحيى، فيحيى بن زكريا، و مريم ام عيسى هما ابنا خالة، و ليس عيسى و يحيى ابني خالة، كما هو معروف .. هكذا في مجمع البيان.

و مات عمران، و حنة حامل، فنذرت حملها لخدمة بيت المقدس، و تضرعت خالصة للّه أن يتقبل نذرها، و كان هذا جائزا في دينهم، و لا يجوز في دين الإسلام، و كانت تنتظر ذكرا، لأن النذر للمعابد لم يكن معروفا الا للصبيان، و لما وضعت أنثى توجهت للّه، و قالت: اني وضعتها أنثى .. و اني سميتها مريم، و مريم في اللغة العبرية بمعنى خادم الرب.

و تقبّل اللّه نذرها، و ان كان أنثى، و اختلف بنو إسرائيل كل يريد أن يكفل مريم، و يدير شئونها، و لما اشتدت الخصومة فيما بينهم اتفقوا على الاقتراع، فكانت من نصيب زكريا زوج خالتها، و كان آنذاك رئيس الهيكل اليهودي، فاهتم بها و تفقّد شئونها، و كان كلما دخل عليها وجد عندها طعاما، و عهده بها أن لا يدخل عليها أحد، فسألها متعجبا: أنّى لك هذا! .. قالت هو من

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٠

عند اللّه- أي لا بواسطة أحد من الناس- ان اللّه يرزق من يشاء بغير حساب.

و ليس من شك ان هذه كرامة لمريم (ع)، أما من نفى هذه الكرامة، و قال: ان الطعام الذي رآه عندها زكريا كان من حسنات المؤمنين فهو خلاف ظاهر الآية .. و ليست هذه الكرامة بأعظم من ولادة عيسى بلا أب، فإن كانت تلك محلا للشك و الريب فهذه أولى.

و معنى قوله تعالى: **(وَ أَنْبَتَهٰا نَبٰاتاً حَسَناً)** انها نشأت على الخلق الكريم، و طاعة اللّه و عبادته، فعن ابن عباس انها لما

بلغت التاسعة من عمرها صامت النهار، و قامت الليل، حتى أربت على الأحبار .. و قيل: لم تجر عليها خطيئة.

فاطمة و مريم:

و حدث مثل هذه الكرامة لسيدة النساء فاطمة بنت رسول اللّه (ص)، فقد جاء في تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقي عند تفسير قوله تعالى حكاية عن مريم: **(هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ)**، جاء في هذا التفسير ما نصه بالحرف:

«جاع النبي (ص) في زمن قحط، فأهدت له فاطمة رغيفين و لحما .. فأتاها، و إذا بطبق عندها مملوء خبزا و لحما، فقال لها: انّى لك هذا؟ قالت هو من عند اللّه ان اللّه يرزق من يشاء بغير حساب، فقال: الحمد للّه الذي جعلك شبيهة بسيدة بني إسرائيل، ثم جمع رسول اللّه عليا و الحسنين، و جمع أهل بيته عليه، فأكلوا و شبعوا، و بقي الطعام كما هو، فأوسعت فاطمة على جيرانها».

و في كتاب ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري ان عليا (ع) استقرض دينارا ليشتري به طعاما لأهله، فالتقى بالمقداد بن الأسود في حال إزعاج، و لما سأله الإمام قال: تركت أهلي يبكون جوعا فآثره بالدينار على نفسه و أهله، و انطلق الى النبي (ص)، و صلى خلفه، و بعد الصلاة قال النبي لعلي: هل عندك شيء تعشينا به؟ و كأن اللّه قد أوحى اليه أن يتعشّى عند علي، فأطرق علي لا يحير جوابا، فأخذ النبي بيده، و انطلقا الى بيت فاطمة، و إذا بحفنة من الطعام،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥١

فقال لها علي: أنّى لك هذا؟. قال له النبي: هذا ثواب الدينار، هذا من عند اللّه يرزق من يشاء بغير حساب، الحمد للّه الذي اجراك يا علي مجرى زكريا، و اجراك يا فاطمة مجرى مريم، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا .. ثم قال محب الدين الطبري: خرّج هذا الحديث الحافظ الدمشقي في الأربعين الطوال.

و جاء في صحيح مسلم، باب فضائل بنت النبي، ان رسول اللّه قال لابنته فاطمة: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة. و نقل السيد محسن الأمين في الجزء الثاني من أعيان الشيعة، سيرة الزهراء، نقل عن صحيح البخاري ان النبي (ص) قال: فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، و أيضا نقل عن الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ان الإمام أحمد روى في مسنده عن النبي انه قال: فاطمة سيدة نساء العالمين.

و جاء في كتاب ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري بعنوان: ما جاء في سيادتها و أفضليتها، قال الطبري ما نصه بالحرف: «عاد النبي فاطمة، و هي مريضة، فقال لها: كيف تجدينك يا بنية؟ قالت: اني وجعة، و يزيدني ما لي طعام آكله. فقال: يا بنية أما ترضين انك سيدة نساء العالمين؟. فقالت: يا أبت، فأين مريم بنت عمران؟. قال: تلك سيدة نساء عالمها، و أنت سيدة نساء عالمك، أما و اللّه لقد زوجتك سيدا في الدنيا و الآخرة». ثم قال الطبري خرّج هذا الحديث أبو عمر، و خرجه الحافظ أبو القاسم الدمشقي، و بقية البحث عند تفسير الآية ٤٢ من هذه السورة فقرة «من هي سيدة النساء».

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٣٨ الى ٤١]

هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (٣٨) فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (٤٠) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (٤١)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٢

اللغة:

هنا اشارة الى القريب، و هنالك الى البعيد، و هناك لما بينهما، و الأصل ان يشار بها إلى المكان، و قد يشار بها إلى الزمان، و لدن ظرف مكان، و تستعمل في الزمان، و هي مبنية، و لا يدخل عليها من حروف الجر إلا من، و الذرية تطلق على الواحد، و ما فوق، و سيد القوم رئيسهم، و يطلق على الشريف و العالم، على شريطة أن لا يكونا منافقين، لحديث: «لا تقولوا للمنافق سيدا» «١».

و الحصر الحبس، و المراد بالحصور هنا الذي يمنع نفسه عن النساء، أو عن المعاصي و الشهوات، مع القدرة عليها، و الرمز الاشارة، و العشي ظرف زمان من الزوال الى الغروب، و الإبكار من الفجر إلى الضحى.

الإعراب:

جملة هو قائم حال من الهاء في نادته، و جملة يصلي صفة لقائم، أو حال من الضمير في قائم، و مصدقا حال من يحيى، و جملة بلغني الكبر حال، و مثلها جملة امرأتي عاقر، و كذلك خبر مبتدأ محذوف، أي الأمر كذلك، أو صنع

---

(١) رأيت هذا في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٣

اللّه كذلك، و اللّه يفعل ما يشاء مبتدأ و خبر، و رمزا قائم مقام المفعول المطلق، أي إلا كلاما رمزا و مثله كثيرا، أي ذكرا كثيرا.

المعنى:

(هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً). سبق القول: ان زكريا كان زوجا لخالة مريم ام عيسى، و انه هو الذي كفلها، و لم يكن لزكريا ولد، و حين رأى صلاح مريم، و ما أجرى اللّه على يدها من الكرامات تحركت في نفسه عاطفة الأبوة، و حب الذرية، فاتجه الى اللّه يدعو و يتضرع اليه أن يحقق رغبته و استجاب اللّه سبحانه لدعوته:

(فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ). يحيى اسم سماه اللّه به قبل أن يولد، و لم يجعل له من قبل سميا- كما في الآية ٧ من سورة مريم- و على هذا فلا وجه للبحث ان هذا الاسم هل هو عبري أو عربي، كما في بعض التفاسير .. أجل، له مصدر في اللغة، و هو الحياة، و يتناسب اسمه مع احياء اللّه سبحانه لعقر أمه. (مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ). قيل: ان كلمة اللّه اشارة الى عيسى الذي خلقه اللّه بكلمة (كن) من غير أب .. و لكن عموم كلمة اللّه يرجح الحمل على جميع آياته و أحكامه.

و قال صاحب مجمع البيان: كان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر، و هو أول من صدقه، و شهد بأن مولده معجزة من اللّه، و كان ذلك أقوى الأسباب لإظهار أمر عيسى، لأن الناس كانوا يثقون بيحيى، و يقبلون منه ما يقول.

(و سيدا) في العلم و الدين و مكارم الأخلاق (و حصورا) يملك زمام نفسه و يمنعها عن الذنوب، و قيل عن إتيان النساء (وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) و كل الأنبياء صالحون، بل معصومون، و العصمة فوق العدل و الصلاح، و عليه يتعين أن يكون قوله: (مِنَ الصَّالِحِينَ) اشارة إلى أن زكريا تحدّر من أصلاب طاهرة، و أرحام مطهرة .. و يتفق هذا مع قول الشيعة الإمامية: ان جميع آباء الأنبياء يجب أن يكونوا مؤمنين باللّه و اليوم الآخر.

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٥٤

و من الطريف قول بعضهم- كما في تفسير الرازي- ان من الصالحين اشارة الى «ان ما من نبي إلا و قد عصى، أو همّ بمعصية غير يحيى فلم يعص، و لم يهم». و بالاضافة الى أن في هذا القول مسا بمقام محمد (ص) فانه يتنافى و حكم العقل، لأن النبي انما أرسل لدفع المعاصي، فإن عصى احتاج الى نبي ..

بداهة ان القذارة لا تزال بمثلها .. تعالى اللّه و أنبياؤه عما يقول الجاهلون.

(قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ). قالوا كان زكريا، حين قال هذا، قد أتم ١٢٠ سنة من عمره، و امرأته ٩٨ ..

و هنا سؤال يفرض نفسه، و هو ان زكريا سأل ربه أن يهبه ذرية طيبة، و معنى هذا انه سأل شيئا ممكنا في اعتقاده، فكيف عاد و استبعد ذلك عند ما بشرته الملائكة؟

الجواب: لم يكن قوله هذا شكا و استبعادا، و انما هو استعظام لقدرة اللّه التي تخطت السنن و العادات، تماما كما تقول لمن يهب الكثير الثمين من ماله:

كيف فعلت ما لم يفعله أحد سواك؟ و أيضا يتضمن هذا الاستعظام و التعجب الشكر للّه على هذه النعمة الجليلة التي لم تكن في الحسبان .. و أيضا نستفيد من أصل المعجزة ان على الإنسان أن لا يقيس مشيئة اللّه بما يراه هو ممكنا أو مستحيلا.

(قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً). لما كان علوق الرحم بالنطفة أمرا خفيا أحب زكريا أن يعلم به حين حدوثه، ليتلقاه بالشكر منذ اللحظة الأولى، و لهذا سأل ربه أن يجعل له علامة يعرف بها وقت العلوق، فقال له تعالى: (آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ).

أي ان علامة حدوث العلوق أن يحتبس لسانك، و يعجز عن النطق مع الناس ثلاثة أيام، فإذا أردت الكلام لم يتحرك، و انما تتفاهم معهم بالاشارة، شأنك في ذلك شأن الأخرس، و لكن لسانك ينطلق كما تريد حين تتجه الى اللّه في عبادتك و مناجاتك، و لذا قال تعالى: (وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً). و هذه معجزة ثانية تضاف الى حمل العاقر.

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٥٥

و نقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده ان اللّه أمر زكريا أن ينقطع للذكر و التسبيح ثلاثة أيام، و ان اضطر الى خطاب الناس أومأ اليهم إيماء، و بعد مضي الثلاثة يبشّر أهله بالحمل. و التفسير الأول أظهر و أشهر.

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٤٢ الى ٤٤]

وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ (٤٢) يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)

المعنى:

(وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ). ذكر أولا أم مريم و حملها و نذرها، و زكريا الذي كفل مريم، ثم ذكر مريم، و رزق اللّه لها بغير حساب، ثم ذكر زكريا و دعاءه و استجابته، و الآن يعود الى مريم .. على عادة القرآن، حيث يستطرد من قضية الى غيرها لمناسبة بين القضيتين، ثم يعود الى الأولى لغرض في العودة.

و المراد بالاصطفاء الأول قبولها محرّرة لخدمة بيت اللّه، و كان ذلك خاصا بالرجال، أما الاصطفاء الثاني فلولادتها نبيا دون أن يمسها بشر، و قيل: هو تأكيد للأول. أما التطهير فقال صاحب تفسير المنار ما نصه: «قد فسر الطهر بعدم الحيض. و روي ان السيدة فاطمة الزهراء ما كانت تحيض، و انها لذلك لقبت بالزهراء».

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٥٦

و الذي نرجحه ان التطهير شهادة بنزاهة مريم، و براءتها من كل شبهة حول ولادتها.

و تجمل الإشارة إلى أن مريم ليست نبية للإجماع على انه لم تنبّأ امرأة، قال تعالى: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ- ١٠٩ يوسف».

أما كلام الملائكة معها فلا يستدعي أن تكون نبية، فلقد أوحى اللّه الى أم موسى، كما في الآية ٧ من سورة القصص، و لم يدّع أحد لها النبوة، و إذا انقطع الوحي بعد محمد (ص) عن الأنبياء، و غير الأنبياء فقد كان من قبله ينزل على الأنبياء و غير الأنبياء، و الدليل هذه الآية، و آية: أوحينا الى أم موسى. أما قوله تعالى: (وَ اصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ) فنتعرض له قريبا بفقرة مستقلة بعنوان: «من هي سيدة نساء العالمين».

فضل القرآن على النصارى:

سبق القول: ان وفدا من نصارى نجران جاءوا الى المدينة يحاجون رسول اللّه في نبوته، و يدعون ألوهية عيسى، فتلا عليهم الرسول (ص) من أنباء الغيب طرفا من قصة امرأة عمران و زكريا و مريم، ليثبت لهم انه لا ينطق إلا بوحي من اللّه، ثم تلا هذه الآية: «يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ».

و تلاوة النبي هذه الآية لوفد نجران المسيحي الذي جاء يحاجه و يجادله دليل قاطع على عظمة الإسلام، و صدق نبيّه الكريم .. ان اليهود لم يتورعوا أن يلصقوا الأكاذيب و الافتراءات بمريم، و يثيروا الشبهات و التهم حول ولادتها .. فكذبهم اللّه، و سجل في كتابه الذي يتلوه الملأ أبد الدهر، سجل فيه نزاهتها و براءتها، و قطع الطريق على كل متقول و مزوّر. و لو لم يكن محمد صادقا في رسالته، واثقا بدعوته لأخفى ذلك عن النصارى الذين لاقى منهم العنت و التكذيب.

لقد أسدى الإسلام بهذه الآية أعظم الأيادي الى النصارى، و لولاها لسمعوا الكثير من بعض المسلمين عند التخاصم، كما سمعوا من اليهود في حق مريم الطاهرة .. و لكن المسلم يعلم ان نزاهة السيدة مريم من صلب عقيدته، و ان التهجم

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٥٧

عليها كفر و خروج عن دين الإسلام .. و يأتي المزيد في البحث عند تفسير الآية ٨٢ من سورة المائدة: «وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ».

(يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ). أمرها بالعبادة للإعداد و التهيئة للأمر الخطير، و هو ولادة

عيسى (ع)، و ما من أمر خطير الا سبقته مقدماته التي تمهد لحدوثه، و كذلك أوصى اللّه سبحانه عيسى بالصلاة و الزكاة ما دام حيا.

(ذٰلِكَ مِنْ أَنْبٰاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ). الخطاب موجه من اللّه لرسوله، و المعنى ان ما تتلوه على الناس بعامة، و النصارى بخاصة، و وفد بحران بصورة أخص، كقصة مريم و أمها امرأة عمران، و قصة زكريا و يحيى، كل ذلك، و ما اليه لم تقرأه في كتاب، و لم تسمعه من الحفّاظ، لأنك أمي في أمة أمية، و انما هو علم بالغيب، و وحي من اللّه .. و هذه حجة لك على خصمك، و برهان على صدقك .. و ما نقل الرواة ان وفد نجران رد هذه الحجة أو اعترض عليها، و لو كانت موضع جدال لما سكتوا.

(وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مٰا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ). القلم معروف، و هو الذي يكتب به، و جمعه أقلام، و المراد بالأقلام هنا السهام التي يضربون بها القرعة، و المعنى: ان إخبارك إياهم بهذه الحقائق و الدقائق عن مريم و زكريا لم تقرأها في كتاب، و لم تسمعها من الحفاظ، فلم يبق- اذن- الا أن تكون قد شاهدتها بنفسك، مع العلم ان بينك و بينها مئات السنين، فتعين أن يكون علمك بها وحيا من اللّه اليك.

أما قصة الاقتراع و إلقاء الأقلام فخلاصتها ان حنة امرأة عمران حين ولدت مريم كانت قد نذرتها لبيت المقدس، و ولدتها بعد أن مات أبوها عمران، فتنافس عليها الكهنة و الأحبار من بني إسرائيل، و أخيرا اقترعوا فيما بينهم، فخرج قلم زكريا زوج خالتها، و عندها تركوها له، فتكفلها، و صار وليها و القائم بأمرها.

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٥٨

من هي سيدة نساء العالمين؟

سبق ان اللّه سبحانه خاطب السيدة مريم (ع) بقوله: «وَ اصْطَفٰاكِ عَلىٰ نِسٰاءِ الْعٰالَمِينَ». و قد أحدثت هذه الآية اختلافا بين علماء المسلمين: هل مريم بنت عمران أفضل، أم فاطمة بنت محمد أفضل؟.

ذهب جماعة الى أن خير النساء أربع، و أحجموا عن المفاضلة بينهن، لحديث:

«خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، و آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، و خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمد». و هذا الحديث مذكور في صحاح السنة، و رأيته في تفسير الطبري و الرازي و البحر المحيط، و روح البيان و المراغي و صاحب المنار.

و قال آخرون: مريم أفضل للظاهر (نِسٰاءِ الْعٰالَمِينَ).

و قال الشيعة و شيوخ من السنة: ان فاطمة أفضل، و ننقل هذا القول عن جماعة من شيوخ السنة، استنادا الى تفسير البحر المحيط لأبي حيان الاندلسي عند تفسيره لآية: «وَ اصْطَفٰاكِ عَلىٰ نِسٰاءِ الْعٰالَمِينَ». قال ما نصه بالحرف:

«قال بعض شيوخنا: و الذي اجتمعت عليه من العلماء انهم ينقلون عن أشياخهم ان فاطمة أفضل نساء المتقدمات و المتأخرات، لأنها بضعة من رسول اللّه».

و مما استدل به القائلون بأفضلية فاطمة (ع) ما تواتر عن أبيها من طريق السنة و الشيعة: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها اغضبني». أما قوله تعالى لمريم:

(وَ اصْطَفٰاكِ عَلىٰ نِسٰاءِ الْعٰالَمِينَ) فالمراد به عالم زمانها، لا كل زمان، و هذا التعبير معروف و مألوف، يقال: فلان

أشعر الناس، أو أعلمهم، و يراد بذلك انه أشعر أو أعلم أهل زمانه، أو أبناء أمته، و نظيره كثير في القرآن، و منه قوله تعالى عن بني إسرائيل: «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ- ١٥ الجاثية». و لا يختلف اثنان بأن المراد عالم زمانهم، فكذلك تفضيل مريم التي هي من بني إسرائيل .. و منه قوله تعالى: «وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ- ٨٦ الانعام»: و لا قائل بأن لوطا أفضل من عيسى، أو مساويا له في الفضل، و لا إسماعيل أفضل من أبيه. و منه: «إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ- ٢٣ النمل. أي كل شيء في زمانها.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٩

و نعود الى النسوة الأربع، و هن آسية و مريم و خديجة و فاطمة اللائي ورد الحديث بأنهن خير النساء، و نقول: لو نظرنا إليهن صارفين النظر عن نصوص الكتاب و السنة لألفينا ان كل واحدة منهن تختص بفضيلة دون غيرها من الصالحات الباقيات فآسية امرأة فرعون آمنت باللّه مخلصة له لائذة به وحده، و هي في بيت شر العباد، و رأس الكفر و الإلحاد، و قد جاهرت بإيمانها منكرة على فرعون كفره و فساده، متحدية ظلمه و طغيانه، فأوتد لها الأوتاد، حتى قضت شهيدة الحق و الايمان، و لم تكن هذه الكرامة لواحدة من الثلاث.

أما السيدة مريم فقد كرّمها بولادة السيد المسيح من غير أب، و ما عرفت هذه الكرامة لامرأة على وجه الأرض.

أما السيدة خديجة فإنها أول من آمن و صدّق رسول اللّه، و صلّت هي و علي ابن أبي طالب مع الرسول الأعظم (ص) أول صلاة أقيمت في الإسلام، و هي أول من بذل الأموال لنصرة هذا الدين .. و لولا أموالها، و حماية أبي طالب لمحمد (ص) لقضي على الإسلام في مهده، و لم يكن له عين و لا أثر .. و لم تكن هذه الكرامة لغيرها من نساء العالمين.

أما فاطمة فإنها بضعة من رسول اللّه، بل هي نفسه خلقا و خلقا و منطقا و صلاحا و تقى، يرضيه ما يرضيها، و يؤذيها ما يؤذيه، و هي أم الحسنين سيدي شباب أهل الجنة، و عقيلة سيد الكونين بعد رسول اللّه، و لم تكن هذه الكرامة لأمها خديجة، و لا لآسية و لا مريم.

أما التفاضل بين هذه الكرامات فإنه تماما كالتفاضل بين الورد و الياسمين، و ثنتين من الحور العين .. لكن يكفي أن تكون لفاطمة الزهراء واحدة من خصال أبيها، حتى ترجح على نساء العالمين قاطبة من الأولين و الآخرين، فكيف إذا كانت بضعة منه؟ انه أفضل الأنبياء، و هي بضعة منه فتثبت لها الأفضلية.

و في الجزء الخامس من صحيح البخاري، باب مناقب قرابة رسول اللّه عن أبيها انه قال: فاطمة سيدة نساء أهل الجنة. و إذا كانت فاطمة بضعة من الرسول

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٦٠

فان بعلها عليا هو نفس رسول اللّه، و الدليل قوله تعالى: أَنْفُسَنا، في آية المباهلة ٦١ آل عمران.

ملحوظة: هذا البحث معطوف على البحث السابق عند تفسير الآية ٣٧ من هذه السورة، فقرة «فاطمة و مريم» .. فإن كلا منها متمم للآخر.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٤٥ الى ٥١]

إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ

(٤٨) وَ رَسُولاً إِلىٰ بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَ أُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَ الأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتىٰ بِإِذْنِ اللهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)

وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٦١

اللغة:

المسيح، نقل صاحب تفسير البحر المحيط سبعة أقوال في سبب تسميته بالمسيح، و هي المسح بالبركة، و المسح بالدّين عند ولادته، و بالتطهير من الذنوب، و مسح جبريل له بجناحه، و مسح باطن قدمه حيث كان يصيب الأرض به أجمع، و مسح الجمال، و مسح الأقذار، لأن أمه كانت لا تحيض، و لم تدنس بدم النفاس. و المهد مقر الصبي حين رضاعه، و الأكمه الذي يولد أعمى، و الأبرص الذي في جلده بياض.

الإعراب:

اسمه مبتدأ، و المسيح خبر، و الضمير في اسمه عائد على المعنى المراد بالكلمة، و هو عيسى، و عيسى اسم أعجمي ممنوع من الصرف، و هو بدل من المسيح، و ابن مريم عطف بيان، و وجيها حال، و كذلك خبر لمبتدأ محذوف، أي الأمر كذلك، و فيكون لا يجوز فيه غير الرفع، لأن الجزم على الجواب يشترط فيه أن يصح دخول ان الشرطية، مثل قم فأقم، حيث يصح أن تقول: ان تقم أقم، و هنا لا يصح أن تقول: ان كن فيكن، و رسولا عطف على «وجيها» و اني جئتكم المصدر من أن و ما بعدها مجرور بباء محذوفة، و المجرور متعلق «برسولا» و اني أخلق المصدر المنسبك بدل من آية، و مصدقا مفعول لفعل محذوف، أي و جئتكم مصدقا، و الجملة عطف على جملة جئتكم.

الممتنع عقلا، و الممتنع عادة:

ممتنع الوجود هو الذي ليس موجودا بالفعل، و لا يمكن وجوده في المستقبل، و هو على نوعين:

الأول أن يمتنع وجوده ذاتا و عقلا، لأنه يستحيل بحكم العقل أن يوجد بحال من الأحوال، و صورة من الصور، كاجتماع النقيضين أو الضدين، مثل أن

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٦٢

يكون الإنسان مؤمنا و كافرا بشيء واحد في آن واحد، و ان يكون الأعمى بما هو أعمى مبصرا و الأخرس بما هو أخرس متكلما .. و يتفق على امتناع هذا النوع العقل و العادة، لأنه إذا امتنع ذاتا و عقلا فبالأولى أن يمتنع عادة.

النوع الثاني: أن لا يمتنع وجوده ذاتا و في نظر العقل، بل يمكن وجوده بصورة من الصور، و طريق من الطرق، و لكن العادة لم تجر بوقوعه، و الأمثلة على ذلك لا تحصيها كثرة. و قد ذكر القرآن الكريم العديد من الحوادث التي تدخل في هذا النوع، منها جلوس ابراهيم الخليل في النار، دون أن تناله بأذى، و تحوّل عصا موسى الى ثعبان، و وقوف مياه البحر كالجبال، و إلانة الحديد كالشمع لداود، و معرفة منطق الطير و النمل لسليمان، و احياء عزير بعد موته بمائة عام.

و منها ولادة عيسى من غير أب، و كلامه ساعة ولادته، و إحياؤه الموتى، و ابراؤه الأعمى و الأبرص من غير علاج، و

إخباره الناس بما يأكلون و يدخرون في بيوتهم، دون أن يشاهد ذلك، أو يخبره به انسان، كل هذه الحوادث، و ما اليها جائزة الوقوع، و لكن لم تجر العادة بوقوعها، و لو كانت محالا في ذاتها لامتنع وقوعها على يد الأنبياء و غير الأنبياء. و إذا كانت هذه الحوادث ممكنة في ذاتها، و أخبر الوحي بوقوعها صراحة فوجب على كل مؤمن الجزم بها، دون تردد.

و ذكر جماعة من الفلاسفة و المفسرين وجوها لخلق عيسى من غير نطفة الأب، و لكن ما قالوه لا طائل تحته .. و الحق ان اللّه تعالى قادر على كل شيء، يوجده بكلمة (كن) من لا شيء، و قد اقتضت حكمته وقوع ما أراد فتم الذي أراد.

و لسنا مكلفين بالبحث و العلم عن ماهية الحوادث التي أوجدها اللّه خرقا للعادة، و لا كيف وقعت .. و ربما كانت عقولنا عاجزة عن إدراكها، تماما كما عجزت عن ادراك حقيقة الروح التي هي من أمر ربي .. أجل، نحن ندركها بآثارها و نتائجها، لا بكنهها و حقيقتها، و كفى بها معرفة من هذه الجهة .. و على هذا الأساس سنفسر الآيات الواردة في حق المسيح (ع) و ما شابهها من الآيات الواردة في غيره.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٦٣

المعنى:

(إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ).

و المراد بالملائكة هنا جبريل، لقوله تعالى في سورة مريم: «فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا». حيث المراد بالروح هو جبريل، و ذكره بلفظ الجمع، لأنه رئيس الملائكة، و كلمة منه اشارة الى قوله تعالى: «كُنْ فَيَكُونُ».

(وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ). أما وجاهته في الدنيا فهي تقديس الناس و تعظيمهم له الى يوم يبعثون، أما في الآخرة فلعلو درجاته غدا عند اللّه.

(وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ الصَّالِحِينَ). تكلم في المهد للدلالة على براءة أمه من قذف اليهود لها بيوسف النجار، و هم قومها، عليهم لعائن اللّه، و زعم النصارى أنه لم يتكلم في المهد .. و قال ابن عباس: كان كلام عيسى لحظة قصيرة، و لم يزد عما جاء في القرآن، ثم لم يتكلم، حتى بلغ أوان الكلام كغيره من الأولاد .. و هذا القول يساعد عليه الاعتبار، لأن الغرض من كلامه أن يبرئ أمه من التهم و الشبهات، و قد حصل الغرض بما قاله أولا .. (و كهلا) أي يكلم الناس بالوحي، و هو كهل، و هذه معجزة أخرى تدل على نبوته، لأنه إخبار بالغيب انه سيعيش الى سن الكهولة، و قيل: عاش في الأرض ثلاثين سنة. و قيل: أتاه الوحي ابن ثلاثين، و عاش بعده ثلاث سنين.

(قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ». هذا استعظام منها لقدرة اللّه تعالى، لأنه خارج عن المعتاد، و لا وجه لما جاء في بعض التفاسير من أنها سألت: هل يأتيها الولد بسبب الزواج؟ لا وجه لهذا السؤال لأن الجواب عنه بقوله تعالى: **(قالَ كَذلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).** ان هذا الجواب يدل على انها كانت على علم بأنها ستلد من غير زواج.

(وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ). الكتاب مصدر بمعنى الخط، كالقتال بمعنى الضرب، ثم كثر استعماله في اسم المفعول، أي المكتوب، و بصورة أخص في هذا المعلوم الذي له طرفان، و ما بينهما أبواب و مسائل،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٦٤

و المراد بالكتاب هنا المعنى المصدري، أي الخط، لأن ذكر التوراة و الإنجيل بعد ذكر الكتاب يرجح حمله على الخط و

الكتابة .. و قيل: بل المراد به المعنى الظاهر، و انما ذكر التوراة و الإنجيل بعد الكتاب الشامل لهما للاهتمام بهما، تماما كقوله تعالى: حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى.

و الحكمة هي وضع الشيء في موضعه، و هذه الآية دليل قاطع على ان التوراة هي الركيزة الأولى لدين المسيح، و ان الإنجيل امتداد لها، مع بعض التعديلات، كتحليل بعض ما جاء فيها من المحرمات المشار اليه بقوله: «وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ».

(وَ رَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيل). أرسل اللّه محمدا (ص) للناس كافة، كما نصت الآية ٢٨ من سورة سبأ: «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ». أما عيسى (ع)، و هو اسرائيلي، فإنه أرسل الى قومه بمقتضى ظاهر هذه الآية .. و تعميم رسالته للناس كافة يحتاج الى دليل.

(أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ). هذا خطاب من عيسى لقومه الاسرائيليين، محتجا على صدق نبوته بأن لديه معجزة تدل على انه مرسل اليهم من اللّه، و هذه المعجزة هي قوله:

(أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). هذه أربع معجزات:

الأولى إنشاء الحياة في الطين، و جعله طيرا. الثانية: إبراء الأكمه، و هو الذي يخلق أعمى، و الأبرص، و هو الذي في جلده بياض منفر .. و قيل: ان الطب كان متقدما في عهد عيسى، و لكن برغم تقدمه فقد عجز أمهر الأطباء عن هذين الداءين: العمى و البرص، فجعل اللّه الشفاء منهما على يد عيسى من غير علاج معجزة تدل على نبوته.

المعجزة الثالثة: رد الحياة إلى الميت. الرابعة الإخبار بالغيب عما يأكلون و ما يدخرون .. و ليس من شأننا البحث عن السر لهذه المعجزات و كيفية إنشاء الحياة، أو ردها إلى الأموات، و لا عن ازالة الأمراض المستعصية من غير علاج، و إذا

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٦٥

تصدينا للبحث عن شيء من ذلك فلا ننتهي إلا إلى الشبهات و الظلمات، فلم يبق لدينا إلا التسليم لحكمة اللّه و أمره الذي صرح به السيد المسيح (ع) مكررا أنه قد فعله بإذن اللّه، ليسد الباب على كل مقتول و متوهم الربوبية لعيسى أو الشعوذة، أو غيرها .. و سبقت الإشارة عند تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة إلى أن نظام الكائنات يجريه اللّه سبحانه على السنن الطبيعية إلا إذا اقتصت حكمته أن يتدخل على عكسها بإرادته التكوينية التي هي عبارة عن كلمة «كن» .. و عندها فلا يبقى مجال لأية واسطة و سنة.

أما إخبار عيسى بالغيب فقد كان بواسطة الوحي من اللّه تعالى، و لا يختص وحده بذلك فقد أخبر جميع الأنبياء بالغيب، فنوح صنع السفينة قبل أن يقع الطوفان، و شعيب أخبر عن مصير قومه في هذه الحياة، و كذلك غيره من الأنبياء، و محمد (ص) أخبر عن انتصار الروم على الفرس، و انتصار قومه عليهما معا .. و الإمام علي أخبر عن ثورة الزنج و غيرها، حتى قال له قائل:

لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب. فقال له الإمام: ليس هو بعلم غيب، و انما هو تعلّم من ذي علم. يشير إلى أن النبي (ص) أخبره به، و النبي أخذه من الوحي.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٥٢ الى ٥٤]

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللهُ وَ اللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٥٤)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٦٦

الحق و أرباب المنافع:

ما من عاقل تام الإدراك ينكر الحق، و يؤثر الباطل عليه إلا لهوى في نفسه، أو شبهة في ذهنه، أو لجهله بالدليل، أو لخلل في عرض الدليل .. و بديهة ان أدلة الأنبياء كافية وافية على نبوتهم من جميع الجهات، حتى دفع الأوهام و الشبهات، بحيث لا تبقي أدلتهم أية وسيلة لإنكار الحق إلا بالعناد و المكابرة ..

و الا لم يكن للّه و لا لأنبيائه على الناس الحجة.

و من بحث عن السبب الموجب لكيد من كاد للأنبياء، و انكار من أنكر رسالتهم بعد أن رأوا ما رأوا من الآيات و المعجزات فلا يجد أي سبب لهذا الكيد و الإنكار الا المنافع الشخصية، و الحرص على الجاه و المال .. و الشواهد على هذه الحقيقة من الكتب السماوية و الأحاديث النبوية لا تحصيها كثرة، منها ان الطغاة المترفين من قوم هود النبي قاوموه لا لشيء الا لأنه قال لهم: «أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللهَ وَ أَطِيعُونِ- ١٢٧ الشعراء».

و هدد شعيبا الأغنياء من قومه، و قالوا له: «يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا .. وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ ٨٧- ٩١ هود». أما ذنبه الأول و الأخير فهو قوله: «إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ، وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ- ٨٥ هود». و كان قارون من أغنى قوم موسى، و أقرب الناس اليه رحما، و مع ذلك نصب العداء له، حيث وعظه بقوله: «وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ .. وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ- ٧٩ القصص».

و كان عبد اللّه بن أبيّ من زعماء المدينة و أثريائها، و لما هاجر الرسول اليها من مكة ثارت الغيرة في نفس ابن أبي، و أسمع الرسول كلاما نابيا، فقال سعد بن عبادة: يا رسول اللّه لا يعرض في قلبك من قول هذا شيء، فقد كنّا أجمعنا على أن نملّكه علينا، و هو يرى الآن انك قد سلبته أمرا كان قد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٦٧

أشرف عليه «١».

و كفى دليلا على هذه الحقيقة قوله تعالى: «كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ- المائدة ٧٠». و قد كذّبوا السيد المسيح، و حاولوا قتله لأنه دعاهم الى المحبة و العدالة و المساواة، و ان لا يكنزوا الذهب و حولهم الجياع و المعوزون، و من تعاليمه: «لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض .. غني يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل سم الخياط».

المعنى:

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ). كان اليهود قبل ميلاد عيسى يؤمنون بالمسيح المنتظر، فلما جاءهم بالبينات و المعجزات اختلفوا فيه، فآمن به المساكين و المستضعفون الذين لا يخافون على مال و لا جاه، و

كفر به أكثر أهل الجاه و المال خوفا على مناصبهم و مكاسبهم، كما هو شأنهم مع كل مصلح، نبيا كان أو غير نبي، مع علمهم بأنه الصادق المحق.

و قال بعض المفسرين: ان اليهود رفضوا الايمان بمحمد، لأنه عربي من نسل إسماعيل، و لو كان يهوديا من نسل اسحق لآمنوا به، و هذا خطأ، لأن عيسى (ع) من اليهود، و مع هذا حاربوه، و حاولوا قتله و صلبه .. و كذلك محمد (ص) حاربه صناديد قريش، و السر هنا و هناك واحد، و هو الحرص على الدنيا و المنافع، لا العصبية القومية.

و مهما يكن، فقد أحس عيسى من قومه الإصرار على الكفر و العناد، و لاقى منهم الشدائد، تماما كما لاقى محمد (ص) من قومه، و عندها قال عيسى:

(مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ). أي من هم؟ و أين هم؟ المؤمنون الذين يناصرون دين اللّه، و يحامون عنه، و يبلّغونه بعدي الى الناس .. إذ لا بد لكل صاحب رسالة من أنصار ينهضون بها، و يذبون عنها، و ينشرونها بين الناس.

---

(١) يأتي في تفسير الآية ٦١ من هذه السورة أن وفد نجران اعتقد نبوة محمد، و مع ذلك رفض الاعتراف بها للأموال التي يقبضها من الملوك.

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٦٨

(قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ). المراد بالحواريين خاصة الرجل، مأخوذ من الحور، و هو شدة النقاء و البياض. و قولهم: **(آمَنَّا بِاللهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)** دليل على ان دين اللّه واحد منذ وجد الى ما لا نهاية، و هو الإسلام، و قد جاء به جميع الأنبياء، دون استثناء، و الاختلاف انما هو في بعض الأحكام و صور العبادة، و على هذا، فكل من آمن باللّه و كتبه و رسله فهو مسلم، و ان أسمى نفسه نصرانيا أو يهوديا .. و سبق الكلام عن ذلك مفصلا عند تفسير قوله تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ- الآية ١٩ من هذه السورة».

و قول الحواريين: **(فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ)** دعاء منهم للّه سبحانه أن يجعلهم في زمرة المؤمنين الذين شهدوا للّه بالوحدانية، و لأنبيائه بالصدق و الأمانة، ليفوزوا بما فاز به المخلصون المرضيون، و ينالوا ما نالوه من الكرامة عند اللّه سبحانه.

و جاء في الكثير من التفاسير ان عدد الحواريين كان اثني عشر، و بعض المفسرين ذكر أسماءهم و مهنهم، و نحن نسكت عن ذلك لحديث: اسكتوا عما سكت اللّه عنه.

اللّه خير الماكرين:

(وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللهُ وَ اللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ). لهذه الآية نظائر كثيرة، منها الآية ٣٠ من سورة الأنفال: «وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللهُ وَ اللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ».

و الآية ٥٠ من سورة النمل: «وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ».

و الآية ٢١ يونس: «قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ».

و الآية ٩٩ الاعراف: «أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ».

و المراد بمكر الكافرين و المنافقين الحيلة و الخداع و الغدر و تبييت الشر، أما مكر اللّه تعالى فالمراد به إبطال مكر الماكرين و تدبيرهم، كما نطقت الآية ٤٣ من سورة فاطر: «وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ» .. و في القرآن صفات كثيرة أطلقت عليه سبحانه، و ظاهرها يوهم عدم جواز نسبتها اليه تعالى، مثل الشاكر و المؤمن و التواب و المتكبر، و مع التأمل و الإمعان يجدها في محلها، فان

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٦٩

معنى الشاكر انه سبحانه يجزي الشاكرين و المطيعين بالثواب، و المؤمن انه مصدر الأمان و السلام، و التواب انه يتقبل التوبة من التائبين، و المتكبر ان كل ما في الكون حقير بالنسبة اليه تعالى .. و بهذا يتبين معنا ان المكر حرام إذا قصدت به الإضرار بالغير، و حلال إذا قصدت به دفع الضرر عن نفسك أو غيرك.

و نذكر فيما يلي مثالين على إبطال اللّه لمكر الكافرين و كيدهم:

١- ان اليهود مكروا بتواطئهم على قتل عيسى، و لكن اللّه سبحانه أبطل مكرهم، حيث ألقى شبه عيسى على يهوذا الذي حرض على قتله، و رفع عيسى إلى السماء.

٢- ان قريشا أجمعوا أمرهم أن يتخلصوا من محمد، و ذلك أن يختاروا شابا من كل بطن، و يضربوه بسيوفهم، و هو نائم في فراشه، فيتفرق دمه بين الجميع .. فأبطل اللّه مكرهم، حيث أمر نبيه بالخروج من مكة، و أن ينام علي في فراشه، يوهم القوم ان محمدا لم يسافر، خوفا من اللحاق به، و استلقى عليّ في فراش ابن عمه، و جر عليه بردته .. و لما اقتحم المتآمرون الدار وجدوا عليا هو الذي يرقد في الفراش .. و ذهب اللّه بكيدهم، و ما كيد الكافرين إلا في ضلال.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٥٥ الى ٥٨]

إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٥٦) وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٧٠

الإعراب:

عيسى محله الضم، لأنه منادى مفرد، و الذين اتبعوك مفعول أول لجاعل، و فوق ظرف متعلق بمحذوف مفعول ثان، و إلى يوم القيامة متعلق بهذا المحذوف، و التقدير كائنين فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

الاختلاف في عيسى:

اختلف الناس في أمر عيسى اختلافا شديدا .. اختلفوا في أصل وجوده، و اختلفوا في طبيعته، و اختلفوا في موته .. فمن قائل: لا وجود له إطلاقا، و انما هو بطل اسطوري، ظهر هذا القول في المانيا و فرنسا و انكلترا في القرن التاسع عشر، و هو أسخف من السخف، لأنه تماما كقول من ينفي الطوائف المسيحية و الاسلامية التي تؤمن بالمسيح .. و من قائل: انه إله، و قائل: بل هو انسان، و قائل: هو إله و انسان في وقت واحد، و قالت اليهود فيه و في أمه ما يهتز له العرش.

و اختلف المسلمون فيما بينهم، فقال أكثرهم: ان المسيح لم يمت، و انه حي في السماء، أو في مكان ما بجسمه و روحه،

و انه يخرج في آخر الزمان الى الأرض، ثم يتوفاه اللّه بعد ذلك الوفاة الحقيقية .. و قال كثير من المسلمين: انه مات حقيقة، و ان الذي ارتفع الى السماء روحه، لا جسمه.

و سبب هذا الاختلاف بين المسلمين هو اختلاف ظاهر النص، فالآية ١٥٨ من سورة النساء تقول: «وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّباعَ الظَّنِّ وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٧١

رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَ كانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً». و هذه الآية ظاهرة في انه حي، بالاضافة الى أحاديث نبوية في معناها. و لكن الآية ١١٧ من سورة المائدة تقول:

«فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» .. و قريب منها الآية التي نحن بصددها، و هي: «**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ**».

فإن المتبادر من الوفاة هو الموت، و ان المعنى الظاهر أني مميتك و جاعلك بعد الموت في مكان رفيع، كما قال في إدريس: «وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا- ٥٦ مريم». و كما قال في الشهداء: أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ- ١٦٨ آل عمران.

و الذين قالوا: ان عيسى حي بجسمه و روحه أولوا (توفيتني، و متوفيك) بوجوه أرجحها- نسبيا- ان القصد هو التشبيه بالوفاة، لا الوفاة الحقيقية، لأنه إذا رفع إلى السماء فقد انقطعت علاقته بالأرض، و صار كالميت.

أما الذين قالوا: انه مات حقيقة فقد أولوا (وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ) بأن اليهود لم يقتلوا مبادئ عيسى و تعاليمه بقتله و صلبه .. و لكن خيل اليهم انهم قد قضوا على تعاليمه بذلك، مع انها ما زالت قائمة، و ستبقى الى يوم يبعثون.

و نحن نميل الى القول الأول، و ان عيسى حي رفعه اللّه اليه بعد أن توفاه بنحو من الأنحاء- غير الموت- نميل الى هذا بالنظر الى ظاهر الآية، و الى ما روي عن الرسول الأعظم (ص) من طريق السنة و الشيعة انه ما زال حيا ..

و مع هذا فلا نرى أية فائدة من التحقيق و التدقيق في هذا الموضوع، لأن الايمان بكيفية وفاته، و رفعه ليس من أصول الدين، و لا المذهب، و لا من فروعه في شيء و انما هو موضوع من الموضوعات الخارجية لا تتصل بحياتنا من قريب أو بعيد .. و اللّه سبحانه لا يسأل الناس غدا، و يقول لهم: بيّنوا كيف توفيت عيسى؟ و كيف رفعته؟ .. ان ما يجب علينا الايمان به هو ان عيسى نبي مرسل من اللّه، و انه خلق بكلمة من اللّه، و ان أمه قديسة .. هذا، الى ان البحث في هذا الموضوع لا ينتهي بالباحث الى الجزم و اليقين بكيفية وفاته، و لا بكيفية رفعه .. فالأولى إيكال ذلك إلى اللّه سبحانه [١].

---

(١) انظر ما قلنا في تفسير الآية ١٥٨ من سورة النساء.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٧٢

(إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ). بعد أن صمم اليهود على قتل عيسى، و دبروا الأمر لذلك بشّره اللّه بنجاته منهم، و إبطال مكرهم و كيدهم، و انه لن يقتل، و لن يصلب، بل يتوفاه اللّه حين انتهاء أجله وفاة طبيعية، و انه تعالى سينقله الى عالم لا يناله أحد فيه بأذى، و لا سلطان فيه لأحد عليه سوى اللّه. و هذا هو معنى قوله تعالى: **(وَ**

مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا. أي أبعدك عن ارجاسهم، و دنس معاشرتهم، و عما يريدونه بك من الشر.

(وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ). المراد بالتفوق هنا التفوق نفسا و كمالا، لا التفوق سلطانا و مالا .. و ليس من شك ان الذين آمنوا بعيسى أفضل و أكمل من الذين كذبوه.

(ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ). لا يحتاج هذا الى تفسير، لأن المعنى الظاهر هو المراد .. أجل، ان ضمير الخطاب هنا يشمل الغائبين في كل زمان و مكان من الذين اختلفوا في السيد المسيح، أو في صفة من صفاته.

(فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ). أما عذاب الكافر في الآخرة فمعلوم، و اما عذابه في الدنيا فلأنه دون المسلم في المرتبة في كثير من أحكام الشريعة الاسلامية، منها ان الكافر تجوز غيبته دون المسلم، و منها ان الكافر يقتل بالمسلم، و المسلم لا يقتل بالكافر، بل لا دية له عند كثير من الفقهاء إلا إذا كان ذميا .. على ان دية الذمي دون دية المسلم بكثير.

(وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ).

في الحديث ان الظالم و الراضي بالظلم سواء، و قال الإمام الباقر (ع): الظلم ثلاثة: ظلم يغفره اللّه، و ظلم لا يغفره اللّه، و ظلم لا يدعه اللّه، أما الظلم الذي لا يغفره اللّه فهو الشرك باللّه، و أما الظلم الذي لا يغفره اللّه فظلم الرجل نفسه بينه و بين ربه، و أما الظلم الذي لا يدعه اللّه فالاعتداء على العباد .. و قال الإمام علي (ع): ظلم الضعيف أفحش الظلم.

(ذٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ). ذلك إشارة الى ما أخبر اللّه به نبيّه من أنباء أم مريم، و مريم، و زكريا، و يحيى، و عيسى، و الحواريين،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٧٣

و اليهود الجاحدين، و المعنى: تلونا عليك يا محمد هذه الأنباء لتكون حجة و دليلا لك على من يجادلك في عيسى من وفد نجران و غيرهم .. أما كون هذه الأنباء حجة في يد محمد فلأنه أميّ لا يقرأ، و لا يصحب من يخبره بذلك، فلم يبق من مصدر لعلمه بهذه الأنباء إلا الوحي من اللّه تعالى .. و المراد بالذكر الحكيم القرآن.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٥٩ الى ٦٣]

إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هٰذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ ما مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللهُ وَ إِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

اللغة:

الامتراء الشك، و البهلة بالضم و الفتح، و معناها اللعنة، يقال: بهله اللّه، أي لعنه، ثم شاع استعماله في مطلق الدعاء، و القصص تتبّع الأثر، و منه قوله تعالى: وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ، أي تتبعي أثره.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٧٤

الاعراب:

قد يتوهم ان جملة خلقه من تراب صفة لآدم، و هذا لا يستقيم لأنها جملة مستأنفة، و جواب على سؤال مقدر، كأنّ سائلا يسأل: بأي شيء أشبه عيسى آدم؟ فأجيب بأن كلا منهما خلق من غير أب، بل وجود آدم أغرب، لأنه بلا أم أيضا .. فجملة خلقه من تراب ترتبط بآدم معنى لا لفظا، و قوله:

لهو يجوز أن يكون ضمير فصل لا محل له من الإعراب، و يجوز أن يكون مبتدأ و القصص خبر، و الجملة خبر ان.

المعنى:

(إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

قال المفسرون: ان وفد نجران اليمن قالوا لرسول اللّه (ص): مالك تشتم صاحبنا؟

– أي عيسى – قال: و كيف؟ قالوا: تقول: انه عبد. قال: أجل، هو عبد اللّه و رسوله، و كلمته ألقاها إلى مريم العذراء. قالوا: و هل رأيت إنسانا من غير أب؟ فنزل قوله تعالى: **(إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ).**

و سواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فإن هذا هو موضوعها بالذات ..

فلقد كان النصارى، و ما زالوا يحتجون لعقيدتهم بربوبية عيسى انه نشأ من غير أب .. و قد قطع اللّه حجتهم هذه، و أبطلها بآدم، فإن كان عيسى إلها أو ابن إله لأنه من غير أب فبالأولى أن يكون آدم كذلك لأنه من غير أب و ام .. و ما أجابوا عن هذا النقض، و لن يجيبوا عنه الى آخر يوم.

و تسأل: ان الظاهر من قوله تعالى: **(خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ)** ان اللّه قد أنشأ آدم و أوجده، و انتهى كل شيء، و عليه يكون الخلق متقدما على قول: **(كُنْ فَيَكُونُ)** و لم يبق أي وجه لهذا القول، لأنه إيجاد للموجود، و خلق للمخلوق ..

و بديهة ان كلام اللّه يجب أن يحمل على أحسن المحامل.

الجواب: ان اللّه خلق آدم على مراحل، منها انه خلقه من طين بلا روح،

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٧٥

ثم جعل فيه الروح، و عليه يكون المعنى: أيها الطين كن إنسانا من لحم و دم، و عاطفة و ادراك.

الأنبياء و المعصية:

(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ). أي ان هذا الذي أنزلناه عليك، و أخبرناك به عن عيسى هو الحق من ربك **(فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ).**

و تسأل: ان النبي محال أن يشك فيما أخبر اللّه به .. لأن الشك يتنافى مع الايمان فضلا عن العصمة. فما هو المبرر لهذا النهي؟.

و أجاب المفسرون بجوابين: الأول ان ظاهر الخطاب موجه الى النبي، و المقصود في الواقع غيره. الجواب الثاني: ان المراد استمرار النبي على اليقين.

و في كلا الوجهين نظر، لأنهما مبنيان على ان اللّه تعالى ليس له أن ينهى أنبياءه عن المعصية .. و الصحيح ان للّه أن ينهى الأنبياء عن المعصية .. أولا لأنه أمر من الأعلى الى من هو دونه في الرتبة و العلو. ثانيا: ان العصمة ليست طبيعة و غريزة في الأنبياء بحيث تستحيل المعصية عليهم بحسب الذات و الإمكان، و الا لم يكن لهم من فضل، و انما يستحيل صدور المعصية منهم بحسب الواقع، لا بحسب الإمكان، فيصح، و الحال هذه، أن يوجه النهي اليهم بهذا الاعتبار، و لكن من اللّه لا من غيره، إذ لا أحد فوق الأنبياء الا اللّه جلّت عظمته.

و على هذا الوجه تحمل النواهي الكثيرة الواردة في القرآن الكريم في هذا الباب، مثل قوله تعالى لحبيبه محمد (ص): (وَ

لاَ تُطِعِ الْكافِرِينَ) .. ثم ما يدرينا ان الأنبياء كانوا يحبون هذه النواهي من اللّه سبحانه، بل و يطلبونها، كما يطلب المؤمن الصالح من الأعلم الأكمل ان يعظه، و يذكّره باللّه.

المباهلة:

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعٰالَوْا نَدْعُ أَبْنٰاءَنٰا وَ أَبْنٰاءَكُمْ

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٧۶

وَ نِسٰاءَنٰا وَ نِسٰاءَكُمْ وَ أَنْفُسَنٰا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكٰاذِبِينَ). هذه هي الآية المعروفة بآية المباهلة، و هي من أمهات الكتاب.

و القصد الأول من هذه الآية الكريمة العظيمة هو تدعيم الدين الحنيف، و اثبات الرسالة المحمدية الانسانية بطريق لا عهد به للعلم و العلماء، و لا يقدر عليه أحد على الإطلاق سوى خالق الأرض و السماء، و مع ذلك يفهمه بسهولة و يسر الجاهل و العالم .. و فيما يلي حكاية هذه الآية من أولها، و لكن بإيجاز:

ترتبط هذه الآية بالسنة التاسعة لهجرة الرسول الأعظم (ص) الى المدينة، و هي السنة المعروفة بعام الوفود، لأن الناس توافدت فيه على رسول اللّه (ص) من شتى بقاع الجزيرة العربية، يخطبون وده بعد ان أعلى اللّه كلمة الإسلام، و نصر المسلمين على أعداء الدين، و قد وفد على الرسول فيمن وفد ستون رجلا من نصارى نجران اليمن، و قيل: أربعة عشر من أشرافهم .. منهم كبيرهم و أميرهم، و اسمه عبد المسيح، و الثاني مشيرهم و صاحب رأيهم، و اسمه الأيهب، و يلقب بالسيد، و الثالث حبرهم و استفهم، و كان في شرف كبير، و خطر عظيم، و قد بنى له ملك الروم الكنائس و المدارس، و خصه بالأموال و المراتب.

و رحب رسول اللّه (ص) بهم، و أكرم وفادتهم، و حين حانت صلاتهم ضربوا بالناقوس، و صلوا في مسجد الرسول إلى المشرق، فأراد الأصحاب منعهم، فقال النبي: دعوهم .. و سبقت الإشارة الى ذلك في تفسير الآية ٨ من هذه السورة.

و بعد أن استقر المقام بوفد نجران أخذوا يجادلون رسول اللّه في عيسى زاعمين تارة انه اللّه، و مرة انه ابن اللّه، و أخرى انه ثالث ثلاثة، و أوردوا أدلة سبق ذكرها و تفسيرها و إبطالها.

و الذي أبطل أدلة النصارى هو اللّه بالذات، و لكن على لسان محمد (ص)، و كان في الوفد علماء لا تخفى الحقيقة على أمثالهم، منهم أبو حارثة الرئيس الديني للوفد، و كان معه أخ له، اسمه كرز .. و بعد أن سمع أبو حارثة ما سمع من آيات اللّه البينات أسرّ إلى أخيه كرز ان محمدا هو النبي الذي كنا ننتظره ..

فقال له أخوه هذا: ما يمنعك منه ما دمت على يقين من صدقه؟ قال أبو حارثة:

ان الملوك أعطونا أموالا كثيرة، و أكرمونا، فلو آمنا بمحمد لأخذوا منا كل

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٧٧

شيء .. فوقع ذلك في قلب كرز، و أضمره في نفسه أمدا، ثم أعلن إسلامه، و حدّث عما جرى من أخيه.

و صدق هذه الرواية لا يحتاج إلى دليل، لأنها بنفسها تدل على صدقها، و تحمل قياسها معها، كما يقول أهل المنطق .. ان أكثر الذين أنكروا الحق و عاندوه كان الدافع إلى موقفهم المصالح الخاصة، و المنافع الشخصية، كما شرحنا ذلك مفصلا عند الآية ٥٤ من هذه السورة، فقرة «الحق و أرباب المنافع».

ناظر الرسول وفد نجران في صفات عيسى، و جادلهم بالحجة الدامغة، و المنطق السليم بما لا يقبل المزيد، و لما أصروا

على العناد قطع الكلام معهم، و أنهى المناظرة، و دعاهم إلى ما لا يشبه شيئا، و لا يشبهه شيء من الحجاج و النقاش، و لكنه يحسم الموقف بسرعة، و يستأصل النزاع من الجذور، دعاهم إلى التفوه بكلمة واحدة فقط لا يقدم عليها في تلك اللحظة إلا من كان على يقين من صدقه، و لا يحجم عنها إلا من كان عالما بكذبه .. و هذه الكلمة هي لعنة اللّه على الكاذبين، و لكنها تقترن بمعجزة خارقة، دونها معجزات المسيح مجتمعة، حيث تنهال على رأس الكاذب صاعقة من السماء تملأ الأرض عليه نارا.

و قد تواترت الروايات في كتب الحديث و التفسير، و منها صحيح مسلم و الترمذي، و تفسير الطبري و الرازي و البحر المحيط و غرائب القرآن و روح البيان و المنار و المراغي، و غيرها كثير، تواترت الروايات ان محمدا (ص) خرج، و عليه مرط- أي كساء غير مخيط- أسود، و قد احتضن الحسين، و أخذ بيد الحسن، و فاطمة و علي يمشيان خلفه، و هو يقول: إذا دعوت فأمنوا، فقال الرئيس الديني للوفد: يا معشر النصارى اني لأرى وجوها لو دعت اللّه أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، ثم قال: يا أبا القاسم رأينا ان لا نباهلك. فقال لهم: أسلموا. فأبوا، ثم صالحهم على أن يؤدوا الجزية.

و عاد الوفد مخذولا مرذولا، يجر وراءه ثوب الفشل، و الخزي .. و آمن بعد هذه المباهلة كثير من الذين لم يكونوا قد آمنوا بعد، كما ازداد المؤمنون إيمانا و تسليما.

تفسير الكاشف، ج۲، ص ۷۸

لقد أقدم محمد (ص)، و معه أهل بيته و أعز الناس على قلبه، أقدم على المباهلة، و هو يضمن النصر سلفا، حتى كأنه بيده .. و لا شيء أوضح و أصدق في الدلالة على نبوته من هذا الاقدام .. انه أوضح من دلالة نور الشمس على وجود الشمس .. و ما عرفت هذه المعجزة لواحد من الأنبياء، و انما كانوا يدعون على الكافرين، فيستجيب اللّه دعوتهم.

و تسأل: ان النبي دعا بعض الكفار الى الإيمان، فقالوا: «اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ- ۳۲ الأنفال». و مع هذا لم يقع العذاب بهم؟

الجواب: ان الكلام فيما نحن فيه يدور حول المباهلة، و هي لا تتحقق إلا في معرض الاحتجاج و الادعاء، و أيضا لا تجوز إلا بإذن من اللّه، أو رسوله خشية ان لا يظهر صدق الصادق .. و قول الكافرين: «فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ» ليس من المباهلة في شيء .. و لذا أخر اللّه عقابهم الى يوم يبعثون.

أهل البيت:

و مما قاله الرازي في تفسير آية المباهلة: «روي أن محمد (ص) لما خرج في المرط الأسود، فجاء الحسن رضي اللّه عنه فأدخله، ثم جاء الحسين رضي اللّه عنه فأدخله، ثم فاطمة، ثم علي رضي اللّه عنهما، ثم قال النبي (ص): (إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) و اعلم ان هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير و الحديث- ثم قال الرازي-: ان هذه الآية دالة على ان الحسن و الحسين عليهما السلام كانا ابني رسول اللّه (ص)، وعد أن يدعو أبناءه فدعا الحسن و الحسين، فوجب أن يكونا ابنيه، و مما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة الانعام: (وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ) إلى قوله:

(وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى) و معلوم ان عيسى (ع) انما انتسب الى ابراهيم (ع) بالأم لا بالأب».

و قد بحثت هذا الموضوع بحثا مطولا في كتاب «فضائل الإمام علي» و عقدت له فصلا مستقلا بعنوان «أبناء رسول اللّه».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٧٩

(إِنَّ هٰذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ ما مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ اللهُ وَ إِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ). هذا اشارة إلى ما تقدم من شأن عيسى، و انه نبي مرسل، لا ابن زنا كما يزعم اليهود، و لا هو إله أو ابن إله كما تدعي النصارى، و من يصدق و يؤمن بهذه الحقيقة فدعه يا محمد و شأنه، فان اللّه سبحانه أعلم بفساده و ضلاله، و قادر على عقابه بما يستحق.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٦٤ الى ٦٨]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

اللغة:

سواء العدل و الانصاف، و الحنيف المائل عن العقائد الزائفة.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٨٠

الإعراب:

المصدر من ان لا نعبد محل جر بدل من كلمة، و شيئا مفعول به، لأن المراد به كل شيء من انسان و غيره، و ها أنتم الهاء للتنبيه، كالهاء في هذا، و أنتم مبتدأ، و هؤلاء عطف بيان أو بدل، و جملة حاججتم خبر لأنتم، و اللام في للذين للتوكيد، و الذين خبر إن، و هذا النبي عطف على الخبر.

المعنى:

(قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ). يؤمن اليهود بالتوراة، و يؤمن النصارى بالتوراة و الإنجيل، و يؤمن المسلمون بالتوراة و الإنجيل و القرآن، و قد أجمعت هذه الكتب الثلاثة على ان وراء الكون مدبرا حكيما .. و لكن النصارى بالغوا في الغلو، فجعلوا للّه شركاء، و نسبوا له ولدا، و اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون اللّه، يحللون لهم، و يحرّمون، و يغفرون الخطايا و الذنوب، و يبيعون أذرعا في السماء .. روي ان عدي بن حاتم قال لرسول اللّه:

ان اللّه يقول في كتابه العزيز: «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ».

مع ان النصارى لا يعبدون الأحبار و الرهبان .. فقال له الرسول (ص): أما كانوا يحللون لكم و يحرّمون، فتأخذون بأقوالهم؟. قال عدي: نعم. قال (ص):

هو ذاك.

و ما زلنا، و نحن في القرن العشرين، نقرأ في الصحف و نسمع من الاذاعات ان فلانا تشرّف بمقابلة البابا، و منحه البابا البركة، و كذا يمنح البركة الكردينال و البطريرك .. أما المسلمون فإنهم يعتقدون ان البركة لا تكون و لن تكون الا من

اللّه: «رَحْمَتُ اللهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ- ۷۳ هود».

أما اليهود فقد أنكروا عيسى (ع)، و حاولوا صلبه، و كفروا بمحمد (ص)، و هم على علم من صدقه، قال تعالى: «فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكافِرِينَ».

تفسير الكاشف، ج۲، ص ۸۱

و جادل النبي أهل الكتاب بالتي هي أحسن، و أورد عليهم أنواع الدلائل، و لم يدع لهم منفذا، و لكنهم أصروا على الكفر، ثم دعاهم الى المباهلة، و لكنهم فضلوا أداء الجزية بصغار على الاعتراف بالحق .. و رغم هذا كله فقد ظل حريصا على أن يؤمنوا، و هذا شأنه مع كل جاحد، حتى خاطبه اللّه تعالى في الآية ۱۰۳ من سورة يوسف: «وَ ما أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» و في الآية ۳۷ من سورة النحل: «إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ».

و تأكيدا للحجة على المعاندين، و إظهارا لحقيقتهم لدى النبي، و الناس أجمعين قال تعالى: يا محمد دع جدالهم و مباهلتهم، و اسلك معهم هذا المنهج الذي يشهد كل ذي لب انه العدل و الحق .. بل انه البديهة و الضمير و الوجدان، و ذلك أن تدعوهم الى ما أقره العقل و الكتب السماوية بكاملها، و هو أن تستووا جميعا في عبادة اللّه وحده لا شريك له .. لا يعبد بعضكم بعضا، و لا يعلو بعضكم على بعض، و هذه هي كلمة سواء.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ). أي فإن لم يقبلوا، حتى هذه البديهة، و أبوا الا الشرك و العناد فأعرض عنهم، و قل لهم أنت و من آمن بك:

(اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ). و في إشهاد الكافرين على اسلام المسلمين فائدتان:

الأولى: اشعار الكافرين بعدم المبالاة بهم و بكفرهم، و ان محمدا و من معه يؤمنون بالحق، و به يعملون، حتى و لو كفر أهل الشرق و الغرب.

الفائدة الثانية: الاشارة إلى أن المسلمين يتميزون عن غيرهم بعبادة اللّه الواحد الأحد، و لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون اللّه، و لا لأحد منهم كائنا من كان سلطة التحليل و التحريم، و غفران الذنوب، كما هي الحال عند غيرهم.

(يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ). جادل القرآن أهل الكتاب بالعقل و المنطق، ثم دعاهم إلى المباهلة، ثم إلى كلمة سواء، و هي الإيمان باللّه وحده، ثم استأنف القرآن جدال أهل الكتاب من جديد، و عاد الى ما كان عليه أولا، كعادته من التعرض للشيء، ثم الانتقال إلى غيره، ثم الرجوع اليه .. عاد الى أهل الكتاب، و ذكر بعض أقوالهم و أبطلها، ذكر قول اليهود: ان ابراهيم كان يهوديا،

تفسير الكاشف، ج۲، ص ۸۲

و قول النصارى انه كان نصرانيا، ورد هذا الزعم بالبديهة، لأن اليهودية حدثت بعد موسى، و بينه و بين ابراهيم ألف سنة، و النصرانية حدثت بعد عيسى، و بينه و بين ابراهيم ألفا سنة، كما جاء في تفسير روح البيان، فكيف يكون السابق على دين اللاحق **(أَ فَلا تَعْقِلُونَ)**.

و يذكرنا قول النصارى و اليهود بنادرة يتناقلها اللبنانيون، و يتندرون بها، و هي أن رجلين تصاحبا صدفة في سفر، و لما أخذا بالحديث سأل أحدهما صاحبه:

هل حججت في مكة المكرمة؟ فقال له: أجل أديت ما عليّ، و الحمد للّه.

فقال له صاحبه: هل رأيت زمزم هناك؟ قال: نعم، انها بنت كويّسة ..

قال له: ويلك. انها بئر ماء، و ليست بنتا .. قال: اذن حفروها بعد ما أديت الفريضة.

و حكاية المذاهب و الفرق التي حدثت بعد الرسول الأعظم (ص) تشبه حجة هذا الرجل الى حد بعيد .. و كل من أخذ دينه عن انسان فهو من هذا النوع إلا إذا ثبت النص عليه من الرسول الأعظم (ص) كثبوت حديث الثقلين الذي أوجب الأخذ و التعبد بكتاب اللّه و أهل بيت رسول اللّه، و ساوى بينهما، و ذكرنا ذلك عند تفسير الآية ٣٩ من سورة البقرة.

(ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ).

قد يتخصص الإنسان بعلم من العلوم، أو بموضوع من الموضوعات، و عليه فله أن يجادل فيه و يناقش، و ليس من الضروري أن يكون مصيبا في جميع أقواله و جداله، و انما المهم أن يكون من أهل المعرفة به، و لو في الجملة .. اما أن يجادل و يناقش في أمر لا يعرف عنه شيئا، و يبعد عنه كل البعد، أما مثل هذا الجدال و النقاش فهو جهل و حماقة.

و أهل الكتاب لهم علم بدينهم الذي اعتقدوا بصحته، فيكون لجدالهم فيه وجه، و لو بحسب الظاهر، أما جدالهم في دين ابراهيم فلا وجه له واقعا، و لا ظاهرا، لأنهم لا يعرفون عنه شيئا.

(ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

لم يكن يهوديا، لأن بينه و بين موسى ألف سنة، و لم يلتق في عقيدته و واقعه بالديانة اليهودية، لأنها محرفة عما جاء به موسى (ع)، و لم يكن ابراهيم نصرانيا،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٨٣

لأن بينه و بين عيسى ألفي سنة، و لم يلتق بالديانة المسيحية، لأنها محرفة عما جاء به عيسى (ع) .. و إذا لم يكن ابراهيم مسلما بالمعنى المعروف فإنه في واقعه و إيمانه يلتقي مع الإسلام، لأنه يؤمن باللّه المنزه عن الشريك و الشبيه، و هذا الايمان هو الأصل الأساسي لدين الإسلام، و بهذا يتبين لنا الجواب عن سؤال من يسأل: ان القرآن أنزل بعد ابراهيم فكيف يكون مسلما؟ و سبق البحث مفصلا في أن جميع الأنبياء كانوا مسلمين عند تفسير الآية ١٩ من هذه السورة.

و الحنيف هو المائل عن الأديان الباطلة الى دين الحق، أما قوله تعالى: **(وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)** فان فيه تعريضا بالنصارى القائلين: المسيح ابن اللّه، و باليهود القائلين: عزير ابن اللّه، و بالعرب الذين كانوا يعبدون الأصنام .. و كان ابراهيم موضع إجلال هذه الفرق الثلاث.

(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ). أي ان أحق الناس بالانتساب الى دين ابراهيم الذي يجله الجميع هم الذين استجابوا لدعوته من أمته، أو يلتقون معه و يلتقي معهم في العقيدة و الإيمان، كمحمد و من معه. قال الإمام علي (ع): ان أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به، ثم تلا الآية، و قال: ان ولي محمد من أطاع اللّه، و ان بعدت لحمته، و ان عدو محمد من عصى اللّه و ان قربت قرابته. **(وَ اللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)** به، وحده لا شريك له، و لا يلجئون الى غيره في كشف الضر، و طلب النفع.

و لا شيء أدل على عظمة الإمام و إخلاصه للّه و للحق و تجرده عن الغايات و الأهداف الدنيوية من قوله هذا، و عدم تشبثه بالقرابة، مع العلم بأنه أقرب الناس لحمة للرسول (ص)، و ما ذاك الا لأنه يستمد عظمته من نفسه و أعماله لا من الأرومات و القرابات، و لا من التمويه و التغطيات.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٦٩ الى ٧١]

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (٦٩) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ

اللهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٨٤

الإعراب:

لم اللام حرف جر، و ما للاستفهام، حذفت ألفها للتخفيف، و فتحت الميم للدلالة على الألف المحذوفة، و مثلها عمّ يتساءلون، و فيم تبشرون؟.

الإسلام قوة للاديان السماوية:

(وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ ٦٩). المراد بطائفة من أهل الكتاب جماعة من رؤساء أديانهم .. و تنطبق هذه الآية كل الانطباق على المبشرين المسيحيين .. انهم يحاولون جهد المستطيع أن ينصّروا المسلم، فإن استعصى عليهم حاولوا تضليله و تشكيكه في الإسلام، مكتفين أن يكون لا دينيا .. و لكنهم بهذا يسيئون الى أنفسهم، من حيث لا يشعرون، لأن ضعف الإسلام كدين يوجه الناس الى الايمان بوجود مدبر حكيم وراء هذا الكون- يعني انهزام جميع الأديان و رؤوسها الذين يسيرون في هذا الاتجاه، و منهم القائمون على الديانة المسيحية .. و بهذا نجد تفسير قوله تعالى:

«وَ ما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ».

و لا أدري لما ذا لم يتنبه المفسرون الى هذا المعنى مع وضوحه، حيث قالوا:

ان المراد بإضلال أهل الكتاب لأنفسهم هو عقابهم غدا على محاولتهم إضلال المسلمين. أما الشيخ محمد عبده و الرازي فقد فسرا ضلالهم لأنفسهم بأن محاولة إضلال المؤمنين لم تجدهم نفعا، بل تعود عليهم بالخيبة و الفشل، إذ ما من مسلم

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٨٥

يستجيب لهم، و ينخدع بأضاليلهم .. و الصحيح ما ذكرناه من ان ضعف الإسلام هو ضعف للاديان السماوية و أهلها.

و على أية حال، فإن الإسلام بأصوله و مبادئه أقوى من أن تهزمه الديانة المسيحية و غيرها من الديانات، فلقد دخل في دين الإسلام أفواج من الوثنيين و أهل الكتاب عن رضى و اقتناع، و فيهم العلماء و المتنورون، و ما عرفنا واعيا واحدا ترك الإسلام بعد أن اعتنقه و عرف حقيقته.

قال الكونت الفرنسي هنري دي كاستري في كتاب «الإسلام سوانح و خواطر» فصل «الإسلام في الجزائر»، قال ما نصه بالحرف: «لقد شاهدنا الإسلام يبرهن على قوته و حياته باكتساب الوثنيين في افريقيا، و تجنيدهم تحت راية القرآن .. و ليس من أهل الإسلام من يمرق عنه الى غيره .. و من الصعب على أحد المسيحيين أن ينصّر مسلما، و السبب هو إعجاب المسلم كل الاعجاب بكونه من الموحدين».

و بالمناسبة أشير الى هذه النادرة الطريفة: في العشرة الثالثة من هذا القرن، أعني القرن العشرين ذهب جماعة من المبشرين المسيحيين الى مدينة العمارة بالعراق و جميع أهلها شيعة مسلمون، ذهبوا الى هذه المدينة بقصد تحويل أهلها أو البعض منهم الى النصرانية، و أنشأوا لهذه الغاية مدرسة و مستوصفا في المدينة، و بثوا الدعايات، و أقاموا الحفلات، و بذلوا الأموال الطائلة .. و كان خطيبهم يعتلي المنبر، و يعدد، و يردد معجزات السيد المسيح (ع) .. و لكن

كلما ذكر معجزة صاح المسلمون بأعلى أصواتهم: صلوات اللّه على محمد و آل بيت محمد .. و لما تكرر ذلك مرات و مرات، و لم تجدهم الأموال و المدرسة و المستوصف نفعا يئسوا و عادوا من حيث أتوا خائبين خاسرين.

(يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ). المراد بآيات اللّه هنا الدلائل على نبوة محمد (ص) و صدق القرآن، و سمو تعاليم الإسلام: **(يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)**. المراد بالحق هنا ما استبان لأهل الكتاب من صدق الإسلام و نبيه .. و قد كان بعض أهل الكتاب، و ما زالوا يدسون و يكيدون للمسلمين و دينهم، و ينسبون الى نبيهم و إليهم و الى قرآنهم الأكاذيب و الافتراء .. من ذلك على سبيل المثال: «ان محمدا كان

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٨٦

يدعو الناس الى عبادته في صورة وثن من ذهب، و انه كان يضرب بالطبل و الزمر، و انه مختل الأعصاب مضطرب العقل» الى غير هذه الألفاظ التي تدل على الحقد و الضعة و الخساسة «١».

و قال الدكتور زكي نجيب محمود في كتاب «أيام في أمريكا»: انه حضر في الولايات المتحدة تمثيلية كلها سخرية من القرآن، و ازدراء للإسلام، و استخفاف و تحقير لمحمد (ص) .. هذه هي بلاد النور و الحضارة، و التي تزعم انها تحمل شعار الدين، و تلقي قنابلها على المستضعفين باسم محاربة الإلحاد.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٧٣ الى ٧٤]

وَ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَ لا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

الاعراب:

وجه النهار منصوب على الظرفية متعلق بآمنوا، و آخره ظرف متعلق باكفروا.

---

(١) هذه البذاءات و ما اليها جاءت في مقدمة كتاب الإسلام سوانح و خواطر للفرنسي دي كاستري، نقلها المؤلف من كتب كثيرة، وضعها الغربيون للشتم و الطعن بالإسلام و نبي الإسلام، ثم فندها، ورد عليها بالحجة و منطق الحق .. و صدق اللّه حيث يقول: و من أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك و منهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك ٧٥ آل عمران.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٨٧

المعنى:

(وَ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ). أي يرجع المسلمون عن الإسلام، و تشير الآية الى خدعة تواطأ عليها جماعة من رؤساء أهل الكتاب، و خلاصتها أن يظهروا الإسلام أول النهار، و يرتدوا عنه في آخره عسى أن يقع بعض ضعاف النفوس و العقول من المسلمين في الشك و البلبلة، و يقول لولا ما ظهر لهم من عدم صدق محمد (ص) لم يكفروا بعد أن آمنوا به ..

و تسأل: هل نفذوا هذه الحيلة التي تواطئوا عليها، أو ان اللّه سبحانه أخبر نبيه و فضحهم قبل أن يقدموا على التنفيذ؟

الجواب: ان كل ما دلت عليه الآية انهم قالوا، أما وقوفهم عند حد القول، أو تجاوزهم عنه إلى الفعل فقد سكتت عنه، و نحن أيضا نسكت عما سكت اللّه عنه .. و عليه فلا وجه لما جاء في كثير من التفاسير انهم صلوا مع النبي صلاة الصبح، ثم رجعوا آخر النهار، و صلوا صلاتهم، ليرى الناس انه قد بدت لهم ضلالة الدين. اللهم الا أن يصح النقل بذلك.

(وَ لا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ). كثيرا ما يساء فهم هذه الآية، و يستشهد بها على انها من كلام اللّه سبحانه، لا من كلام اليهود، بل سمعت أكثر من واحد يلفظ بها (و لا تأمنوا) معتقدا ان اللّه سبحانه أراد بهذه الآية أن لا نأتمن إلا من كان على ديننا.

و الصحيح ان الآية بقية من كلام المعاندين الماكرين من أهل الكتاب .. و قد نقلها اللّه تعالى حكاية لكلامهم، أي ان بعض أهل الكتاب قالوا لبعضهم الآخر:

آمنوا أول النهار، و اكفروا في آخره، و قالوا أيضا: **(لا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ)**. و المراد من لا تؤمنوا، الاطمئنان، لا الأمانة و لا الاعتقاد، و إلا تعدت بالباء لا باللام، و المعنى ان بعض أهل الكتاب قال لبعض: لا تطمئنوا لأحد إلا لمن اتبع دينكم، تماما كقوله تعالى: وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ، أي يطمئن لهم.

(قُلْ إِنَّ الْهُدىٰ هُدَى اللهِ). هذه جملة معترضة خاطب اللّه بها نبيه قبل أن ينتهي من حكاية أقوال أهل الكتاب، و القصد من قوله: **(الْهُدىٰ هُدَى اللهِ)**

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٨٨

الرد على محاولة أهل الكتاب المجرمة، و خديعتهم بإظهار الإسلام، ثم اظهار الارتداد عنه، ليشككوا بذلك ضعاف العقول من أتباع الرسول الأعظم (ص)، القصد الرد عليهم بأن هذه الخديعة لا تجديهم شيئا، لأن الإسلام هداية من اللّه لا تزيله و لا تزعزعه المكائد و المصائد .. قال تعالى: «وَ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ- ٣٧ الزمر».

(أَنْ يُؤْتىٰ أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ). هذا آخر ما حكاه هنا من كلام أهل الكتاب. و خلاصة المعنى ان رؤوس أهل الكتاب كانوا يعتقدون بينهم و بين أنفسهم بأنه يجوز أن يرسل اللّه نبيا من غير بني إسرائيل، و ان النبوة ليست وقفا عليهم .. و لكنهم بعد ان جاء محمد (ص) أظهروا أمام الناس، حسدا و بغيا، ان كتبهم و ديانتهم تحتم أن يكون النبي من بني إسرائيل وحدهم، دون غيرهم، أظهروا هذا، و هم يعلمون بأنهم كاذبون و معاقبون، و محجوجون غدا عند اللّه، و خافوا أن يصل علمهم بأنهم كاذبون محجوجون عند اللّه، أن يصل الى المسلمين، فيزدادوا تمسكا بالإسلام، لذلك قال بعضهم لبعض: إياكم أن تقولوا أمام المسلمين: انّا نحن أهل الكتاب نعتقد بأنه يجوز أن يؤتي اللّه النبوة لغير اسرائيلي، أو تقولوا أمام المسلمين: انّا محجوجون غدا و مغلوبون، لكتماننا الحق و معاندته.

و بتعبير ثان ان أهل الكتاب، و بخاصة اليهود، قد علموا علما أكيدا انهم على ضلال بتكذيبهم محمدا (ص)، و خافوا أن يخبر المسلمين مخبر منهم بهذه الحقيقة، فتواصوا بالتستر على ضلالهم، و اظهار ان النبي لا يكون و لن يكون عربيا.

هذا هو خلق اليهود منذ وجدوا، حتى اليوم، و الى آخر يوم .. يكذبون و يعلمون انهم يكذبون، و يتخذون ستارا واهيا من التلبيس و التمويه، و لكن سرعان ما يفتضحون .. و ليس القرآن الكتاب الوحيد الذي سجل رذائلهم و جرائمهم فإن كتب الأديان، و بخاصة الإنجيل، و كتب التاريخ و الصحف و الاذاعات كلها تردد و تكرر تاريخهم المجرم الآثم .. و هذا هو السر في اضطهاد الأمم لهم، و التنكيل بهم من عهد فرعون الى عهد هتلر .. و ما استطاعت أمة على وجه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٨٩

الأرض قديما و حديثا ان تحتملهم الا الولايات المتحدة .. لأن شبه الشيء منجذب اليه.

(قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ). قال المفسرون:

المراد بالفضل هنا خصوص النبوة و الرسالة، و انها بيد اللّه تعالى يختار لها من هو جدير بها، و كفؤ لها، سواء أ كان اسرائيليا، أو عربيا، و انه سبحانه قد رد بذلك على اليهود الذين أعلنوا بأن اللّه لا يبعث نبيا الا منهم.

هذا ما قاله أهل التفسير، و استدلوا بأن السياق يدل عليه، لأنه بصدد الحديث عن أهل الكتاب و مزاعمهم الكاذبة، و خدعهم الباطلة.

و الذي نراه ان الفضل في الآية باق على عمومه، و انه يشمل النبوة و الحكمة و الهداية و الإسلام، و غيره من الفضائل، و كما يتحقق الرد على اليهود مع ارادة خصوص النبوة من الفضل كذلك يتحقق مع ارادة العموم، لأن النبوة من جملة أفراد الفضل و الفضيلة.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٧٥ الى ٧٦]

وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

اللغة:

المراد بالقنطار هنا العدد الكثير، و بالدينار العدد القليل، و المراد بالأميين

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٩٠

العرب نسبة الى الأم، أي من لا يقرأ و لا يكتب، كما خلقته أمه، و العهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك.

الإعراب:

يجوز أن تقول: أمنتك بهذا بمعنى وثقت بك فيه، و ان تقول: أمنتك عليه بمعنى جعلتك أمينا عليه، و يجوز أن تقول: مررت به، أي ملاصقا، و مررت عليه، أي على المكان القريب منه، و بلى تستعمل كثيرا جوابا عن نفي سابق لتثبته، و قد تستعمل في ابتداء الكلام، كما لو قال قائل: أنا من المخلصين، فتقول له: بلى من جاهد في سبيل اللّه فهو مخلص، و المراد بها هنا المعنى الأول.

المعنى:

(وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ). المراد ان في أهل الكتاب من هو في غاية الأمانة، حتى لو ائتمنته على الأموال الكثيرة أدى الأمانة، و فيهم من هو في غاية الخيانة لا يؤتمن على الدينار الواحد .. و ذكر الأمانة على المال دون غيره، لأنه هو المحك الصحيح الذي يميز بين السليم و السقيم.

لا حياة الا للمستميت:

(إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً). الخائن يطلب أكثر من حقه، و لا يؤدي ما عليه، أو بعض ما عليه بدافع من نفسه، لأنه ميت الضمير، و لا وسيلة لانتزاع الحق منه الا القيام عليه، كما قال جلت حكمته، و معنى القيام على الخائن المغتصب أن تثور عليه، و تجاهده و تناضله بكل ما لديك من قوة .. و قديما قيل:

«الاستقلال يؤخذ، و لا يعطى».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٩١

و الثورة على الخائن المبطل فرض و حتم، و الا عم الفساد في الأرض .. ان جريمة المظلوم القادر على دفع الظلم عن نفسه، تماما كجريمة الظالم من حيث ان كلا منهما يمهد لاشاعة الظلم و الفساد .. و لو علم الظالم ان بين جوانح المظلوم عاطفة تدفعه الى الاستماتة دون حقه لتحاماه .. و قد دلتنا التجارب انه لا حق في الأمم المتحدة، و لا في مجلس الأمن الا للقوة، و انه لا حياة للإنسان في القرن العشرين، بخاصة الشرقي، و بوجه أخص العربي الا للمستميت.

(ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ). و المعنى ان أهل الكتاب انما استحلوا أموال العرب لأنهم زعموا بأن اللّه سبحانه لا يعاقبهم على اغتصابها «١» ..

فرد اللّه افتراءهم هذا بقوله: **(وَ يَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ)**.

و ليس من شك ان من كذب على اللّه عامدا متعمدا كانت خيانته أعظم، و جريمته أفحش.

و تسأل: ان كل الطوائف، و أهل الأديان، بل و الملحدين أيضا فيهم الأمين و الخائن و الصادق و الكاذب .. و كم من ملحد هو أصدق لهجة، و أوفى ذمة من كثير من الصائمين المصلين .. اذن ما هو الوجه لتخصيص أهل الكتاب بهذا التقسيم؟.

الجواب: أولا سبق ان اللّه سبحانه قال: ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم. ثم قال أيضا: و قالت طائفة من أهل الكتاب: آمنوا أول النهار، و اكفروا آخره، و بيّن في هذه الآية ان منهم الخائن و الأمين، و لم ينف هذا التقسيم عن غيرهم، حتى يرد الاعتراض.

ثانيا: انه من الجائز ان يتوهم متوهم بأن جميع أهل الكتاب خونة، فدفع اللّه هذا الوهم بأنهم كسائر الطوائف، و أهل الأديان فيهم، و فيهم ...

(بَلىٰ مَنْ أَوْفىٰ بِعَهْدِهِ وَ اتَّقىٰ فَإِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ). بلى اثبات لما نفاه أهل الكتاب بقولهم: **(لَيْسَ عَلَيْنٰا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)**. و انهم كاذبون في هذا الزعم .. و بعد ان أثبت سبحانه السبيل على من يستحل أموال الناس أخبر بأن

---

(١) لا أدري: هل الدول الغربية التي تنهب مقدرات الشعوب العربية من نسل الذين قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٩٢

من يفي بالعهد، و يتقي المحرمات فهو محبوب عند اللّه .. و جاء في الحديث عن النبي انه قال: ما من شيء في الجاهلية الا هو تحت قدمي الا الأمانة فإنها مؤداة الى البر و الفاجر.

و قال الإمام زين العابدين (ع): لو ان قاتل أبي الحسين ائتمنني على السيف الذي قتل به أبي لأديته اليه .. و قال الإمام جعفر الصادق (ع): ثلاثة لا عذر فيها لأحد: أداء الأمانة الى البر و الفاجر، و بر الوالدين برين كانا، أو فاجرين، و الوفاء بالعهد الى البر و الفاجر .. و من هنا اتفق فقهاء الشيعة الإمامية على ان الكافر إذا أعلن الحرب على المسلمين يحل دمه، و لا تجوز خيانته، فلو افترض انه كان قد أودع مالا عند مسلم وجب على المسلم أن يرد له أمانته، مع العلم بأنه يجوز له

قتله، و نهب أمواله غير الأمانة.

[سورة آل‌عمران (٣): آية ٧٧]

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

المعنى:

قال الرازي في تفسير هذه الآية: «يدخل فيها جميع ما أمر اللّه به، و يدخل ما نصب عليه الأدلة، و يدخل المواثيق المأخوذة من جهة الرسول، و يدخل ما يلزم الرجل به نفسه، لأن كل ذلك من عهد اللّه الذي يلزم الوفاء به».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٩٣

و في الحديث ان رسول اللّه (ص) ما خطب خطبة الا و قال فيها: «لا ايمان لمن لا أمانة له، و لا دين لمن لا عهد له».

و تدلنا هذه الآية و هذا الحديث، و غيرهما كثير من الآيات و الأحاديث، تدلنا ان الإسلام يرتبط بالأخلاق ارتباطا وثيقا، و من ثم أوجب الوفاء بكل التزام و تعامل يقع مع الغير، و اعتبره تعاملا مع اللّه و التزاما له بالذات، حتى و لو كان الطرف الثاني ملحدا، على شريطة ان لا يتنافى الالتزام مع المبادئ الأخلاقية، و الا وقع باطلا.

و كذلك الحال بالنسبة الى القضاء و فصل الخصومات، حيث أوجب الإسلام على القاضي أن يصغي الى صوت الضمير و حجة الأخلاق قبل أن يستمع الى أقوال المتخاصمين .. ان النظرية الأخلاقية هي الركيزة الأولى للشريعة الإسلامية بجميع قواعدها و أحكامها، دون استثناء، و من أجل هذا هدد اللّه الذين ينكثون بالعهد، و يغدرون بالأمانة بما لم يهدد به أحدا من مرتكبي الكبائر و الجرائم، و ذلك حيث يقول عز من قائل: **(أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ)**. أما السر لهذا الحرص الشديد على الوفاء، و التهديد على مخالفته فهو الحفاظ على المصالح، و تبادل الثقة بين الناس، و صيانة الحقوق التي هي أساس الأمن و النظام.

[سورة آل‌عمران (٣): آية ٧٨]

وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٩٤

المعنى:

(وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ). هذه الآية عطف على الآية التي قبلها، و هي (مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ). و اللّيّ معناه عطف الشيء ورده عن الاستقامة الى الاعوجاج، و المراد به هنا التحريف، و قد سجل اللّه على أهل الكتاب انهم حرّفوا كلام اللّه و سجل ذلك عليهم في العديد من الآيات، منها: «تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً- ٩١ الانعام»، و منها: «.. يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ- ٧٥ البقرة. و من اطلع على التوراة جزم بأنها افتراء على اللّه، حيث نسبت اليه تعالى الأكل و المصارعة، كما نسبت الى الأنبياء السكر و الخمر و الزنا ببناتهم.

ثم ان التحريف يتحقق بالتطعيم و التقليم، كأن يزاد في الكتاب، أو يحذف منه، و أيضا يتحقق بتحريف الحركات تحريفا يغير المعنى، فيجعل الفاعل مفعولا، و المفعول فاعلا، و أيضا يتحقق التحريف بالتفسير، فيفسر- مثلا- يد اللّه باليد الحقيقية، لا باليد المجازية، و هي القدرة.

و اختلف المفسرون في نوع التحريف المراد بهذه الآية على أقوال، و ذهب الشيخ محمد عبده الى أن المراد بالتحريف هنا تحريف التفسير، و إعطاء اللفظ معنى غير المعنى المراد منه، و ضرب مثلا على ذلك بلفظ (أبانا الذي في السماء) الذي جاء على لسان السيد المسيح فإن المراد منه رأفة اللّه و رحمته بعباده، و لكن بعض الرؤوس فسّره بأن اللّه أب حقيقي لعيسى (ع).

و الذي نميل اليه في تفسير هذه الآية ان ذاك الفريق من أهل الكتاب كان يلوك ألفاظا من عنده ياته، و يخترعها من مخيلته، و يوهم الناس انها من كتاب اللّه، كي يعتقدوا بالباطل .. و على هذا يكون لفظ الكتاب الأول الوارد في الآية موصوفا بصفة محذوفة، و هي المزعوم، و لفظ الكتاب الثاني و الثالث موصوفا بصفة محذوفة أيضا، و هي الحقيقي، و التقدير يلوون ألسنتهم بالكتاب المزعوم المحرّف لتحسبوا أيها الناس هذا المحرّف المزعوم من الكتاب الحقيقي الأصيل، و ما هو من الكتاب الأصيل في شيء.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٩٥

أما قوله تعالى: **(وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ)** فتأكيد لقوله: **(وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ)**. و قيل: بل هو من باب عطف العام على الخاص، لأن الكتاب مختص بالوحي المنزل على النبي، أما الذي من عند اللّه فيكون وحيا منزلا على النبي، و يكون سنة نبوية، و يكون حكما عقليا.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٧٩ الى ٨٠]

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

اللغة:

ربانيين جمع واحده رباني، و معناه المتألّه الذي يعلم كتاب اللّه، و يعمل به، و يعلّمه للغير، قال الإمام علي (ع): الناس ثلاثة: عالم رباني، و متعلم على سبيل نجاة، أي يسير على طريق النجاة، و لا ينجو الا إذا أتقن العلم، و همج رعاع.

الإعراب:

يقول بالنصب عطفا على أن يؤتيه و بما كنتم ما مصدرية، أي بكونكم، و لا يأمركم بالنصب عطفا على يقول.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٩٦

المعنى:

(ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ). ليس من شك ان الذي يختاره اللّه للكتاب و الحكم و النبوة يمتنع عليه أن يدعو الناس لعبادته، لأن هذا كفر، و اللّه لا يختار الكافرين، قال تعالى: «وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ».

و الآية الكريمة رد على من يلصق بالأنبياء و الأولياء صفة من صفات الربوبية، كما انها- أي الآية- شهادة منه تعالى بتنزيه الأنبياء، و تبرئتهم من الرضا بالغلو فيهم .. ان النبي يوقن بأنه عبد من عباد اللّه، و ان اللّه وحده هو المعبود، فكيف يعقل أن يدعو الناس لعبادته، أو عبادة الملائكة .. و انما يأمرهم أن يكونوا ربانيين، أي عالمين عاملين معلمين.

و في الحديث ان رجلا قال لرسول اللّه (ص): أ نسجد لك؟. فقال: لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون اللّه. و قال له آخر: أ تريد أن نعبدك، و نتخذك إلها؟. فقال: معاذ اللّه!. ما بذلك أمرت، و لا اليه دعوت .. أما حكاية إحراق الإمام علي في النار من نسب اليه الربوبية فأشهر من أن تذكر .. و كل من دعا الناس الى عبادته فهو كافر، و كل من دعاهم الى تعظيمه بقصد التعاظم و الاستعلاء فهو فاسق.

و تسأل: لقد تضمنت الآية ثلاثة ألفاظ: الكتاب و الحكم و النبوة، و كل لفظ منها واضح المعنى لا يحتاج الى تفسير لو كان بمفرده، لكنها إذا اجتمعت في كلام واحد، و عطف بعضها على بعض فإنها تحتاج الى تفسير، لأن معانيها متداخلة، بخاصة إيتاء الكتاب و النبوة، مع العلم بأن العطف يقتضي التغاير ..

فما وجه الفرق بين هذه الكلمات الثلاث الذي سوغ عطف بعضها على بعض؟.

الجواب: المراد بالكتاب الكتاب المنزل من اللّه، كالتوراة و الزبور و الإنجيل و القرآن، و المراد بالحكم العلم و السنة النبوية، قال تعالى عن يحيى: «وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا- ١١ مريم»، أما النبوة فمعناها معروف، و هي و ان كانت تستلزم معرفة الكتاب و السنة، و لكن معرفتهما لا تستلزم النبوة، فكل نبي عالم بالكتاب

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٩٧

و السنة، و ليس كل عالم بالكتاب و السنة نبيا. و نظير هذه الآية قوله تعالى مشيرا الى الأنبياء «أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ- ٨٩ الانعام.»

(وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ). أي ان النبي يقول للناس: «كونوا عالمين بكتاب اللّه، عاملين به، معلّمين إياه لغيركم». قال الشيخ محمد عبده: «أفادت هذه الآية ان الإنسان يكون ربانيا بعلم الكتاب و تعليمه للناس و نشره، و من المقرر ان التقرب الى اللّه لا يكون بالعلم وحده، بل لا بد معه من العمل».

(وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً). أي ان النبي لا يأمر، و لن يأمر أحدا بأن يتخذ معبودا غير اللّه .. كيف؟. **(أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)**. هم مسلمون، لأنهم آمنوا بالنبي، و أخذوا بأقواله .. و كل من آمن بنبي من أنبياء اللّه في أي عصر من العصور فهو مسلم باصطلاح القرآن.

و سبق التفصيل عند تفسير الآية ١٩ من هذه السورة.

و من تتبع آيات القرآن، و السنة النبوية يجد ان من أبرز المظاهر الأصيلة التي تميز بها الإسلام عن غيره من الأديان هي التأكيد على انه لا يجوز بحال أن تنسب صفة الألوهية الى مخلوق نبيا كان أو ملكا أو وليا .. و السر في التكرار و التأكيد ان الإنسان ميّال بفطرته الى الغلو، كما نشاهد ذلك في بعض أهل الأديان ..

و على الرغم من هذا التأكيد فقد وجد غلاة بين المسلمين .. و ان كثيرا من مسلمي اليوم- و نحن في القرن العشرين- ينسبون الى بعض الموتى ما لا تجوز نسبته الا الى اللّه وحده لا شريك له.

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٨١ الى ٨٣]

وَ إِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ

أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي قٰالُوا أَقْرَرْنٰا قٰالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشّٰاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلّٰى بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ (٨٢) أَ فَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٩٨

اللغة:

الميثاق العهد المؤكد، و مثله الإصر.

الإعراب:

لما آتيتكم يجوز كسر اللام على أنها حرف جر، و ما مصدرية، و المعنى أخذ اللّه ميثاقهم لأجل ايتائه إياهم الكتاب و الحكمة، و يجوز أن تكون اللام مفتوحة على انها للابتداء، و يعبر عنها بلام التوطئة أيضا، و ما شرط في محل نصب على انها مفعول لآتيتكم، ثم جاءكم معطوف على آتيتكم، و لتؤمنن اللام جواب لقسم محذوف، و تؤمنن سادّ مسد جواب القسم، و جواب الشرط، و هو لفظة ما كما قال الزمخشري، و طوعا و كرها قائمتان مقام المفعول المطلق، أي أسلم إسلاما طوعا، و يجوز أن يكونا بمعنى الحال، أي طائعين و مكرهين.

بين النبي و المصلح:

لا فرق بين النبي و المصلح من حيث الصدق في النية، و الإخلاص في العمل، و يفترق النبي عن المصلح بأن النبي لا يخطئ، لأنه يقول و يفعل بوحي من اللّه، أما المصلح فيعتمد على نظره و اجتهاده، و المجتهد يخطئ و يصيب، و من ثم

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٩٩

أمكن الاختلاف بين المصلحين في الاجتهاد و وجهة النظر، و صح نفي المسئولية عن المخطئ، أما الاختلاف بين الأنبياء فمحال، لأنهم جميعا يعتمدون على مصدر واحد، و هو الوحي الذي يوجه الجميع، فالأنبياء أشبه بموظفي الدولة لتبليغ أوامرها الى الرعايا و المواطنين.

و يترتب على هذا ان اللّه إذا بعث نبيين الى أمة واحدة، و في عصر واحد فإنهما يكونان متفقين في كل شيء، كما حدث لموسى و هارون (ع)، و إذا اختلف زمن الأنبياء و تعدد فإنهم متفقون جميعا، من حيث الفكرة و المبدأ، بخاصة في الأصول الأساسية، كالإيمان باللّه و اليوم الآخر، و ان كان هناك من اختلاف فإنما هو في الشكل، و في الأحكام العملية التي تستدعيها بعض الظروف و الملابسات ..

حتى هذه يعترف جميع الأنبياء بأنها صدق و حق، و ضرورية في حينها، و عليه فلا اختلاف بين الأنبياء إطلاقا .. و من أجل هذا صدّق كل نبي ما جاء به الآخر متقدما عليه كان أو متأخرا عنه.

و تسأل: من الممكن أن يصدّق اللاحق السابق، بل ان ذلك واقع بالفعل، فها نحن نؤمن بنبوة عيسى و محمد (ص) .. و آمن ابراهيم بما جاء به نوح، و موسى بما جاء به الاثنان، و عيسى بما جاء به الثلاثة، و آمن محمد (ص) بالجميع ..

ان هذا معقول جدا، و لكن كيف يعقل ان يؤمن السابق بمن لم يوجد بعد؟.

الجواب: ان اللّه سبحانه يوحي إلى النبي السابق بأنه سيرسل بعده نبيا اسمه و صفاته كذا، و ان على السابق أن ينوّه باللاحق، و يبلّغ الجيل الذي هو فيه من أمته، حتى يبلغ الجيل الذي يليه، و هكذا فإذا أتى اللاحق وجد السبيل ممهدا

لتصديقه و الايمان برسالته .. ذكرنا هذه الفقرة تمهيدا و تيسيرا لفهم الآيات التالية.

المعنى:

(وَ إِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ). المفهوم من دلالة السياق ان المراد بالنبيين هنا الأنبياء و الأمم التابعة لهم، لا الأنبياء وحدهم، و المراد بالرسول خصوص

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٠٠

محمد (ص) كما في الآية ١٠١ من سورة البقرة: «وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ».

و المعنى ان اللّه سبحانه بعد أن بيّن للأنبياء، و الأمم التابعة لهم الدين أصولا و فروعا أخذ عليهم جميعا عهدا بأن يؤمنوا بمحمد (ص) و يناصروه، كما انه هو بدوره يصدّق من سبقه من الأنبياء، و ما تركوه من الكتب، كالتوراة و الإنجيل.

ثم ان أخذ اللّه سبحانه الميثاق من الأنبياء انما يكون بطريق الوحي اليهم، أما أخذه تعالى الميثاق من الأمم التابعة للأنبياء فيكون بواسطة الأنبياء، أي ان كل نبي يأخذ الميثاق من علماء أمته أن يؤمنوا بمحمد و يناصروه، و بتعبير أدق ان أخذ الميثاق على المتبوع يلزمه حتما أخذه على التابع، و إذا وجب على النبي أن يؤمن بمحمد وجب ذلك على اتباعه بطريق أولى، و معنى ايمان الأنبياء بمحمد و مناصرته، أن يعتقدوا بأنه آت من بعدهم، و أن يبشروا بذلك، قال تعالى: «وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ- ٦ الصف». و قال الإمام علي (ع): ما بعث اللّه نبيا إلا أخذ عليه العهد في محمد (ص) و أمره أن يأخذ العهد على قومه فيه، بأن يؤمنوا به، و يناصروه إذا أدركوا زمانه.

و معنى ايمان أمم الأنبياء بمحمد (ص) و مناصرتهم له ان يصدقه علماؤهم و رؤساء أديانهم، و يعلنوا لمن يثق بهم ان محمد بن عبد اللّه هو النبي الذي بشر به الأنبياء، و جاء اسمه في الكتب السماوية، بحيث ينطبق عليهم قوله تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ- ١٥٧ الاعراف».

و لا يحرفون كلام اللّه كفرا و عنادا له و لمحمد (ص)، كما أخبر عنهم سبحانه في الآية ٧٥ من سورة البقرة: «وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ».

(قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا). الاستفهام هنا للتقرير و التوكيد، و الإصر الميثاق، و المعنى ان اللّه قال للأمم بلسان أنبيائهم: أ أقررتم بمحمد و قبلتم العهد؟ قالت الأمم: نعم، أقررنا بوجوب الإيمان به و بمناصرته، و قبلنا ذلك و التزمناه، و المراد بالأمم رؤساء الأديان و علماؤهم العارفون بالكتب

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٠١

السماوية. **(قالَ فَاشْهَدُوا)**. أي قال اللّه بلسان أنبيائه للأمم: ليشهد بعضكم على بعض بأنه أقر بنبوة محمد (ص) و وجوب مناصرته. **(وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)**.

ان اللّه و ملائكته و أنبياءه يشهدون على أخذ هذا الميثاق من علماء الأديان و إقرارهم به .. و لكن برغم ذلك فقد أنكر أحبار اليهود و النصارى هذا الميثاق، و كذبوا محمدا، و نصبوا له المكائد و المصائد، كما سبق ذلك مفصلا فيما تقدم من الآيات.

(فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذٰلِكَ). أي من أعرض عن الايمان بمحمد بعد أخذ الميثاق عليه، و الإقرار بمحمد و وجوب مناصرته (فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ). المراد بالفسق هنا الكفر، لأن كل من حرّف آية من كتاب اللّه، أو أنكر نبيا من أنبياء اللّه على علم منه بنبوته فهو كافر.

(أَ فَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً).

الاستفهام هنا للإنكار و التوبيخ، و المراد بالإسلام الانقياد و الخضوع. و كل الناس تؤمن باللّه من غير فرق بين الصالح و الطالح، سوى ان الصالح يؤمن باللّه طوعا في هذه الحياة، و الطالح يؤمن به كرها يوم القيامة، حيث ينكشف الغطاء، و يرى كل جاحد البأس و العذاب وجها لوجه، قال تعالى: «فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكِينَ- ٨٤ غافر».

و هذا المعنى الذي فسّرنا به طوعا و كرها لا يصعب على أحد فهمه و هضمه مهما كان مستواه .. و لكن الرازي فسّر (طَوْعاً وَ كَرْهاً) تفسيرا فلسفيا على طريقته، و ما قاله قريب الا انه للخاصة، لا للعامة، و ننقله لأولئك لا لهؤلاء، قال:

«ان كل ما سوى اللّه سبحانه ممكن لذاته، و كل ممكن لذاته فإنه لا يوجد الا بإيجاده، و لا يعدم الا بعدمه، فإذن، كل ما سوى اللّه منقاد خاضع لجلال اللّه في طرفي وجوده و عدمه، و هذا نهاية الانقياد و الخضوع».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٠٢

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٨٤ الى ٨٥]

قُلْ آمَنّا بِاللهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى وَ عِيسى وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (٨٥)

المعنى:

مرّت الآية الأولى مع تفسيرها في الآية ١٣٦ من سورة البقرة، و الخلاصة ان كلا من اليهود و النصارى يؤمنون ببعض الأنبياء، و يكفرون ببعض، أما المسلمون فإنهم يؤمنون بالجميع لأن دعوة الأنبياء واحدة، و هدفهم واحد، فالتفرقة بينهم من حيث الايمان بنبوتهم حكم على الشيء الواحد بالسلب و الإيجاب في آن واحد.

أما الآية الثانية، و هي قوله تعالى: (وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) فيعرف المراد منها من مراجعة تفسير قوله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ) الآية ١٩ من هذه السورة.

و تجمل الاشارة الى اني رأيت البعض يستدل بالآية ٦٢ من سورة البقرة:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى وَ الصّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» يستدل البعض بهذه الآية على انه لا فرق بين المسلم و اليهودي و النصراني ما دام كل منهم يؤمن باللّه و اليوم الآخر .. و هذا خطأ من وجهين: الأول ان المراد بالمذكورين في الآية كل من مات على الايمان و العمل الصالح من أهل الأديان السابقة على محمد (ص). و قد بيّنا ذلك مفصلا عند تفسير الآية. الثاني ان

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٠٣

لفظ الآية و ان كان عاما بظاهره لكل زمان الا ان قوله تعالى: (وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) يخصص

آية اليهود و النصارى بالمؤمنين منهم قبل عصر محمد (ص)، أما من آمن باللّه و اليوم الآخر، و لم يؤمن بمحمد بعد بعثته مع بلوغه دعوته فإن إيمانه ليس بشيء (وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ).

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٨٦ الى ٨٩]

كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ اللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

الإعراب:

كيف أصلها الاستفهام عن الأحوال، و المراد بها هنا الإنكار، و محلها النصب بيهدي على انها مفعول مطلق، أي أية هداية يهدي اللّه، و شهدوا ان الرسول حق عطف على بعد ايمانهم، حيث يجوز عطف الفعل على الاسم إذا كان الاسم بمعنى الفعل، و بعد ايمانهم هنا بمعنى بعد أن آمنوا.

المعنى:

(كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٠٤

الْبَيِّناتُ). المراد بالرسول محمد (ص)، و بالقوم أحبار اليهود و النصارى، لأن اللّه سبحانه وصف هؤلاء القوم بأنهم آمنوا به، و شهدوا له بالرسالة، و لكنهم بعد ان بعث، و جاءهم بالبيّنات و الدلائل على نبوته أنكروه، و رفضوا متابعته، و هذه الأوصاف تنطبق كل الانطباق على أحبار اليهود و النصارى، لأنهم وجدوا اسم محمد مكتوبا عندهم في التوراة و الإنجيل، و انهم لذلك آمنوا به قبل مبعثه ..

غير انهم لما بعث، و جاءهم بالبينات كفروا به بغيا و حسدا، و حرّفوا كل آية تدل عليه تصريحا أو تلويحا.

و تسأل: ان الظاهر من قوله تعالى: (كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ) ان اللّه سبحانه لا يريد رجوعهم الى الإسلام لو حاولوا التوبة و الإنابة.

و ينبغي على هذا أن لا يستحقوا ذما و لا عقابا؟.

الجواب: ان اللّه سبحانه يقيم للعبد الدلائل على الحق فإن آمن به كان من المهتدين، و كانت هدايته من اللّه، لأنه أقام له الدلائل على الحق، و أيضا تكون الهداية من العبد، لأنه اهتدى باختياره، فإن ارتد بعد الهداية مكابرة و عنادا فإن اللّه يدعه و شأنه في هذه الحياة، و لا ينصب له دلائل جديدة، حيث لا مزيد، و أيضا لا يجبره على الهداية، لأنه لا تكليف مع الجبر و القهر.

(أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ). أي انهم مستحقون لذلك، و لعنة اللّه عبارة عن غضبه و سخطه، و لعنة الملائكة و الناس عبارة عن الدعاء عليهم بأن يعذبهم اللّه، و يبعدهم عن رحمته. و جاء في نهج البلاغة ان عليا أمير المؤمنين (ع) كان يخطب على منبر الكوفة: فاعترضه الأشعث قائلا: يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك. فقال له أمير المؤمنين:

ما يدريك ما عليّ مما لي، عليك لعنة اللّه، و لعنة اللاعنين. قال الشيخ محمد عبده معلقا على ذلك: «كان الأشعث في أصحاب علي كعبد اللّه بن أبيّ في أصحاب رسول اللّه (ص)، كل منهما رأس النفاق في زمنه».

(خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ). ضمير فيها يعود الى جهنم بقرينة قوله: (لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ). و لا ينظرون معناه لا يمهلون، بل يعجل لهم ما يستحقون من العذاب. (إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ). جاء في الحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٠٥

له». و قال الإمام علي (ع): ما كان اللّه ليفتح لعبد باب التوبة، و يغلق عليه باب المغفرة.

و تسأل: إذا أسلم، ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام، و لكنه تهاون في الأحكام لا في الأصول، كما لو ترك الصوم و الصلاة عن كسل و تهاون فهل تقبل توبته؟

الجواب: أجل، انها مقبولة، لأن التوبة كانت عن الكفر بالذات، لا عن الصوم و الصلاة، أما قوله تعالى: (وَ أَصْلَحُوا) فان المراد منه أصلحوا ضمائرهم، و ثبتوا على الإسلام، و لم يرتدوا عنه ثانية.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٩٠ الى ٩١]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدىٰ بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٩١)

الإعراب:

كفرا تمييز، و مثله ذهبا.

المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ). معنى الكفر بعد الايمان واضح، أما ازدياد الكفر فيكون بكثرة الذنوب التي يصيبها

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٠٦

المذنب، و أعظمها العمل على بث الكفر و انتشاره، و محاربة المؤمنين، لا لشيء إلا لأنهم مؤمنون.

و تسأل: ان اللّه حكم في الآية السابقة بقبول توبة من كفر بعد الإيمان، ثم حكم في هذه الآية بعدم قبولها، فما هو وجه الجمع؟.

و أجاب المفسرون بأجوبة أرجحها ان الكافر بعد الايمان على ثلاثة أقسام:

أحدها من تاب توبة نصوحة، و هو الذي ذكره اللّه في قوله: (إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا). ثانيها: من تاب توبة زائفة، و هو الذي ذكره تعالى بقوله: (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ). ثالثها: من مات على الكفر، و هو المذكور بقوله: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ).

و الذي نراه في الجواب ان الإنسان قد يشعر بصحة شيء، أو فساده، ثم تعرض بعض الملابسات تخيل اليه ان شعوره قد تغير من الصحة الى الفساد، أو من الفساد الى الصحة، مع ان شعوره في واقعه هو هو لم يتغير فيه شيء، أما اعتقاد التغيير فمجرد و هم و خيال، و كذلك الحب و البغض، فقد يسيء ولدك اليك، فيلوح لك انه أبغض الناس إلى قلبك، و انك تود هلاكه، و لكن عاطفة الأبوة تكمن في قرارة نفسك دون أن تشعر .. و كم شاهدنا من يفعل و يترك بوحي من المحاكاة و التقليد، أو العاطفة و العادة، و هو يعتقد ان ذلك بوحي من الدين و العقل.

و كذلك يلوح لكثير من التائبين من ذنوبهم انهم تابوا توبة نصوحة، و هم في الواقع باقون على ما كانوا، و هؤلاء

التائبون هم المعنيون بقوله تعالى: (لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ). أما المعنيون بالآية السابقة، و هي قوله سبحانه: (إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا) فهم التائبون حقا و صدقا.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدىٰ بِهِ). ليس من شك ان من ختم حياته بالكفر، و مات عليه حوسب حساب الكافرين.

و لك أن تسأل: انه لا ذهب يوم القيامة، و لا وسيلة لامتلاكه، و لا إنفاقه، فما هي الفائدة من ذكره؟

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٠٧

الجواب: القصد انه لا طريق للافتداء بحال من الأحوال، و بديهة ان فرض المحال ليس بمحال .. و مما قاله الإمام علي (ع) في وصف جهنم: «لا يظعن مقيمها، و لا يفادى أسيرها».

[سورة آل‌عمران (٣): آية ٩٢]

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

المال هو المحك الآية ٩٢ المراد بالبر هنا إكرام اللّه، و تفضله على عبده .. و قد سبق تفسير العديد من الآيات التي حثت على الإنفاق، و لكن لهذه الآية ميزة على كل آية وردت في هذا الباب. لأنها لم تأمر بالإنفاق و كفى، كغيرها من الآيات، بل ربطت بين نيل الإنسان الدرجات العلى عند اللّه سبحانه، و بين إقدامه على التضحية بما يحب، فالعبادة المجردة عن التضحية لا تقرّب من اللّه بموجب دلالة هذه الآية، و كذا سائر الأعمال إلا ان ينطبق عليها نوع من الفداء و التضحية في سبيل اللّه.

و على هذا يكون قوله تعالى: (لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) بيانا و تفسيرا لكل آية و رواية حثت على العمل من أجل مرضاة اللّه، و القرب منه، بيانا و تفسيرا بأن القرب منه تعالى لا يحصل، و لن يحصل لأحد الا إذا بذل من نفسه و ماله ما يحب .. و كأنّ الإمام علي (ع) أخذ من هذه الآية قوله: لا حاجة للّه فيمن ليس للّه في ماله و نفسه نصيب.

ان البذل مما تشح به النفس، و تحرص عليه، بخاصة المال هو المحك المميز بين الايمان الدخيل و الأصيل .. فلقد كان المال، و لا زال معبود الملايين، و ان كثيرا من الناس يخيل الشيطان اليهم انهم يعبدون اللّه سبحانه، و هم في حقيقتهم و واقعهم يعبدون الدرهم و الدينار، و لكنهم لا يشعرون.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٠٨

جاء في بعض الروايات ان إبليس كان قبل ضرب الدرهم و الدينار في شغل شاغل، لإغواء الناس، و صرفهم عن عبادة الرحمن الى عبادة الأوثان، و لا يجد فترة من راحة في ليل و لا نهار .. و بعد ان دارت الأيام، و ضرب الدرهم و الدينار تنفس إبليس الصعداء، و فرح فرحا لم يفرح مثله من قبل، و أقام حفلات الأنس و الطرب، و كان يرقص، و هو يضع الدرهم على احدى عينيه، و الدينار على الثانية، و يقول: لقد أرحتماني .. و لست أبالي بعد اليوم أعبد كما الناس، أم عبدوا الأوثان ..

و سواء أكانت هذه الرواية قضية في واقعة، أم كانت أسطورة من الأساطير فإنها تصوير صادق و رائع لعدم الفرق بين المال، و عبادة الأوثان، فكل منهما يصرف عن اللّه و الحق، بل ان عبادة المال أسوأ أثرا، و أكثر ضررا، لأن المال مادة الشهوات، و مصدر الفساد في كثير من الأحيان .. فالذين خانوا أوطانهم انما خانوها من أجل المال، و الذين حاربوا

الأنبياء و المصلحين، و حرّفوا الدين، و شريعة سيد المرسلين انما فعلوا ذلك بعد أن قبضوا الثمن .. و مهما شككت فإني لا أشك ان الملحدين و عبدة الأوثان الذين لم يخونوا بلادهم، و لم يتآمروا على الأبرار و المخلصين لهم خير ألف مرة من الصائم المصلي، و الحاج المزكي الذي تآمر مع أعداء اللّه على بيع البلاد، و أقوات العباد.

اذن، فلا عجب إذا أناط سبحانه نيل الدرجات عنده بالبذل و التضحية بالمال، و بالعزيز الغالي، حيث يكشف هذا البذل عن إيثار الحق على الباطل، و الآجل على العاجل.

و لك أن تسأل: ان قوله تعالى: **(لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)** يدل بظاهره ان الجنة محرمة الا على من بذل الطيّب من ماله، مع العلم ان كثيرا من الناس، أو أكثر الناس لا يملكون شيئا.

الجواب: ان الخطاب في الآية الكريمة يختص بالمالك القادر، أما العاجز الذي لا يملك شيئا فيجب أن يأخذ، لا أن يعطي، بل هو أحد موارد البذل و العطاء .. هذا، الى ان الذين يجاهدون بأنفسهم أعظم درجة عند اللّه من الذين يجاهدون بأموالهم، لأن الجود بالنفس أقصى غاية الجود، كما قال الشاعر.

و كما دلت الآية على ان القرب من اللّه سبحانه منوط بالبذل و التضحية فقد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٠٩

دلت أيضا على ان المال يكون مصدرا للخيرات، و وسيلة لطاعة الرحمن، كما يكون مادة للشهوات، و مرضاة الشيطان، قال رسول اللّه (ص): «من طلب الدنيا مكاثرا مفاخرا لقي اللّه، و هو عليه غضبان، و من طلبها استعفافا، و صيانة لنفسه جاء يوم القيامة، و وجهه كالقمر ليلة البدر». و قال الإمام (ع):

ما أعطي أحد من الدنيا شيئا إلا نقص حظه من الآخرة. فقال له بعض من حضر: و اللّه انّا لنطلب الدنيا. فقال له الإمام: تصنع بها ما ذا؟ قال:

أعود بها على نفسي و على عيالي، و أتصدق منها، و أحج. قال الإمام: ليس هذا من طلب الدنيا، هذا من طلب الآخرة.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١١٣

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٩٣ الى ٩٥]

كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)

الاعراب:

حنيفا حال من ابراهيم.

المعنى:

(كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ). لهذه الآية قصة تتلخص بأن أكثر من آية صرحت ان محمدا (ص) و من معه هم على ملة ابراهيم، يؤمنون باللّه، و ما أنزل على ابراهيم و إسماعيل و اسحق و يعقوب و الأسباط و موسى و عيسى و غيرهم من الأنبياء .. و معنى هذا في ظاهره ان كل ما كان حراما في دين هؤلاء الأنبياء فهو حرام في دين الإسلام، و كان اليهود يعتقدون ان لحوم الإبل و ألبانها كانت محرمة في دين الأنبياء المذكورين، و قد رأوا محمدا (ص) يحللها، مع ان

هذا التحليل يتنافى مع قوله: انه على ملة ابراهيم، و انه يؤمن بما أنزل على ابراهيم، و الأنبياء من بعده.

و اعتمادا على هذا الزعم أشاع اليهود و أذاعوا بقصد الطعن و التشكيك في الإسلام ان محمدا يناقض نفسه بنفسه .. يحلل من الطعام ما كان محرما في ملة ابراهيم،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١١٤

و في نفس الوقت يدعي انه على ملة ابراهيم .. فرد اللّه عليهم بقوله: **(كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ)**. أي ان ابراهيم و من جاء بعده لم يحرموا لحوم الإبل و ألبانها، بل كل الطعام كان حلا لهم .. و اليهود كاذبون مفترون في نسبة التحريم إلى أنبيائهم.

(إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى نَفْسِهِ). إسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم، و كان قد امتنع من تلقائه عن بعض الأطعمة، لسبب يعود اليه خاصة، و لم يمتنع عنه، لأن اللّه قد حرمه .. بل كما يمتنع أحدنا عن التدخين، أو غيره لأسباب صحية، و ما اليها .. و لكن جرت سنة بني إسرائيل على اتباع أبيهم في تحريم ما كان قد حرمه هو على نفسه .. و كان ذلك **(مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ)** ذكر اللّه سبحانه هذا القيد، لأنه قد حرّم عليهم أنواعا كثيرة بعد التوراة بسبب الذنوب التي اقترفوها، كما أشارت الآية ١٦٠ من النساء:

«فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً» أما الأنواع التي حرمت عليهم بعد نزول التوراة فقد جاء ذكرها في الآية ١٤٦ من الانعام: «وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ». و التفصيل في محله.

و تجمل الاشارة هنا الى ان المسلمين متفقون كلمة واحدة على ان الأصل هو الحل في جميع المأكولات و المشروبات، حتى يثبت العكس.

(قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ). هذا تحد لليهود ان يحضروا التوراة، و هي المعتمد عندهم، أن يحضروها و يقرءوا نصوصها على الملأ إن كانوا صادقين في دعواهم تحريم لحم الإبل أو غيره .. و لكنهم بعد هذا التحدي تواروا، و لم يجسروا على إتيان التوراة، لأنهم على علم اليقين بصدق النبي، و كذبهم.

(فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ). أي بعد ظهور الحجة، و قيام الدليل على الحق.

(فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)، لأنهم ضلوا و أضلوا بالإصرار على الباطل، و معاندة الحق. **(قُلْ صَدَقَ اللهُ)**. في ان كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل، و ان

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١١٥

محمدا رسول اللّه حقا. **(فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ)** في استباحة لحوم الإبل و ألبانها (حنيفا) مستقيما على دين الحق.

و لا بد من الاشارة الى ان محمدا (ص) كان على ملة ابراهيم، و ملة جميع الأنبياء في العقيدة و أصولها، أما شريعته فإنها مستقلة عن كل الشرائع، مع العلم بأنها جميعا قائمة على المصالح .. و لكن المصالح تختلف باختلاف الظروف و المناسبات ..

و اتفاق الشرائع في تحليل الأطعمة لا يستلزم وحدتها من جميع الجهات .. و على أية حال، فإن القصد من الآيات التي شرحناها هو تكذيب اليهود فيما نسبوه الى الأنبياء من تحريم بعض الأطعمة.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٩٦ الى ٩٧]

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (٩٧)

اللغة:

لفظ أول اسم للشيء الذي يوجد ابتداء، سواء أحصل بعده ثان، أم لم يحصل، يقال أول قدومي الى هذا البلد، و هذا أول ما أصبته من المال، و بكة من أسماء مكة، و كثيرا ما تأتي الباء مكان الميم، مثل ضربة لازم، و ضربة لازب، و دائم و دائب، و معنى البك الدفع، و الناس في مكة لكثرتهم يدفع بعضهم بعضا، و نقل الرازي في تفسيره ان الإمام محمد الباقر (ع) كان

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١١٦

يصلي في الكعبة، فمرت امرأة بين يديه، فأراد رجل أن يدفعها، فقال له الإمام: دعها، فإن مكة سميت بكة، لأن الناس يبك بعضهم بعضا، تمر المرأة بين يدي الرجل، و هو يصلي، و الرجل بين يدي المرأة، و هي تصلي، و لا بأس بذلك في هذا المكان.

الإعراب:

للذي اللام للتأكيد، و الذي خبر ان، و بكة ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الذي، تقديره استقر، و مباركا حال من الضمير في استقر، أو من الضمير في وضع، و مقام ابراهيم بدل من بينات، أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره هي مقام ابراهيم، و حج بفتح الحاء، و كسرها مبتدأ، و خبره للّه، و من استطاع بدل من الناس، و هو بعض من كل.

المعنى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ). سبق الكلام مفصلا في تفسير الآية ١٤٢ و ما بعدها من سورة البقرة عما قال اليهود حول تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة، و لهذه الآية صلة بآيات سورة البقرة، بخاصة قول السفهاء هناك: «ما ولاهم عن قبلتهم».

و قوله تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ) لا دلالة فيه انه أول بيت وجد على وجه الأرض، بل هو ظاهر في انه أول بيت وضع للطاعات و العبادات، لأن الناس، كل الناس، شركاء فيه، و بديهة ان الناس جميعا لا يشتركون في بيت واحد الا إذا كان موضوعا لجهة عامة، كالعبادة و الطاعة، أما سائر البيوت فكل بيت منها يختص ببعض الناس دون بعض.

ثم ان بعض أهل التفسير سودوا الصفحات في التحقيق و نقل الأقوال في الكعبة:

هل هي أول بيت بني على وجه الأرض، أو غيرها أسبق في البناء .. و لا جدوى وراء هذا البحث، لأنه لا يمت الى أصول الدين، أو فروعه بسبب، و لا يطلب الاعتقاد به إيجابا و لا سلبا.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١١٧

(مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ). و المراد بالبركة هنا زيادة الثواب، قال رسول اللّه (ص): «فضل المسجد الحرام على مسجدي كفضل مسجدي على سائر المساجد ... صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه .. من حجّ و لم يرفث، و لم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .. الحج المبرور ليس له أجر الا الجنة». الى غير ذلك كثير .. اما ان المسجد الحرام هدى للعالمين فلأنه يذكر باللّه سبحانه، و يوحي بالخشوع و الخضوع.

(فِيهِ آيٰاتٌ بَيِّنٰاتٌ مَقٰامُ إِبْرٰاهِيمَ). كأنّ سائلا يسأل: ما الدليل على ان الكعبة قديمة، و انها أول بيت وضع للعبادة، و ليس بيت المقدس؟.

و هذه الآية تصلح جوابا عن هذا السؤال، لأن ابراهيم قديم، و هو الذي بنى الكعبة، فتكون قديمة بقدم بانيها، أما بيت المقدس فقد بناه سليمان، و هو يسمى معبد سليمان حتى الآن، و بين ابراهيم و سليمان عدة قرون .. و نقل صاحب تفسير المنار عن كتب اليهود ان سليمان بنى بيت المقدس سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد ..

و الدليل على ان ابراهيم هو الذي بنى الكعبة الآثار الواضحة و الموجودة حتى الآن، منها مقام ابراهيم، فإن العرب ما زالوا يتناقلون بالتواتر أبا عن جد ان هذا الجزء الخاص من المسجد الحرام كان موضع قيام ابراهيم للصلاة و العبادة. فكما دل اسم معبد سليمان على انه هو باني بيت المقدس، فإن اسم مقام ابراهيم يدل على انه هو باني الكعبة، و انها قديمة بقدمه.

(وَ مَنْ دَخَلَهُ كٰانَ آمِناً). تقدم تفسيره في الآية ١٢٥ من سورة البقرة، و هي قوله تعالى: (وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثٰابَةً لِلنّٰاسِ وَ أَمْناً). و الفضل في ذلك لدعوة ابراهيم (ع): (رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا الْبَلَدَ آمِناً). أيضا مر تفسيره في الآية ١٢٦ البقرة.

(وَ لِلّٰهِ عَلَى النّٰاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطٰاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) الاستطاعة نوعان:

عقلية، و هي مجرد إمكان الوصول الى مكة، و هذه ليست بشرط. و شرعية، و هي القدرة الصحية و المالية، و الأمن على النفس و المال، و الرجوع الى كفاءة، فإذا تم ذلك كان الحج حتما و فرضا .. و التفصيل في كتب الفقه.

(وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعٰالَمِينَ). المراد بالكفر هنا الجحود إذا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١١٨

أرجعناه الى كون الكعبة هي أول بيت وضع للناس، أو الى عدم الاعتقاد بوجوب الحج، و يكون المراد بالكفر الفسق إذا أرجعناه الى ترك الحج تهاونا.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ٩٨ الى ٩٩]

قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيٰاتِ اللّٰهِ وَ اللّٰهُ شَهِيدٌ عَلىٰ مٰا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَدٰاءُ وَ مَا اللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)

اللغة:

السبيل الطريق، يذكر و يؤنث، و العوج الزيغ.

الإعراب:

جملة و اللّه شهيد حال من الضمير في تكفرون، و هاء في تبغونها تعود إلى السبيل، و عوجا حال من الواو في تبغونها، أي حالة كونكم ضالين.

المعنى:

اهتم القرآن اهتماما بالغا بأهل الكتاب، فأنزل فيهم العديد من الآيات، تذكّرهم بالتوراة و الإنجيل، و تنعى عليهم تحريفهما، و تجادلهم بالتي هي أحسن، و تحصي عليهم الكثير من أخطائهم و آثامهم، و منها هاتان الآيتان:

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١١٩

الأولى: (قُلْ يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيٰاتِ اللّٰهِ) التي دلت على نبوة محمد (ص) و على ان الكعبة هي أول بيت

وضع للعبادة، مع ان تلك الآيات و البينات واضحة كالشمس، و لا ينكرها إلا مكابر.

الثانية: (قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً). لم يكتفوا بفساد أنفسهم، حتى سعوا في افساد غيرهم و إضلاله، فجمعوا بذلك بين الضلال و الإضلال، و الفساد و الإفساد، و كل فاسد يود و يعمل ان استطاع على تكثير الفاسدين عملا بمبدإ إبليس: (بِما أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ- ٣٩ الحجر).

و لا تفوتنا الاشارة إلى هذا الرفق و اللين في مخاطبة أهل الكتاب، و حسن تذكيرهم بأنهم أهل دين و كتاب .. عسى أن يتعظوا و يثوبوا إلى رشدهم.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٠٠ الى ١٠٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (١٠٠) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٢٠

اللغة:

اعتصم بالشيء إذا تمسك به حذرا من الوقوع فيما يكره، و شفا الشيء حرفه، يقال أشفى على الشيء، أي أشرف عليه.

الإعراب:

جميعا حال من الضمير في اعتصموا، أي كونوا مجتمعين في الاعتصام، و لا تفرقوا أصلها لا تتفرقوا، فحذفت احدى التاءين للتخفيف.

المعنى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ). حذر اللّه سبحانه في الآيتين السابقتين أهل الكتاب من معاندة الحق، و صد المؤمنين عن سبيله، و حذر في هذه الآية المؤمنين من الإصغاء الى فريق من أهل الكتاب يحاول إضلال المؤمنين و فتنتهم عن دينهم.

و روي في سبب نزول هذه الآية ان بعض اليهود قصد إيقاظ الفتنة بين الأوس و الخزرج، و تفريق كلمتهم بعد أن جمعها اللّه على الإسلام، فأخذ يذكّرهم بما كان بينهم في الجاهلية من العداء و القتال، بخاصة يوم بغاث، و هو يوم اقتتل فيه الأوس و الخزرج، و كان الظفر فيه للأوس، فثارت الحمية في رؤوسهم، و كادت الفتنة أن تقع بينهم لولا أن تداركها رسول اللّه (ص).

و الآية تنطبق على هذه الواقعة، كما تنطبق على محاولة المبشرين المسيحيين في هذا العصر، و على جميع المحاولات التي يهدف من ورائها بعض أهل الكتاب و غيرهم الى تفتيت كلمة المسلمين، و صرفهم عن دينهم، و الشعور بوطنيتهم و حريتهم، ليقعوا فريسة سائغة لكل ناهب و غاصب .. و هذا ما يفعله اليوم المستعمر الغربي مع العرب و المسلمين .. و لا تقع المسئولية عليه وحده، بل يشاركه فيها العملاء الأدنياء الذين أطاعوه و ساروا في ركابه، و كفروا بعد ايمانهم

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٢١

بدينهم و أوطانهم، و على هذا فإن الآية تنطبق على هؤلاء العملاء، كما تنطبق على دعاة الفتنة و الفساد، و رواد الكفر و الضلال، سواء أ كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم، شرقيين و غربيين.

و أيضا ينطبق قوله تعالى: (إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ) ينطبق على تقليد نسائنا للغرب في التهتك و التبرج، و استخفاف شبابنا بالدين و الأخلاق، و على كل عادة مضرة و محرمة اقتبسناها من الأجانب ..

ان الآية ظاهرة في النهي عن اطاعة اهل الكفر في الكفر و الارتداد عن الإسلام، و لكن السبب الموجب عام يشمل كل تقليد و متابعة تغضب اللّه و الرسول.

(وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ). أي لا ينبغي لمسلم ان يتأثر، و يلتفت الى إضلال المضللين، و يتبع الكافرين في أخلاقهم و عاداتهم، و هو يتلو القرآن الكريم، و يستمع الى النبي العظيم، يبين الحق و يزيح عنه كل شبهة، قال نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري في تفسير غرائب القرآن: «أما الكتاب فإنه باق على وجه الدهر، و أما النبي (ص) فإن كان قد مضى الى رحمة اللّه فإن نوره باق، لأن عترته و ورثته يقومون مقامه، و لهذا قال: «اني تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا:

كتاب اللّه و عترتي».

(وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ). الاعتصام باللّه هو التمسك بدينه، و الدين عند اللّه الإسلام، و هو بالذات الصراط المستقيم، و المقصود ان من اعتصم باللّه حقا فلا يحيد، و لن يحيد عن الإسلام، مهما تكن المحاولات و الاغراءات.

و لك أن تسأل: لقد جاء في الآية ٥٦ من سورة هود: «إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» و قد فسرت الصراط المستقيم بالإسلام، فيلزم على هذا أن يكون اللّه على دين الإسلام؟.

الجواب: ان الصراط المستقيم يراد به الإسلام إذا نسب الى العبد، أما إذا نسب الى اللّه تعالى فإن المراد به العدل و الحكمة، أي انه عز و جل يدبر الأمور بعدله و حكمته، و لا يحيد تدبيره عن هذا المنهج.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٢٢

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ).

كل من فعل الواجبات، و تجنب المحرمات فقد اتقى اللّه حق تقاته .. و عليه يكون معنى الآية مرادفا لقوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ- ١٦ التغابن»، لأن ما لا يستطاع لا يتناوله التكليف، و كل ما لا يمكن التكليف به فهو أجنبي عن التقوى .. أما قوله تعالى: (فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) فهو نهي عن ترك الإسلام، و أمر بالثبات عليه، حتى الموت.

(وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا). الحبل معروف، و يستعمل في الواسطة التي يتوصل بها الى المطلوب، و المراد بالحبل هنا الإسلام، و معنى الآية بمجموعها ان المسلمين ما داموا أتباع دين واحد، و رسول واحد، و كتاب واحد، فعليهم جميعا أن يراعوا هذه الرابطة الدينية التي هي أقوى من الرابطة النسبية، و ان يحرصوا عليها، و يعملوا بموجبها، و لا يتفرقوا شيعا و أحزابا.

و تسأل: أليس في هذه الدعوة الى التكتل الديني نوع من العصبية الدينية؟

الجواب: كلا، ان تدعيم الرابط بين اتباع الدين الواحد، تماما كتدعيمها بين أفراد الحزب الواحد، أو الأسرة الواحدة .. و لا تلازم بين هذا التدعيم، و بين التعصب ضد الآخرين .. بل على العكس بالنسبة الى الإسلام، حيث يدعو الى التعاطف و التآلف بين جميع أعضاء الاسرة الانسانية بصرف النظر عن أديانهم و أفكارهم و قومياتهم .. و عليه تكون الاخوة الاسلامية قوة و دعامة للاخوة الانسانية.

و تجمل الاشارة إلى أن الجماعة الذين يجب التعاون معهم، و يحرم الخروج عليهم هم الذين اجتمعوا و تعاونوا على ما فيه للّه رضى، و للناس صلاح، أما مجرد التجمع دون أن تترتب عليه أية فائدة مرضية فليس بمطلوب إلا من حيث عدم الشقاق و النزاع. قال الإمام علي (ع): «الفرقة أهل الباطل و ان كثروا، و الجماعة أهل الحق و ان قلوا .. و بهذا نجد تفسير الحديث الشائع: «يد اللّه مع الجماعة» أي خصوص المجتمعين المتعاونين على الحق، أما إذا اجتمعوا على الباطل فلا أحد معهم إلا الشيطان.

(وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً). يذكّر اللّه المسلمين الأول بما كانوا عليه من الإحن و البغضاء و الحروب

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٢٣

المتطاولة، و منها الحرب بين الأوس و الخزرج التي امتدت ١٢٠ سنة- كما في تفسير الطبري- فألف اللّه بين قلوبهم ببركة الإسلام، حتى صاروا إخوانا في اللّه متراحمين متناصحين. قال جعفر بن أبي طالب في حديثه إلى النجاشي:

«كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، و نأكل الميتة، و نأتي الفواحش، و نقطع الأرحام، و نسيء الجوار، و يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث اللّه إلينا رسولا منا، نعرف نسبه و صدقه و أمانته و عفافه، فدعانا الى اللّه لنوحده و نعبده، و نخلع ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الحجارة و الأوثان، و أمرنا بصدق الحديث، و أداء الأمانة، و صلة الرحم، و حسن الجوار، و الكف عن المحارم و الدماء، و نهانا عن الفواحش، و قول الزور، و أكل مال اليتيم، و قذف المحصنات، و أمرنا أن نعبد اللّه، و لا نشرك به شيئا، و أمرنا بالصلاة و الزكاة و الصيام».

(وَ كُنْتُمْ عَلى‌ شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها). شفا الشيء حرفه و حافته، و شفى على الشيء إذا أشرف عليه، و المعنى كنتم مشرفين على نار جهنم لكفركم فأنقذكم اللّه منها ببركة محمد (ص) .. و أحسن تفسير نفسر به هذه الآية ما جاء في خطبة سيدة النساء فاطمة بنت محمد (ص) التي خطبتها بعد وفاة أبيها (ص) مخاطبة أبا بكر، و من معه:

«كنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب، و نهزة الطامع، و قبسة العجلان، و موطئ الأقدام، تشربون الطرق، و تقتاتون القدّ، اذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم اللّه تبارك و تعالى بأبي محمد (ص)».

[سورة آل‌عمران (٣): آية ١٠٤]

وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٢٤

المراد بالخير هنا الإسلام، و بالمعروف طاعة اللّه، و بالمنكر معصيته، و محصل المعنى انه لا بد من وجود جماعة تدعو غير المسلمين الى الإسلام، و تدعو المسلمين الى ما يرضي اللّه، و يثيب عليه، و ترك ما يغضبه، و يعاقب عليه.

و لفظ (منكم) في الآية قرينة على ان وجوب الأمر بالمعروف على سبيل الكفاية، دون العين، إذا قام به البعض سقط عن

الكل.

و ليس من الضروري أن يكون القائم بهذه المهمة عادلا، بحيث لا يجوز للفاسق أن يأمر بالمعروف، و ينهى عن المنكر .. كلا، لأمرين: الأول ان شرط الحكم تماما كالحكم لا يثبت الا بدليل، و لا دليل على شرط العدالة هنا لا من الكتاب، و لا من السنة، و لا من العقل. الثاني ان حكم الآمر بالمعروف لا يناط بطاعة أو معصية غيره من الأحكام.

و كثير من الفقهاء اشترطوا لوجوب الأمر بالمعروف أن يكون الآمر آمنا على نفسه، بحيث لا يصيبه أي ضرر إذا أمر بالمعروف، و نهى عن المنكر.

و لكن هذا الشرط لا يطرد في جميع الموارد، فإن قتال من يحاربنا من أجل ديننا و بلادنا واجب، مع العلم بأن القتال يستدعي الضرر بطبعه: «إِنَّ اللهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرٰاةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ- ١١١ التوبة .. و يجوز لكل انسان أن يضحي بحياته إذا تيقن ان في هذه التضحية مصلحة عامة، و فائدة للعباد و البلاد أهم و أعظم من حياته، بل هو مشكور عند اللّه و الناس، و في الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

و خلاصة القول ان الضرر يجب دفعه إذا لم تترتب عليه فائدة، و الا جاز تحمله، كما يجوز للإنسان أن يقدم على قطع عضو سقيم من أعضائه، حرصا على حياته، و خوفا على نفسه من الهلاك.

هذا، الى ان للأسلوب أثره البالغ، فبعض الأساليب تنفّر من الحق، و تجر على صاحبها المتاعب و الويلات، و بعضها تفرض الفكرة على سامعها فرضا من حيث لا يشعر .. و العاقل الحكيم يعطي لكل مقام ما يناسبه من القسوة و اللين، و قد كان فرعون في أوج سلطانه و طغيانه، و لم يكن لموسى و هارون ناصر و لا معين، و مع ذلك أمرهما ان يدعواه الى الحق، و لكن بأسلوب هين لين .. حتى

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٢٥

خالق الكون جلت كلمته يخاطب عباده تارة بأسلوب التهديد و الوعيد، و يقول لهم: «إِنَّكُمْ مِنَّا لاٰ تُنْصَرُونَ- ٦٥ المؤمنون». و تارة يقول لهم برفق: «أَ لاٰ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ- ٢٢ النور».

و بالجملة ان إعلان الدعوة الإسلامية على الملأ، و تآمر المسلمين فيما بينهم بالمعروف، و تناهيهم عن المنكر، ان هذا ركيزة من ركائز الإسلام، و من ثم يحتم وجود فئة معينة تقوم بهذه المهمة، تماما كما يحتم وجود سلطة تحافظ على الأمن و النظام، و فئة تختص بالصناعة، و أخرى بالزراعة، و ما إلى ذاك مما لا تتم الحياة إلا به.

و هذا الأصل من الأصول الأساسية لكل دين، و لكل مذهب، و كل مبدأ، و لو كان زمنيا، لأنه الوسيلة المجدية لبث الدعوة و انتصارها، و ردع أعدائها ..

و لا شيء أدل على ذلك من اهتمام أصحاب المذاهب السياسية و الاقتصادية بوسائل الاعلام، و تطورها، و بذل الملايين في سبيلها، و من وقوف الدعاية بشتى أساليبها مع المدفع جنبا الى جنب، و ما ذاك إلا لأنهم أدركوا بتجاربهم ان الرأي العام أمضى سلاحا، و أقوى أثرا من الصواريخ و القنابل، و قد اشتهر عن أحد أقطاب الحلفاء بعد انتصارهم في الحرب العالمية انه قال: «لقد انتصرنا في المعركة بقنابل من ورق». يعني الصحف و النشرات «١».

و تسأل: كيف تجمع بين قوله تعالى: «وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» و بين قوله سبحانه: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاٰ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ- ١٠٥ المائدة»، حيث

أفادت الأولى وجوب الامر بالمعروف، و دلت الثانية على عدم وجوبه بقرينة (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ).

---

(١) جاء في تفسير المنار ان الشيخ محمد عبده كان في الدرس يفسر هذه الآية: «وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ» الخ ...

و مما قال: ان على كل إنسان أن يأمر بالمعروف حسب استطاعته، و ضرب مثلا بالطائفة الشيعية، فإنهم ملتزمون بهذا المبدأ، و لا يدعونه بحال، متى سنحت الفرصة، و استشهد على ذلك بأنه حين كان ببيروت احتاج إلى مرضعة ترضع بنتا له، فجيء بامرأة شيعية، فأخذت تدعو نساء الشيخ إلى مذهبها.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٢٦

الجواب: المقصود بالآية الثانية ان من قام بفريضة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر على الوجه المطلوب فلا يضره ضلال من ضل، و اعراض من أعرض، ما دام قد أدى ما عليه: «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ- ٤٠ الرعد».

سؤال ثان: لقد اشتهر عن رسول اللّه (ص) انه قال: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، و ذلك أضعف الإيمان». و هذا الترتيب يتنافى مع ما هو معروف شرعا و عقلا و عرفا من أن تغيير المنكر انما يبتدئ أولا باللسان، فإن لم يجد فبالحرب، فما هو الوجه لقول الرسول الأعظم؟.

الجواب: فرق بعيد بين تغيير المنكر، و بين النهي عن المنكر، فان النهي عن المنكر يكون قبل وقوعه- في الغالب- فهو أشبه بالوقاية، كما لو احتملت ان شخصا يفكر بالسرقة، فتنهاه عنها.

أما تغيير المنكر فيكون بعد وقوعه، كما لو علمت ان شخصا سرق محفظة الغير، فان كنت قادرا على انتزاعها من السارق، وردها إلى صاحبها وجب عليك أن تباشر ذلك بنفسك إذا انحصر الرد بفعلك خاصة، و لم يلحقك أي ضرر، فإن لم تستطع وجب عليك أن تأمر السارق برد المحفظة الى صاحبها، و تنهاه عن إمساكها، فإن لم تستطع مقت السارق، و لم ترض بفعله بينك و بين ربك .. و موضوع الحديث النبوي تغيير المنكر، لا النهي عن المنكر.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٠٥ الى ١٠٩]

وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ ما اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (١٠٨) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٢٧

الإعراب:

يوم ظرف منصوب متعلق بعظيم، و التقدير عظيم عذابهم في ذلك اليوم، و جملة كفرتم مفعول لقول محذوف، و التقدير يقال لهم أكفرتم، و هذا الحذف كثير في القرآن، و منه قوله تعالى: وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ، أي يقولون لهم: سلام عليكم.

المعنى:

(وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ). هذه الآية متممة لقوله تعالى: (وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً) و ما بعدها، و المراد بالذين تفرقوا أهل الكتاب، حيث افترق اليهود بعد نبيهم موسى الى احدى و سبعين فرقة، و النصارى الى اثنتين و سبعين بعد نبيهم عيسى، و قوله تعالى:

(مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ) يشعر بأن الإنسان لا يؤاخذ على ترك الحق، و اتباع الباطل الا بعد البيان و قيام الحجة.

أما السر لهذا التأكيد و الاهتمام باجتماع الأمة و اتحادها فلأن الشقاق مادة الفساد، و لأن الأمة المتفرقة لا تصلح للحياة فضلا عن ان تدعو الأمم الأخرى الى الخير و الحياة .. و على الرغم من الآيات و الروايات الكثيرة التي حثت على اجتماع المسلمين و اتحادهم فقد تفرقوا شيعا و أحزابا، و زادت فرقهم فرقتين على فرق اليهود، و فرقة على فرق النصارى، كما في الحديث المشهور. و في حديث آخر: لتركبن

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٢٨

سنة من كان قبلكم حذو النعل بالنعل، و القذة بالقذة. قالوا: تعني اليهود و النصارى يا رسول اللّه؟ قال: فمن أعني؟ لتنقضن عروة الإسلام عروة عروة.

و عن كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي في حديث رقم ١٣١: من المتفق عليه من مسند انس بن مالك قال رسول اللّه (ص): ليردن على الحوض رجال ممن صحبني، حتى إذا رأيتهم، و رفعوا إليّ رؤوسهم اختلجوا، فأقول:

رب أصحابي. فيقال لي: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك .. و في الكتاب المذكور أيضا حديث رقم ٢٦٧ من المتفق عليه من مسند أبي هريرة من عدة طرق قال النبي (ص): بينا أنا واقف- يوم القيامة- إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم خرج رجل بيني و بينهم، فقال: هلموا. فقلت: الى أين؟ قال:

الى النار. قلت: ما شأنهم؟ قال: انهم ارتدوا بعدك على ادبارهم القهقرى.

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ). المراد باليوم يوم القيامة، و بياض الوجه كناية عن استبشار المؤمن برضوان اللّه و فضله، و سواد الوجه كناية عن حزن الكافر و الفاسق لغضبه تعالى عليهما، و عذابه لهما. **(فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ)** يقال لهم تقريعا و توبيخا: **(أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ)**. نقل الرازي و الطبري و غيرهما كثير من المفسرين، نقلوا عن بعض السلف ان المقصود بهؤلاء خصوص الخوارج، لأن النبي قال فيهم: «انهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية». و لكن ظاهر الآية يشمل كل من كفر بعد الايمان، و منهم الخوارج، و أهل البدع و الأهواء و الآراء الباطلة، على ان العذاب لا يختص بمن كفر بعد الايمان، بل يشمل مطلق الكافر بدليل قوله تعالى: **(فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)**.

(وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ). رحمة اللّه هي الجنة، و الخلود فيها واضح .. و الخلاصة ان الذين يعتصمون بحبل اللّه، و يعملون لوجه اللّه، و يتعاونون على الخير و الصالح العام يحشرون غدا أعزاء فرحين مستبشرين، و راضين مرضيين، أما الذين اختلفوا تكالبا على الدنيا غير آبهين بدين و لا أمة و لا وطن، و لا يهتمون الا بمصالحهم و مصالح أبنائهم فإنهم يحشرون أذلاء خاسرين خاسئين، مقرهم جهنم و بئس المصير.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٢٩

و غريبة الغرائب ان البعض من أصحاب الوجوه السود يزعمون لأنفسهم التحدث عن اللّه، و الكلام باسمه، و عن طريق

هذا الزعم الكاذب بلغوا أعلى المناصب، بلغوها باسم اللّه، و لكن إذا قال لهم قائل: اتقوا اللّه. قالوا له: أنت كافر باللّه .. و قد سبقهم الى هذا عبد الملك بن مروان، حيث قال يوم تولى الخلافة:

من قال لي بعد اليوم: اتق اللّه ضربت عنقه.

(تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ). تلك اشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار، و تعذيب الكفار، و الخطاب موجه لمحمد (ص). و قد يسأل سائل: و أية فائدة من هذا الإخبار، ما دام محمد يعلم علم اليقين ان هذه الآيات حق و صدق؟

الجواب: لقد دأب القرآن على تكرار ذلك في العديد من الآيات، و ليس المقصود منها محمدا بالذات، بل من يرتاب و يظن بأن هذه الآيات و ما اليها هي من محمد، لا من اللّه: «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ- ٤٨ العنكبوت».

(وَ مَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ). لأن الظلم قبيح، و اللّه سبحانه منزه عنه، و في الآية دلالة قاطعة على انه تعالى لا يكلف العبد بما لا يطيق.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١١٠ الى ١١١]

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (١١١)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٣٠

الإعراب:

خير أمة منصوب على الحال من الضمير في كنتم، لأن كان هنا تامة، و جملة تأمرون بالمعروف لا محل لها من الإعراب، لأنها جواب عن سؤال مقدر، فهي أشبه بالجملة الواقعة في ابتداء الكلام. و لكان خيرا اسم كان ضمير مستتر يعود على الإيمان المتصيد من لفظ آمن، تماما كما تقول: من صدق كان خيرا له، أي كان الصدق خيرا له، و أذى وقع موقع المصدر، أي لا يضروكم إلا ضررا يسيرا، و لا ينظرون بالرفع، لأنه كلام مستأنف، و لا يجوز عطفه على يولوكم الأدبار، لأن عدم النصر غير مسبب عن القتال، بل عن الكفر، و عليه فهم لا ينصرون إطلاقا، سواء أ قاتلوا، أو لم يقاتلوا.

المعنى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ). يقع الكلام في هذه الآية من وجوه:

١- في المقصود بالأمة .. و ليس من شك ان المراد بها هنا أمة محمد (ص) بدليل السياق و توالي مخاطبات المؤمنين من قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ .. وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ .. وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ .. وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ .. وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ..» الى قوله سبحانه: كنتم خير أمة.

٢- هل المراد بالأمة جميع المسلمين في كل عصر، أو خصوص من كان منهم في الصدر الأول كالأصحاب و التابعين؟

الجواب: ان تعيين المراد بالأمة هنا يتوقف على معرفة المراد من (كان) ..

و هي بحسب وضعها ناقصة تحتاج الى اسم و خبر، و تدل على حدوث الفعل في آن مضى، مع سكوتها و عدم دلالتها

على الآن السابق الذي حدث فيه الفعل، و لا على الزمان اللاحق له الا بقرينة مقالية أو مقامية، مثل كان زيد قائما فإنه محمول على حدوث القيام و انقطاعه، أي لم يكن زيد قائما فقام فترة من الزمن الماضي، دون أن يستمر قيامه مدى حياته، و الذي أفاد هذا المعنى لفظ قائم

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٣١

بالذات، و قد تفيد القرينة المقامية القدم و الدوام، مثل كان اللّه غفورا رحيما، فان نسبة الرحمة و المغفرة اليه سبحانه لا تنفك عن ذاته أبدا و أزلا.

و حيث ان اللّه سبحانه قد أناط خيرية الأمة و فضلها بالإيمان به و بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فيكون معنى الآية أيها المسلمون لا تقولوا: نحن خير الأمم و أفضلها إلا إذا أمرتم بالمعروف، و نهيتم عن المنكر، و هذا الوصف يزول عنكم بمجرد اهمالكم لذلك، و عليه فإن (كان) هنا تامة غير ناقصة ..

و خير أمة حال من الضمير في كنتم، أي أنتم خير أمة في حال أمركم بالمعروف و نهيكم عن المنكر.

٣- ان قوله تعالى: (أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) يشعر بأن اللّه سبحانه أوجد محمدا و أمة محمد (ص) لتقود الأمم بكاملها حاملة كتاب اللّه في يد، و سنّة نبيّه في يد، تدعو الأجيال الى التمسك بهما، و الرجوع اليهما في العقيدة و الشريعة و الأخلاق، لأنهما المصدران الوحيدان اللذان يحققان السعادة للجميع، و يضمنان العيش لكل فرد، و يفسحان المجال لأرباب الاجتهاد و الكفاءات على أساس العدل و الأمن و الحرية للناس، كل الناس «١».

و تتفق هذه الآية في مضمونها، أي كنتم خير أمة، مع الآية ١٤٣ من سورة البقرة: «وَ كَذٰلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ، وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً».

و إذا لم ينهض المسلمون بعبء الدعوة الى الخير، و الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر زال عنهم وصف القيادة، و أصبحوا في حاجة الى قائد يأمرهم بالمعروف، و ينهاهم عن المنكر.

و قد أتى على المسلمين حين من الدهر نهضوا فيه بهذا العبء، و كانوا بحق قادة الأمم، ثم أهملوه، و بمرور الزمن أصبحوا ينهون عن المعروف، و يأمرون بالمنكر كما نشاهد ذلك و نراه في هذا العصر الذي تحلل فيه أكثر أبناء الجيل من

---

(١) ألف العارفون في هذا الموضوع عشرات الكتب، و بعض مؤلفيها من الأجانب، و أكثرها أو الكثير منها يفي بالغرض، و من أكثرها فائدة- على ما أرى- كتيب للدكتور عبد الواحد وافي، اسمه «المساواة في الإسلام»، فانه على صغره غزير المادة، متخم بالادلة و الأرقام.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٣٢

الدين، و كل خلق كريم، فإذا رأوا مصليا أو صائما قالوا له ساخرين:

أصلاة و صيام في القرن العشرين؟

و قال صاحب تفسير المنار عند تفسير الآية التي نحن بصددها: «الحق أقول:

ان هذه الأمة ما فتئت خير أمة أخرجت للناس، حتى تركت الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، و ما تركتهما رغبة

عنهما أو تهاونا بأمر اللّه تعالى بإقامتهما، بل مكرهة باستبداد الملوك و الأمراء من بني أمية، و من سار على طريقهم من بعدهم».

و على أساس ان الأشياء تذكر بأضدادها كما تذكر بنظائرها نسجل هذا الحديث الشريف الذي ذكره الحافظ محب الدين الطبري، قال: «قال رسول اللّه (ص):

مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، و من تعلق بها فاز، و من تخلف عنها غرق» .. أما حديث «اني تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه و عترتي أهل بيتي» فقد رواه خمسة و ثلاثون راويا من الأصحاب.

(وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ). أي لو ان أهل التوراة و الإنجيل آمنوا بمحمد (ص) لكان الايمان خيرا لهم في الآجل و العاجل. **(مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ)**. أي ان أهل الكتاب منهم من آمن بمحمد (ص) كعبد اللّه بن سلام و رهطه من اليهود، و غيرهم من النصارى، و أكثرهم بقي على الكفر .. و لفظ الكفر و الفسق يتناوبان، فيستعمل الكفر في الفسق، و الفسق في الكفر، و المراد بالفسق هنا الكفر.

(لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ). الضرر على نوعين:

الأول عبارة عن مجرد الحزن و الألم الذي يذهب مع الأيام، كالذي يحدث في النفس من سماع كلمة نابية، و الضرر الثاني يمس الحياة، و يهز الكيان، كالضرر الناشئ عن دولة إسرائيل في قلب البلاد العربية.

و قد بشّر اللّه سبحانه أصحاب محمد (ص) ان أهل الكتاب لا يستطيعون اضرارهم الا بالكلام كالهجو و الافتراءات، أما في ميدان القتال، فأنتم المنتصرون عليهم، و صدق اللّه وعده، و نصر المسلمين الأول على المسيحيين و غيرهم.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٣٣

[سورة آل‌عمران (٣): آية ١١٢]

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢)

اللغة:

الذل الهوان، و المسكنة الخضوع، أي ان اليهود أذلاء في أعين الناس، ضعفاء يخضعون لما يفرض عليهم، و ثقفوا وجدوا.

الإعراب:

أينما اسم شرط عام للأمكنة، و يجزم فعلين، و جواب الشرط هنا محذوف دل عليه الموجود، أي أينما ثقفوا ضربت عليهم الذلة.

المعنى:

(ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ). اتفق المفسرون على ان هذه الآية نزلت في اليهود، كما اتفقوا على ان المراد منها ان اللّه سبحانه قد سلبهم العزة و الكرامة، و كتب عليهم الذل و الهوان من يوم الإسلام الى آخر يوم، لأنهم قد بلغوا من الفساد و الطغيان حدا لم يبلغه أحد من قبلهم، و لن يبلغه أحد من

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٣٤

بعدهم، و بعد ان اتفق أهل التفسير على هذا اختلفوا فيما بينهم على نوع الذلة و المسكنة التي لازمت اليهود، و التصقت بهم في كل جيل.

و هذا الاختلاف بين المفسرين ناشئ عن اختلاف أوضاع اليهود في عصر التفسير، حيث كانوا يدفعون الجزية للمسلمين .. أقصد ان قول المفسر جاء انعكاسا لما كان عليه اليهود في عصر المفسر .. و ليس هذا بغريب ما دام الإنسان يتأثر- حتما- بما يسمع و يرى، و تفسيري التالي لهذه الآية يخضع لهذه القاعدة.

و مهما يكن، فإن الذي أفهمه من ذل اليهود و هو انهم الذي عنته الآية انهم مشتتون في شرق الأرض و غربها، و موزعون بين الدول مع الأقليات، فهم دائما تابعون غير متبوعين، و محكومون غير حاكمين في دولة منهم و لهم، مستقلة لها كيانها و شأنها بين الدول.

أما إسرائيل التي قامت أخيرا في تل أبيب فإنها دولة في الاسم فقط، أما في الواقع فهي قاعدة من قواعد الاستعمار، تماما كمطاراته و ثكناته العدوانية. و قد ظهرت هذه الحقيقة بأوضح معانيها بعد عدوان إسرائيل على الأراضي العربية في ٥ حزيران سنة ١٩٦٧. لقد أوجد الاستعمار إسرائيل ليتخذها أداة لتحقيق مآربه، و لو تخلى عنها يوما واحدا لتخطفها العرب من كل جانب .. و هذا هو الذل و الهوان بعينه. ان العزيز يستمد قوته من نفسه، و يذود عن كيانه بساعده، لا بسواعد الناس.

و بهذا يتبين معنا ان المراد بحبل من الناس المساعدات المادية و المعنوية التي تمد الدول الاستعمارية بها قاعدتها الاستعمارية إسرائيل، و من أجل هذا نؤمن إيمانا لا يشوبه ريب بأن دولة إسرائيل ستزول بزوال الاستعمار لا محالة، و الاستعمار في طريقه الى الزوال آجلا أو عاجلا، و ليس هذا القول مجرد أمنية، و انما هو نتيجة حتمية لمنطق الحوادث .. كما جاء في الحديث النبوي: «لا تقوم الساعة، حتى تقاتلوا اليهود .. و ان الحجر ليقول- أي بلسان الحال- يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله» «١».

---

(١) رواه البخاري في الجزء الرابع، باب قتال اليهود، و مسلم في القسم الثاني من الجزء الثاني، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت. [.....]

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٣٥

أما حبل اللّه فهو كناية عن مشيئته تعالى، أي ان اليهود يلازمهم الذل و الهوان إلا أن يشاء اللّه، فهو تماما كقوله سبحانه: «النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلاَّ ما شاءَ اللهُ».

ثم بيّن سبحانه السبب الموجب لذلهم و مسكنتهم، و غضب اللّه عليهم، بينه بقوله: **(ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ)**. تقدم مثله في الآية ٦١ من سورة البقرة.

و لك أن تسأل: ان غير اليهود من الأمم و الطوائف قد كفروا بآيات اللّه، و قتلوا الأبرياء، و عصوا، و اعتدوا، و مع ذلك لم يضرب اللّه عليهم الذلة و المسكنة، فما هو السر لتخصيص اليهود؟

الجواب: ان الإنسان قد يطغى، بل و يتمادى في الطغيان بدافع من مصلحته و منافعه، اما أن يطغى لا لشيء إلا حبا بالغي و الطغيان، كغاية، أما هذا فلم يعهد من أحد إلا من اليهود فقط .. و هذا الشغف بالظلم و البغي من صميم دين اليهود و عقيدتهم، فهم يعتقدون ان اللّه معهم دون غيرهم، بل ضد كل من عداهم، و انه ما خلق الناس إلا من أجلهم، و إلا لكي يفعلوا بهم ما يشتهون، تماما كما يفعل الإنسان بالحيوان، و لا شيء أدل على ذلك من سيرتهم قديما و حديثا، بخاصة فظائعهم في فلسطين، و بصورة أخص ما فعلوه في دير ياسين من ذبح النساء و الأطفال.

لقد كانوا من قبل يقتلون الأنبياء يوم كان في الدنيا أنبياء، أما اليوم فيقتلون المصلحين كبرنادوت «١»، و النساء و الأطفال، لأن المهم في عقيدتهم، و حسب فطرتهم هو قتل الأبرياء أنبياء كانوا، أو مصلحين أو أطفالا لا فرق .. و قد نصت توراتهم على استباحة دم النساء و الأطفال، و حثت على هتكه و إراقته.

و بالجملة، فان الكفر بآيات اللّه، و قتل المصلحين و الأبرياء، و البغي و الاعتداء، كل ذلك و ما اليه دين و عقيدة لليهود، فإذا ارتكب اليهودي جريمة بحق غير اليهودي فإنما يرتكبها تلذذا و اشباعا لرغبته، لا سدا لحاجته، و إذا كف فإنما

---

(١) رجل سويدي أرسلته الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨ ليقوم بدور رسول السلام في تنفيذ قرارات الأمم المتحدة حول قضية فلسطين، فاغتاله اليهود في القدس المحتلة بعد ثلاثة أشهر من بدء مهمته.

يكف خوفا، لا تعففا، و هذا هو وجه الفرق بين اليهود و غيرهم، فلا غرابة إذا جازاهم اللّه بالذل و الهوان أينما ثقفوا .. اما دولة إسرائيل الحديثة الخبيثة فإنها الى زوال لا محال، و أقوى الشواهد هو ارتباطها بالاستعمار حدوثا و بقاء، توجد بوجوده، و تزول بزواله .. و زواله حتم، و ان امتد الزمن، ما دامت البشرية تأباه بفطرتها و تقاومه بدمائها .. و ما ذكرناه هنا عن اليهود متمم لكلام سابق في فقرة «لا قياس على إسرائيل» عند تفسير الآية ٦٣ و ٦٦ من سورة البقرة.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١١٣ الى ١١٥]

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)

اللغة:

المراد بقائمة المستقيمة، و الآناء الساعات، واحدها أنى كعصا، قال صاحب مجمع البيان: الفرق بين السرعة و العجلة ان السرعة ان تتقدم فيما يجوز التقدم فيه، و هي محمودة، و العجلة أن تتقدم فيما لا ينبغي التقدم فيه، و هي مذمومة.

الإعراب:

الواو في ليسوا يعود على أهل الكتاب، و هو اسم ليس، و سواء خبر، و أمة مبتدأ، و أهل الكتاب خبر.

المعنى:

هذه الآيات الثلاث واضحة المعنى لا تحتاج الى تفسير، و المحصل منها ان أهل الكتاب ليسوا متساوين في الانحراف و الضلال، بل منهم جماعة طيبة صالحة، و أكثر المفسرين حملوا هذا المدح على من أسلم من أهل الكتاب، و حسن إسلامه عقيدة و عملا.

حكم تارك الإسلام:

ان الدعوة الى الايمان بمحمد (ص) كنبي مرسل من السماء الى أهل الأرض ما زالت قائمة، حتى اليوم، و الى آخر يوم، و هي موجهة الى جميع الناس في الشرق و الغرب دون استثناء: «قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً- ١٥٦ الاعراف». أما الدليل على صدقها فمنطق العقل و ثبوت المعجزة و صلاح الدين للحياة، قال رسول الله (ص): «أصل ديني العقل». و قال تعالى في كتابه المنزل على نبيه المرسل: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ- ٢٤ الأنفال». و ليس من غرضنا أن نستدل هنا على نبوة محمد (ص) «١» .. و انما الغرض أن نبين: هل من لم يؤمن بنبوة محمد مستحق للعقاب، أو لا بد من التفصيل؟.

و قبل أن نفرّق بين العالم و الجاهل، و القاصر و المقصر نشير الى الأصول الرئيسية، و المقاييس الأولى لاستحقاق العقاب و عدمه، و منها تتضح الحقيقة، و التمييز بين الأفراد.

و قد تسالم الجميع على ان الإنسان كائنا من كان، و على أي دين كان لا يستحق العقاب الا بعد قيام الحجة عليه .. و لا تقوم الحجة عليه الا بعد استطاعته الوصول الى دليل الحق، و قدرته على العمل به، و مع ذلك تركه

---

(١) عرضنا الأدلة عند تفسير الآية ٢٣- ٢٥ من سورة البقرة، و ذكرنا طرفا من اخلاق الرسول (ص) في هذا المجلد عند تفسير الآية ١٦٠ من السورة التي نحن بصددها.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٣٨

من غير مبرر، فإذا لم يوجد على الحق دليل من الأساس، أو وجد، و لكن عجز الإنسان عن الوصول اليه، أو وصل اليه، و أدى حق النظر فيه، حتى بلغ النهاية، و مع ذلك خفي عليه الحق، إذا كان كذلك فهو معذور، لعدم إتمام الحجة عليه، لأن من لم يثبت الحق لديه لا يعاقب على تركه الا إذا قصّر في البحث.

و أيضا من القواعد الرئيسية التي تتصل بهذا البحث قاعدة: «الحدود تدرأ بالشبهات». فلا يجوز لنا أن نحكم على تارك الحق بأنه مجرم يستحق العقاب، ما دمنا نحتمل ان له عذرا في تركه، و هذه القاعدة تنطبق على جميع الناس، لا على المسلمين فحسب، كما انها تشمل جميع الحدود بشتى أنواعها .. و مثلها قاعدة: «من أخطأ في اجتهاده فخطؤه مغفور له» .. و هذه القاعدة عقلية لا يمكن تخصيصها بدين دون دين، أو بمذهب دون مذهب، أو بأصل أو بفرع .. إذا تمهد هذا نشرع بالتطبيق.

١- أن يعيش الإنسان في بلد ناء عن الإسلام و المسلمين، و لم تبلغه الدعوة، و ما سمع باسم محمد (ص) مدة حياته، و لا مرّ بخاطره من قريب أو بعيد أن في الدنيا دينا اسمه الإسلام، و نبيا اسمه محمد (ص) .. و ليس من شك ان هذا

معذور من حيث عدم استحقاقه للعقاب، لحكم العقل بقبح العقاب بلا بيان، و لقوله تعالى: «وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً- ١٥ الاسراء». و العقل رسول باطني ما في ذلك ريب الا انه برهان مستقل على وجود اللّه، أما الدليل على ثبوت نبوة النبي فلا بد من توسط المعجزة، و ظهورها على يده، مع حكم العقل باستحالة ظهورها على أيدي غير الأنبياء.

٢- ان يسمع بالإسلام و بمحمد، و لكنه يفقد القدرة على التمييز بين الحق و الباطل، لقصوره و عدم استعداده لتفهم دليل الحق و معرفته، و هذا معذور لأنه تماما كالطفل و المجنون .. و مثله إذا لم يؤمن بمحمد (ص) صغيرا تقليدا لآبائه، و ذهل عن عقيدته كبيرا، و استمر مطمئنا اليها غير شاك و لا متردد ..

ان هذا معذور، لأن تكليف الذاهل غير المقصر كتكليف النائم. قال المحقق القمي: ان التحرر من تقليد الآباء و الأمهات لا يخطر على بال أكثر الناس، بل يصعب غالبا على العلماء المرتاضين الذين يحسبون انهم خلعوا التقليد عن أعناقهم ..

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٣٩

و قال أيضا: ان من لا يتفطن لوجوب معرفة الأصول يلحق بالبهائم و المجانين الذين لا يتعلق بهم تكليف «١». و قال الشيخ الأنصاري في الرسائل فصل الظن في الأصول، الذي يقتضيه الانصاف بشهادة الوجدان قصور بعض المكلفين، و بهذا قال الكليني، و قال الشيخ الطوسي: العاجز عن التحصيل بمنزلة البهائم.

أجل، إذا تنبه هذا الغافل من نفسه الى وجوب المعرفة، أو قال له قائل:

انك مبطل في عقيدتك، و مع ذلك أصر، و لم يبحث و يسأل فهو آثم، لأنه مقصر، و جهل المقصر ليس بعذر.

٣- أن لا يؤمن بمحمد (ص)، مع ان فيه الاستعداد الكافي الوافي لتفهم الحق، و لكنه أهمل و لم يكترث إطلاقا، أو بحث بحثا ناقصا، و ترك قبل أن يبلغ النظر نهايته، كما هو شأن الأعم الأغلب، بخاصة شباب هذا الجيل ..

و هذا غير معذور، لأنه اخطأ من غير اجتهاد، و تمكن من معرفة الحق، و أهمل .. و بالأولى أن يؤاخذ و يعاقب من بحث و اقتنع، و مع ذلك رفض الإيمان بمحمد (ص) تعصبا و عنادا.

٤- أن ينظر الى الدليل، و هو متجه الى الحق بإخلاص، و لكن لم يهتد الى الوجه الذي يوجب الإيمان بنبوة محمد (ص)، اما لتمسكه بشبهة باطلة دون أن يلتفت الى بطلانها، و اما لسليقة عرجاء، و ما إلى ذلك مما يصد عن رؤية الحق.

و هذا ينظر الى حاله: فان جحد و نفى النبوة عن محمد (ص) بقول قاطع فهو مؤاخذ و مستحق للعقاب، لأن من خفي عليه وجه الحق لا يجوز له أن يجزم و يقطع بنفيه إطلاقا، فقد يكون الحق موجودا، و منع من الوصول إلى معرفته مانع، و هذا هو الغالب، فإن الأشياء الكونية موجودة في ذاتها، و مع ذلك لا نعلم منها إلا قليلا، و كذلك الشأن بالنسبة الى الأنبياء و المصلحين ..

و أي انسان يحيط بكل شيء علما.

و قد عبّر أهل المنطق و الفلسفة عن ذلك بعبارات شتى: منها عدم العلم لا يدل على العدم .. عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود .. كل من الجزم بالاثبات و النفي يحتاج الى دليل .. و قد رأينا الكثير من العلماء الأكفاء ينسجمون مع هذه

---

(١) كتاب القوانين ج ٢، ص ١٦٠ و ١٦٤، طبعة عبد الرحيم، سنة ١٣١٩ هـ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٤٠

الحقيقة، فيتهمون آراءهم و يتحفظون في أقوالهم، و لا يتخذون من أنفسهم مقياسا للصواب، و لا يقولون: هذا الرأي مقدس لا ريب فيه، و ما عداه ليس بشيء، بل ينظرون الى كل الآراء على انها عرضة للتساؤل .. و لا شيء أدل على نقص العالم من غروره بنفسه، و تزكيته لعلمه، و ازدرائه لرأي الغير و عقيدته.

و على هذا، فإن مجرد عدم اقتناع زيد من الناس بنبوة محمد (ص) لا يسوّغ له نفي النبوة عن النبي الأعظم (ص) بقول قاطع .. و ان فعل فهو مسؤول، بخاصة بعد أن رأى العديد من الغرباء الأكفاء الذين لم يتأثروا بالوراثة و البيئة، رآهم يؤمنون بمحمد و رسالته لا لشيء الا احتراما للحق، و اعترافا بالواقع «١».

هذا إذا جحد، أما إذا نظر الى الدليل و لم يقتنع، و لكنه لم يجحد، بل وقف موقف المحايد من نبوة محمد (ص) لم يثبت، و لم ينف، و في الوقت نفسه نوى مخلصا أن يؤمن بالحق متى ظهر له، تماما كالفقيه العادل، يفتي بالشيء على نية العدول عنه متى استبان له الخطأ، أما هذا فهو غير مسؤول، لأن من أخطأ في اجتهاده من غير تقصير فلا يؤاخذ على خطأه بحكم العقل، و النقل أيضا، فعن الإمام جعفر الصادق (ع): لو ان الناس إذا جهلوا وقفوا و لم يجحدوا لم يكفروا .. و في رواية ثانية: انما يكفر إذا جحد .. و قال الشيخ الأنصاري في كتابه المعروف بـ«الرسائل»، فصل «الظن في الأصول»: «لقد دلت الأخبار المستفيضة على ثبوت الواسطة بين الكفر و الايمان». أي ان الجاحد كافر، و المعتقد مؤمن، و الشاك لا كافر و لا مؤمن.

و من الأحاديث التي يمكن الاستدلال بها على عدم مؤاخذة المجتهد غير المقصر إذا أخطأ فيما يعود الى العقيدة، من هذه الأحاديث الحديث المشهور عند السنة و الشيعة: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، و إذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

---

(١) منهم (ليوبولد فأيس) النمساوي الذي أسمى نفسه محمد أسد، و ألف كتاب الإسلام على مفترق الطرق، و منهم (فاغليري) الايطالية صاحبة كتاب دفاع عن الإسلام، و غيرهما كثير لم تحضرني أسماؤهم ..

و سمعت أن أحد الايرانيين وضع كتابا خاصا في أسماء من أسلم من الغربيين، و انهم جمع غفير.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٤١

و إذا قال قائل: ان هذا الحديث خاص بخطإ المجتهد في الأحكام الفرعية، لا في المسائل العقائدية، كما ادعى جماعة من العلماء.

قلنا في جوابه و جوابهم: ان المبرر لعدم مؤاخذة المجتهد في الأحكام هو احتراسه و عدم تقصيره في البحث، و هذا المبرر موجود بالذات في المسائل العقائدية .. هذا، الى ان جميع الفقهاء اتفقوا، و منهم الذين خصوا هذا الحديث بالمجتهد في الفروع، اتفقوا كلمة واحدة على ان القاصر الذي يعجز عن ادراك العقيدة الحقة معذور، و نحن لا نرى أي فرق بينه و بين المجتهد الذي عجز بعد ان استنفد الجهد، لأن كلا منهما عاجز عن معرفة ما لم يصل اليه.

و الخلاصة ان من جحد الحق، أي حق كان فهو مؤاخذ، سواء اجتهد أم لم يجتهد إلا إذا كان قاصرا كالبهائم، و ان وقف

من الحق موقفا محايدا لم يثبت و لم ينف ينظر: فإن وقف هذا الموقف دون أن يجتهد و ينظر الى الدليل، أو اجتهد اجتهادا ناقصا فهو مؤاخذ، و ان كان قد نظر الى الدليل، حتى بلغ الاجتهاد نهايته فهو معذور، على شريطة أن يبقى متجها الى الحق عازما على العدول عن موقفه متى ظهر العكس.

و تسأل: قلت ان القاصر الذي يعجز عن معرفة العقيدة الحقة- و منها نبوة محمد- معذور: و كذلك المجتهد غير الجاحد، مع عدم تقصيره في الاجتهاد، فهل معنى هذا انه يجوز لنا أن نعاملهما معاملة المسلمين في الزواج و الإرث، و ما اليهما؟

الجواب: نريد بالعذر هنا عدم استحقاق العقاب في الآخرة .. و هذا شيء، و الزواج و الإرث في هذه الحياة شيء آخر .. و كل من لا يؤمن بنبوة محمد (ص) مهما كان السبب فلا يجوز أن نعامله معاملة المسلمين من حيث الإرث و الزواج، سواء أ كان من الناجين غدا، أم من الهالكين، كما ان من قال: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه له ما للمسلمين، و عليه ما عليهم، حتى و لو كان أفسق الفاسقين، بل و من المنافقين أيضا.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٤٢

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١١٦ الى ١١٧]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)

اللغة:

الصر البرد الشديد، و المراد بالحرث هنا الزرع.

الإعراب:

شيئا مفعول مطلق، لأنها بمعنى الإغناء، فكأنه قال: لا تغني عنهم إغناء ما. و كمثل الكاف زائدة.

المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً). قال الرازي و صاحب تفسير المنار: اختلف المفسرون في المراد بالذين كفروا، فقال جماعة: المراد بعض الكفار، و قال آخرون: بل المراد جميع الكفار.

أما نحن فنرى ان المراد بهم كل من خالف الحق و عانده حرصا على مصلحته و مصلحة أولاده، و خوفا على ماله و ثروته كافرا كان، أو مسلما .. أجل، ان لفظ الآية خاص بالكافرين، و لكن السبب الموجب لعدم الإغناء عام يشمل جميع المخالفين للحق بدافع من أهوائهم، و هم الذين وصفهم اللّه سبحانه بقوله

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٤٣

في أكثر من آية بأنهم يبيعون الحق بأنجس الأثمان.

(مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ). الريح التي فيها صر هي الريح المهلكة لشدة بردها و سمومها، و المعنى ان الذين يجمعون الثروات من الحلال و الحرام، و يخالفون من أجلها الحق، و ينفقونها على جاههم و ملذاتهم غير مكترثين بخلق و لا دين، ان هذا الإنفاق من هؤلاء قد

أهلك عقولهم، و أفسد أخلاقهم، تماما كما تهلك الريح الباردة العاتية الزرع الذي قد تهيأ للاخصاب و الانتاج.

و إذا ربحوا أياما من اللذة و إشباع الشهوات فقد خسروا أنفسهم، و باعوها للشيطان، و لهم في الآخرة عذاب الخلود .. و ما ظلمهم اللّه (وَ لٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ). لأنهم اندفعوا وراء شهواتهم و أهوائهم مختارين .. قال الإمام علي (ع): الناس في الدنيا رجلان: رجل باع نفسه فأوبقها- أي باع نفسه لهواه و شهوته فأهلكها- و رجل ابتاع نفسه فأعتقها. أي اشتراها و خلصها من أسر الشهوات.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١١٨ الى ١٢٠]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا بِطٰانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاٰ يَأْلُونَكُمْ خَبٰالاً وَدُّوا مٰا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضٰاءُ مِنْ أَفْوٰاهِهِمْ وَ مٰا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيٰاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هٰا أَنْتُمْ أُولاٰءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لاٰ يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتٰابِ كُلِّهِ وَ إِذٰا لَقُوكُمْ قٰالُوا آمَنّٰا وَ إِذٰا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنٰامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهٰا وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لاٰ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّٰهَ بِمٰا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٤٤

اللغة:

بطانة الرجل خاصته مأخوذ من بطانة الثوب، و تستعمل للواحد و الجمع مذكرا و مؤنثا، و يألونكم مصدرها ألوا و الماضي ألا و المضارع يألو، و معنى الألو التقصير، يقال: لا آلوك نصحا أي لا أقصر في نصحك، و لا آلوك جهدا، أي لا أنقصك جهدا، و الخبال النقصان و الفساد، و منه رجل مخبل و مخبول و مختبل، أي ناقص العقل و فاسده، و العنت المشقة.

الإعراب:

يألون فعل قاصر، و لكنها هنا تتضمن معنى المنع فعديت إلى مفعولين، و خبالا مفعول ثان، و جملة لا يألونكم لا محل لها من الإعراب، لأنها جواب عن سؤال مقدر، كأنه قيل: لما ذا لا نتخذ بطانة من غيرنا فأجيب: لأنهم لا يألونكم خبالا، و ها أنتم «ها» للتنبيه، و أنتم مبتدأ، و أولاء اسم اشارة خبر، و تحبونهم الجملة في محل نصب على الحال من اسم الاشارة، و لا يضركم جواب إن الشرطية، و يجوز كسر الضاد و سكون الراء على ان يكون المصدر الضير، و إذا كان الضرر فالأصل لا يضرركم، ثم أدغمت الراء بالراء، و ضمت تبعا لحركة الضاد، و شيئا مفعول مطلق، أي شيئا من الضرر.

المعنى:

تكلم سبحانه في الآيات السابقة عن أهل الكتاب و المشركين و المرتدين الذين كفروا بعد ايمانهم، و توعد الجميع، و ألزمهم الحجة، ثم أمر المسلمين بتقوى

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٤٥

اللّه، و الاعتصام بحبله، و الأمر بالمعروف، بعد هذا كله حذر سبحانه المسلمين من الكافرين الذين يضمرون السوء للإسلام و المسلمين، و يتمنون لهم الويلات و العثرات، حذرهم بقوله:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا بِطٰانَةً مِنْ دُونِكُمْ). و هذا بظاهره نهي للمسلمين عن كل من ليس على دينهم، دون

استثناء، و عليه يتجه الاعتراض التالي:

المعروف عن رؤساء الأديان في جميع الطوائف انهم يبثون بين أتباعهم روح العداء و التعصب ضد أهل الطوائف الأخرى، و هذا هو القرآن يسير على نفس الطريق، حيث أمر المؤمنين به بالتباعد عن غيرهم، و حذرهم أن يتخذوا أولياء و خواصا إلا منهم و فيهم .. اذن، أين التساهل و التسامح في الإسلام؟ و أي فرق بين المسلمين، و بين اليهود الذين قال بعضهم لبعض: «و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم»؟

الجواب: ان الآية لم تحذر المسلمين من غيرهم من حيث انهم لا يدينون بدين الإسلام .. كلا، و انما حذرتهم من الذين ينصبون لهم المكائد و المصائد، و هذا المعنى صريح في قوله تعالى: **(لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً)** أي يجتهدون، و لا يقصرون في مضرتكم، و افساد الأمر عليكم، و في قوله: **(وَدُّوا ما عَنِتُّمْ)** أي يتمنون لكم العنت و المشقة، و في قوله: **(قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ)** أي الطعن في دينكم و نبيكم و قرآنكم. **(وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)** مما يفيض على ألسنتهم .. و أيضا من أوصاف الذين حذر اللّه منهم **(وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ)** .. **(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها)**. كل هذه الأوصاف هي السبب الموجب للنهي عن اتخاذ البطانة .. و على هذا فكل من يتصف بهذه الأوصاف يجب الابتعاد عنه، و لا يجوز اتخاذه بطانة، سواء أحمل اسم مسلم، أو أي اسم آخر.

نحن الآن في سنة ١٩٦٧، و في ٥ حزيران من هذه السنة دفع الاستعمار باسرائيل الى الاعتداء على الأراضي العربية، بعد أن مهد لها السبيل حثالة من صراصير الاستعمار، تنتمي بدينها الى المسلمين و بقوميتها الى العرب .. و هذه الحثالة أعظم جرما عند اللّه من الملحدين و المشركين الذين كفوا الأذى عن غيرهم .. إذن،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٤٦

المسألة مسألة شر و خيانة و آثام، لا مسألة كفر، و عدم اسلام.

و تسأل: إذا كان الأمر كما ذكرت فلما ذا قال تعالى **(مِنْ دُونِكُمْ)** و لم يقل من الخائنين المفسدين؟

الجواب: ان الآية نزلت في بعض المسلمين الذين كانوا يواصلون اليهود- كما قال المفسرون- و بديهة ان العبرة بالسبب الموجب لتشريع الحكم، لا بسبب نزوله، و تطبيقه على مورد من الموارد، و بكلمة ان الحكم يتبع ظاهر اللفظ إذا لم نعلم بسببه، أما إذا كنا على يقين من سببه التام فيكون مدار الحكم على السبب، لا على ظاهر اللفظ.

(قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ). المراد بالآيات هنا العلامات الفارقة بين الذي يصح أن يتخذ بطانة، و الخبيث الذي يجب الابتعاد عنه. **(ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لا يُحِبُّونَكُمْ)**. ظاهر الخطاب انه موجه الى جماعة تنتمي الى الإسلام، و لا يصح ان يتوجه الى جميع المسلمين لا في العصر الأول، و لا في غيره، إذ لم يعهد ان كلمة المسلمين اتفقت على حب الكافرين في يوم من الأيام.

و قال الطبري شيخ المفسرين، و تبعه كثير، قالوا ما معناه ان حب المسلمين لمن يكرههم من الكافرين دليل على ان الإسلام دين الحب و التساهل.

هذا سهو من الطبري و مقلديه، لأن الإسلام لا يتساهل أبدا مع المفسدين و الخائنين، و لا شيء أدل على ذلك من هذه الآية نفسها التي فسّرها الطبري بالتساهل.

و الذي نراه ان المسألة ليست مسألة تساهل، و انما هي مسألة خيانة و نفاق من بعض من انتسب الى الإسلام، و في

الوقت نفسه يتجسس على المسلمين لحساب عدو الوطن و الدين، كما هو شأن عملاء الاستعمار اليوم المعروفين بالطابور الخامس، و بالمرتزقة و الانتهازيين، لأنهم يبيعون دينهم و وطنهم لكل من يدفع الثمن.

(وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ). الألف و اللام في الكتاب للجنس، و المعنى انكم تؤمنون بكل كتاب منزل من اللّه سواء أنزل عليكم أم عليهم، و لستم مثلهم يؤمنون ببعض، و يكفرون ببعض.

(وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا). رياء و نفاقا .. و لا ينبغي للمؤمن أن يوالي المنافقين و المراءين.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٤٧

(وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ). عضوا عليكم الأنامل كناية عن حقدهم و لؤمهم، و لا شيء يغيظ العدو مثل الفضيلة و الخلق الكريم، و مثل الائتلاف و اجتماع الكلمة، و صلاح ذات البين، و ما تمكن العدو من المسلمين قديما و حديثا الا لشتاتهم و تفتيت وحدتهم. **(قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ)**. هذا مثل قول العرب لمن يدعون عليه: «مت بدائك» أي أبقى اللّه داءك، حتى تموت به .. و بديهة ان هذا يقال للعدو إذا كان القائل قويا عزيزا، و لا قوة كالاجتماع و الائتلاف. **(إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ)**. ذات الصدور كل ما يجول في خاطر الإنسان، و كل ما ينطوي عليه قلبه من دوافع الخير و الشر، و القصد ان اللّه يعلم بحقدهم و لؤمهم، و يعاملهم بحسبه.

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها). شأن كل عدو، و قال المفسرون: ذكر المس في الحسنة للاشعار بأن أقل خير يناله المسلمون يسيء عدوهم، و ذكر الاصابة في السيئة للاشعار بأنه كلما تمكنت السيئة من المسلمين ازداد عدوهم فرحا، و هذا أبلغ تعبير عن شدة العداوة. **(وَ إِنْ تَصْبِرُوا)** على طاعة اللّه، و أذى أعدائه (و تتقوا) المحرمات و المعاصي **(لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)**. من كان مع اللّه كان اللّه معه، و من يتق اللّه يجعل له مخرجا.

[سورة آل‌عمران (٣): آية ١٢١]

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَ اللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١)

وقعة أحد الآية هذه الآية، و عشرات الآيات بعدها نزلت في وقعة أحد التي نلخصها بما يلي:

أحد اسم جبل يبعد عن المدينة ثلاثة أيام على التقريب، و كانت معركة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٤٨

بعد ان قتل المسلمون صناديد قريش في بدر خلا الجو لأبي سفيان، و أصبح السيد الرئيس لقريش، فأخذ يؤلب المشركين على رسول اللّه، و استطاع أن يؤلف جيشا من ثلاثة آلاف مقاتل، فزحف به، و نزل قريبا من جبل أحد، و كان معه زوجته هند ابنة عتبة ام معاوية.

و خرج النبي (ص) في ألف مقاتل، و لكن عبد اللّه بن أبيّ رأس النفاق خذل الناس، و استجاب له ثلاثمائة، و بقي مع النبي سبعمائة، و حاول عبد اللّه ابن عمرو والد جابر الأنصاري أن يثني ابن أبيّ عن عزمه فلم يفلح، و همّ حيان من الأنصار ان يتبعا ابن أبيّ، ثم عصمهم اللّه و ثبتوا مع النبي (ص)، و هما بنو سلمة من الخزرج، و بنو حارثة من الأوس.

و رسم النبي (ص) خطة القتال، فجعل الرماة على جبل خلف جيش المسلمين، و كانوا خمسين راميا، و جعل عليهم عبد اللّه بن جبير، و قال لهم: احموا ظهورنا، و لا تفارقوا مكانكم غالبين كنا أو مغلوبين .. و لما اشتبك القتال قامت هند أم معاوية في النسوة التي معها، و ضربن بالدفوف خلف الرجال يحرضنهم و مما كانت تغني به هند:

ان تقبلوا نعانق. و نفرش النمارق. أو تدبروا نفارق. فراق غير وامق.

و كان يقول النبي عند سماعها: اللهم بك أحول، و بك أصول، و فيك أقاتل، حسبي اللّه، و نعم الوكيل.

و كانت راية المشركين مع طلحة بن أبي طلحة العبدي من بني عبد الدار فقتله الإمام علي، فأخذ الراية سعيد بن أبي طلحة فقتله الإمام، و سقطت الراية فأخذها مسافع بن أبي طلحة فقتله الإمام، حتى قتل تسعة أنفار من بني عبد الدار، ثم أخذ الراية عبد أسود لبني عبد الدار فقتله الإمام، و انكسر المشركون و انهزموا شر هزيمة، و شرع المسلمون ينتهبون الغنائم.

و لما رأى الرماة هزيمة المشركين، و إخوانهم المسلمين يجمعون الغنائم أخلوا مكانهم الذي رتبهم فيه رسول اللّه (ص) .. و قال لهم أميرهم عبد اللّه بن جبير مكانكم، أطيعوا اللّه و رسوله، فأبوا، و انطلقوا للسلب و النهب، و لم يبق مع ابن جبير إلا عشرة رجال فقصدهم خالد بن الوليد بكتيبة من المشركين، فأبادهم بعد أن قاتلوا قتال المستميت.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٤٩

و لما نظرت قريش ما صنع خالد تجمعوا على المسلمين، و أصابوا منهم ما أرادوا، و وصل العدو الى رسول اللّه (ص)، و أصابته حجارة المشركين، فكسرت رباعيته و شج في وجهه، و كلمت شفته، و دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجهه، وفر المسلمون عن النبي (ص) بعد أن صاح صائح بأعلى صوته:

ان محمدا قد قتل .. و لم يبق معه إلا نفر على رأسهم علي بن أبي طالب، و أبو دجانة، و سهل بن حنيف، و قد استماتوا في الدفاع.

و أغرت هند وحشيا باغتيال محمد أو علي أو حمزة، فاغتال حمزة بحربة، فشقت هند بطنه، و استخرجت كبده، فلاكتها. و من ذاك اليوم التصق بها اسم آكلة الأكباد .. و كان عدد القتلى من المشركين ٢٢، و عدد الشهداء من المسلمين ٧٠.

المعنى:

(وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ). الغدوة و الغداة ما بين طلوع الفجر و طلوع الشمس، و تبوئ تهيئ و تدبر، و المقاعد واحدها مقعد، أي مكان القعود. و المعنى اذكر أيها الرسول وقت خروجك غدوة من بيتك تدبر أمكنة للرماة، و للفرسان، و لسائر المؤمنين الذين كانوا معك.

[سورة آل‌عمران (٣): آية ١٢٢]

إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢)

المعنى:

الطائفتان هما بنو سلمة من الخزرج، و بنو حارثة من الأوس. كادت تؤثر

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٥٠

فيهما حركة المنافق عبد اللّه بن أبيّ، لولا ان أدركتهما ولاية اللّه و تثبيته. و قوله تعالى: «**وَ اللهُ وَلِيُّهُما**» دليل قاطع على انه سبحانه يمنح التوفيق و العناية لناس من عباده، دون ناس، لأن معناه انه لا يدع الطائفتين تفران و تفشلان. و اللّه سبحانه أعلم، حيث يجعل عطاءه و عنايته، كما انه أعلم، حيث يجعل رسالته.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٢٣ الى ١٢٧]

وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ

بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَ ما جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ ما النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (١٢٧)

وقعة بدر الآية في هذه الآيات يذكّر اللّه المسلمين بوقعة بدر التي انتهت بالنصر، و بدر بئر بين مكة و المدينة، كانت لرجل يسمى بدرا، فسميت البئر باسمه، و كانت قوافل قريش التجارية الى الشام تمر ببدر، و جدّ المسلمون في مهاجمة هذه القوافل التي كانت برئاسة أبي سفيان، و خرج المشركون حوالى ألف مقاتل بالعدة و العدد لحماية احدى هذه القوافل، و التحموا مع المسلمين، و كانوا ٣١٣ رجلا، و كانت هذه الوقعة نصرا مؤزرا للمسلمين، و كارثة كبرى على المشركين، و كان

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٥١

لها دوي عظيم في أرجاء البلاد العربية .. و سنعود الى وقعة بدر ان شاء اللّه حين نصل بالتفسير الى قوله تعالى: «وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ- الآية ٧ من سورة الانفال.

المعنى:

(وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ). هذا تذكير بنصر اللّه للمسلمين يوم بدر لتقوى قلوبهم، و كانوا آنذاك في قلة من العدد، و في غير منعة من العدة، إذ كان عدد المسلمين ٣١٣ رجلا، و لم يكن معهم الا فرس واحد، و كان المشركون حوالى ألف، و معهم مائة فرس، و مع ذلك قتل من المشركين ٧٠، و أسر ٧٠، و انهزم الباقون.

و القصد من تذكيرهم هذا أن يبين لهم ان الانتصار في معركة من المعارك لا يعد نصرا حاسما، و لا الانكسار في معركة من المعارك يكون انكسارا نهائيا، و انما النصر النهائي للصابرين الثابتين، و المتقين المخلصين، و قد دلت الأحداث و الحروب قديما و حديثا على هذه الحقيقة و صحتها بخاصة الحرب العامة الأخيرة التي ابتدأت سنة ١٩٣٩، و انتهت سنة ١٩٤٥.

(إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ). كان هذا القول من النبي (ص) يوم بدر: **(أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ)**. أي نازلين من السماء.

(بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا). بلى إيجاب للنفي، أي يكفيكم هذا الامداد، و ضمير الغائب في يأتوكم للمشركين، و ضمير المخاطب للمؤمنين، و من فورهم أي من ساعتهم. **(يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)**. مسومين من السيماء، أي لهم علامة تدل عليهم.

و قد دل قول اللّه هذا دلالة لا تقبل التأويل انه جلت قدرته قد أمد المسلمين بالملائكة في بعض حروبهم، و قد دلت الروايات الكثيرة، و اتفق المسلمون على ان اللّه أنزل الملائكة يوم بدر لنصرة المؤمنين، و اختلفوا في إنزالهم يوم أحد، و ليس من شك ان اللّه سبحانه أنزل الملائكة يوم بدر لنصرة المؤمنين، و لكن لا نعلم نوع هذا النصر: هل كان نصرا ماديا كالقتال، أو نصرا معنويا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٥٢

كتخويف المشركين، و حصول الطمأنينة للمؤمنين؟ اللّه أعلم .. و لا يجب علينا البحث و التنقيب عن ذلك: على انه إذا

بحثنا فلن نصل الى يقين.

أجل، هناك أدلة تفيد ان الملائكة تتصور بصورة البشر، منها ما أخبر اللّه به عن ضيف ابراهيم (ع) في الآية ٥١ و ما بعدها من سورة الحجر: «وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ- الى قوله- إِنَّا أُرْسِلْنا إِلىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ». و منها عن ضيوف لوط الآية ٧٧ سورة هود، و منها قوله تعالى: «فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا- ١٧ مريم». و منها ان جبريل كان يأتي رسول اللّه (ص) في صورة دحية الكلبي .. و لكن تصور الملائكة بصورة البشر لا يحتم انهم قاتلوا من أجل المسلمين، بل من الجائز أن يناصروهم بطريق آخر غير القتال.

و تسأل: ان اللّه سبحانه قال في الآية ٩ من سورة الأنفال: «أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ». و قال في الآية ١٢٤ من آل عمران: «يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ». و قال في الآية التي بعدها بلا فاصل: «إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا- الى قوله- يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ».

تسأل: هل أمدهم اللّه أولا بألف، ثم بثلاثة، ثم بخمسة، حتى صار المجموع تسعة، أو ما ذا؟

و مما أجيب به عن ذلك ان اللّه أمدهم أولا بألف مردفين، أي لهم تبع، ثم ضم الى الألف ألفين، فصاروا ثلاثة، ثم ضم الى الثلاثة ألفين آخرين، فصار المجموع خمسة.

و قال قائل: ان اللّه أمد المسلمين يوم بدر بألف. ثم بلغهم ان بعض المشركين يريد أن يمد قريشا بعدد كبير من المقاتلين، فخاف المسلمون، و شق ذلك عليهم، لقلة عددهم، فوعدهم بخمسة آلاف من الملائكة ان جاء المدد الى قريش، و لكن بثلاثة شروط، و هي الصبر و التقوى و مجيء الكفار على الفور، كما نطقت الآية: «إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذا» .. و لكن هذا المدد لم يأت قريشا، فاستغنى المسلمون عن الامداد بالزيادة على الألف.

(وَ ما جَعَلَهُ اللّٰهُ إِلاَّ بُشْرىٰ لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ). الهاء في (جعله) يعود على غير مذكور بلفظه و هو الامداد و الوعد به، و انما استخرجناه من يمدد،

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ١٥٣

و هو المعبر عنه بالمصدر المتصيد، و المعنى ان اللّه سبحانه أمدكم بالملائكة، أو وعدكم بالامداد، لتسكن قلوبكم، فلا تخافوا من كثرة العدد في عدوكم و لا تيأسوا لقلة عددكم.

(لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ). اي ان اللّه سبحانه أمدكم بالملائكة ليهلك طائفة من الكافرين بالقتل و الأسر، أو يخزيهم بالهزيمة، فيرجعوا خائبين لا أمل لهم بالنصر.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٢٨ الى ١٢٩]

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (١٢٨) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

المعنى:

(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ). قد يظن المسلمون- بالنظر الى تعظيمهم رسول اللّه- ان له يدا فيما حدث للمشركين ببدر، أو يحدث لهم من الهزيمة، فدفع سبحانه هذا الوهم بأن الأمر كله للّه وحده .. و قد أكد القرآن في العديد من آياته بأن محمدا (ص) هو بشير و نذير، يبلغ أحكام اللّه لعباده، و كفى ..

و غير بعيد أن تكون الحكمة من هذا التكرار و التأكيد ان لا يغالي المسلمون في نبيهم، كما غالى المسيحيون بالسيد

المسيح (ع).

(أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ). يتوب منصوب، لأنه معطوف على يكبتهم المنصوبة في الآية السابقة، و المعنى ان الأمر كله للّه، فاما أن

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٥٤

يهلكهم، أو يتوب عليهم ان أسلموا، أو يعذبهم ان أصروا على الكفر، لأنهم يستحقون العذاب بظلمهم، أي بكفرهم.

(وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ) و من كان له ملك السموات و الأرض كان حقيقا بأن يكون له الأمر كله، و لا شيء لأحد معه. **(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ)**. ذكرنا أكثر من مرة ان العقل يحكم بأن الكافر يستحق العقاب، و لكن لا يحتمه على كل حال، بل ان للّه سبحانه ان يغفر عنه لحكمة، مع استحقاقه للعقاب، تماما كما تغفر عمن أساء اليك، و تسقط ديونك عمن هو مدين لك .. و جانب الرحمة و المغفرة عند اللّه هو الغالب تفضلا منه و كرما.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٣٠ الى ١٣٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (١٣١) وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)

اللغة:

ضعف بكسر الضاد معناة الزيادة على الشيء بمثله.

الإعراب:

أضعافا حال، و مضاعفة مفعول لاضعاف.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٥٥

المعنى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). ذكر المفسرون وجوها عديدة لربط هذه الآية بما قبلها. و سبق ان أشرنا أكثر من مرة الى ان من سنة القرآن ان يمزج بعض الأحكام ببعض، بالاضافة الى ان آياته نزلت بالتدريج، و لمناسبات شتى.

و استدل البعض بهذه الآية على ان الربا المحرم هو الربا الفاحش، أما غير الفاحش فليس بحرام، لمكان لفظ أضعافا مضاعفة.

و الصحيح ان الربا محرم بجميع أقسامه و مراتبه .. و أضعافا ليس قيدا للنهي، و انما هو اشارة الى ما كان عليه المرابون في الجاهلية .. هذا، الى وجود الأخبار، و قيام الإجماع على ان قليل الربا محرم كالكثير منه، بل كل ما كان كثيره حراما فقليله كذلك ربا كان أو غير ربا.

و أطال صاحب تفسير المنار الشرح و التفصيل عند تفسير هذه الآية، و انتهى أخيرا الى ان الربا على قسمين:

القسم الأول ربا النسيئة، و هو ان يكون للرجل دين على آخر الى أجل، فإذا حلّ الأجل، و عجز المديون قال للدائن: زدني في الأجل ثانية، و أزيدك في المال، و هكذا كلما زاد الأجل، زاد المال. ثم قال صاحب المنار: ان هذا النوع من

الربا محرم لذاته.

القسم الثاني: أن يعطيه مائة درهم بمائة و عشرة الى أجل ابتداء، و ادخل صاحب المنار هذا القسم بربا الفضل، و قال: ان هذا النوع ليس محرما لذاته، و انما يحرم لسد الذريعة، أي خوفا أن يجر الى ربا النسيئة الذي هو محرم ذاتا، و بكلمة ان ربا النسيئة عند صاحب المنار محرم كغاية، و ربا الفضل محرم كوسيلة، ثم قال: «ان ربا الفضل يباح للضرورة، بل و للحاجة كما قال ابن القيم».

و يلاحظ: ان النص الثابت كتابة و سنة يحرم جميع أنواع الربا من غير فرق بين أن يكون التأجيل للمرة الأولى، أو للمرة الثانية.

ثانيا: ان قوله «بل و للحاجة» من سهو القلم، لأن الضرورات تبيح المحظورات، أما الحاجات فليس، و الفرق بين الحاجة و الضرورة ان الحاجة

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ١٥٦

يمكن الاستغناء عنها و لو بالصبر، أما الضرورة فلا يجدي معها شيء الا سدها بالذات.

ثالثا: ان الضرورة هنا غير متحققة إطلاقا، لا بالنسبة الى القابض، و لا بالنسبة الى الدافع، أما القابض أي صاحب المال فلأن المفروض ان لديه ما يقيم به الأود، و لو يوما واحدا، و أما الدافع فإن الضرورة إذا سوغت له أخذ المال فإنها لا تسوغ له دفع الربا، و ان اشترط عليه، لأن الشرط فاسد، و إذا أخذ منه قهرا عنه فلا يحل للآخذ، لأنه أكل للمال بالباطل.

رابعا: لو سلمنا جدلا بأن الضرورة ممكنة بالنسبة الى القابض فإنها تسقط الحكم التكليفي دون الوضعي، فإذا سرق الجائع المضطر رغيفا يسقط عنه العقاب ما في ذلك ريب، و لكنه مسؤول عن ثمن الرغيف، و عليه أن يدفعه الى صاحبه عند الميسرة .. و من أباح أخذ الربا للضرورة لا يوجب رده عند الميسرة الى من أخذ منه.

و تكلمنا عن الربا مفصلا في سورة البقرة الآية ٢٧٥.

(وَ أَطِيعُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ). في هذا دلالة على أمرين: الأول ان أكل الربا معصية للّه و الرسول. الثاني: ان من يعصي اللّه و الرسول لا تناله رحمة اللّه بحال.

(وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ). بعد أن نهى سبحانه عن أكل الربا، و حذر من النار، و دعا الى التقوى و طاعة اللّه و الرسول، بعد هذا كله أمر بالمسارعة الى فعل الخير الذي يستوجب رضوان اللّه و جنته .. و من أظهر الخيرات و المبرات التراحم و التعاون و انفاق المال لوجه اللّه تعالى، كما نصت الآية الآتية .. و قوله «**عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الأَرْضُ**» كناية عن السعة.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٣٤ الى ١٣٦]

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (١٣٦)

اللغة:

السراء الحال التي تسر، و منها اليسر و السعة، و الضراء الحال التي تضر، و منها العسر و الضيق، و كظم الغيظ عدم إظهاره بقول أو فعل، و المراد بالفاحشة هنا الذنب الكبير، و منه الزنا، قال تعالى: «وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً».

الإعراب:

الذين صفة للمتقين في آخر الآية السابقة و الكاظمين و العافين عطف على الذين، و فاحشة صفة لمحذوف، أي فعلوا فعلة فاحشة، و نعم أجر العاملين المخصوص بالمدح محذوف، أي نعم أجر العاملين أجرهم.

المعنى:

وصف اللّه المتقين بأوصاف هي مناقب و فضائل حتى عند من لا يؤمن باللّه و اليوم الآخر:

«منها»: **(يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ)**. لا يبطرهم الغنى، و يزيد في

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٥٨

طمعهم و حرصهم، فيشحون بالمال، و لا يضجرهم الفقر، و يبعثهم على اليأس و يرون انهم أجدر بالأخذ لا بالعطاء، و هم في الحالين سواء ينفقون حسبما يستطيعون ..

و في الحديث: تصدقوا و لو بشق تمرة.

و «منها»: **(وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ)**. و لا شيء أدل على قوة الإيمان، و رجاحة العقل من تمالك النفس و كظم الغيظ، و إذا كان في تجرع الغيظ مرارة و مشقة على النفس، فانه وقاية من كثير من المصائب و الكوارث، قال الإمام علي (ع) يوصي ولده الإمام الحسن (ع): تجرع الغيظ فاني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة، و لا ألذ مغبة.

و (منها): **(وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ)**. و العفو عمن أساء أفضل بكثير من كظم الغيظ، لأن الإنسان كثيرا ما يضبط نفسه، و يكظم غيظه بدافع من صالحه الخاص، و تجنبا للوقوع في المشاكل، أما العفو عن ذنوب الناس فهو احسان محض. قال الإمام علي (ع): إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه.

و (منها): **(وَ اللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)**. و يتحقق الإحسان بكل ما فيه نفع مادي أو معنوي، كثر، أو قلّ، و لو بكلمة (من هنا الطريق). قال الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية: «أخرج البيهقي ان جارية لعلي بن الحسين (ع) جعلت تسكب الماء عليه ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجته، فرفع رأسه، فقالت: ان اللّه يقول: و الكاظمين الغيظ. فقال لها: قد كتمت غيظي. قالت: و العافين عن الناس. قال: قد عفا اللّه عنك. قالت: و اللّه يحب المحسنين. قال: اذهبي أنت حرة لوجه اللّه تعالى.

و (منها): **(وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)**. الفاحشة أفحش الذنوب و أكبرها، و منها الاعتداء على حقوق الناس، و ليس في ظلم النفس اعتداء على الغير، و لكن قد يكون فاحشا كالكفر، فيكون ذكره بعد ذكر الفاحشة من باب ذكر العام بعد الخاص .. و مهما يكن، فإن اللّه يعفو عن الجميع، و يغفر كل ذنب كبيرا كان أو صغيرا بشرط الاستغفار، أي التوبة النصوحة. **(وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ)**.

أي ان اللّه سبحانه يغفر لمن تاب و أقلع عن الذنب، أما من أصر و استمر في

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٥٩

فعل الذنب، و هو يعلم بأنه ذنب فلا يغفر اللّه له. و معنى هذا ان من ارتكب قبيحا عن جهل بقبحه فهو معذور.

(أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ) الخ مر نظير هذه الآية في سورة البقرة ٢٥ و ٢٦٦.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٣٧ الى ١٣٨]

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ

لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

اللغة:

خلت، أي مضت. و السنن واحدها سنة، و هي الطريقة المستقيمة، و السيرة المتبعة.

المعنى:

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ). سبقت الاشارة الى وقعة أحد، و ان الانتصار فيها كان للمشركين، لأن المرابطين في الثغر من المسلمين تركوه، و العدو مشرف عليهم، فأخلوا بين عدوهم و بين ظهورهم .. و قد خاطب اللّه سبحانه. بقوله: «**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ**» أصحاب محمد (ص) ان يتعرفوا على أخبار الماضين، و ما حل بالمنحرفين منهم، ليتعظ الأصحاب بذلك، و لا يعودوا الى مثل ما فعلوا في أحد من معصية الرسول بإخلاء الثغر الذي أمرهم بالبقاء فيه، مهما كانت النتائج، فلما خالفوه أصابهم ما أصاب الأمم السالفة التي خالفت أنبياءها.

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ). ليس المراد من السير في الأرض هنا خصوص السفر، بل مطلق التعرف على أحوال الماضين

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٦٠

بأي سبيل. و ليس من شك ان من المفيد للعاقل أن يبحث عن أحوال الناس، و يطلع على الأسباب الموجبة لضعفهم، أو قوتهم، فيتعظ و يعتبر، و يسترشد إلى ما فيه خيره و صلاحه، و من أجل هذا قال عز من قائل:

(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ). هذا اشارة الى ذكر السنن الحكيمة التي من سار عليها ظفر، و من تنكبها خسر .. و لا بد من البيان للناس كافة، ليكون حجة على من عصى، و هدى و موعظة لمن اتقى، فانه السبيل الوحيد الذي يميز بين العاصي و المطيع .. و لو لا البيان لا طاعة و لا عصيان.

نكسة ٥ حزيران:

في سنة ١٣٨٧ هـ دعاني أهل البحرين لالقاء محاضرات دينية بمناسبة شهر رمضان المبارك، و مكثت عندهم حوالي ٢٥ يوما ألقيت خلالها عشرين محاضرة، و كان الشباب يوجهون إليّ العديد من الأسئلة المتنوعة، و في ذات يوم جاءني وفد منهم، و قالوا: حدثنا عن أسباب نكسة ٥ حزيران من غير الوجهة الدينية.

قلت: لا فرق بين العلم و الدين من حيث النظر الى القوانين و السنن التي تحكم الحياة، فإن مشيئة اللّه سبحانه في خلقه و عباده تسير على سنن علمية مستقيمة و أسباب مطردة، لا تختلف باختلاف المؤمنين أو الكافرين .. فالعارف بفن السباحة- مثلا- يعوم و يصل إلى شاطئ الأمان، و لو كان كافرا، و الجاهل بالسباحة يرسب، و يكون عرضة للهلاك، و لو كان مؤمنا .. و كذلك من أعد العدة لعدوه و احتاط له ظفر به، و ان كان ملحدا، إذا لم يكن الطرف الآخر على حذر و استعداد، و من تقاعس و أهمل خسر، و ان كان من الأولياء و الصديقين.

قال تعالى مخاطبا أصحاب الرسول (ص) بالآية ٤٦ من الأنفال: «وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ». و قال الإمام علي (ع):

«ان هؤلاء- يشير إلى أصحاب معاوية- قد انتصروا بإجماعهم على باطلهم، و خذلتم- الخطاب لأصحابه- بتفرقكم عن حقكم». اذن، الحق لا ينتصر لمجرد انه حق، و الباطل لا يخذل لمجرد أنه باطل، بل هناك سنن في هذه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٦١

الحياة تسيّر المجتمع و تتحكم به، و اللّه سبحانه لا يسقطها و يعطل سيرها، تماما كما هو شأنه في سنن الطبيعة.

و عليه، فلا عجب أن تغتال الصهيونية جزءا من أرضنا بمعونة الاستعمار، ما دمنا في غفلة عنها و عن مقاصد أعوانها منقسمين الى دويلات لا جامع بينها الا لفظ العرب و العربية .. أجل، قد تكون الجولة الأولى للباطل، و لكن العاقبة لمن صبر و اتقى، لأن الباطل مهما استعد و تحصن فإنه يفقد القوى و الصفات التي تؤهله للبقاء و الاستمرار، فهو دائما عرضة للزوال .. ففي أية لحظة يجد الحق أنصارا يؤمنون به، و يضحون من أجله لا يلبث الباطل أن يدمغ و يضمحل.

و الذي يبعث على التفاؤل ان العرب لم يستسلموا للأمر الواقع، بل اتخذوا من المحنة و الهزيمة دافعا الى مزيد من الصلابة و التصميم .. لقد ظن الاستعمار ان طول الطريق يضعف العرب، و ان احتلال أرضهم يلجئهم الى الخضوع، ثم ظهر له انه خاطئ في ظنه، و انه لا شيء في حساب العرب الا الصبر و الكفاح طويلا كان الطريق أو قصيرا، يسيرا كان أو عسيرا.

و تسأل: قلت: ان مشيئة اللّه تجري على القوانين و السنن المعروفة، مع انه سبحانه، قد أهلك قوم نوح بالطوفان، و قوم هود بريح عاتية، و أمطر أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، و جعل عالي مدائن لوط سافلها، لا لشيء الا لمجرد العصيان و مخالفة الحق، كما جاء في كتابه العزيز.

الجواب: ان الحكمة الإلهية اقتضت استثناء تلك الموارد الجزئية الخاصة على يد من سبق من الأنبياء، و لم تتكرر و تطرد في جميع الكفار و العصاة، فالقياس عليها قياس على الفرد النادر.

سؤال ثان: لما ذا لا ينتصر الحق على كل حال، ما دام اللّه مريدا له و لأهله، كارها الباطل و أتباعه؟.

الجواب: أولا لو انتصر الحق على كل حال لاتبعه الناس، كل الناس رغبة في النصر لأحبابه، و كرها بالباطل، و لتعذر التمييز بين الخبيث الذي يتبع الحق بقصد المنفعة و الاتجار، و بين الطيّب الذي يتبع الحق لوجه الحق، و يتحمل في سبيله المحن و الشدائد. هذا، الى ان الأسباب لا تعرف الا بعد الهزيمة.

ثانيا: لو سلّط اللّه المحنة على المبطلين أبدا و دائما، و أبعدها عن المحقين

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٦٢

كذلك لبطل التكليف، و الثواب و العقاب، لأن اتباع الحق، و الحال هذه، يكون بالقهر و الغلبة، لا بالارادة و الاختيار.

و الخلاصة، ان على المسلم ان يتدبر معاني القرآن، و يتخذ منها ميزانا لعقيدته و تصوره عن النصر و الهزيمة، و القوة و الضعف، و ان لكل منهما طريقه الخاص.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٣٩ الى ١٤١]

وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَ اللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَ لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ (١٤١)

اللغة:

الوهن الضعف. و الأعلون جمع، واحده الأعلى، و مؤنثه العلياء، و جمعها العليات. و الفرق بين اللمس و المس ان اللمس لصوق باحساس، و المس مجرد اللصوق، سواء أ كان معه إحساس، أو لم يكن. و القرح بالضم و الفتح لغة في معنى واحد، و هو عض السلاح و نحوه مما يجرح الجسم، و قيل: هو بالفتح نفس الجرح، و بالضم ألمه. و المداولة نقل

الشيء من واحد الى آخر، يقال:

تداولته الأيدي إذا تناقلته، و يقال: الدنيا دول، أي تنتقل من قوم الى غيرهم.

و التمحيص التخليص من العيوب. و المحق النقصان، و منه أيام المحاق، للأيام الأخيرة من الشهر الهلالي، لذهاب ضوء الهلال حالا بعد حال.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٦٣

الإعراب:

و أنتم الأعلون مبتدأ و خبر، و الجملة معترضة لا محل لها من الإعراب، و قيل: في موضع نصب على الحال، و تلك مبتدأ، و الأيام عطف بيان، و جملة نداولها خبر. و ليعلم اللّه عطف على محذوف، و التقدير لأن الحكمة اقتضت المداولة، و ليعلم اللّه، اللام في ليعلم لام كي.

المعنى:

(وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا). من أهم ما يحرص عليه القائد الحكيم أن تكون الروح المعنوية في جنده قوية عالية، و ان يدرأ عن أنفسهم الوهن و الخوف، لأن الغلب لا يرجع الى القوة فحسب، و انما يرجع قبل كل شيء الى الثبات و قوة العزيمة .. ان عدوك يخشى من عزمك و تصميمك على مقاومته أكثر من تسليحك بأفتك الأسلحة، لأن هذه لا تجدي نفعا، مع عدم العزم و التصميم على المقاومة، و قد رأينا صحف الاستعمار و اذاعاته و عملاءه يبثون الدعاية له و للصهيونية عن طريق الحرب النفسية، و تفتيت عزيمة العرب، و التشكيك في مقدرتهم على المقاومة .. ان احتلال النفوس هو الركيزة الأولى للاستعباد، و احتلال البلاد ..

و قد أرشدنا القرآن الكريم الى هذه الحقيقة بقوله: «**وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا**».

أما قوله: **(وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)**. فهو اشارة الى أن الإسلام يعلو و لا يعلى عليه، فمن تمكن الإسلام من قلبه لا يلين و لا يفزع، حتى و لو مات في سبيل دينه، و إعلاء كلمة الحق، و انما يحسن اللين و التساهل من المسلم في حقه الخاص، لا فيما يعود الى دينه و عقيدته.

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ). اي ان نال منكم العدو يوم أحد فقد نلتم منه يوم بدر، و مع ذلك لم يضعف، بل أعد العدة لكم، و أعاد الكرة عليكم، فليكن هذا شأنكم معه.

(وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ). المراد بالأيام هنا القوة، و انها تارة تكون لهؤلاء، و تارة لأولئك .. و كانت القوة في العصور المتخلفة تتمثل في المال

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٦٤

و الرجال فقط، أما اليوم فتتمثل بالعلم، و نمو الصناعة و تطورها، فالبلد الجاهل ضعيف و ان كان أغنى الأغنياء في الذهب الأسود و الأصفر، و البلد العالم قوي، و ان خلت أرضه من جميع المعادن، و الضعيف خاضع و تابع للقوي أراد ذلك، أو لم يرد .. و قد كان العلم في الشرق عند المسلمين، ثم انتقل الى الغرب، و من الجائز القريب أن يتفوق المسلمون علما و صناعة في السنوات المقبلة .. من يدري؟

اللّه أعلم.

(وَ لِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا). هذه الجملة معطوفة على محذوف، و التقدير و تلك الأيام نداولها بين الناس لحكمة اقتضت هذه المداولة، و ليس المراد ان اللّه لم يكن عالما بالمؤمنين، فداول الأيام لكي يعلمهم، كلا، فان اللّه يعلم السر و أخفى، و انما المراد اظهار علمه بالمؤمنين، ليعرفوا بين الناس، و يتميزوا عن غيرهم، قال صاحب مجمع البيان: ان أحدنا يعلم بإتيان الغد قبل مجيئه، فإذا أتى علم به حاضرا، و إذا انقضى علم به ماضيا، فالتغيير و الحدوث يحصل في المعلوم، و هو الغد لا في العالم، و كذلك الحال بالنسبة الى اللّه سبحانه، فإنه يعلم المؤمن و الكافر قبل أن يظهرا للناس على حقيقتهما، فإذا ظهرا و تميزا علم بهما متميزين معروفين للناس.

(وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ). الشهيد هو الذي يجود بنفسه للذود عن عقيدته، لأنه يرى الموت في سبيلها سعادة، و الحياة مع الظالمين برما، كما قال سيد الشهداء الحسين بن علي (ع). و قد ملئ القرآن بتعظيم الشهداء، من ذلك قوله تعالى: «فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ- ٦٨ النساء».

(وَ اللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ). فلا يصطفي منهم أحدا للشهادة. (وَ لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا). ان الغرض من مداولة الأيام ان يستفيد الإنسان من التجارب، و يطهر نفسه من الشوائب، و قيل: المراد بالتمحيص الابتلاء و الاختبار الذي يظهر الإنسان على حقيقته.

(وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ). قال الرازي: «الأقرب ان المراد بالكافرين هنا طائفة مخصوصة منهم، و هم الذين حاربوا رسول اللّه (ص) يوم أحد، و انما

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٦٥

قلنا ذلك لعلمنا بأنه تعالى لم يمحق كل الكفار، بل كثير منهم بقي على كفره».

و هذا صحيح ان كان المراد بالمحق العذاب الدنيوي، لا الاخروي.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٤٢ الى ١٤٣]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)

ثمن الجنة الآية

الإعراب:

أم منقطعة، بمعنى بل و الهمزة، أي بل أ حسبتم، و قيل: ان أم هنا بمعنى لا الناهية، أي لا تحسبوا. و لما يعلم اللّه الواو للحال، و لما بمعنى لم، تجزم الفعل المضارع الا انها تشعر بتوقع الفعل- كما قيل- و يعلم الصابرين بالجزم عطفا على (وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللهُ) و يجوز النصب على أن تكون الواو بمعنى مع و ان مضمرة بعدها، أي و ان يعلم، مثل لا تأكل السمك و تشرب اللبن، أي لا تجمع بينهما، و يجوز الرفع على تقدير أن الواو للحال. و تمنون، أي تتمنون، و حذفت احدى التاءين للتخفيف.

المعنى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ).

لقد دلت هذه الآية دلالة صريحة واضحة على ان الإسلام يرتبط ارتباطا وثيقا بالعمل الصالح في هذه الحياة، و ان الشرط الأول للقرب من اللّه، و الفوز بمرضاته

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٦٦

و ثوابه هو الجهاد و الكفاح، و الصدق و الإخلاص و الصبر و الثبات، أما بناء المساجد و المعابد، و الصوم و الصلاة، و التلاوة و الأوراد، كل ذلك، و ما اليه ليس بشيء الا إذا كان وسيلة لعمل يجلب للناس نفعا، أو يدفع عنهم ضرا.

و في معنى هذه الآية **(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا)** التي ربطت دخول الجنة بالجهاد و الصبر على تحمّل متاعبه، في معناها آيات كثيرة، منها الآية ١١٢ من التوبة:

«إِنَّ اللهَ اشْتَرىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقٰاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرٰاةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ». و الآية ٧٢ من الاسراء: «وَ مَنْ كٰانَ فِي هٰذِهِ أَعْمىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمىٰ وَ أَضَلُّ سَبِيلاً».

و كفى دليلا قاطعا على ذلك قوله تعالى: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسٰانِ إِلاّٰ مٰا سَعىٰ، وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ، ثُمَّ يُجْزٰاهُ الْجَزٰاءَ الْأَوْفىٰ- ٤٠ النجم».

و من أقوال الإمام علي (ع): حفت الجنة بالمكاره، و حفت النار بالشهوات ..

ليس لأنفسكم ثمن الا الجنة، فلا تبيعوها الا بها. و سبق الكلام عن ذلك في تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة، فقرة «ثمن الجنة».

الشعارات الدينية:

الشعارات الدينية كالمعابد و الصلوات مقدسة، ما في ذلك ريب .. بل هي ضرورة دينية لا بد منها، فما من دولة أو فئة يجمعها مبدأ واحد الا و لها شعار يبرز شخصيتها، و يجمع أشياعها و أتباعها .. و لكن ليست العبرة بالشعار وحده، بل بما وراء الشعار من فاعلية و أثر، فليس الغرض من الصلاة مجرد الركوع و السجود، بل بما تتركه في نفس المصلي من النهي عن الفحشاء و المنكر، و لا من الجامع أن نجتمع فيه للتهليل و التكبير، بل لنتآزر و نتعاون مخلصين على ما فيه خير الجميع.

و قد اتخذ كثيرون في عصرنا الشعار الديني أداة للتضليل، و ستارا يخفون وراءه مطامع استعمارية، و أهدافا صهيونية .. فإن الكثير من الأحزاب و التكتلات التي تحمل اسم الدين أو الثقافة أو الوطنية خرجت من مكاتب الاستخبارات

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٦٧

الأجنبية، أما ميزانيتها فمن غنائم شركات النفط .. و الذي يهون الخطب انها تكشفت للجميع فلا يثق بها مخلص، و لا يتعاون معها الا خائن باع دينه و بلاده للشيطان.

(وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ).

الخطاب لبعض أصحاب الرسول (ص) الذين كانوا يتمنون الفوز بالشهادة قبل وقعة أحد، و لما جد الجد جبنوا و انهزموا، و أسلموا النبي (ص) لأعدائه و أعدائهم .. و في بعض الروايات ان رجالا من الأصحاب كانوا يقولون: لئن شهدنا حربا مع النبي (ص) لنفعلن و نفعلن، فلما ابتلوا بذلك لم يفوا بالعهد، فأنزل اللّه فيهم: **(وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ)** الخ. و المراد برؤية الموت رؤية أسبابه من مبارزة الأبطال .. و قد وبخهم اللّه بهذه الآية لمخالفة أقوالهم لأفعالهم.

تغير الأخلاق و الأفكار:

لكل انسان ظروفه و بيئته الخاصة، و هذه الظروف هي التي تهيمن على أخلاقه و أفكاره- في الغالب- فالضعيف مثلا

يستقبح الظلم أكثر من القوي، و من تربى في بيئة تعبد الأوثان لا يرى بأسا في تقديسها .. اللهم إلا إذا كان إنسانا فوق المعتاد كمحمد بن عبد اللّه، فإنه كان بفطرته يرفض كل قبيح من عادات قومه.

و قد تتغير ظروف الإنسان، فيصبح غنيا بعد أن كان فقيرا، أو بالعكس فتتغير تبعا لها أخلاقه و أفكاره. فالذات تبقى على صفاتها، ما لم تتغير ظروفها الاجتماعية، فإذا تغيرت صفات الذات- في الأعم الأغلب- و قد شاهدنا رجالا كانوا ينتقدون الأغنياء و الرؤساء، و هم فقراء مرؤوسون، حتى إذا نالوا نصيبا من المال و الجاه نقضوا العهد، و أصبحوا أسوأ حالا ممن نقموا عليه بالأمس.

و قد أكد القرآن الكريم هذه النظرية بقوله: **وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ** الآية.

و بالآية ٧٤ من التوبة: «وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٦٨

وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ، فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ».

و العاقل المجرب يتهم نفسه، و لا يؤكد كل ما يعرض لها من خطرات و تصورات خشية أن تكون سرابا يذهب مع الريح، كما ان المؤمن حقا و واقعا يبقى ثابت الايمان في السراء و الضراء تنطبق أقواله على أفعاله في جميع الحالات، و يتجه بها جميعا الى اللّه وحده، مهما تكن الظروف و النتائج. و قد جاء في تفسير الآية ٩٨ الانعام: «وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ».

جاء في تفسيرها روايات تقول: ان المستقر هو الايمان الثابت، و المستودع هو الايمان المعار .. و لا شيء أدل على الايمان المستقر الثابت من انسجام الأقوال مع الأفعال، و على الإيمان الزائف من تناقض الأقوال للأفعال .. و من ثم كانت أقوال الأنبياء و الأئمة الأطهار عين أفعالهم بالذات، و أفعال المنافقين أبعد ما تكون عن أقوالهم.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٤٤ الى ١٤٨]

وَ ما مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكانُوا وَ اللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَ ما كانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ إِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (١٤٧) فَآتاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَ حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَ اللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٦٩

اللغة:

يقال لكل من عاد الى ما كان عليه: انقلب على عقبيه، و عليه يكون المراد بقوله: **(انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ)** رجعتم كفارا بعد ايمانكم. و الموجل ذو الأجل المضروب. و ربيّون قال صاحب مجمع البحرين: هم الكاملون في العلم و العمل، و قال غيره: بل هم الجماعات الكثيرة واحدهم ربي و هو الجماعة.

و الوهن الضعف. و الاستكانة اظهار الضعف بالاستسلام للخصم. و الإسراف مجاوزة الحد.

الإعراب:

شيئا مفعول مطلق، أي شيئا من الضرر. و كتابا مفعول مطلق لفعل محذوف، و التقدير كتب كتابا مؤجلا، لأن كل ما كان بإذن اللّه فهو مكتوب، و كأين أصلها (أي) فدخلت عليها الكاف، كما دخلت على كذا، و صارت كلمة واحدة، و هي بمعنى كم الخبرية، و محلها الرفع على انها مبتدأ، و كتبت بالنون في المصحف- كما في تفسير المحيط- و جملة قاتل معه ربيون خبر.

المعنى:

(وَ مٰا مُحَمَّدٌ إِلاّٰ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ مٰاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أَعْقٰابِكُمْ). تشير هذه الآية الى واقعة معينة، و هي وقعة أحد، و سبقت الاشارة

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٧٠

اليها، و تلخيصها ان النبي (ص) أمر الرماة ان يلزموا الجبل، و لا ينتقلوا عنه بحال، سواء أ كان الأمر للمسلمين، أم عليهم .. و لكن جماعة من الرماة لما رأوا انهزام المشركين في الجولة الأولى أخلوا ظهر المسلمين، و بادروا الى الغنيمة، فأعاد المشركون الكرة على المسلمين، و أكثروا فيهم القتل، و كسرت رباعية الرسول (ص) و شج وجهه و نزفت جراحه، و نادى مناد ان محمدا قد قتل، فانكفأ الناس عن النبي (ص)، و ما بقي معه الا قليل، منهم علي بن أبي طالب و أبو دجانة الأنصاري، و قال البعض من الأصحاب: ليتنا نجد من يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان، و قال آخرون: لو كان محمد نبيا لم يقتل، ألحقوا بدينكم الأول.

و قد وبّخ القرآن المنهزمين و المشككين، و قال لهم: ان محمدا ليس الا بشرا يبلغ رسالة ربه الى عباده، و متى بلغها تنتهي مهمته، و رسالته العامة لا ترتبط بشخصه، و لا تموت بموته، بل تبقى ببقاء اللّه الذي لا يموت، تماما كما هو الشأن بالنسبة الى غيره من الأنبياء الذين ماتوا أو قتلوا، و بقيت رسالاتهم و تعاليمهم .. و بكلمة ان الدعوة لا تموت بموت الداعي، و المبادئ لا تزول بزوال الأفراد.

و خير ما يمثل هذه الحقيقة ما جاء في تفسير الطبري ان رجلا من المهاجرين مر برجل من الأنصار يتشحط في دمه، فقال للأنصاري: أعلمت ان محمدا قد قتل؟. فقال الأنصاري: ان كان محمد قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم .. و في الطبري أيضا و غيره ان انس بن النضر مر بعمر بن الخطاب و طلحة بن عبيد اللّه في رجال من المهاجرين و الأنصار، و قد ألقوا بأيديهم، فقال انس: ما يجلسكم؟. قالوا: قتل محمد. قال: ان كان قد قتل محمد فإن رب محمد لم يقتل، و ما تصنعون بالحياة بعده؟. فقاتلوا على ما قاتل عليه، و موتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهم اني أعتذر اليك مما قال هؤلاء، و أبرأ اليك مما جاؤوا به، ثم شد بسيفه، فقاتل، حتى قتل، رضوان اللّه عليه.

و قال ابن القيم الجوزية في الجزء الثاني من زاد المعاد ص ٢٥٣: «ان وقعة أحد كانت مقدمة و إرهاصا- أي لوما- بين يدي موت محمد (ص)، فنبأهم

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٧١

اللّه و وبخهم على انقلابهم على أعقابهم ان مات رسول اللّه أو قتل». و نقل صاحب تفسير المنار عن أستاذه الشيخ محمد عبده ان كلمة **(انْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أَعْقٰابِكُمْ)** عامة تشمل الارتداد عن الدين، و الارتداد عن تأييد الحق، ثم علق صاحب المنار على ذلك بقوله: (هذا هو الصواب). اذن، فالانقلاب المقصود بالآية لا ينحصر بترك كلمة التوحيد، بل

يشمل ترك العمل بالحق الذي أوصى به النبي (ص) .. و يعزز ذلك ما جاء في الجزء التاسع من صحيح البخاري، كتاب الفتن، ان رسول اللّه (ص) يقول يوم القيامة: أي ربي أصحابي .. فيقول له: لا تدري ما أحدثوا بعدك .. و في حديث ثان من أحاديث البخاري:

انك لا تدري ما بدلوا بعدك؟. فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي .. و ليس من شك ان المراد بهذا التبديل الاعراض عن سنته و وصيته، و مخالفة أقواله و شريعته.

(وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً) بل يضر نفسه بتعريضها لسخط اللّه و عذابه. **(وَ سَيَجْزِي اللهُ الشّٰاكِرِينَ)**. قال ابن القيم الجوزية في الجزء الثاني من زاد المعاد ص ٢٥٤: «و الشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها، حتى ماتوا أو قتلوا. فظهر أثر هذا العتاب و حكم هذا الخطاب يوم مات رسول اللّه (ص) و ارتد من ارتد على عقبيه».

(وَ مٰا كٰانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاّٰ بِإِذْنِ اللهِ كِتٰاباً مُؤَجَّلاً). و في معنى هذه الآية قوله تعالى:

الأجل محتوم:

«فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَةً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ- ٣٣ الاعراف».

و المعنى ان الحياة و الموت بيده تعالى، و ان الأجل محدود بعلمه لا تقديم فيه و لا تأخير، سواء أكان سببه السيف أو المرض أو الهرم أو غيره، قال الإمام علي (ع): كفى بالأجل حارسا. و قال الأجل جنة حصينة .. و في الآية تحريض على الجهاد، لأن الأجل محتوم، و لا أحد يموت قبل بلوغ أجله، و ان اقتحم المهالك.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٧٢

و تسأل: الذي نشاهده ان للموت أسبابا خاصة، كالقتل و الغرق و الوباء و ما اليه، و هذا ينافي أن يكون الأجل محدودا بعلم اللّه؟

و قد أجاب عن ذلك الشيخ محمد عبده- كما في تفسير المنار- بأنه ليس هناك أسباب للموت غير الأجل المقدر عند اللّه، فان الوباء قد يعم، و مع ذلك يفتك بالشاب القوي، و يترك الشيخ الهزيل، و كم من ضربة قتلت هذا دون ذاك، و لو كانت هذه أسبابا مطردة لظهر أثرها في الجميع دون استثناء.

سؤال ثان: على هذا ينبغي ان يكون القاتل غير مسؤول أمام اللّه، مع انه قال عز من قائل: «وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِيهٰا وَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذٰاباً عَظِيماً- ٩٢ النساء»؟

الجواب: ان المقتول مات بأجله المعين، و القاتل استحق العقاب: لأنه أقدم على ما نهى اللّه عنه، مع قدرته على أن يجتنبه، و يدع المعتدى عليه يموت بسبب آخر .. و بتعبير ثان هنا قضيتان: الأولى كل من باشر الحرام متعمدا فهو مسؤول. الثانية للمعتدى عليه اجل معين، و قد تواردت القضيتان على مورد واحد، فكان لكل منهما حكمه و أثره.

(وَ مَنْ يُرِدْ ثَوٰابَ الدُّنْيٰا نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوٰابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهٰا وَ سَنَجْزِي الشّٰاكِرِينَ). لفظ الآية عام، و سياق الكلام وارد في خصوص الجهاد، و المعنى ان من قاتل طلبا للربح و الغنيمة لا رغبة في ثواب اللّه، و قتل فقد خسر الدنيا و الآخرة، و ان سلم و غنم الجيش أخذ حظه من غنيمة الحرب، و ليس له من ثواب اللّه شيء .. و ان قاتل انتصارا للحق و إعلاء كلمة الدين أخذ نصيبه من الغنيمة، و استحق من اللّه الأجر و الثواب، و كذا لو قصد الاثنين معا لقوله تعالى: «فَمِنَ النّٰاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنٰا آتِنٰا فِي الدُّنْيٰا وَ مٰا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاٰقٍ. وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنٰا آتِنٰا فِي الدُّنْيٰا

حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللهُ سَرِيعُ الْحِسابِ- ٢٠٠ البقرة». فطبيعة الجهاد تتحمل القصدين معا، قصد الدنيا و قصد الآخرة، على العكس من الصوم و الصلاة و الحج و الزكاة فإنها للّه وحده يفسدها أدنى الشوائب.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٧٣

لكل امرئ ما نوى:

من تتبع آيات اللّه سبحانه و أحاديث رسوله (ص) يرى ان للنية تأثيرا عظيما في الحكم على الأقوال و الأفعال و الرجال، قال تعالى: **وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها** الخ .. و قال: من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء .. وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً- ١٩ الأسراء».

و قال: «يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ- ٨٧ الشعراء».

و في الحديث الشريف: لكل امرئ ما نوى .. يحشر الناس على نياتهم .. انما الأعمال بالنيات .. نية المرء خير من عمله.

و لا عجب فان القلب هو الأساس، فبحركته تبتدئ حياة الإنسان، و تنتهي بسكونه .. و هو محل الإيمان و الجحود، و الخوف و الرجاء، و الحب و البغض، و الشجاعة و الجبن، و الإخلاص و النفاق، و القناعة و الطمع، و ما الى ذلك من الفضائل و الرذائل .. و في الحديث القدسي: ما وسعتني أرضي و لا سمائي، و وسعني قلب عبدي المؤمن، أي أدرك عظمة اللّه.

فالأعمال كلها تتكيف بحال القلب، و تنصبغ بصبغته، لأنه أصلها و مصدرها، و جاء في تفسير الآية ٨٧ الاسراء: «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ». أي على نيته .. و على هذا يستطيع الإنسان ان يختار طريقه بنفسه باختيار مقاصده و أهدافه- خيرا أو شرا- يختاره من البداية الى النهاية، كما نستطيع نحن ان نحكم عليه بما يختار هو لنفسه من الأهداف و الأغراض.

و قال الوجوديون: لا يمكن الحكم على الإنسان الا بعد أن يعبر آخر مرحلة من مراحل حياته .. و معنى هذا ان الوجودية يلزمها ان لا تجيز الحكم الا على الأموات .. أما الأحياء فلا يحكم عليهم بخير و لا بشر، و لا بادانة أو براءة، مع العلم بأن الوجوديين، و في طليعتهم زعيمهم سارتر يحكمون على الأحياء ..

و نحن لا ننكر ان الإنسان ما دام في قيد الحياة يمكنه أن يعدّل في أفعاله، و يصحح من أخطائه، و لكن هذا لا يمنع أبدا من الحكم عليه بما فيه، و حسبما يصدر عنه قبل الموت.

و تسأل: لقد سبق منك أكثر من مرة و بمناسبات شتى ان العبرة بالأفعال،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٧٤

و انه لا ايمان بلا تقوى و عمل صالح، و هذا ينافي قولك هنا: ان العبرة بالنوايا و الأغراض؟.

الجواب: نريد من النية هنا الباعث القوي و العزم الأكيد الذي لا ينفك عن العمل، مع تهيؤ الجو، و توافر الأسباب الأخر .. و قد أشارت الى ذلك الآية ١٩ الاسراء: «وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها». و هذه النية بحكم العمل، بل هي العمل، كما قال الإمام جعفر الصادق (ع)، لأنه أصله و مصدره .. و من لا يقصد لا يعمل، و عليه يكون ثواب هذه النية ثواب العمل.

أما نية الشر أي التصميم على فعله فهي محرمة ما في ذلك ريب، و صاحبها يستوجب العقاب، و لكن اللّه سبحانه أسقطه

عنه تفضلا منه إذا لم يتلبس الناوي بالمعصية، حتى و لو صرفه عنه صارف قهري. و على هذا تكون نية فعل الخير خيرا في نظر الإسلام، أما نية فعل الشر المجردة فليست شرا.

(وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ ما اسْتَكانُوا وَ اللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ). بعد ان نصر اللّه المسلمين في بدر، و هم قلة ضعاف اعتقدوا أنهم منصورون في كل حرب، ما دام محمد (ص) بينهم .. فلما كانت الهزيمة يوم أحد فوجئوا بما لا ينتظرون، فكان منهم ما سبق ذكره، و في هذه الآية ضرب اللّه مثلا للذين وهنوا و ضعفوا و استكانوا و ما صبروا يوم أحد، ضرب اللّه مثلا لهؤلاء باتباع الأنبياء السابقين الذين صبروا على الجهاد و القتل و الأسر و الجراح، و تركوا الفرار و لم يولوا مدبرين، كما فعلتم أنتم يا أصحاب محمد (ص)، و كان الأليق بكم أن تقتدوا بهم، و تعتبروا بحالهم، و تصبروا كما صبروا، كما هو شأن المؤمنين المدافعين عن دينهم و عقيدتهم بالأرواح.

(وَ ما كانَ قَوْلَهُمْ- اي اتباع الأنبياء السابقين- **إِلاَّ أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ إِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ)**. فلم يشكوا أبدا في دينهم و نبيهم، كما فعل من فعل من أصحاب محمد (ص) يوم أحد .. و هكذا المؤمن الحق يتهم نفسه، و يرجع ما أصابه من النوائب الى تقصيره و إسرافه في أمره، و يسأل اللّه العفو و الصفح، و الهداية و الرشاد، أما المؤمن الزائف فيحمل المسئولية للّه، و يقول: ربي أهانني.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٧٥

(فَآتاهُمُ اللهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَ حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَ اللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ). و كفى بثواب اللّه و حبه و شهادته بالإحسان فخرا و ذخرا .. و تشعر هذه الآية ان التواضع و اتهام النفس يقرب من اللّه، و يرفع المتواضع الى أعلى عليين.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٤٩ الى ١٥١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)

اللغة:

المولى الناصر و المعين. و المراد بالسلطان هنا الحجة و البرهان، و سمي البرهان سلطانا لقوته على دفع الباطل، و المثوى المكان الذي يكون مقرا للإنسان، من ثوى يثوي ثويا إذا أقام.

الإعراب:

خاسرين حال. و ما من (بما) مصدرية، أي بسبب اشراكهم باللّه.

و (ما لم) ما مفعول أشركوا.

المعنى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ). قال

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٧٦

الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية، فقرة تفسير المفردات ما نصه بالحرف:

«المراد بالذين كفروا أبو سفيان لأنه شجرة الفتن».

و كل انسان محقا كان أو مبطلا يود أن تكون الناس، كل الناس على دينه و مبدئه .. و الفرق ان طاعة المبطل خسارة و مضرة، و طاعة المحق ربح و منفعة، و من أجل هذا حذر اللّه المؤمنين من الكافرين.

(بَلِ اللهُ مَوْلاٰكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النّٰاصِرِينَ). المؤمن لا يفكر بطاعة الكافر و موالاته، و لا يأبه بإغوائه و خدعه .. و لا يتخذ له مولى إلا اللّه وحده، و هو الذي ينصره على أعدائه، و من كان اللّه ناصره فلا يحتاج معه الى ولي و لا ناصر.

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ، بِمٰا أَشْرَكُوا بِاللهِ مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰاناً). أي لا تخافوا أيها المسلمون من المشركين، لأنهم هزموكم في أحد فان اللّه سيلقي الرعب منكم في قلوبهم بسبب انهم جعلوا للّه شركاء لا دليل على أنها شيء يؤبه له، و انما عبدوها تقليدا. و قيل: لما ارتحل أبو سفيان و المشركون من أحد متوجهين الى مكة قالوا بئس ما صنعنا، قتلناهم، حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم .. ارجعوا فنستأصلهم، فلما عزموا على ذلك ألقى اللّه في قلوبهم الرعب، حتى رجعوا عما هموا به .. و سواء أ كان هذا هو سبب النزول، أو لم يكن فإن لفظ الآية لا يأباه.

[سورة آل‌عمران (٣): آية ١٥٢]

وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتّٰى إِذٰا فَشِلْتُمْ وَ تَنٰازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مٰا أَرٰاكُمْ مٰا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيٰا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفٰا عَنْكُمْ وَ اللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٧٧

اللغة:

تحسونهم، أي تستأصلونهم بالقتل، فكأن القاتل يبطل حس المقتول بالقتل، يقال: بطنه إذا أصاب بطنه، و رأسه إذا أصاب رأسه.

الإعراب:

صدقكم يتعدى الى مفعولين. و وعده مفعول ثان. و حتى إذا فشلتم جواب إذا محذوف، و التقدير منعكم اللّه نصره، و قيل: ان إذا هنا ليست بشرط، و ان المعنى قد نصركم اللّه الى ان كان منكم الفشل و التنازع، و قيل: الجواب هو عصيتم و الواو زائدة، كما في قوله تعالى: «فَلَمّٰا أَسْلَمٰا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَ نٰادَيْنٰاهُ» و المعنى ناديناه.

المعنى:

(وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ). ما زال الكلام و الخطاب مع الأصحاب الذين كانوا في أحد .. و كان (ص) قد وعدهم النصر يومئذ ان امتثلوا أمره، و قد وفى اللّه لهم بما قاله على لسان نبيه، ذلك ان الرسول (ص) أقام الرماة عند الجبل صيانة لمؤخرة المسلمين، و أوصاهم ان لا يبرحوا مكانهم، حتى و لو رأوا العدو تتخطفه الطير، و وعدهم النصر بهذا الشرط. و كان الرماة خمسين رجلا.

و لما ابتدأت المعركة شرع الرماة يرشقون المشركين، و بقية الأصحاب يضربونهم بالسيوف، و قتلوهم قتلا ذريعا، حتى انهزموا، و هذا معنى **(إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ)**. أي تقتلونهم بأمر اللّه. و في تفسير ابن جرير الطبري و المراغي و غيرهما ان طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين المعروف بكبش الكتيبة قام فقال:

يا معشر أصحاب محمد انكم تزعمون ان اللّه يعجلنا بسيوفكم الى النار، و يعجلكم بسيوفنا الى الجنة، فهل منكم أحد يعجله اللّه بسيفي الى الجنة، أو يعجلني بسيفه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٧٨

الى النار؟. فقام اليه علي بن أبي طالب (ع) و ضربه فقطع رجله و سقط، فانكشفت عورته، فقال طلحة لعلي: أنشدك اللّه و الرحم يا ابن عم .. فتركه علي (ع) و كبر رسول اللّه (ص) و قال لعلي أصحابه: ما منعك أن تجهز عليه؟.

قال: ناشدني اللّه و الرحم .. هذا هو علي في خلقه يفيض قلبه بالحنان و الرحمة، حتى على أعدى أعدائه الذي برز له شاهرا السيف في وجهه مصمما على قتاله و قتله.

(حَتَّى إِذٰا فَشِلْتُمْ وَ تَنٰازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مٰا أَرٰاكُمْ مٰا تُحِبُّونَ).

بعد أن ولى المشركون الدبر- و كانوا ثلاثة آلاف مشرك- امتلأ الوادي بما خلفوه من الغنائم، و حين رآها الرماة، و إخوانهم المسلمون ينتهبونها دونهم عصف بهم ريح الطمع، و اختلفوا فيما بينهم، و قال بعضهم: ما بقاؤنا هنا؟

و تجاهلوا وصية النبي و تشديده عليهم بالبقاء. فقال لهم أميرهم عبد اللّه بن جبير:

امكثوا و لا تخالفوا أمر الرسول (ص) .. و لكن أكثرهم غادروا مواقعهم هابطين الى انتهاب الأسلاب و الأموال، و تركوا أميرهم عبد اللّه في نفر دون العشرة، و الى هذا التنازع و العصيان يشير قوله تعالى: (حَتَّى إِذٰا فَشِلْتُمْ وَ تَنٰازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ). أما قوله: (مِنْ بَعْدِ مٰا أَرٰاكُمْ مٰا تُحِبُّونَ) فيشير الى انهزام المشركين و غنائمهم.

و كان خالد بن الوليد يحارب النبي (ص) مع أبي سفيان، و حين رأى مؤخرة المسلمين مكشوفة بعد أن أخلاها الرماة اغتنم الفرصة، و انقض مع جماعة من المشركين على البقية الباقية من الرماة، و قاتل هؤلاء بشجاعة و حرارة، حتى استشهدوا جميعا، و خلا ظهر المسلمين، و رجع المشركون الى الميدان، و أحاطوا بالمسلمين من الخلف و الأمام، و أكثروا فيهم القتل و الجراح، و دارت الدائرة عليهم بعد ان كانت لهم .. و هذه هي النتيجة الحتمية للتنازع و التخاصم.

(مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيٰا). و هم الرماة الذين تركوا مقاعدهم طمعا بالغنيمة.

(وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ). و هم الذين ثبتوا مكانهم مع أميرهم عبد اللّه بن جبير، حتى نالوا الشهادة. (ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ). أي ردكم عن الكفار بعد أن نصركم عليهم بسبب تنازعكم و عصيانكم. (لِيَبْتَلِيَكُمْ). أي عاملكم معاملة من يمتحنكم ليظهر ثباتكم على الايمان، و صبركم على الشدائد، و يميز بين المخلصين و المنافقين.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٧٩

(وَ لَقَدْ عَفٰا عَنْكُمْ وَ اللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ). و كثيرا ما يخطئ الإنسان عن طيش، ثم يؤوب الى رشده، فيعفو اللّه عما سلف منه، و لكن من عاد فينتقم اللّه منه.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٥٣ الى ١٥٥]

إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لاٰ تَلْوُونَ عَلىٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرٰاكُمْ فَأَثٰابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاٰ تَحْزَنُوا عَلىٰ مٰا فٰاتَكُمْ وَ لاٰ مٰا أَصٰابَكُمْ وَ اللّٰهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعٰاساً يَغْشىٰ طٰائِفَةً مِنْكُمْ وَ طٰائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّٰهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجٰاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنٰا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّٰهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مٰا لاٰ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كٰانَ لَنٰا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مٰا قُتِلْنٰا هٰاهُنٰا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلىٰ مَضٰاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللّٰهُ مٰا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مٰا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعٰانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطٰانُ بِبَعْضِ مٰا كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللّٰهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٨٠

اللغة:

المراد بالصعود هنا الذهاب في الأرض، يقال: اصعد من مكة الى المدينة، أي ذهب. و لا تلوون، أي لا تلتفون، يقال: فلان لا يلوي على شيء، أي لا يعطف عليه، و لا يبالي به. و أخراكم و أخر آياتكم بمعنى آخركم. و الثواب الجزاء، و يستعمل غالبا في الخير، و يجوز استعماله في الشر. و الغم ضيق الصدر.

و يغشى يغطي و يستر. و المراد بالمضاجع هنا المصارع. و ذات الصدور السرائر.

و استزلهم أوقعهم في الزلل و الخطيئة.

الإعراب:

و إذ تصعدون إذ ظرف زمان. متعلق بعفا في الآية المتقدمة. و لكيلا المصدر المنسبك مجرور باللام متعلق أيضا بعفا، و أمنة مفعول أنزل، و هي مصدر مثل العظمة و الغلبة. و نعاسا بدل من أمنة. و طائفة الأولى مفعول يغشى. و طائفة الثانية مبتدأ، و الخبر جملة قد أهمتهم. و جملة يظنون حال من الضمير في أهمتهم. و غير الحق مفعول مطلق ليظنون، لأنه بمعنى يظنون غير الظن الحق.

و ظن الجاهلية بدل من غير الحق. و جملة يقولون بدل من جملة يظنون.

المعنى:

(إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ). الخطاب للذين انهزموا يوم أحد، و هو يذكرهم بخوفهم من المشركين، و فرارهم غير ملتفتين الى أحد، و لا مستجيبين الى دعوة الرسول (ص) حين كان يناديهم، و هو واقف في آخرهم، و يقول: هلم إليّ عباد اللّه .. انا رسول اللّه .. من يكر فله الجنة .. و قد فعل هذا ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح: ان محمدا قد قتل، و تزلزلت قلوب المسلمين.

(فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ). أمر الرسول الرماة أن لا يبرحوا الجبل بحال، فعصوه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٨١

و خالفوا أمره، فاغتم الرسول (ص) لذلك، فجزاهم اللّه بدل غم الرسول غما بالهزيمة، فالغم الأول ما حصل للصحابة المنهزمين. و الغم الثاني ما حصل للرسول (ص) .. و قيل: ان الغمين حصلا للصحابة، و انه قد كثرت عليهم الغموم غما بعد غم، منها قتل إخوانهم، و منها انتصار المشركين عليهم، و منها ندمهم على المعصية.

(لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ) من المنفعة و الغنيمة. **(وَ لا ما أَصابَكُمْ)** من القرح و الهزيمة، و المعنى ان اللّه أذاقكم مرارة القتل و الهزيمة كي تتمرنوا بعدها على تحمل المشاق و الشدائد، و تصبروا على طاعة اللّه و رسوله مهما تكن النتائج، و لا تحزنوا على ما يفوتكم من الغنائم، و لا ما يصيبكم من المضار .. و سبقت الاشارة الى ان الرماة تركوا أماكنهم طمعا بانتهاب الغنائم، و انه قد ترتب على ذلك انهزام المسلمين .. فنبههم اللّه سبحانه بأن عليهم أن يستفيدوا من هذه الهزيمة، و يأخذوا منها درسا نافعا، و لا يخالفوا الرسول بعدها أبدا. **(وَ اللّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ)**. المعنى واضح، و القصد الحث على الطاعة، و الزجر عن المعصية.

(ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً). الذين كانوا مع رسول اللّه (ص) يوم أحد ينقسمون الى طائفتين: الأولى كانوا مؤمنين حقا جازمين بأن الإسلام سينتصر، و يظهره اللّه على جميع الأديان، لأن الرسول قد أخبرهم بذلك، أما

الانهزام في واقعة أو أكثر فلا يؤدي الى استئصال الإسلام، و اتباعه، و الذين كانوا يعتقدون هذا هم المخاطبون بقوله تعالى: (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً). و النوم عند المحنة نعمة كبرى، تخفف الكثير من وقع المصاب.

(يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ). هي نفس الطائفة التي تكلمنا عنها، و التي كان أفرادها على بصيرة في ايمانهم.

الطائفة الثانية من الذين فروا يوم أحد هم المنافقون، و قد وصفهم اللّه بقوله:

١- (وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ). هذه الطائفة لم يغشها النعاس لسيطرة الهلع و الجزع على نفوس أفرادها، و قال المفسرون: هم عبد اللّه بن أبيّ، و متعب بن قشير و أتباعهما، و تشعر هذه الآية ان الإيمان الكامل يستدعي الاهتمام

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٨٢

بأمور الناس، و ان من لا يهتم إلا بنفسه و ذويه فهو ناقص الإيمان. و قد جاء في الحديث: من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم.

٢- (يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ). كل من قنط من رحمة اللّه، أو ظن انه تعالى قد فعل ما لا ينبغي فعله فقد ظن به ظن الجاهلية .. و من هؤلاء الذين قالوا يوم أحد: لو كان محمد نبيا لما سلط عليه المشركون جاهلين أو متجاهلين ان الحرب سجال، و ان الأمور بخواتيمها.

٣- (يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ). أي ليس لنا من الأمر شيء ..

و قد أمر اللّه نبيه الأكرم أن يجيبهم بأنه لا أمر لكم و لا لغيركم، و انما هو للّه وحده: (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ). و ما علينا نحن الا السمع و الطاعة، فهو نظير قوله تعالى: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ). و قد مر تفسيره في الآية ١٢٨ من هذه السورة: (يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ) من التكذيب و النفاق (ما لا يُبْدُونَ لَكَ). من ذلك انهم (يَقُولُونَ- أي في أنفسهم- لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا). أي لو كان الأمر لنا ما خرجنا الى القتال، و لو خرجنا لأدرنا المعركة ادارة حكيمة، و لم يقتل أحد هاهنا، أي في أحد .. فقول المنافقين أولا: (هل كان لنا من الأمر شيء). ثم قولهم: (لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) أشبه بقول القائل: ليس معي دراهم، و لو كان معي دراهم لفعلت و فعلت.

(قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ).

هذا رد على من قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا. و وجه الرد ان الحذر لا يدفع القدر، و ان التدبير لا يقاوم التقدير، سواء أ كان أمر القتال لكم أو لم يكن .. و تقدم التفصيل في تفسير الآية ١٤٥ من هذه السورة، فقرة «الأجل محتوم».

(لِيَبْتَلِيَ اللهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ).

فالحكمة من المحنة يوم أحد انها المحك الذي يميز المؤمن من المنافق، و يظهر كلا على حقيقته للناس، لا للّه، لأن اللّه عليم بذات الصدور .. فالمؤمن يزداد بالابتلاء ايمانا و تسليما، و أجرا و ثوابا، و يظهر المنافق على ما هو جليا واضحا.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٨٣

سر الفشل:

هذا، و لو عاش الإنسان طول حياته معافى من النكبات و الصدمات لكان حقيقة غريبة عن أذهان الناس .. ان المصاعب تطهير النفوس، و تهذبها من المضار، و ان الصبر على تحمل الشدائد يبلغ بالإنسان الى غاياته و أهدافه، فلقد دلتنا التجارب ان ما من محارب أو سياسي أو تاجر أو عالم أو أديب أو عامل أو فلاح نال شيئا مما يبتغيه الا بالثبات و الصبر

على المصاعب.

و لو بحثنا عن سر الفشل في هذه الحياة لألفيناه الضعف و الخوف من طول الطريق، و عدم الصبر على تحمل أتعابه و أوصابه .. أقول هذا، و قد جربته من نفسي، و بلغت بالصبر ما لم أكن لأحلم ببعضه .. الحمد للّه .. جربت فأيقنت ان الصبر يصنع المعجزات، و ان الذكاء لا يجدي شيئا الا مع الصبر.

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ). قال أكثر من واحد: ان المراد من هذه الآية خصوص الرماة الذين أمرهم رسول اللّه (ص) أن يثبتوا في أماكنهم ليدفعوا المشركين عن ظهور المؤمنين، ثم تركوا مواقعهم بعد أن ظنوا ان المشركين انهزموا الى غير رجعة.

و لكن الآية لم تخص الرماة بالذكر، و عليه فهي عامة تشمل الرماة و غيرهم من المنهزمين يوم أحد ..

أجل، ان عمومها خاص بالمنهزمين المؤمنين باللّه و الرسول، و لا تشمل المنافقين بدليل قوله تعالى: **(وَ لَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ)**. لأن اللّه لا يعفو عن المنافق المصر على النفاق الذي هو أعظم من الشرك العلني .. و الخلاصة ان من انهزم يوم أحد غير شاك باللّه و رسوله، و انما فر لعارض من الطمع أو عدم الصبر و التماسك، و ما الى ذلك مما لا ينزه عنه الا المعصوم، و لا يمت الى النفاق و الشك بصلة، ان هذا قد عفا اللّه عنه و ان كان من أثر زلته الذي كان.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٨٤

و قيل في تفسير قوله تعالى **(اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا)**: ان الشيطان انما قدر عليهم لذنوب كانوا قد اقترفوها قبل أحد.

و هذا مجرد تخمين، و الأقرب ان الكسب هنا اشارة الى جزعهم و عدم صبرهم، و لما رأى الشيطان منهم هذا الجزع استغله، و أغراهم بالهزيمة مموها عليهم بأن فيها أمانهم و سلامتهم.

و اتفق جميع المفسرين و أهل السير و التاريخ على ان الإمام علي بن أبي طالب (ع) كان مع الثابتين ..

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٥٦ الى ١٥٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَ ما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨)

اللغة:

الضرب في الأرض السير فيها. و غزى جمع، واحده غاز.

الاعراب:

الذي ينبغي بيانه في هذه الفقرة هو ما احتوت عليه الآيات الثلاث من اللامات،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٨٥

و هي ست: ١- اللام في لإخوانهم من قوله تعالى: **(وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ)** و هذه اللام للتعليل لا للتبليغ، أي ليست مثل ما قلت لك، بل هي تعليل للقول مثل اني قلت ما قلت لأجلك، و المعنى ان الذين قالوا لأجل موت إخوانهم- و هم مسافرون أو في الحرب- لو كانوا معنا ما ماتوا و ما قتلوا، فاللام للتعليل تماما كاللام في قوله: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ- ١١ الأحقاف»، أي قالوا لأجل ايمان من آمن: لو كان الإيمان خيرا .. بحيث لو لم يحصل

الإيمان ممن آمن فلا يقول الكافرون هذا القول ٢- اللام في قوله: (لِيَجْعَلَ اللهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ) و هي لام كي، و الفعل منصوب بأن مضمرة بعدها، و المصدر مجرور باللام متعلق بـ(لاٰ تَكُونُوا) و المعنى يا معشر المسلمين لا تكونوا مثل الكافرين في قول أو فعل، لأن عدم مشابهتكم لهم في شيء تحدث حسرة في نفوسهم. ٣- اللام في (وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ) و هي لام القسم، و ان شرطية. ٤- اللام في لمغفرة، و هي في جواب القسم، أما جواب ان الشرطية فمحذوف، و قد سد مسده جواب القسم لكونه دالا عليه.

٥- اللام في (وَ لَئِنْ مُتُّمْ) و هي مثل سابقتها. ٦- اللام في (لِإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ) و هي مثل اللام في (لمغفرة).

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا). لفظ الذين كفروا عام يشمل كل كافر، سواء أ كان منافقا يبطن الكفر، و يظهر الإيمان، أو كان كافرا ظاهرا و باطنا .. و لكن كثيرا من المفسرين قالوا: المراد خصوص المنافقين لأن هذه الآيات من أولها الى آخرها مختصة بشرح أحوالهم، و لأنهم اتخذوا من مقاتل الشهداء في أحد مادة للدس و الفتنة .. و ليس هذا القول ببعيد.

(وَ قٰالُوا لِإِخْوٰانِهِمْ). أي قالوا ما قالوه لأجل موت إخوانهم، فاللام للتعليل، لا لتبليغ المخاطب، لأن الميت لا يخاطب، و لأن المنافقين قالوا:

لو كانوا- الواو يعود لإخوانهم- عندنا ما ماتوا و ما قتلوا .. و لم يقولوا:

لو كنتم عندنا ما متم و ما قتلتم.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٨٦

(إِذٰا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كٰانُوا غُزًّى لَوْ كٰانُوا عِنْدَنٰا مٰا مٰاتُوا وَ مٰا قُتِلُوا).

كان المنافقون يسندون موت المسافر في السفر، و قتل الغازي الى نفس الحرب و السفر، لا إلى الأجل المرسوم عند اللّه .. و قد نهى سبحانه المؤمنين عن مثل هذا القول، لأن فيه استجابة لدسائس المنافقين و تلبية لأهوائهم، أما إذا لم يقولوا ذلك، و أسندوا موت من مات، و قتل من قتل في الحل و الترحان، و السلم و الحرب، أسندوا ذلك إلى اللّه وحده فإنهم يردون كيد المنافقين الكائدين في نحورهم، و يثيرون الحسرة و اللوعة في قلوبهم.

و المراد بالاخوة هنا مطلق العلاقة نسبا كانت أو صداقة أو مشابهة في العقيدة و الأخلاق.

(لِيَجْعَلَ اللهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ) أي ان اللّه نهى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين قولا و فعلا، لأن هذا التشبه يسرهم، و يحقق مقاصدهم، و عدمه يزعجهم و يغيظهم. (وَ اللهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ). فالآجال كلها بيده، و لا تأثير للحرب، و لا للسفر .. فقد يسلم المسافر و المحارب، و يميت المقيم و القاعد، و هذا رد على قول المنافقين: ان كلا من السفر و الحرب سبب للموت. (وَ اللهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ). هذا ترغيب في طاعة اللّه، و تهديد لمن يقتدي بأهل الكفر و النفاق في قول أو فعل.

(وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) كل من دافع عن الحق أو عن نفسه بسيفه أو قلمه أو لسانه و قتل فقد قتل في سبيل اللّه، و كل من كافح و ناضل من أجل العيش أو العلم أو ما ينفع الناس بجهة من الجهات و مات فقد مات في سبيل اللّه، و كل من قتل أو مات في سبيل اللّه فقد استوجب الصفح عن الذنوب و علو الدرجات في الدنيا و الآخرة. و قوله:

(خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) معناه ان الأجدر بالمؤمن أن يؤثر الآجلة الدائمة، و هي مغفرة اللّه و رحمته على العاجلة الفانية، و هي ما يجمعه الذين يحرصون على التمتع بالشهوات و الملذات.

(وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ). هذا هو مصير الإنسان، سواء أفارق الحياة بالقتل أو بأي سبب من الأسباب .. و هو مجزي بما أسلف، ان خيرا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٨٧

فخير، و ان شرا فشر .. و العاقل يستعد لهذا اليوم، و لا يلهو بالباطل، و قول:

لو كان .. و لو لا يكون.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٥٩ الى ١٦٠]

فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)

اللغة:

اللين في المعاملة الرفق. و الفظ الخشن الشرس، و أصله فظظ. و القلب الغليظ القاسي الذي لا يتأثر بشيء. و انفض القوم تفرقوا.

الإعراب:

قال صاحب مجمع البيان: أجمع المفسرون على ان (ما) زائدة في قوله (فبما رحمة) أي فبرحمة، و مثله قوله (عَمَّا قَلِيلٍ) أي عن قليل. و من بعده، أي من بعد خذلانه، فحذف المضاف لدلالة (وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ) عليه.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٨٨

المعنى:

(فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ). خاطب اللّه سبحانه صحابة النبي (ص) فيما سبق من الآيات، ثم اتجه بهذه الآية الى نبيه الكريم (ص). و سبق البيان ان المسلمين خالفوا أمر الرسول (ص) يوم أحد، و كان من نتيجة مخالفتهم و عصيانهم لنبيهم ان انقلبوا على أعقابهم منهزمين، و تركوا النبي (ص) عند الشدة، حيث كانت الحرب قائمة على قدم و ساق، حتى أثخنه الأعداء بالجراح، فكسرت رباعيته، و شج وجهه، و نزفت جراحه، و هو صامد مع نفر قليل، يدعو الفارين، و لا يستجيبون له.

و بعد ان انتهت المعركة رجع المسلمون الى النبي (ص) فلم يعنفهم، و يخاطبهم بالملامة، و هم مستحقون لأكثر منها .. بل تجاهل كل شيء، و رحب بهم، و كلمهم برفق و لين، و ما هذا الرفق و اللين الا رحمة من اللّه بنبيه و عون له على رباطة الجأش و ضبط الأعصاب.

و إذا مدح اللّه نبيه بكظم الغيظ و الرفق بأصحابه على إساءتهم له فبالأولى أن يعفو اللّه و يصفح عن عباده المسيئين .. قال الإمام علي (ع) في وصف الباري جل و عز: «لا يشغله غضب عن رحمته». و في الدعاء المأثور: يا من سبقت رحمته غضبه.

ثم بيّن سبحانه الحكمة من لين جانب نبيه الكريم (ص)، بخطابه له:

(وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ). و شمت العدو بك، و طمع فيك، و لم يتم أمرك و تنتشر رسالتك .. ان المقصود من بعثة الرسول هداية الخلق الى الحق، و هم لا يستمعون إلا لمن تميل قلوبهم اليه، و تسكن نفوسهم لديه، و النفوس لا تسكن و لا تركن إلا الى قلب رحيم كبير، كقلب محمد (ص) الذي وسع الناس، كل الناس، و ما ضاق بجهل جاهل، أو ضعف ضعيف، بل كان يأمر بالرحمة بالحيوان و يقول: إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، ليحد أحدكم شفرته، ليريح ذبيحته. و قال: لكل كبد أجر. ان اللّه غفر لمومس لأنها أنقذت كلبا من الموت عطشا.

(فَاعْفُ عَنْهُمْ). فيما يتعلق بحقك الخاص، حيث تركوه في ساعة الشدة،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٨٩

حتى أثخن بالجراح. **(وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ)**. فيما يختص بحقوق اللّه تعالى، حيث عصوه بالهزيمة و ترك القتال .. و قوله تعالى لنبيه: **(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ)** يدل بالفحوى على ان اللّه سبحانه قد عفا عنهم، و غفر لهم، و إلا لم يأمر نبيه بذلك.

(وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ). قال الرازي: ذهب كثير من العلماء الى ان الألف و اللام في لفظ الأمر ليسا للاستغراق، بل للعهد، و المعهود في هذه الآية الحرب و لقاء العدو، فيكون قوله تعالى: **(وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)** مختصا بالحرب فقط ..

و قال آخرون: انه يشمل جميع الأمور الدنيوية دون غيرها .. ثم نقل الرازي عن الشافعي ان شاورهم هنا للندب لا للوجوب .. و الحكمة في المشورة أن تطيب قلوبهم، و ترتاح نفوسهم .. و هذا القول أقرب الى الاعتبار، لأن المعصوم لا يسترشد برأي غير المعصوم.

و مهما يكن، فان الدين بعقيدته و شريعته هو من وحي السماء، و ليس لأحد فيه رأي، حتى الرسول (ص) فانه مبلغ لا مشرّع، و قد خاطبه اللّه بقوله:

ليس لك من الأمر شيء .. انما أنت منذر.

(فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ). أي إذا عقدت الرأي على فعل شيء بسبب المشورة أو غيرها فامض في التنفيذ، على أن تأخذ الاهبة، و تستكمل العدة معتمدا على إعانة اللّه وحده في النجاح و الظفر.

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ). و نصره تعالى انما يكون مع مراعاة الأسباب التي جعلها اللّه موصلة الى النصر، و هي بالاضافة الى التوكل على اللّه استكمال العدة التي أشار اليها بقوله: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ- ٦٠ الأنفال».

(وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ). ان اللّه يخذل المتخاذلين الذين لا تجتمع كلمتهم على خير، قال تعالى، «وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ- ٤٦ الأنفال».

و الخلاصة ان استكمال العدة من غير الإخلاص لا يجدي شيئا، كما جرى للمسلمين يوم حنين: «وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ- ٢٦ التوبة». كما ان

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٩٠

الإخلاص من غير عدة ليس بشيء .. «اعقلها و توكل». و من استوفى الأمرين معا فلا غالب له، لأن اللّه معه.

محمد و سر عظمته:

خرج أبوه عبد اللّه في تجارة الى الشام، و أمه حامل به، و في عودة أبيه من الشام مر بأخواله بني النجار في المدينة، فمرض هناك، و مات فقيرا لم يترك لولده شيئا سوى خمسة من الإبل، و قطيع من الغنم، و جارية هي بركة الحبشية، تكنى أم أيمن، كانت دايته، و من جملة حواضنه.

ولد الرسول (ص) بمكة عام الفيل في شهر ربيع الأول الموافق شهر آب سنة ٥٧٠ ميلادية كما قيل.

مرضعته و كافله:

أرضعته أياما ثوبية مولاة عمه أبي لهب، ثم أرضعته حليمة السعدية ..

و عاش ٦٣ عاما، منها ٥٣ قضاها بمكة، و ١٠ بالمدينة، ماتت امه و هو ابن ٦، و مات جده و هو ابن ٨، فكفله عمه أبو طالب، و دافع عنه، حتى النفس الأخير، و عاش معه ٤٢ سنة.

أوصافه:

ليس بالطويل و لا بالقصير، كبير الرأس، بوجهه استدارة، عريض الجبين، يوشك حاجباه أن يلتقيا، بينهما عرق إذا غضب انتفخ و احمر، أسود العينين، طويل رموش العين، في أنفه تقوس، حسن الثغر، كبير الفم، عظيم اللحية، متموج شعر الرأس، طويل العنق، عريض الصدر، طويل الذراعين، دقيق الساقين، أبيض اللون، مشرب بحمرة، مشدود العضلات، ليس في جسده استرخاء و لا ترهل.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٩١

كان إذا غضب احمر وجهه، و إذا حزن أكثر من لمس لحيته، و إذا تكلم أشار بكفه كلها، و إذا تعجب قلبها، و إذا استغرق في الحديث ضرب راحة يده اليمنى ببطن إبهامه اليسرى، و إذا رأى ما يكره أشاح بوجهه، و إذا عطس غطى وجهه، و كان يضحك، حتى تبدو نواجذه، و كان أكثر الناس تبسما.

و كان في طعامه لا يرد موجودا، و لا يتكلف مفقودا، و إذا لم يجد الطعام صبر، حتى انه ليربط الحجر على بطنه من الجوع، و كان يمر عليه الشهر لا يجد ما يخبزه، و بعث يشتري من يهودي على ان يؤجل الدفع، فرفض، و قال: ما لمحمد زرع و لا ضرع، فمن يسدد؟.

و لم يملك قميصين معا، و لا ردائين، و لا إزارين، و لا نعلين .. و كانت له حصير ينام عليها في الليل، و يبسطها في النهار، فيجلس عليها، و نام عليها، حتى أثرت في جنبه، و له مخدة من جلد، حشوها ليف، و كان إذا نام يضع يده تحت خده، و ينام على جنبه الأيمن، و كان يخصف النعل، و يرقع القميص، و يركب الحمار، هذا و ثروة الجزيرة العربية طوع أوامره .. و لكنه كان يعطي كل ما يصل منها اليه عطاء من لا يخشى الفقر، كما وصفه اعرابي.

النبي و الفقر:

و ليس معنى هذا انه كان يحب الفقر، و يرضى به .. كلا، بل كان يستعيذ منه، و يقول: اللهم اني أعوذ بك من الفقر و القلة و الذلة .. و أعوذ بك من العجز و الكسل .. و أعوذ بك من أن أظلم أو أظلم .. لم يكن النبي يحب الفقر، و يرضى به .. و لكن ما دام يعيش في مجتمع فيه فقراء فخير الأنظمة، و الحال هذه، هو النظام الذي يجعل الحاكم في جانب الفقراء، و يساوي بينه و بينهم في المأكل و الملبس و المسكن .. و لا شيء أعظم ظلما و جريمة من أن يشبع الحاكم، و في رعيته جائع واحد .. قال أمير المؤمنين علي: ان اللّه فرض على أئمة العدل أن يقدّروا أنفسهم بضعفة الناس، كيلا يتبيّغ بالفقر فقره، أي لا يهيج به

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٩٢

ألم الفقر فيهلكه. و قال: أاقنع من نفسي بأن يقال: أمير المؤمنين، و لا أشاركهم في مكاره الدهر.

مراتب دعوته:

أنذر النبي أول من أنذر عشيرته الأقربين، و ذلك حين نزلت الآية ٢١٥ من سورة الشعراء: «وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» فأولم لهم و دعاهم، و قال لهم فيما قال: «فأيكم يوازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي و وصيي و خليفتي فيكم». فأحجموا جميعا إلا علي بن أبي طالب قال: أنا يا نبي اللّه. فأخذ برقبته، و قال: هذا أخي و وصيي و خليفتي فيكم، فاسمعوا له و أطيعوا. فقام القوم يضحكون و يقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك و تطيع «١».

ثم دعا النبي (ص) قومه العرب، ثم كل من بلغه الدعوة من الأولين و الآخرين:

«وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ- ٢٨ سبأ». أما غيره من الأنبياء فقد أرسل الى قومه، أو أهل زمانه .. و من ثم كان نوح و ابراهيم و هود و صالح و موسى و غيرهم يخاطبون الذين يدعونهم الى الايمان بـ(يا قوم). أما محمد (ص) فقد خاطب جميع الناس على اختلاف أنواعهم و لغاتهم في كل مصر و عصر:

«قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً- ١٥٨ الاعراف». و لقد كتب الرسول الأعظم (ص) الى ملوك الأرض، و في طليعتهم كسرى و قيصر، و أرسل اليهم رسله يدعوهم الى الإيمان برسالته.

سر عظمته:

كان محمد (ص) بشرا، و من وصفه بشيء من صفات الخالق الرازق فقد كفر باللّه و به، و لكن البشر، كل البشر من آدم الى آخر أبنائه ليسوا كمحمد ..

---

(١) رواه الطبري في تاريخه و تفسيره، كما في الطبعة القديمة، و أيضا رواه الثعلبي في تفسيره، و النسائي في الخصائص، و ذكره محمد حسين هيكل في الطبعة الأولى لكتاب حياة محمد، ثم حذفه في الطبعة الثانية ..

(أعيان الشيعة، ص ٩٨، طبعة ١٩٥٠).

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٩٣

و العظيم منهم من اعترف له محمد بالعظمة و الفضيلة .. اعترف له بالنص و تعيين الاسم بالذات، أو بالوصف العام الشامل، كقوله: «خير الناس أنفع الناس للناس».

أما السر لعظمة محمد (ص) فيكمن في أنه كان يحمل هموم الناس جميعا، و لا يكلف قريبا أو بعيدا بشيء من همومه .. كان يمشي مع الأرملة و المسكين، فيقضي حاجتهما، و لا يحول دون مقابلته حاجب، و ما من أحد صديقا كان أو عدوا إلا و يجد عنده الاهتمام به، و العطف عليه، و الرعاية له.

و ليس قولي هذا من وحي العاطفة، و لا من وحي البيئة و التربية .. كلا، انه من وحي اللّه: «وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ- ١٠٧ الأنبياء». و معنى هذا ان عطفه و اهتمامه ليس وقفا على عشيرته الأقربين، و لا أتباعه الموالين ..

بل هي مشاع للناس أجمعين أعداء و أولياء .. انها تماما كالماء و الهواء .. كسر قومه رباعيته، و شجوا وجهه، فقال: اللهم

اهد قومي انهم لا يعلمون ..

فلم يكتف ان سأل اللّه لهم الهداية، حتى اعتذر عنهم بالجهل و عدم العلم.

و لا غرابة إذا لم بغضب محمد (ص) لنفسه، و لم يحتجز لها شيئا من أعراض الدنيا، و انما الغريب أن يغضب لها و يحتجز .. ان هذا الخلق هو حتم و فرض لمن بعث ليتمم مكارم الأخلاق، و دعا الناس، كل الناس، لتصديقه و الإيمان برسالته، و لا معنى لتصديقه إلا تصديق العدل و الإحسان، و لا للإيمان به إلا الإيمان بالحق و الانسانية، لا بشخصه و ذاته.

ناداه رجل: يا سيدنا و ابن سيدنا، و خيرنا و ابن خيرنا .. فقال: لا يستهوينكم الشيطان .. أنا محمد عبد اللّه و رسوله .. و اللّه ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي ..

و كان أصحابه إذا رأوه قادما لم يقوموا له، و و هو أحب الناس اليهم، لأنهم يعرفون كراهيته لقيامهم .. و كان يكره أن يمشي أصحابه وراءه، و يأخذ بيد من يفعل ذلك، فيدفعه إلى السير بجانبه.

هذه هي أخلاق محمد (ص) .. و ليس كل الناس كمحمد .. ما في ذلك ريب .. و لكن أخلاقه تعبير و انعكاس عن حقيقة الإسلام .. فأي داع الى الإسلام لم يقتد بسيرة نبيه، و يتجاوب مع سنته فهو مخادع محتال، سواء أشعر ذلك من نفسه، أم ظن هو و ظن الناس معه انه قدس الأقداس.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٩٤

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٦١ الى ١٦٤]

وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللهِ وَ اللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (١٦٤)

اللغة:

غلّ الرجل بفتح الغين خان، و يسمى الغلول، و المقصود في الآية السرقة من غنيمة الحرب قبل القسمة. و الغل بالضم الطوق، و العطش، و الغل بالكسر الغش و الحقد. و باء رجع، و بوّأ له مكانا هيأه له، لأنه يرجع اليه. و يزكيهم يطهرهم.

الإعراب:

ما كان لنبي أن يغل قيل: أصله ما كان نبي لأن يغل، ثم نقلت اللام من ان يغل الى النبي .. و نحن لا نرى ضرورة لهذا النقل، و نعرب المصدر من أن يغل اسما لكان، و لنبي متعلق بمحذوف خبرها، و التقدير ما كان الغل حاصلا أو صفة لنبي، تماما مثل ما كان لنا أن نكذب، أي ما كان الكذب حاصلا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٩٥

لنا أو صفة لنا. و ان كانوا (ان) مخففة من الثقيلة، و هي مهملة، لأن الأكثر عدم عملها، و لام (لفي) فارقة بين ان المخففة، و ان النافية.

المعنى:

(وَ مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ). قرئ يغل مبنيا للفاعل، أي ان النبي لا يخون في الغنيمة و لا في غيرها، كما يظن الجاهلون، و قرئ مبنيا للمفعول، أي لا يجوز لأحد أن يخون النبي في الغنيمة.

و في كثير من التفاسير ان الدافع الذي حمل الرماة ان يتركوا مكانهم، و يخلوا ظهر المسلمين هو خوفهم ان لا يقسم لهم رسول اللّه، و يقول: من أخذ شيئا فهو له. فقال لهم النبي (ص): أظننتم أنّا نغل، أي نخونكم، فنزلت الآية.

و اللفظ لا يأبى هذا المعنى، كما ان السياق أيضا لا يرفضه، لأنه ما زال في وقعة أحد.

و مهما يكن، فان الذي نستفيده من الآية بوجه عام، و بصرف النظر عن سبب النزول ان الأنبياء معصومون لا يمكن أن تقع منهم الخيانة، لأن الصادق بما هو صادق لا يمكن أن يقع منه الكذب، و الا لم يكن صادقا، و الحلو بما هو حلو لا يمكن أن يكون مرا .. اللهم إذا سميت الأشياء بأضدادها .. و عندها تبطل المقاييس.

(وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمٰا غَلَّ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ ثُمَّ تُوَفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ). أي من خان و سرق شيئا يأتي غدا بإثم الشيء الذي سرقه، و ينال ما كسب مستوفيا لا ينقص منه شيء، و يفتضح أمام الخلائق أجمعين .. و قيل: بل يأتي، و معه المسروق بالذات- مثلا- من سرق بعيرا يجيء يوم القيامة حاملا البعير على رقبته .. قيل هذا استنادا الى حديث طويل عن رسول اللّه (ص) ..

و ان صح الحديث فهو كناية عن حمل آثام المعصية، لا حمل أسبابها بالذات، فهذه الآية نظير الآية ١٢٣ من سورة النساء: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لاٰ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَ لاٰ نَصِيراً».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٩٦

الإسلام يفعل الأعاجيب:

من تتبع تاريخ المسلمين يرى ان تعاليم الكتاب و السنة قد عملت عملها، و أثرت أثرها في نفوس الكثير من المسلمين، حتى أنشأت مجموعة تتمثل فيها مكارم الأخلاق التي بعث الرسول الأعظم لاتمامها .. فلقد كان الجندي البسيط في جيش المسلمين يقع في يده من أسلاب العدو الثمين الغالي، فيأتي به لأميره يضيفه الى بيت المال، و لا تحدثه نفسه بشيء منه.

قال ابن الأثير في تاريخه: لما فتح المسلمون المدائن كان قائد الجيش سعد بن أبي وقاص، فعيّن سعد عمر بن مقرن ليقبض من الجنود الأسلاب و الغنائم، و كان يسمى هذا الموظف صاحب الأقباض، و قد أتاه فيمن أتاه من الجنود رجل، و سلمه تمثالين ليضمهما الى الغنائم، و كان أحد التمثالين فرسا من ذهب مرصعا بالزمرد و الياقوت، و عليه فارس مكلل بالجوهر .. و التمثال الثاني ناقة من فضة مرصعة بالياقوت، و لها لجام من ذهب مكلل بالجوهر .. و كان كسرى يضع التمثالين على تاجه.

و لما رأى صاحب الأقباض التمثالين أخذته الدهشة، و قال: ما رأينا مثلهما ..

ان كل ما عندنا لا يعادلهما، بل لا يقاربهما .. ثم قال للرجل: من أنت؟.

فقال له: لا أخبرك، و لا أخبر أحدا، ليحمدني، و لكني أحمد اللّه وحده، و أرضى بثوابه، و لا أبتغي شيئا سواه .. ثم مضى لسبيله .. فأتبعه صاحب الأقباض رجلا، حتى انتهى الى أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد قيس.

ان هذه الحكاية أشبه بالأساطير .. و لكن الإسلام إذا وجد قلبا طيبا أتى بالعجب العجاب، تماما كالبذر الصالح الطيب في

الأرض الصالحة الطيبة .. أما الأرض الخبيثة فلا تأتي بخير، و ان طاب البذر، و كثر السقي: «وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً- ٥٧ الاعراف».

(أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ).

هذه الآية نظير الآية ٢٨ من سورة ص: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» .. قال الإمام أمير المؤمنين

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٩٧

علي: شتان بين عملين: عمل تذهب لذته، و تبقى تبعته، و عمل تذهب مئونته، و يبقى أجره .. و قال: ان الحق ثقيل مريء، و ان الباطل خفيف وبيء. من الوباء. أي ان الحق مر المذاق، و لكنه حميد العاقبة، و الباطل حلو المذاق، و لكنه وخيم العاقبة .. و أي عاقبة و مصير أسوأ من غضب الجبار و عذاب النار.

(هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللهِ وَ اللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ). ضمير (هم) يعود على من اتبع رضوان اللّه و من باء بسخطه معا. و المعنى ان المطيعين يتفاوتون في الطاعات من المجاهدين في سبيل اللّه بأنفسهم الى القاعدين غير أولي الضرر ..

و كذا العاصون يتفاوتون في المعاصي من الجناية الى الجنحة .. فوجب، و الحال هذه، أن يتفاوت هؤلاء في العقاب، و أولئك في الثواب.

(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ).

مر نظيرها في سورة البقرة الآية ١٢٩. و على أية حال، فقد تضمنت هذه الآية الأمور التالية:

١- ان الرسول احسان من اللّه الى الخلق، لأن الرسول ينقلهم من الجهل الى العلم، و من المذلة الى الكرامة، و من معصية اللّه و عقابه الى طاعته و ثوابه.

٢- ان هذا الإحسان قد تضاعف على العرب بالخصوص لأن محمدا (ص) منهم، يباهون به جميع الأمم.

٣- انه يتلو عليهم آيات اللّه الدالة على وحدانيته، و قدرته و علمه و حكمته.

٤- انه يطهرهم من أرجاس الشرك و الوثنية، و من الأساطير و الخرافات، و التقاليد الضارة، و العادات القبيحة.

٥- يعلمهم الكتاب أي القرآن الذي جمع كلمتهم، و حفظ لغتهم، و حثهم على العلم و مكارم الأخلاق، و يعلمهم الرسول أيضا الحكمة، و هي وضع الأشياء في مواضعها، و قيل: ان المراد بها هنا الفقه .. و خير تفسير لهذه الآية ما قاله جعفر بن أبي طالب لنجاشي الحبشة:

«أيها الملك. كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، و نأكل الميتة، و نأتي الفواحش، و نقطع الأرحام، و نسيء الجوار، و يأكل القوي منا الضعيف ..

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٩٨

فكنا على ذلك، حتى بعث اللّه إلينا رسولا منا، نعرف نسبه و صدقه و أمانته و عفافه. فدعانا الى اللّه وحده لنوحده و نعبده، و نخلع ما كنا نعبد نحن و آباؤنا من دونه من الحجارة و الأوثان، و أمرنا بصدق الحديث، و أداء الأمانة، و صلة الرحم، و حسن الجوار، و الكف عن المحارم و الدماء، و نهانا عن الفواحش، و قول الزور، و أكل مال اليتيم، و قذف المحصنات، و أمرنا ان نعبد اللّه، و لا نشرك به شيئا، و أمرنا بالصلاة و الزكاة و الصيام».

و بالاختصار ان محمدا (ص) هو الذي منح العرب وجودهم الانساني و الدولي و الحضاري، و لولاه لم يكن لهم تاريخ يذكر، و لا أثر يشكر.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٦٥ الى ١٦٨]

أَ وَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَ ما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٦٨)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ١٩٩

الإعراب:

أو لما الهمزة للاستفهام على سبيل الإنكار. و الواو للعطف، و المعطوف عليه محذوف، و التقدير أ فعلتم ما فعلتم و لما أصابتكم الخ. و لما قيل: هي هنا ظرف بمعنى حين أو بمعنى إذ، و محلها النصب بقلتم. و جملة أصابتكم مجرورة باضافة لما. و أنّى هنا بمعنى كيف، و محلها الرفع خبر مقدم، و هذا مبتدأ مؤخر، و الجملة مفعول قلتم. و ما أصابكم (ما) مبتدأ أول. و فبإذن اللّه متعلق بمحذوف لمبتدأ ثان، تقديره هو كائن بإذن اللّه، و الجملة من المبتدإ الثاني و خبره خبر المبتدإ الأول. و ليعلم منصوب بأن مضمرة، و المصدر مجرور باللام متعلق بالمحذوف الذي تعلق به بإذن اللّه. و جملة تعالوا نائب فاعل لقيل. و جملة قاتلوا بدل اشتمال من جملة تعالوا. و الذين قالوا لإخوانهم (الذين) محل رفع بدل من واو يكتمون. و قعدوا الجملة حال من واو قالوا.

المعنى:

(أَ وَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ) - يوم أحد - **قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها** - يوم بدر - **قُلْتُمْ أَنَّى هذا)**. أي كيف أصابنا هذا، و نحن نقاتل في سبيل اللّه .. و توضيح الآية ان وقعة بدر كانت في السنة الثانية من الهجرة. و وقعة احد في السنة الثالثة منها، و كان النصر في بدر للمسلمين، فلقد قتلوا من المشركين سبعين، و أسروا سبعين، و أيضا انتصر المسلمون يوم أحد في الجولة الأولى، و خسروا في الثانية، لأن الرماة خالفوا أمر الرسول (ص)، و سبقت الاشارة الى ذلك أكثر من مرة، و كان المشركون قد قتلوا يوم أحد من المسلمين سبعين رجلا.

و إذا قارنّا بين انتصار المسلمين في بدر، و انتصار المشركين في أحد يكون الرجحان في جانب المسلمين، لأن سبعين قتيلا بسبعين قتيلا، يبقى مع المسلمين سبعون أسيرا من المشركين .. اذن، علام هذه الدهشة من المنافقين و بعض المسلمين، و تساؤلهم: كيف انتصر المشركون يوم أحد، مع انهم أعداء اللّه؟

و لما ذا تجاهل المنافقون انتصار المسلمين يوم بدر، مع انه كان ضعف انتصار المشركين يوم أحد؟

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٠٠

(قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ). هذا جواب قولهم: **(أَنَّى هذا)** و معناه أنتم السبب فيما أصابكم، فلقد رأى رسول اللّه (ص) البقاء في المدينة و عدم الخروج الى أحد، فأبيتم إلا الخروج، و لما خرج معكم إلى أحد أمركم أن تلتزموا المراكز التي

عينها للرماة، فتركتموها طمعا في الغنيمة .. و الخلاصة ان قوله تعالى: **هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** تماما كقوله: ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ.

(وَ مٰا أَصٰابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعٰانِ فَبِإِذْنِ اللهِ). المراد باليوم يوم أحد، و بالجمعين المسلمون و المشركون، و المراد بإذن اللّه علمه تعالى، تماما كقوله:

(فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ) أي فاعلموا، و لا يجوز ان يراد بالاذن هنا الاباحة، لأنه تعالى لا يبيح للكافر قتل المسلم.

(وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نٰافَقُوا). أي ان لما أصاب المسلمين يوم أحد فوائد، منها ان يظهر اللّه علمه للناس بإيمان المؤمنين، و نفاق المنافقين، فالمنافقون قبل وقعة أحد لم يكونوا مكشوفين عند الناس، و متميزين عن المؤمنين و في هذه الوقعة تكشفوا عن واقعهم، و عليه يكون المراد بعلم اللّه هنا اظهار علمه بالمعلوم و تميزه عن غيره، لا انه تعالى قد تجدد له العلم بعد وقعة أحد، لأنه سبحانه يعلم الأشياء قبل وقوعها .. و سبقت الاشارة الى ذلك في الآية ١٤١ من هذه السورة.

(وَ قِيلَ لَهُمْ) - أي للمنافقين - **تَعٰالَوْا قٰاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا)**.

لم يبين اللّه من هو الذي قال ذلك للمنافقين، لأنه أورد القول بصيغة المجهول، كما انه تعالى أشار للمنافقين بضمير الغيب لا بأسمائهم، و لكن كثيرا من المفسرين قالوا: ان عبد اللّه بن أبي خرج مع النبي (ص) يوم أحد في ثلاثمائة مقاتل، و في أثناء الطريق رجع هو و من معه، و رفضوا أن يقاتلوا، فعلوا ذلك بقصد التخذيل و تثبيط الهمم عن الحرب مع الرسول (ص) .. فقال لهم عبد اللّه أبو جابر الانصاري: لما ذا ترجعون؟ فان كان لكم دين، فقاتلوا عن دينكم، و هذا هو معنى فقاتلوا في سبيل اللّه. و ان لم يكن لكم دين فدافعوا عن أنفسكم و أهلكم و أموالكم، و هذا هو معنى أو دافعوا .. و ذكر أصحاب التواريخ هذه المثلبة لابن أبيّ و أصحابه، و قول عبد اللّه أبي جابر الأنصاري لهم .. و لفظ الآية

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٠١

ينطبق على مثل فعلهم، و على قول الأنصاري لهم، و لكن الآية لم تذكر اسم الفاعلين، و لا اسم القائل.

و مهما يكن، فان المنافقين قد أجابوا هذا القائل المؤمن و **(قٰالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتٰالاً لاَتَّبَعْنٰاكُمْ)**. أي ان الأمر بين المسلمين و المشركين لا يتعدى المناورات و عرض العضلات، و لن يصل الى الحرب و القتال، و لو تأكدنا - ما زال القول للمنافقين - من ان الحرب واقعة لا محالة لحاربنا معكم .. و قيل: ان المنافقين أرادوا بجوابهم هذا ان مجابهة المسلمين للمشركين ليس من نوع القتال و الحرب في شيء، و انما هي عملية انتحار، لتفوق عدو المسلمين عدة و عددا. و لفظ الآية يتحمل المعنيين، و لكن المعنى الأول أقرب الى دلالة لفظها.

(هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمٰانِ). أي ان المنافقين أرادوا من قولهم:

لا نعلم ان هناك قتالا، أرادوا أن يخفوا نفاقهم، و يبتعدوا عن التهم .. و لكن قولهم هذا أدل على نفاقهم، و أقرب لنصرة المشركين، لأنه يتفق مع مصلحتهم لما فيه من تثبيط العزائم عن الحرب مع الرسول (ص).

(يَقُولُونَ بِأَفْوٰاهِهِمْ): لو نعلم قتالا لاتبعناكم. **(مٰا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)**.

بل فيها الكذب و النفاق. **(وَ اللهُ أَعْلَمُ بِمٰا يَكْتُمُونَ)** من الكفر به و برسوله.

قال الإمام (علي): ان لسان المؤمن من وراء قلبه، و ان قلب المنافق من وراء لسانه، أي ان قول المؤمن انعكاس لما في قلبه، لأنه لا يقول إلا ما يعتقد، أما المنافق فان لسانه في معزل عن قلبه، و انما يتبع لسانه مصالحه الشخصية، و يتلون

كلامه بحسبها.

(الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا). أي قال المنافقون:

لو أطاعنا الذين قتلوا يوم أحد مع النبي (ص) و لم يخرجوا معه ما قتل أحد منهم، كما انّا نحن لم نقتل لأنّا لم نخرج .. و سبق الكلام في ذلك عند تفسير الآية ١٥٦ من هذه السورة.

(قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ). كلا، لا ينجو من من الموت من فر منه، و لم يعط البقاء من طلبه. قال الإمام علي (ع): ان الموت طالب حثيث لا يفوته المقيم، و لا يعجزه الهارب. ان أكرم الموت القتل.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٠٢

و الذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة على فراش.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٦٩ الى ١٧١]

وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)

الإعراب:

احياء خبر مبتدأ محذوف، أي هم أحياء، و جملة يرزقون صفة لأحياء.

و فرحين حال من واو يرزقون. و يستبشرون معطوف على فرحين، و جاز عطف الفعل على الاسم، لأنه بمعنى الاسم المعطوف عليه، أي فرحين و مستبشرين.

و ان لا خوف عليهم (ان) مخففة من الثقيلة، و اسمها محذوف ضمير الشأن، و خبرها جملة لا خوف عليهم. و المصدر المنسبك منها و من مدخولها في محل جر على انه بدل اشتمال من الذين لم يلحقوا بهم، و يجوز نصبه مفعولا لأجله ليستبشرون.

المعنى:

(وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ).

المخاطب في لا تحسبن كل عاقل، و المقصود بالذين قتلوا في سبيل اللّه كل قتيل

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٠٣

من أجل اللّه، سواء استشهد بين يدي الرسول (ص) أم من قبل و من بعد.

و ظاهر الآية ان الشهداء أحياء في الحال، لا أن اللّه سوف يحييهم مع غيرهم يوم البعث و النشر، و انهم أحياء حقيقة، لا مجازا كالذكر الطيب و ما اليه .. هذا هو ظاهر الآية، و يجب الاعتماد عليه، إذ لا موجب للعدول عنه من نقل أو عقل، ما دامت الحياة بيده تعالى يهبها لمن يشاء متى يشاء.

و الآية رد صريح على المنافقين الذين قالوا: ان أصحاب محمد (ص) يقتلون أنفسهم، و لا يصلون الى خير.

و لسنا نعرف دينا أو أمة رفعت من شأن الشهداء في سبيل الحق و العدل كما رفعه الإسلام. قال رسول اللّه (ص): «الروحة و الغدوة في سبيل اللّه أفضل من الدنيا و ما فيها». و قال: «الجنة تحت ظلال الأسنة» التي تقضي على الظلم و الجور، و الشر و الباطل، أما المستشهدون في سبيل الحق فهم و الحق سواء في نظر الإسلام، لأن من يستهين بحياته من

أجل الحق يكون تقديسه تقديسا للحق بالذات.

(فَرِحِينَ بِمٰا آتٰاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه). و فرحهم بهذا الفضل من وجهين:

الأول انهم يتمتعون به. الوجه الثاني انه يدل على رضى اللّه الذي ضحوا بحياتهم من أجله، تماما كهدية الحبيب التي تدل على حبه.

(وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاّٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ). كل مؤمن يحب لأخيه في الايمان ما يحبه لنفسه، و لكن قد تحون الظروف و لا تتهيأ الأسباب لبلوغ المراد .. و الذين استشهدوا في سبيل اللّه لهم اخوان في اللّه يعرفونهم بأسمائهم و أشخاصهم، و لا ينقصون عنهم ايمانا و إخلاصا، و قد تركوهم أحياء بعدهم .. و حين رأى الشهداء فضل اللّه عليهم فرحوا بما نالوه، و أيضا استبشروا لإخوانهم الذين تركوهم على نهجهم في الايمان و الإخلاص و الجهاد .. استبشر الشهداء لأن إخوانهم الأحياء سيلحقون بهم، و ينالون ما نالوه من الفضل و الكرامة.

و في هذه الآية دلالة صريحة على ان الشهداء أحياء قبل يوم القيامة، لأن استبشارهم بمصير إخوانهم الأحياء انما حصل في الحال، لا أنه سوف يحصل في غد.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٠٤

(يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ). و تسأل:

لما ذا أعاد لفظ يستبشرون، و لفظ فضل؟.

الجواب: ان للشهداء ثلاث فرحات: الفرحة الأولى بما نالوه لأنفسهم، و اليها الاشارة بقوله: فَرِحِينَ بِمٰا آتٰاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه. الفرحة الثانية كانت لأجل إخوانهم الذين يعرفونهم و لم يلحقوا بهم بعد، و اليها الاشارة بقوله: يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ. الفرحة الثالثة كانت لكل مؤمن عرفوه أو لم يعرفوه، شهيدا كان أو غير شهيد، و اليها الاشارة بقوله: يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَ فَضْلٍ .. و الذي يؤيد ان هذه الفرحة كانت من أجل المؤمنين جميعا قوله تعالى: وَ أَنَّ اللهَ لاٰ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ.

سؤال تان: ان اللّه سبحانه عطف الفضل على النعمة، و العطف يستدعي وجود الفرق بين المعطوف و المعطوف عليه، فما هو هذا الفرق؟.

و قد أجاب الرازي بأن النعمة هي الثواب و الأجر الذي يستحقه العامل جزاء عمله، و الفضل هو التفضل الزائد الذي يمنحه اللّه كرما لا استحقاقا.

و لا يبتني جواب الرازي هذا على شيء سوى الرغبة في الجواب على أساس التسليم بوجود الفرق .. و نحن لا نرى أي فرق بين قول القائل: أنعم عليّ فلان، و بين قوله: تفضل عليّ .. و الصحيح ان المترادفات يعطف بعضها على بعض، و مجرد الاختلاف في اللفظ كاف في الصحة، و يسمى هذا عطف التفسير.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٧٢ الى ١٧٥]

الَّذِينَ اسْتَجٰابُوا لِلّٰهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مٰا أَصٰابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قٰالَ لَهُمُ النّٰاسُ إِنَّ النّٰاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزٰادَهُمْ إِيمٰاناً وَ قٰالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوٰانَ اللهِ وَ اللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمٰا ذٰلِكُمُ الشَّيْطٰانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيٰاءَهُ فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ وَ خٰافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٠٥

اللغة:

القرح بفتح القاف الجرح، و بالضم ألمه على ما قيل.

الإعراب:

الذين استجابوا، الذين في محل رفع علي الابتداء. و للذين من قوله: **(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا)** متعلق بمحذوف خبر مقدم. و أجر مبتدأ مؤخر، و الجملة خبر الذين استجابوا. و من في (منهم) للتبيين، و ليس للتبعيض، لأن الذين استجابوا للّه و لرسوله كلهم محسنون. و الذين قال لهم الناس (الذين) بدل من **(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا)**. و ذلكم مبتدأ. و الشيطان عطف بيان. و جملة يخوف أولياءه خبر.

و تخافون أي تخافوني، و حذفت الياء تخفيفا.

المعنى:

(الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ). جاء في كتب السير و التفاسير ان المشركين بعد أن انتهت معركة أحد اتجهوا الى مكة، و في أثناء الطريق عادوا الى التفكير فيما حدث، فندموا و تلاوموا، و قال بعضهم لبعض: لم نستأصل من بقي من المسلمين، و سيجمعون لنا، و يعيدون الكرة علينا، و هموا بالرجوع الى حرب محمد (ص) و أصحابه .. و لما بلغ ذلك رسول اللّه (ص) أعاد تنظيم رجاله على عجل، و نادى مناديه لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، فاجتمع اليه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٠٦

جماعة من المسلمين، على ما بهم من القراح و الجراح، و ساروا حتى عسكروا بحمراء الأسد في انتظار رجوع أبي سفيان و من معه من المشركين .. و تبعد حمراء الأسد عن المدينة ثمانية أميال .. و نجحت هذه المظاهرة، لأن المشركين لما علموا بتجمع المسلمين من جديد خافوا و أسرعوا الى مكة .. و عاد المسلمون الى المدينة أعز جانبا.

(الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ).

المراد بلفظ الناس الأول المثبطون عن الحرب مع النبي (ص)، و هؤلاء هم الذين قالوا للمؤمنين حين أهاب بهم الرسول (ص) أن يقفوا للمشركين ثانية، قالوا لهم: **(إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ)**.

و المراد بلفظ الناس الثاني المشركون الذين حاولوا اعادة الكرة على المسلمين.

و المعنى ان المؤمنين على جراحهم الثقيلة الدامية قد لبوا نداء الرسول (ص) لمجابهة أبي سفيان و جيشه، و لم يلتفتوا الى من خوفهم، و قال لهم، لا تخرجوا مع محمد، لأن الأعداء أقوى منكم، بل زادهم هذا القول ايمانا باللّه و ثقة بوعده، و مضوا على طاعة الرسول (ص)، و التصميم على محاربة المشركين، مهما تكن النتائج، معبرين عن هذه الطاعة، و هذا التصميم بقولهم: حسبنا اللّه و نعم الوكيل.

و هكذا ينسجم المؤمن، و يلتحم مع إيمانه، و لا يخشى فيه القتل و الأسر، و التنكيل و التعذيب .. قال رجل من بني عبد الأشهل: شهدت و أخي أحدا مع رسول اللّه (ص)، و جرحنا، و لما اذن مؤذن الرسول (ص) بالخروج في طلب العدو خرجنا مع الرسول، و كنت أيسر جرحا من أخي، فكان إذا تأخر حملته.

(فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ وَ اللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ). خرج المؤمنون مع النبي الى حمراء الأسد، كما أمرهم، و لم يلقوا من العدو كيدا و لا همّا. و هذا معنى (لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ). لأن العدو بعد أن علم بتجمعهم خاف و عاد الى أهله .. و بعد انصراف العدو عاد المسلمون إلى أهلهم بنعم كثيرة من اللّه، منها السلامة، و منها طاعة اللّه و رسوله، و منها إرهاب العدو، و منها الذكر الطيب .. و أية نعمة تعدل تنويه اللّه بهم، و تسجيل

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٠٧

هذه المنقبة لهم في اللوح المحفوظ، و في كتابه الذي يتلو آياته أهل الأرض إلى يوم يبعثون.

(إِنَّمٰا ذٰلِكُمُ الشَّيْطٰانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيٰاءَهُ فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ وَ خٰافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

كل من أطاع اللّه فهو من أوليائه، و كل من استجاب الى الشيطان فهو من أوليائه، و اللّه يأمر أولياءه بالخير، و يرغبهم فيه، و ينهاهم عن الشر، و يحذرهم منه، أما الشيطان فانه على العكس، يأمر أولياءه بالشر و يغريهم به، و ينهاهم عن الخير، و يخوفهم منه. و قال الحافظ المفسر محمد بن أحمد الكلبي، في تفسير التسهيل: المراد بالشيطان هنا أبو سفيان أو الذي أرسله أبو سفيان أو إبليس.

و قول من قال للمؤمنين: (إِنَّ النّٰاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ) هو من وحي الشيطان و تخويفه فلا يصغي اليه الا أولياؤه الذين يطيعونه، أما أولياء الرحمن فلا يزيدهم هذا القول الا ايمانا بالجهاد و الفداء من أجل الإسلام و نبي الإسلام. و على ما قدمنا يكون معنى: (الشَّيْطٰانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيٰاءَهُ) انهم يطيعونه إذا خوفهم، أما أولياء اللّه فلا يخافون الشيطان إذا خوّفهم، و معنى (فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ) لا تخافوا المشركين فإنهم أولياء الشيطان، و هو يحاول أن يجعلهم مصدر الخوف و الرعب، و يضيف عليهم سمة القوة و الرهبة ليخلو لهم الجو، و يعثوا فسادا في الأرض .. و المؤمن لا يخاف الا اللّه وحده.

للشيطان شحاذ و مهندس:

للشيطان أسماء كثيرة، منها اللعين و الرجيم، و الغاوي و الغرور، و يمكن تسميته بالشحاذ المتسول، لأنه يقف على باب القلب يستعطف، و يقرعه برفق و لين طالبا الاذن بالدخول .. فإذا أبطأت عليه تضرع و تملق بكلمات معسولة .. و يكتفي منك ان توارب الباب، و لو قليلا .. فإذا فعلت دخل، و أخرج من محفظته الغواية و الخداع، و الوهم و الإغراء، و شرع بتمويه الحقائق و تشويهها، و تزيين القبائح و تحسينها، و صوّر عمل الخير شرا، و جهاد المبطلين كفرا، و سلم المحقين حربا، و المنكر معروفا، و المعروف منكرا، و ألبس الخائن ثوب المصلح، و المخلص ثوب المفسد، الى غير ذلك من حيله و أضاليله.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٠٨

و أجدى وسيلة يتوصل بها الى مآربه تجسيم الخوف من قوة أوليائه الذين يقضون لباناته، و يحققون غاياته .. ان الشيطان مهندس و مشرّع، أما قوته المنفذة فهم شيعته الذين ينشرون في الأرض الفساد و الضلال.

و من أجل هذا يضخم من شأنهم، و يمهد لهم سبيل السيطرة و النفوذ، و يلبسهم لباس العزة و القدرة، كي لا يرتفع في وجوههم صوت، أو يفكر في الانتقاض عليهم أحد .. فيضعف سلطانه بضعفهم، و ينقطع رجاؤه من الشر و الفساد بانقطاع آثارهم.

و الخلاصة ان من خاف اهل الفساد و الضلال، و هادن واحدا منهم فقد هادن الفساد و الضلال بالذات، و وقّع معاهدة الحب و الإخاء بينه و بين الشيطان .. و هذا مقياس لا يخطئ أبدا في الفصل و التمييز بين من يدعي الايمان باللّه و الخوف منه، و بين من يوالي الشيطان، و يؤثر طاعته على طاعة اللّه. و لا شيء أدل على هذه الحقيقة من قوله سبحانه: (فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ وَ خٰافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). فإن معناه من ترك جهاد أهل الفساد و الضلال خوفا منهم فهو من أولياء الشيطان، و ليس من اللّه في شيء .. و قريب من هذه الآية قول الرسول الأعظم (ص): الساكت عن الحق شيطان أخرس.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٧٦ الى ١٧٨]

وَ لاٰ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسٰارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّٰهُ أَلاّٰ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمٰانِ لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْئاً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ (١٧٨)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٠٩

اللغة:

المراد بالإملاء هنا الامهال و اطالة المدة.

الإعراب:

شيئا مفعول مطلق، أي شيئا من الضرر، و لا يحسبن الذين كفروا (الذين) فاعل يحسبن. انما الأولى بفتح الهمزة (ان) تنصب الاسم و ترفع الخبر. و ما موصولة اسم ان. و خير خبرها. و المصدر المنسبك ساد مسد المفعولين ليحسبن، تماما كما تقول: علمت ان زيدا قائم. و انما الثانية بكسر الهمزة مكفوفة عن العمل، و معناها الحصر. و اللام في ليزدادوا لام الصيرورة و العاقبة، أي فكانت عاقبة الاملاء ان ازدادوا اثما، مثل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا و حزنا.

المعنى:

(وَ لاٰ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسٰارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللّٰهَ شَيْئاً). سبق ان المشركين جمعوا الجموع، و جهزوا الجيوش لمحاربة الرسول (ص)، و ان المنافقين كانوا يؤازرونهم، و يدسون الدسائس على المسلمين. و في هذه الآية وصف اللّه سبحانه كلا من المنافقين و المشركين بالعتو و الحرص على معاندة الحق و حربه، و كان النبي (ص) يحزن و يتألم من صنيعهم هذا، فقال له الجليل:

لا تحزن .. انهم لن ينالوا منك و لا من المسلمين و لا من دين اللّه كثيرا و لا قليلا، و ان أمرهم سيضمحل، و تزول شوكتهم، أما دينك فسيعظم شأنه، و تعلو كلمته .. و هكذا كان، فلم تمض الأيام، حتى مكن اللّه للإسلام في شرق الأرض و غربها، و محق الذين كانوا بالأمس يسارعون في عدائه و حربه.

(يُرِيدُ اللّٰهُ أَلاّٰ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ). هذا مصير كل من تمادى في الغي، و لم يرتدع عنه، حتى مات عليه.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢١٠

و تسأل: ان ظاهر الآية يشعر بأن الشر من اللّه، لأن عذاب جهنم شر، و قد أراده اللّه لهم؟

الجواب: أجل، ان اللّه أراد لهم العذاب، و لكن بعد ان استحقوه، لأنه تعالى أمرهم بالإيمان، و نهاهم عن الكفر، و ترك

لهم الخيار، فاختاروا الكفر على الإيمان، و معنى هذا ان المشركين و المنافقين هم الذين أوجدوا سبب العذاب، و بعد أن أوجدوه مختارين أراد اللّه لهم العذاب، تماما كالقاضي يريد السجن للمجرم بعد أن يرتكب الجريمة.

(إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيْمٰانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ).

و لفظ اشتروا يشعر بالاختيار، لأن المشتري يختار السلعة، و يرضى بها بديلا عن الثمن، و الكافر رضي بالكفر بديلا عن الايمان، فاستحق العذاب الأليم.

و تسأل: لقد كرر سبحانه **(لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً)** في آيتين لا فاصل بينهما، فما هو السر؟

الجواب: المراد بالآية الأولى كفار قريش الذين جهزوا الجيوش لحرب الرسول (ص) و من كان يؤازرهم من المنافقين، و المراد بالآية الثانية كل من كفر من الأولين و الآخرين محاربا كان أو غير محارب، و عليه يكون ذكر الآية الثانية من باب ذكر العام بعد ذكر الخاص، و هو كثير في كلام العرب، يقولون:

فلان قامر بأمواله، فأهلك نفسه. و كل من يفعل فعله فهو من الهالكين.

(وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدٰادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ). ان عمر الإنسان كثروته، ان أحسن التصرف بها، و أنفقها على نفسه و أهله و المعوزين من عباد اللّه و عياله عادت عليه بالخيرات و الحسنات، و كلما زادت ثروته تضاعف إنفاقه في الطاعة، و تضاعفت بذلك حسناته، و ان أساء التصرف بها، و أنفقها في المعصية عادت عليه بالسيئات، و كلما نمت و ربت ثروته ازداد عتوا و فسادا.

و هكذا العمر، يبلغ الإنسان به السعادة ان أحسن العمل .. و يكون سببا لشقائه ان أساء .. و هذه سنة إلهية و اجتماعية في آن واحد .. و كل السنن المألوفة المعروفة طبيعية كانت أو اجتماعية فهي سنة اللّه في خلقه.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢١١

و اللّه سبحانه قد جرى مع الكافرين على سنته في الناس أجمعين، أمهل من أمهل باطالة العمر، ليصيب من هذه الحياة ما يختاره لنفسه من خير أو شر، و لكن الكافر اغتر بالامهال، و استرسل في البغي، فكانت النتيجة من إمهاله شقاءه و عذابه، على العكس من المؤمن إذا انسأ اللّه في أجله، حيث تزداد خيراته، و تكثر حسناته، بل من أحسن فيما بقي من عمره لم يؤاخذ بما مضى من ذنبه، كما جاء في الحديث الشريف .. و من هذا يتبين ان اللام في قوله تعالى: **لِيَزْدٰادُوا** هي للعاقبة لا للتعليل.

الكافر و عمل الخير:

و تسأل: ان بعض الكفار يعملون الخير لوجه الخير، و كلما طالت أعمارهم ازدادوا نفعا للانسانية بعلومهم و جهودهم الخالصة من كل شائبة .. و هذا يتنافى مع ظاهر قوله تعالى: **إِنَّمٰا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدٰادُوا إِثْماً**؟

الجواب: ان سياق الآية يحدد المراد من الإثم فيها، و انه خصوص الكفر، و انهم من هذه الحيثية يزدادون كفرا، لا من جميع الجهات، إذ قد يكونون محسنين في بعض أعمالهم.

سؤال ثان: هل يثاب الكافر إذا أحسن و نفع الناس، أم ان عمله هذا و عدمه سواء؟

الجواب: ان الإنسان بالنظر الى الايمان و العمل الصالح لا يخلو أن يكون واحدا من أربعة:

١- ان يؤمن و يعمل صالحا، و ينطبق على هذا قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةُ أَلاّٰ تَخٰافُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ- ٣٠ فصلت».

٢- ان لا يؤمن و لا يعمل صالحا .. و هذا من الذين: «اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ- ١٩ المجادلة».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢١٢

٣- ان يؤمن، و لكنه لم يعمل صالحا مدة حياته .. و هذا من حزب الشيطان، تماما كالثاني .. و لو كان مؤمنا حقا لظهرت عليه علامة من علامات الايمان، قال رسول اللّه (ص): لا ينجي الا العمل، و لو عصيت لوهيت.

أما إذا خلط عملا صالحا، و آخر سيئا، و اعترف بذنبه فتشمله الآية ١٠٣ من التوبة: «وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

٤- ان يعمل صالحا، و لا يؤمن، كالكافر يطعم جائعا أو يكسو عاريا أو يشق طريقا أو يبني ميتما أو مصحا لوجه الخير و الانسانية .. و قيل ان عمله هذا و عدمه سواء، لقوله تعالى: «إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ- ٣٠ المائدة».

و الكافر ليس من المتقين، إذ ليس بعد الكفر ذنب.

و نجيب أولا: ليس المراد من قوله تعالى: «إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» ان الإنسان إذا عصى اللّه في شيء لا يقبل منه إذا أطاعه في شيء آخر .. و الا لزم ان لا يتقبل الا من المعصوم .. و هذا يتنافى مع عدله و حكمته، و انما المراد من الآية ان اللّه سبحانه لا يقبل الا العمل الخالص من كل شائبة دنيوية، و ان من عمل لغير اللّه و الخير يكله الى من عمل له .. و ليس من شك ان من عمل الخير لوجه الخير و الانسانية فقد عمل للّه، سواء أراد ذلك، أم لم يرد، و من عمل للّه فأجره على اللّه.

أما المراد من (ليس بعد الكفر ذنب) فهو ان الكفر أكبر الكبائر على الإطلاق، و ان الذنب مهما عظم فانه دون الكفر بمراتب .. و هذا شيء، و جزاء من أحسن شيء آخر.

ثانيا: ان اللّه سبحانه عادل، و من عدله أن لا يكون المحسن و المسيء لديه سواء، بل للمسيء جزاؤه، و للمحسن جزاؤه، و ليس من الضروري ان يكون جزاء المحسن غير المؤمن في الآخرة .. فقد يكون في الدنيا بكشف الضر و البلوى، قال رسول اللّه (ص): «صنائع المعروف تقي مصارع السوء» ..

و أيضا لا ينحصر جزاء الآخرة بالجنة، فقد يكون بتخفيف العذاب، أو لا عذاب و لا ثواب، كما هي حال أهل الاعراف.

و اختصارا ان الإنسان مجزي بأعماله، ان خيرا فخير، و ان شرا فشر،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢١٣

و الكافر يستحق العقاب على كفره، و قد فعل الخير لوجه الخير، فيستحق عليه الثواب، و لكل عمل حساب .. أجل، نحن لا ندرك كنه الثواب الذي يثاب به المحسن غير المؤمن، و لا متى و أين؟ أفي الدنيا أو في الآخرة؟ ان هذا موكول الى علم اللّه و حكمته، و تحديده بشيء معين مشاركة للّه في علمه، فليتق اللّه من يؤمن به.

و بهذه المناسبة نذكر كلمة للسيد كاظم صاحب العروة الوثقى، قالها في ملحقات العروة، باب الوقف، مسألة اشتراط نية القربة، و هذه هي بالحرف: «يمكن أن يقال بترتب الثواب على الأفعال الحسنة، و ان لم يقصد بها وجه اللّه، فان الفاعل لها يستحق المدح عند العقلاء، و ان لم يقصد بفعله التقرب الى اللّه، فلا يبعد ان يستحق من اللّه تعالى التفضل عليه».

فهذا العالم الجليل يقول بكل وضوح: انه من الجائز أن يثيب اللّه على الأفعال الحسنة و ان لم يقصد بها وجه اللّه .. اذن، فبالأولى أن يثيب اللّه فاعلها إذا قصد وجه الخير و الانسانية، و سبقت الاشارة أكثر من مرة الى أن العقل لا يأبى ان يمن

اللّه بفضله و ثوابه على المذنب و انما الذي يأباه العقل أن يعاقب اللّه من لا يستحق العقاب.

[سورة آل‌عمران (٣): آية ١٧٩]

مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلىٰ مٰا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّٰى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشٰاءُ فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢١٤

الإعراب:

ما كان اللّه اللام في ليذر تسمى لام الجحود، لأنها تؤكد النفي، و ان مضمرة بعدها، و المصدر المنسبك مجرور باللام متعلق بمحذوف خبر لكان، و التقدير ما كان اللّه مريدا لترك المؤمنين. و مثلها و ما كان اللّه ليطلعكم، أي ما كان مريدا لاطلاعكم. و حتى هنا بمعنى كي. و يميز فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى.

المعنى:

(مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلىٰ مٰا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّٰى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) كان أعداء الرسول (ص) فئتين: الأولى المشركون، و هم الذين رفضوا الإيمان به باطنا و ظاهرا، و أعلنوا الحرب عليه منذ البداية، و انتهت بهم الحال الى أن جمعوا له الجموع، و أعدوا له ما استطاعوا من قوة، فجمع لهم كما جمعوا، و أعد كما أعدوا .. فكانوا أعداء معروفين متميزين عن غيرهم من المسلمين.

الفئة الثانية: المنافقون، و هم الذين أضمروا الكفر و العداء للنبي و صحبه، و أظهروا لهم الحب و الولاء .. و كانت مهمتهم العمل ضد النبي (ص) داخل صفوف المسلمين .. فتارة يروجون الاشاعات الكاذبة، و أخرى يغرون المسلمين بمعصية اللّه و الرسول (ص)، و حينا يثبطون عزائمهم، و يخوفونهم من المشركين ..

و في بعض الغزوات انضموا الى جيش المسلمين، ثم تركوهم في منتصف الطريق، و قد لاقى منهم النبي و الخلص من أصحابه أكثر مما لاقوه من المشركين، لأن هؤلاء يحاربون في العلنية، و المنافقون يكيدون في الخفاء، و يدبّون الضراء ..

و هذا شأنهم مع كل داع الى الخير في كل زمان و مكان، يندسون في صفوف الطيبين للفساد و التخريب، و قد ذكرهم اللّه سبحانه في العديد من الآيات، منها الآية ١٧٣- ١٧٩ و هي التي نحن بصددها، و منها الآية ١١٢ من سورة الانعام: «وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢١٥

و قد فرض على النبي (ص) ان يعامل هؤلاء، و كل من نطق بكلمة الإسلام معاملة المسلمين، فيحقن دماءهم، و يحترم أموالهم، و يندبهم الى الحرب معه، و يشركهم في الغنائم، لأن الإسلام ما زال في دور الإنشاء و التكوين، فلو قتلهم الرسول، أو طردهم لقال البسطاء: ان محمدا لا يرضيه أحد آمن به أو كفر، و لاتخذ المشركون من ذلك وسيلة للدعاية ضد الإسلام و نبيه .. و من أجل هذا حار النبي (ص) في أمر المنافقين، و ضاق بهم ذرعا .. ان قبلهم أفسدوا، و زهدوا المسلمين في الجهاد، و ان رفضهم خاف على دعوته من قلة الأنصار و الأتباع، فأنزل اللّه سبحانه قوله: **(مٰا كٰانَ اللّٰهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ)**. أي ليس من حكمته تعالى ان يدع الحال كذلك، يتوارى المنافقون وراء دعوى الإسلام، بل انه

سبحانه يسلط عليهم الأضواء، ليعرفوا و يفتضحوا أمام الملأ، و لا يبقى لهم منفذ للكيد و الفساد .. و المحك الذي يفضح المنافقين ليس أمرا بالكلام كالتلفظ بالشهادتين، و لا بالركوع و السجود، و ما اليه مما لا عسر فيه و لا حرج، و انما هو الأمر بالجهاد و بذل النفس الذي يكشف الغطاء عن المنافقين، و لا يبقي لهم مجالا للرياء و الخداع، و الكيد و نفث السموم.

بهذا الامتحان العسير، و الأمر بالصبر و الثبات في وقعة أحد تعرفون يا معشر المؤمنين نعمة اللّه عليكم، و انه لم يدعكم على الحال التي كنتم عليها من التباس الصادقين منكم بالأعداء الأدعياء الذين تقنعوا من قبل باسم الإسلام .. و المراد بالطيب المؤمنون، و بالخبيث المنافقون، و أفرد اللفظ، لأنه اسم جنس.

(وَ ما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ). أي ليس من حكمته تعالى، و لا من سننه أن يطلعكم على علمه بالناس، و يقول لكم: هذا طيب، و ذاك خبيث، بل عليكم أن تعرفوا ذلك بالتجربة عند المحن و الشدائد، كما حدث في وقعة أحد، و عند ما دعا النبي (ص) الصحابة على ما بهم من ألم الجراح أن يخرجوا معه ثانية لطلب العدو، و مقابلته في حمراء الأسد .. و بكلمة ان اللّه لا يخبر أحدا بما في قلوب الناس من ايمان و نفاق، و انما يأمر بالتضحية بالنفس و المال، و عند التنفيذ و العمل يعرف الأصيل من الدخيل.

أجل، ان اللّه يطلع بعض رسله على نفاق هذا، أو ايمان ذاك لحكمة هو بها أعلم، و هذا معنى قوله سبحانه: **(وَ لكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ)**.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢١٦

و مثله الآية ٢٦ من سورة الجن: «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ».

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٨٠ الى ١٨٣]

وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢)

الإعراب:

يحسبن فعل مضارع، و الذين يبخلون فاعل. و المفعول الأول ليحسبن محذوف، و التقدير البخل خيرا، مثل من كذب كان شرا له، أي كان الكذب شرا له.

و خيرا مفعول ثان. و (هو) ضمير فصل لا محل له من الاعراب .. و ما بخلوا (ما) منصوبة بنزع الخافض، أي سيطوقون بما بخلوا به طوقا في أعناقهم.

و قتلهم الأنبياء منصوب، لأنه معطوف على ما قالوا، أي و سنكتب قتلهم الأنبياء. و ذلك مبتدأ. و بما قدمت (بما) متعلق بمحذوف خبر. و ان اللّه بفتح الهمزة، على تقدير الباء، أي و بأن اللّه ليس بظلام للعبيد، و المصدر المنسبك مجرور بالباء، متعلق بالخبر المحذوف.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢١٧

المعنى:

(وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ). بعد ان حرض سبحانه فيما تقدم على بذل النفس عقبه بالتحريض على بذل المال .. و المقصود بالآية الذين يمتنعون عن إعطاء الزكاة و الخمس الواجبين، لا عن بذل الصدقة المستحبة، لأن الوعيد الشديد الذي دلت عليه الآية انما يحسن على ترك الواجب دون المستحب.

و قيل: المراد بالآية من كتم اسم محمد (ص) و صفاته الواردة في التوراة و الإنجيل، و قيل: بل كلّ من بخل بعلمه عمن يحتاج اليه .. و لكن المتبادر من الآية البخل بالمال، لا بالعلم، و يومئ اليه قوله تعالى.

(سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ). هذا تفسير لقوله **(هُوَ شَرٌّ لَهُمْ)**.

و التطويق هنا كناية عن شدة العذاب نظير قوله تعالى: «يَوْمَ يُحْمىٰ عَلَيْهٰا فِي نٰارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوىٰ بِهٰا جِبٰاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ- ٣٦ التوبة».

الغني وكيل لا أصيل:

لقد حث اللّه سبحانه على البذل و الإنفاق في العديد من آياته، و في الكثير منها إيماء الى أن جميع الأموال ليست ملكا لمن هي في يده، و انما هي ملك للّه وحده، و الإنسان أمين عليها، و مأذون بالتصرف فيها ضمن حدود معينة لا يجوز أن يتعداها، تماما كالوكيل على الشيء يتبع ارادة الأصيل في جميع التصرفات «١» و من تلك الآيات هذه الآية: **يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ** ..

و الآية ٧٧ من القصص: وَ ابْتَغِ فِيمٰا آتٰاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ .. و الآية ٤٧ من سورة يس: أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ .. الى كثير غيرها .. و في الحديث القدسي:

المال مالي، و الأغنياء و كلائي، و الفقراء عيالي، فمن بخل بمالي على عيالي أدخلته النار، و لا أبالي. و أصرح الآيات دلالة الآية ٧ من سورة الحديد:

---

(١) بعد أن تنتهي من قراءة هذا الفصل اقرأ فصل «الايمان باللّه و مشكلة العيش» في تفسير الآية ٥ من سورة النساء، فانه مرتبط بهذا الفصل.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢١٨

«آمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ». و معنى جعله خليفة أقامه مقامه.

فالآيات و الأحاديث تفيد ان الإسلام لا يقر ملكية الإنسان للمال بشتى معانيها، سواء أ كانت الملكية فردية مطلقة، كما هي في المذهب الرأسمالي، أو ملكية مقيدة، كما هي في المذهب الاشتراكي، او ملكية جماعية، كما هي في المذهب الشيوعي .. كل هذه الأنواع للملكية ينفيها الإسلام، و يحصر الملك الحقيقي باللّه وحده، و لكنه سبحانه قد أباح للإنسان أن يتصرف في هذا المال، و ينفقه على نفسه و أهله بالمعروف، و في سبيل الخير، على شريطة أن يصل اليه عن طريق ما أحله اللّه، لا عن طريق ما حرم و نهى، كالغش و الخداع، و النهب و السلب، و الرشوة و الربا و الاحتكار و الاتجار بالمسكرات و المحرمات، فالاذن بالاستيلاء على المال محدود بحدود، و الاذن بالتصرف فيه أيضا محدود ضمن نطاق

خاص.

و تسأل: ان بعض الآيات تدل على ان المال ملك للإنسان، مثل: وَ جٰاهِدُوا بِأَمْوٰالِكُمْ .. وَ آتُوا الْيَتٰامىٰ أَمْوٰالَهُمْ. و في الحديث: «ان دماءكم و أموالكم عليكم حرام .. الناس مسلطون على أموالهم» أما البيع و الإرث فهما من ضرورات الدين، و الشريعة الاسلامية .. اذن، لا مسوغ للقول بأن الإسلام يلغي الملكية بشتى أنواعها؟

الجواب: ان الاضافة تصح لأدنى مناسبة، تقول للضيف: هذا اناؤك، و للضال: هذا طريقك، مع العلم بأن الإناء ليس ملكا للضيف، و لا الطريق ملكا للضال، و انما القصد ان يسلك الضال الطريق المشار اليه، و يأكل الضيف الطعام الذي في الإناء .. و مثله تماما اضافة المال للإنسان، يقصد منها أن يتصرف فيه على سبيل الاباحة و الاذن بالتصرف، لا على سبيل الملك، و منه قوله تعالى:

«وَ اللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجاً- ٧٤ النحل». و قول الرسول (ص):

«أنت و مالك لأبيك» .. و بديهة ان الزوجة ليست ملكا طلقا للزوج، و لا الولد ملكا حقيقيا للوالد.

أما البيع و الإرث فيكفي لجوازهما حق الامتياز و الاختصاص، أي ان الإسلام قد جعل لصاحب اليد امتيازا على غيره في التصرف بالمال، و في الوقت نفسه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢١٩

أباح له أن ينقل الامتياز الى الوارث و المشتري .. و الفرق بعيد بين الملك الحقيقي و الامتياز.

و الخلاصة ان الإسلام أباح للإنسان حيازة المال بشروط خاصة، و إنفاقه ضمن نطاق معين، و شدد على مراعاة تلك الشروط، و هذا النطاق، و حرم التجاوز عنهما، و هذا وحده كاف و صريح في الدلالة على ان الإنسان وكيل على المال، لا أصيل، و الا جاز له التصرف بلا قيد و لا شرط. و خير ما نختم به هذا الفصل قول الإمام جعفر الصادق (ع): المال مال اللّه و هو ودائع عند عباده، و جوز لهم أن يأكلوا قصدا- أي مقتصدين- و يلبسوا قصدا، و ينكحوا قصدا، و يركبوا قصدا، و يعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين، و يلموا به شعثهم، فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالا و يشرب حلالا، و يركب و ينكح حلالا، و ما عدا ذلك كان عليه حراما.

(لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قٰالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيٰاءُ). لم تذكر الآية أسماء الذين نطقوا بهذا الكفر، و لكن المفسرين نقلوا ان اللّه حين أنزل على نبيه قوله: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً» قال يهود المدينة الذين كانوا في عهد الرسول (ص): «انما يستقرض الفقير من الأغنياء .. اذن، اللّه فقير، و نحن أغنياء» .. و ليس هذا بمستبعد على اليهود، بخاصة الاثرياء منهم، فان مبادئهم و أعمالهم تدل دلالة واضحة على هذه الروح الشريرة، و اللامبالاة بالقيم و الانسانية .. و من تتبع تاريخهم يجد ان ما من بقعة من بقاع الأرض إلا و تركوا فيها أثرا من مفاسدهم و مقاصدهم الطاغية الباغية .. و لا شيء أصدق و أبلغ في تصوير حقيقة اليهود من قوله تعالى: «وَ تَرىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يُسٰارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوٰانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ، لَوْ لاٰ يَنْهٰاهُمُ الرَّبّٰانِيُّونَ وَ الْأَحْبٰارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مٰا كٰانُوا يَصْنَعُونَ، وَ قٰالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمٰا قٰالُوا- ٦١ المائدة.

و لست أشك إطلاقا في ان كل من يعترض على حكمة اللّه، و يقول بلسان المقال أو الحال: ما كان ينبغي للّه أن يفعل كذا، و كان عليه أن يفعل كيت، لست أشك في ان هذا يلتقي من حيث يريد أو لا يريد، مع الذين قالوا: يد اللّه مغلولة.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٢٠

(سَنَكْتُبُ ما قالُوا). هذا تهديد و وعيد للذين قالوا: (إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ) لأن كتابة الذنب تستدعي العقوبة عليه. (وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ).

و نكتب قتل أسلافهم للأنبياء، و نسب اليهم القتل مع ان القاتل أسلافهم، لأن الخلف راض بما فعل السلف .. و سبق الشرح عند تفسير الآية ٢١ من هذه السورة.

(ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ). و كيف يظلم و قد نهى عن الظلم، و اعتبره أكبر الكبائر، و عبر عنه بالكفر في أكثر من آية؟.

هذا، الى ان الظالم انما يظلم لأنه مفتقر الى الظلم، و اللّه غني عن كل شيء ..

و بهذا الأصل، و هو غنى اللّه و عدم افتقاره الى شيء نثبت عدله سبحانه، و أيضا نثبت انه ليس بجسم، لأن الجسم يفتقر الى حيز.

و بهذا يتبين معنا بطلان مذهب القائلين بأن الشر من اللّه، و انه يخلق المعصية في العبد، ثم يعاقبه عليها .. اللهم الا ان يبرروا مذهبهم بأنه جل و عز قال:

ان اللّه ليس بظلّام، و لم يقل ليس بظالم، و معلوم ان ظلّام من أمثلة الكثرة و المبالغة .. و عليه فإن اللّه سبحانه نفى عنه كثرة الظلم و المبالغة فيه، لا أصل الظلم .. تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٨٣ الى ١٨٤]

الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٢١

اللغة:

القربان مصدر على وزن عدوان، و يطلق على الشيء الذي يتقرب به العبد الى ربه، و هذا المعنى هو المراد من لفظ قربان في الآية. و الزبر بفتح الزاي الزجر، و بضمها جمع لزبور، و هو الكتاب، يقال: زبرت الكتاب، أي كتبته، و مزبور أي مكتوب.

الإعراب:

الذين قالوا ان اللّه عهد إلينا (الذين) عطف بيان من الذين قالوا: ان اللّه فقير، و نحن أغنياء، لأن مصدر القولين واحد.

المعنى:

(الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ). كل مبطل يزعم انه محق، و يبرر أباطيله بالمفتريات و الاتهامات، حتى الذين يتاجرون بالحروب، و يوقدون نيرانها هنا و هناك لتشغيل مصانعهم، حتى هؤلاء يزعمون انهم يقتلون الأبرياء و الأطفال و النساء ليستتب الأمن و السلم .. هذا هو منطق كل من عاند الحق و العدل خوفا منه على مكاسبه و منافعه.

اذن، فلا بدع أن يفتري اليهود على اللّه الكذب، و يقولوا لمحمد (ص):

لا نؤمن لك، لأن اللّه كان قد أمرنا ان لا نصدق مدعي النبوة الا إذا ظهرت على يده معجزة خاصة، و هي أن نقدم صدقاتنا، فتلتهمها نار تنزل من السماء ..

و اليهود الذين قالوا لمحمد (ص) هذا القول هم بالذات الذين نطقوا بكلمة الكفر، و قالوا: ان اللّه فقير، و نحن أغنياء.

(قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ). أمر اللّه سبحانه نبيه الأكرم بأن يكذبهم، و يجابههم بواقعهم التاريخي، و يقول لهم: ان أسلافكم قد طلبوا من الأنبياء السابقين هذه المعجزة بالذات

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٢٢

أي نزول النار من السماء، و أظهرها اللّه على أيديهم، و مع ذلك لم يؤمنوا بهم، و قتلوهم، و أنتم راضون بفعل أسلافكم، و شأنكم شأنهم في العناد و العتو .. و لو كنتم طلاب حق لآمنتم بمحمد (ص) بعد ان قامت الحجة على نبوته.

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ). هذا خطاب للرسول الأعظم (ص)، و الغرض منه التسلية بالتأسي بمن سبق من الأنبياء، فلقد كانت سيرتهم أن يتلقوا التكذيب و العناد من أهل الفساد كبني إسرائيل، و الذين على شاكلتهم، مع انهم أقاموا الحجة على كل مكذب لنبوتهم، و معاند لدعوتهم .. و المراد بالبينات المعجزات الواضحة الدالة على صدقهم.

و بالزبر مواعظ الأنبياء و حكمهم، تماما ككتب الحديث. و بالكتاب المنير التوراة، لأن اليهود أحدثوا فيها التحريف، بخاصة فيما يعود الى محمد و صفاته، و لأن الآيات واردة لبيان شأنهم .. فهم الذين قولوا: ان اللّه فقير، و انه عهد اليهم أن لا يؤمنوا لرسول، حتى يأتيهم بقربان تأكله النار.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٨٥ الى ١٨٦]

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦)

اللغة:

التوفية عطاء كامل غير منقوص. و الزحزحة التنحية و الابعاد. و العزم إمضاء للأمر، و المراد به هنا ما ينبغي للعاقل أن يعزم عليه.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٢٣

الإعراب:

لتبلون و لتسمعن اللام للقسم، و النون موكدة. و أذى مفعول لتسمعن.

المعنى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ). كأس تدور على كل انسان نبيا كان أو شقيا، ملكا كان أو صعلوكا .. أبدا لا وسيلة للفرار من الموت، و كل ما فكر فيه الأطباء أن يطيلوا حياة الإنسان، لا أن يدفعوا عنه الموت، و آخر محاولة قاموا بها لإطالة الحياة

سنة ١٩٦٧ عملية زراعة القلب، و هي أن ينزعوا هذا العضو من انسان أشرف على الموت، ثم ينزعوا قلب المريض، و يضعوا القلب الجديد مكانه، و كل من القلبين لا يزال ينبض.

و لكن هذه التجربة آلت الى الفشل الذريع رغم تكرارها .. و قامت ضجة من أطباء كبار حول هذه التجربة، و قالوا: انها جريمة لا تغتفر، إذ لا يمكن التأكد ان الذي ينزع قلبه سيموت بعد قليل، لأن الموت يحدث على درجات، منها الإغماء الطويل الذي يفقد الإنسان معه جميع الحركات، حتى الأنفاس، و لا وسيلة في هذه الحال للتمييز بين موته و حياته. و سبق للأطباء مرارا أنهم قرروا موت أشخاص عادوا الى الحياة بعد قرار الأطباء ..

و بالأمس قرأت في الصحف ان عجوزا مصرية أصابها إغماء، فاستدعى أولادها الأطباء فجزموا من غير تردد بموتها، و بعد إعلان الوفاة و توزيع أوراق النعي و حفر القبر و حضور الناس للتشييع فتحت عينيها، و قالت للمجتمعين: اذهبوا إلى أعمالكم مأجورين .. و إذا عجز الطب أن يطيل في عمر الإنسان، بل ان يميز في أحيان كثيرة حياته من موته، فبالأولى أن يعجز عن دفع الموت عنه.

(وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ). لا جزاء في الحياة الدنيا من اللّه سبحانه، و انما يجزيه على ما عمل جزاء كاملا وافيا يوم القيامة .. و قال كثير من المفسرين:

ان اللّه سبحانه يعطي الإنسان قسطا من الجزاء على عمله بعد الموت، و قبل يوم القيامة، ثم يعطيه القسط الأخير يوم القيامة، و به يتم الوفاء و يكمل، و ادعوا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٢٤

ان لفظ (توفون) يدل على ذلك.

أما نحن فلا نفهم من لفظ (توفون) الا ما نفهم من قوله تعالى: «وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ- ١١٠ هود». و هو لا يشعر بالتقسيط من قريب أو بعيد .. أجل، في الحديث: «ان القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار». و لكن هذا شيء، و دلالة توفون على التوزيع شيء آخر.

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ). بل من زحزح عن النار، و لم يدخل الجنة فهو من الفائزين .. و قد حدد كثير من الفلاسفة اللذة بدرء الألم، و السعادة بعدم الشقاء.

(وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ). وصف سبحانه الدنيا بمتاع الغرور، لأن الإنسان يغتر بها و ينخدع، أو لأنه إذا ملك شيئا من حطامها أحدثت الغرور بنفسه .. قال الإمام علي (ع): الدنيا تضر و تغر و تمر، ان اللّه تعالى لم يرضها ثوابا لأوليائه، و لا عقابا لأعدائه، و ان أهل الدنيا كركب بيناهم حلوا إذا صاح صائح فارتحلوا.

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً).

هذا هو ثمن الحق و الجنة .. صراع مرير مع المبطلين، و صبر على تهمهم و افتراءاتهم، و تضحية بالنفس و المال، و كلما كان الإنسان قويا في دينه اشتد بلاؤه و عظم .. ذلك ان مهمة أهل الحق تحتم عليهم كراهية الباطل و أهله، إذ لا صلح و لا هدنة بين الحق و الباطل، و قد كان المبطلون و لا زالوا أكثر عددا و أقوى شوكة .. و محال ان يسكتوا عن أعدائهم في العقيدة و المبدأ .. و من الذي يعلم انه مكروه و بغيض لديك، ثم يتقبل ذلك منك، و يسكت عنك؟ الا من عصم ربك .. و من هنا كان تاريخ الأنبياء و المصلحين تاريخ حرب و جهاد مع المشركين و المفسدين، أما البلوى في النفس و المال و غيرهما فهي نتيجة حتمية لكل حرب.

و المراد بالذين أوتوا الكتاب من قبلكم اليهود و النصارى، لأن التوراة و الإنجيل نزلا قبل القرآن، و المراد بالذين أشركوا العرب الذين تظاهروا على حرب الرسول (ص).

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٢٥

(وَ إِنْ تَصْبِرُوا) على جهاد المبطلين، و ما يحل بكم من البلاء (و تتقوا) اللّه فيما يجب اتقاؤه **(فَإِنَّ ذٰلِكَ)** الصبر على البلاء و اتقاءكم المحرمات **(مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)**.

[سورة آل‌عمران (٣): آية ١٨٧]

وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّٰاسِ وَ لاٰ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرٰاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مٰا يَشْتَرُونَ (١٨٧)

وظيفة علماء الدين

الإعراب:

إذ ظرف متعلق بمحذوف، أي أذكر إذ أخذ اللّه. و اللام في لتبيننه للقسم، لأن أخذ الميثاق قائم مقام القسم. و الهاء تعود إلى الكتاب. و كذلك هاء لا تكتمونه. و (لا) في (لا تكتمونه) للنفي و ليست للنهي، تماما كقولك:

و اللّه لا تقوم، و من أجل هذا لم يؤكد الفعل بالنون. و الهاء في نبذوه تعود إلى الميثاق، و في (به) إلى الكتاب. و ما في (بئس ما) محل نصب على التمييز المفسر للفاعل المستتر في بئس، أي بئس شيئا اشتروا به. و يجوز أن تكون (ما) محل رفع فاعل لبئس.

المعنى:

(وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيثٰاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّٰاسِ وَ لاٰ تَكْتُمُونَهُ). تنشئ الدولة مراكز للموظفين، و تحدد لكل موظف مهمته، و تأخذ عليه عهدا أن

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٢٦

يؤديها بأمانة و اخلاص، و تشرّع قوانين خاصة لعقوبته إذا تجاوز الحدود المقررة له.

و خلق اللّه الإنسان، و أمره بما يعود عليه بالخير و الصلاح، و نهاه عما يفسده و يضرّ به .. و اختار الأنبياء لتبليغ أحكامه إلى عباده، و أمرهم أن يأخذوا عهد اللّه و ميثاقه على كل من بلغته هذه الأحكام أن يبلغها هو بدوره و يبينها للناس ..

فالعالم بالأمور الدينية موظف عند اللّه سبحانه، لتبيين ما أنزل على رسله، و من كتم شيئا منه فهو مسؤول أمام اللّه جل و علا، تماما كموظف الدولة مسؤول أمامها إذا أخل بمهمته.

و جاء في ذلك العديد من الآيات و الروايات، ذكرها العلماء في باب الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر، منها قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مٰا أَنْزَلْنٰا مِنَ الْبَيِّنٰاتِ وَ الْهُدىٰ مِنْ بَعْدِ مٰا بَيَّنّٰاهُ لِلنّٰاسِ فِي الْكِتٰابِ أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰاعِنُونَ- ١٥٩ بقرة» .. و قال الرسول الأعظم (ص): الساكت عن الحق شيطان أخرس- فكيف إذا ناصر الباطل؟- و سئل عن أحب الجهاد الى اللّه؟

فقال: كلمة حق عند سلطان جائر. و قال الإمام علي (ع): ما أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا.

و هذا مبدأ عام لا يختص بعالم دون عالم، و لا بأهل دين دون دين، و لا بأصل أو فرع، و قوله تعالى: **وَ إِذْ أَخَذَ اللّٰهُ**

مِيثٰاقَ الخ ... يرادف بعمومه هذا المبدأ، لأن الذين أوتوا الكتاب يشمل اليهود و النصارى و المسلمين، بل القرآن أشرف الكتب إطلاقا، كما ان وجوب التبيين و تحريم الكتمان يشمل نبوة محمد (ص) و غيرها من أصول الدين و فروعه، و لكن كثيرا من المفسرين خصصوا الآية بعلماء اليهود الذين كتموا أمر محمد (ص)، و قال آخرون: انها تشمل اليهود و النصارى دون غيرهم، لأنهم كتموا ما في التوراة و الإنجيل من الأدلة على نبوة محمد (ص) .. و الاولى التعميم، لعدم الدليل على التخصيص.

(فَنَبَذُوهُ وَرٰاءَ ظُهُورِهِمْ). و نبذ الشيء وراء الظهر كناية عن عدم الاكتراث به و الاهتمام بشأنه، كما ان جعله نصب العين كناية عن شدة الاهتمام به.

(وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مٰا يَشْتَرُونَ). كل من كتم الحق إيثارا للعاجلة على الآجلة فقد باع دينه للشيطان بأبخس الأثمان .. البعض لا يكتفي بكتمان

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٢٧

الحق، بل يحرف الكتاب و السنة طبقا لأهواء الوجهاء و الأثرياء طمعا بما في أيديهم .. و هؤلاء (يَلْعَنُهُمُ اللّٰهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللّٰاعِنُونَ).

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٨٨ الى ١٨٩]

لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمٰا أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمٰا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاٰ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفٰازَةٍ مِنَ الْعَذٰابِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

اللغة:

الفوز النجاة، و مفازة اسم مكان الفوز و النجاة.

الإعراب:

الذين مفعول أول لتحسبن. و مفعولها الثاني محذوف، و التقدير ناجين.

و بمفازة متعلق بمحذوف مفعول ثان لـ(فَلاٰ تَحْسَبَنَّهُمْ).

المعنى:

الفرح بذاته غير محرم .. و من لا يفرح إذا أصابه خير، أو نجا من شر؟

بل الفرح من أجل خير الناس، يدل على صدق النية، و طيب السريرة ..

و قد فرح رسول اللّه (ص) بقدوم ابن عمه جعفر بن أبي طالب من الحبشة،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٢٨

و قبله بين عينيه، و قال: ما أدري بأيهما أنا أشد فرحا بقدوم جعفر أم بفتح خيبر؟

و انما يكون الفرح مذموما إذا كان بدافع الحقد و الشماتة، و الغرور و الخيلاء، أو يفرح الإنسان لأنه سلب و نهب، و قتل و أفسد، دون أن يعاقب أو يعاتب، أو لأنه مكر و خادع ليحمد بما ليس فيه، و انطلت حيله على البسطاء، ففرح بتطبيلهم و تزميرهم، الى غير ذلك من الصور التي نشاهدها هنا و هناك.

بعد هذا التمهيد نشير بايجاز الى الأقوال في هذه الآية:

(لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمٰا أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمٰا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاٰ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفٰازَةٍ مِنَ الْعَذٰابِ وَ

لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) قيل: انها نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا اسم محمد و صفاته الموجودة في التوراة، و في الوقت نفسه يحبون أن يمدحوا بالصدق، و انهم على ملة ابراهيم (ع).

و قيل: بل نزلت في المنافقين .. كانوا يتخلفون عن رسول اللّه (ص) في حروبه و غزواته، و يتعللون بالأكاذيب، و كان النبي (ص) يظهر القبول، و يفرحون هم بذلك، و يحبون أن يمدحوا بما ليس فيهم من الإيمان.

و أرجح الأقوال ان اللّه سبحانه بعد ان ذكر في الآية السابقة الذين أخذ الميثاق منهم الاّ يكتموا الحق، فنبذوه و اشتروا به ثمنا قليلا، بعد أن وصفهم اللّه بهذا الوصف فيما سبق- ذكرهم في هذه الآية بأنهم قد فرحوا بصنيعهم ذاك، و أحبوا ان يمدحوا و يوصفوا بالحق و الصدق، و هم أبعد الناس عنهما.

و مهما تمادوا في الغي فإنهم لا يخرجون عن قبضة اللّه و قدرته، و لا ينجون من عذابه و عقابه .. كيف؟ **(وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**.

و بهذا التفسير يدخل في الآية اليهود و النصارى الذين كتموا أمر محمد (ص) و المنافقون من المسلمين الذين أضمروا الكفر، و أظهروا الايمان.

و تسأل: لما ذا قال تعالى: **فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ** بعد قوله: **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ** الخ، مع العلم بأن فاعل الفعلين واحد، و مفعولهما واحد؟

الجواب: جاء التكرار لدفع الالتباس بعد طول الكلام، و قد شاع اليوم هذا الاستعمال في الكتابة و الاذاعة.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٢٩

سؤال ثان: ان اللّه سبحانه قال: **(فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ)**. ثم قال: **(وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ)**. مع ان الجملة الأولى تغني عن الثانية؟

الجواب: فرق بين الجملتين، لأن الأولى أفادت انهم غير ناجين من العذاب دون أن تبين نوع العذاب: هل هو خفيف أو أليم؟ و الثانية بينت انه من النوع الأليم، تماما كما تقول: أحبك و أحبك كثيرا.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٩٠ الى ١٩٥]

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (١٩٢) رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ (١٩٣) رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ (١٩٤)

فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ اللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ (١٩٥)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٣٠

اللغة:

اختلاف الليل و النهار تعاقبهما، و مجيء كل منهما خلف الآخر. و المراد باللب هنا العقل، لأن اللب من كل شيء خيره و خالصه، و خير ما في الإنسان عقله.

و الخزي الاهانة. و المراد بالميعاد هنا الوعد.

الإعراب:

الذين يذكرون بدل من أولي الألباب. و قياما و قعودا حال. و على جنوبهم في محل نصب على الحال أيضا، أي و مضطجعين. و باطلا حال من هذا، و يجوز أن يكون صفة لمفعول مطلق محذوف، أي ما خلقت هذا خلقا باطلا.

و ان آمنوا (ان) بمعنى أي مفسرة لما قبلها، مثل كتبت اليه ان افعل كذا، أي افعل كذا. و تحسن الاشارة إلى انه جاء في القرآن الكريم (انّنا) بالنونات الثلاث، كما في الآية **(رَبَّنٰا إِنَّنٰا سَمِعْنٰا)**. و جاء فيه أيضا (انّا) بحذف احدى النونين من أن، مثل قوله تعالى: «إِنَّا كُنَّا فٰاعِلِينَ- ١٠٤ الأنبياء».

و عليه يصح ان نقول و نكتب: انّا و انّنا.

المعنى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلاٰفِ اللَّيْلِ وَ النَّهٰارِ لَآيٰاتٍ لِأُولِي الْأَلْبٰابِ).

عرضنا الأدلة العقلية على وجود اللّه سبحانه عرضا وافيا عند تفسير الآية ٢٢ من سورة البقرة، فقرة «التوحيد» ثم أشرنا اليها ثانية عند تفسير الآية ١٦٤ من السورة المذكورة، و هي بمعنى الآية التي نحن بصددها، و لمكانها هنا نعود إلى الموضوع بايجاز، و بأسلوب آخر:

ان أفضل الطرق لمعرفة اللّه سبحانه هو الطريق الذي استدل به جل و علا على وجوده، و يتلخص بأن ينظر العاقل الى الكون، و يتفكر بإمعان في عجائبه و أسرار ما فيه من إتقان و إبداع، فيرى ان كل ما فيه ينبئ عن قصد و غاية،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٣١

حيث وضع في المكان اللائق به، و قام بدور فعال في تنظيم الكون و سير الحياة، و من هذين الأساسين معا، و هما الحس و العقل يتوصل حتما الى معرفة علة أولية، تتصف بالحياة و العلم و القدرة و الحكمة البالغة.

و سمعت أكثر من واحد يقول- و كأنه قد أتى بجديد-: كل الناس، حتى الملحدين يعترفون بوجود علة أولى، سوى أن المؤمنين يسمونها اللّه، و غيرهم يسمونها المادة أو الطبيعة، اذن، الخلاف في التسمية فقط.

و هذا اشتباه و خطأ محض، لأن المؤمنين يؤمنون بوجود علة أولى تدرك بالعقل لا بالحس، و توصف بالحياة و العلم و القدرة و الحكمة و العدل، أما غيرهم فيقولون: انها ترى بالعين، و تلمس باليد، و انها عمياء صماء، فالفرق بين القولين أبعد مما بين الأرض و السماء.

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً سُبْحٰانَكَ فَقِنٰا عَذٰابَ النّٰارِ). المراد بالقيام و القعود و على جنوبهم انهم في طاعة اللّه أبدا و دائما، و المراد بالتفكر في خلق السموات و الأرض انهم عارفون باللّه سبحانه، أما تضرعهم اليه عز و جل ان يقيهم عذاب النار فدليل التقوى و الإيمان. قال الرازي:

«ان أصناف العبودية ثلاثة أقسام: التصديق بالقلب، و الإقرار باللسان، و العمل بالجوارح، فقوله تعالى: **(يَذْكُرُونَ اللهَ)** اشارة الى عبودية اللسان، و قوله: **(قِيٰاماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِهِمْ)** اشارة الى عبودية الجوارح و الأعضاء.

و قوله: (وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ) اشارة الى عبودية القلب و الفكر و الروح و الإنسان ليس إلا هذا المجموع، فإذا استغرق اللسان في الذكر، و الأعضاء في العمل، و الجنان في الفكر كان مستغرقا بجميع أعضائه في العبودية- ثم قال- فما أحسن هذا الترتيب في جذب الأرواح من الخلق الى الحق».

و ليس من شك ان ذكر اللّه، و الإيمان به، و التعبد له حسن .. و لكن أحسن من ذكره باللسان، و القيام له في الليل، و الصيام في النهار هو العمل من أجل الإنسان، و التضحية في سبيل الصالح العام .. و كل من طلب الكرامة عند اللّه دون هذه التضحية، مع القدرة عليها فقد طلب الثمين من غير ثمن.

و بمناسبة قوله تعالى: (رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً) نشير الى ان السنة قالوا:

لا يجوز تعليل أفعال اللّه بشيء من الأغراض و العلل الغائية، لأنه تعالى لا يجب

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٣٢

عليه شيء، و لا يقبح منه شيء. (المواقف ج ٨ ص ٢٠٢). و في كتاب المذاهب الاسلامية للشيخ أبي زهرة (فصل وحدانية التكوين: فقرة تعليل الأفعال) ما نصه بالحرف «قال الاشاعرة، أي السنة: «ان اللّه سبحانه و تعالى خلق الأشياء لا لعلة و لا لباعث».

و قال الشيعة: ان جميع أفعاله عز و جل معللة بمصالح تعود على الناس، أو تتعلق بنظام الكون، كما هو شأن العليم الحكيم .. و مما استدلوا به على ذلك هذه الآية: رَبَّنٰا مٰا خَلَقْتَ هٰذٰا بٰاطِلاً.

و يمكن الرد على السنة بأقوالهم و أفعالهم، لا بآية و لا برواية .. ذلك انهم يأخذون بالقياس و الاستحسان و المصلحة المرسلة القائمة على رعاية اللطف بالخلق و تحسين أحوالهم في معاشهم و معادهم، و يتخذون- من القياس و الاستحسان و المصلحة المرسلة- أصولا و مدارك للأحكام الشرعية الإلهية، كما انهم ألفوا كتبا خاصة في بيان حكمة اللّه في أوامره و نواهيه .. و لا معنى لهذا الا انه لا يأمر و لا ينهى الا لغرض صحيح، و علة حكيمة.

(رَبَّنٰا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّٰارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ). و نحن نطيعك رغبة في مرضاتك، و فرارا من هذا الخزي. و هكذا المؤمن الصادق يضع ثواب اللّه و عقابه نصب عينيه، فيطيع خوفا من هذا، و طمعا في ذاك. قال الإمام علي (ع) في وصف المؤمنين: «فهم و الجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، و هم و النار كمن قد رآها فهم فيها معذبون». أما من يعبد اللّه لذات اللّه، لا طمعا في جنته، و لا خوفا من ناره فهو رسول اللّه و تلميذه الإمام علي.

(وَ مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ أَنْصٰارٍ). كل من يناصر الباطل في هذه الحياة، و يتخاذل عن نصرة الحق، و لا ينصف الناس من نفسه فهو ظالم، و ما له يوم الحق و العدل من نصير .. و أبلغ موعظة في هذا الباب هي خطبة الرسول الأعظم (ص) حين شعر بدنو أجله الشريف، قال:

«قال: أيها الناس من جلدت له ظهرا فهذا ظهري، و من أخذت له مالا فهذا مالي، ليأخذه مني و لا يخش الشحناء من قبلي، فإنها ليست من شأني، الا و ان أحبكم إليّ من أخذ مني حقا ان كان له، أو حللني منه، فلقيت ربي

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٣٣

طيب النفس». و تمام القصة عند تفسير الآية ١٦٠ من هذه السورة فقرة:

«محمد و مكارم الأخلاق».

(رَبَّنٰا إِنَّنٰا سَمِعْنٰا مُنٰادِياً يُنٰادِي لِلْإِيمٰانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنّٰا). هذا هو شأن من طلب الحق لوجه الحق، يفتح قلبه

لدعوته، و يستجيب اليها بمجرد سماعها، أيا كان الداعي، فكيف إذا كان سيد الرسل، و خاتم النبيين؟.

(فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى).

فالعبرة بالعمل، لا بنسب العامل و عنصره، و لا برجولته و أنوثته، فالكل سواء في الإنسانية عند الإسلام، و هذا تقرير لحق المرأة و كرامتها. **(بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)**.

فالرجل أبو المرأة، و المرأة أم الرجل، و كل منهما أخ و زوج للآخر، و الجميع من أصل واحد، كلكم من آدم، و آدم من تراب، و في الحديث: «النساء شقائق الرجال». و سبق الكلام عن المرأة في الآية ٢٢٨ من سورة البقرة.

(فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ اللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ). بعد ان ربط سبحانه الجزاء بالعمل الصالح، لا بالعنصر و لا (بالجنس الخشن أو اللطيف) بعد هذا بيّن ان الأعمال التي يضاعف الثواب عليها هي:

١- خروج المؤمن مختارا من وطنه الذي لا يمكن اقامة دينه فيه الى بلد يمكن فيه ذلك، و من أجل هذه الآية، و الآية ٩٧ من سورة النساء: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً».

من أجل هاتين الآيتين أفتى الفقهاء بتحريم المقام على المستضعف في بلد الكفر الذي لا يستطيع فيه أداء الفرائض، و شعائر الإسلام، و أوجبوا عليه الهجرة و الرحيل الى بلد مسلم يؤدي فيه ما أوجبه اللّه عليه إلا إذا عجز، و لم يتمكن من الهجرة.

و من المؤسف ان بعض الأغنياء من شبابنا المسلم في هذا العصر يشدون الرحال الى أمريكا و أوروبا لا لشيء إلا للفسق و الفجور، و الزنا و الخمور.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٣٤

٢- إخراج المؤمنين قهرا من ديارهم، كما فعل مشركو قريش بمن آمن بمحمد (ص)، و كما فعلت إسرائيل ربيبة الاستعمار بأهل فلسطين.

٣- الإيذاء في سبيل الحق .. و ما من أحد اتبع الحق إلا أوذي من أجله ..

و جاء في الحديث، يبتلى الرجل على حسب دينه، فان كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه، و ان كان في دينه رقيقا ابتلي على قدر دينه، و لا شيء أعظم أجرا عند اللّه من احتمال الأذى في دين اللّه و الصبر عليه .. اللهم اجعلنا من الصابرين.

٤- التضحية في النفس في سبيل الحق.

كل هؤلاء يمحو اللّه سيئاتهم، و فوق ذلك يثيبهم ثوابا يليق بجلاله و عظمته ..

و تكرار لفظ الثواب و الجلالة **(ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ اللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ)** إيماء الى ان ثوابه ليس كمثله ثواب، كما انه جل و علا ليس كمثله شيء.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٩٦ الى ١٩٨]

لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (١٩٧) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ (١٩٨)

اللغة:

المتاع ما يتمتع به الإنسان في العاجل، و المهاد المكان الممهد كالفراش، و النزل ما يهيئ للنازل.

الإعراب:

متاع خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك التقلب متاع قليل، و خالدين حال من الضمير في لهم، و نزلا حال من جنات، أو مفعول مطلق، أي أنزلوها نزلا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٣٥

المعنى:

و معنى مفردات الآيات الثلاث واضح، و المهم بيان المقصود من مجموعها ..

و قال كثير من المفسرين في شرحها ما يتلخص بأن الكافر يعيش في هذه الحياة في رخاء و لين، و لكن مصيره الى وبال و شقاء، و المؤمن يعيش في شك و ضيق و عاقبته السعادة و الهناء. و بكلمة ان الدنيا سجن المؤمن، و جنة الكافر، و الآخرة بالعكس.

و الذي نفهمه نحن من هذه الآيات انها تعرضت للمقارنة بين الذين يؤثرون دنياهم على دينهم، و لا يعملون إلا بوحي من مصالحهم الشخصية، كاليهود و من على شاكلتهم، و بين الذين يؤثرون الدين على الدنيا مهما تكن النتائج، و عبر عن الفريق الأول بالذين كفروا، لأنهم يكفرون بالحق، و لا يقيمون له وزنا، و عبر عن الفريق الثاني بالذين اتقوا ربهم، لأنهم تجنبوا سخطه و معصيته ..

و ليس من شك ان من عمل للدنيا، و جعلها كل همه، و استباح من أجلها المحرمات يجتمع في يده الكثير من حطامها، كما نشاهد ذلك بالفعل، على العكس ممن زهد في الحرام، و آثر عليه الجوع و الحرمان.

و المراد بتقلب الفريق الأول في البلاد تنعمهم فيما انتهبوا من خيراتها و مقدراتها.

و قد يتوهم و يظن ان مظاهر النعمة و الترف على أهل الباطل خير لهم و كرامة، و ان مظاهر الشظف و الحرمان على أهل الحق شر و مهانة، فدفع اللّه هذا التوهم بأن العكس هو الصحيح، فان نعمة المبطلين متاع قليل، ثم الى جهنم و بئس المصير، و ان بؤس المحقين الى زوال، ثم الى نعيم دائم، و راحة أبدية.

[سورة آل‌عمران (٣): الآيات ١٩٩ الى ٢٠٠]

وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (١٩٩) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٣٦

اللغة:

الخشوع الخضوع. و قيل: الصبر و المصابرة بمعنى واحد، و قيل: الصبر ضبط النفس على مكروه لا يد فيه للغير، كالمرض، و المصابرة تحمل الأذى من الغير .. و الرباط الاستعداد لجهاد العدو.

الإعراب:

خاشعين حال من الضمير في يؤمن، لأنه يعود الى من، و هي بمعنى الجمع.

و جملة لا يشترون حال أيضا. و عند ربهم حال من الضمير في لهم، و يجوز أن تتعلق عند بأجرهم.

المعنى:

(وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ). المراد بما انزل إليكم القرآن، و بما انزل اليهم التوراة و الإنجيل.

و تشمل الآية كل من آمن و يؤمن بمحمد (ص) من أهل الكتاب، و ليست خاصة بالنجاشي، أو بعبد اللّه بن سلام كما قيل، لأن اللفظ عام، و لا دليل على التخصيص، و إذا كان اللّه سبحانه يتقبل الإيمان بمحمد (ص) ممن لم يؤمن باللّه و لا بكتاب فبالأولى أن يتقبل هذا الإيمان من أهل التوراة و الإنجيل، بخاصة بعد أن تركوا دينهم و أصعب شيء على الإنسان أن يترك ما ألف و ورث من دين.

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

ختم اللّه سبحانه سورة آل عمران بهذه الآية التي جمعت بين الأمر بتقوى اللّه، و الأمر بجهاد أعدائه. و سبق الكلام في الصبر مفصلا عند تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة: فقرة «الصبر»، و فقرة «أنواع أجر الصابرين».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٣٧

التقوى:

و نختم هذه السورة الكريمة بكلمة موجزة عن التقوى. سئل الإمام جعفر الصادق (ع) عن التقوى؟ فقال: ان لا يفقدك اللّه حيث أمرك، و لا يجدك حيث نهاك .. اذن لا بد في التقوى من العلم بأحكام اللّه، و العمل بها لوجه اللّه، لأن العلم بلا عمل حجة على صاحبه، و العمل بلا علم كالسير على غير الطريق، و على هذا الأساس تكون التقوى هي الدين و الأخلاق، و أساس الفضائل .. قال رسول اللّه (ص): «لا تقولوا: ان محمدا منا، فواللّه ما أوليائي منكم و لا من غيركم إلا المتقون». و قوله (ص): و لا من غيركم يشعر بأن غير المسلم إذا سلم الناس من يده و لسانه أقرب الى محمد (ص) ممن انتسب الى الإسلام، و لم يكف أذاه عن الناس.

و جاء في القرآن الكريم العديد من الآيات في ان الفوز و النجاة غدا للمتقين وحدهم .. و في الأساطير حكاية تومئ إلى هذه الحقيقة، و هي ان رجلا كان في قديم الزمان يكثر من قول: الحمد للّه رب العالمين، و العاقبة للمتقين ..

فاغتاظ إبليس من ذلك، و أرسل اليه بعض شياطينه، فذهب اليه، و قال له:

قل: العاقبة للأغنياء. فقال: الرجل: كلا، العاقبة للمتقين. و لما كثر بينهما الجدال اتفقا على أن يتحاكما إلى أول من يطلع عليهما، و من حكم عليه تقطع يده. فلقيا شخصا، فأخبراه. فقال: العاقبة للأغنياء، لا للمتقين. فقطعت يد الرجل، فرجع، و هو يكرر القول: الحمد للّه رب العالمين، و العاقبة للمتقين.

فجاء الشيطان ثانية، و قال له: ألم تتعظ؟ قال: كلا، قال الشيطان:

أحاكمك على اليد الأخرى. قال: أجل، فطلع شخص، و تحاكما اليه، فحكم ان العاقبة للأغنياء لا للمتقين. فقطعت يده الثانية. و عاد يكرر أكثر من الأول:

الحمد للّه رب العالمين، و العاقبة للمتقين .. و حينئذ قال له الشيطان: أحاكمك الآن على ضرب العنق. قال الرجل: نعم. و إذا بفارس مقبل، فتحاكما اليه، بعد ان قصا عليه القصة. فأخذ السيف، و قطع عنق الشيطان، و قال له: هذه عاقبة المفسدين. و أعاد اللّه للرجل يديه كما كانتا .. و تحقق ما قال من أن العاقبة للمتقين، و لكن بعد الصبر، و قطع اليمين و اليسار .. و محال ان يصل الإنسان الى ما يبتغي الا بالصبر و تحمل المشاق.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٣٩

سورة النّساء

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٤١

سورة النّساء مدنية، و آياتها ١٧٦، نزلت بعد الممتحنة، و نقل صاحب مجمع البيان قولا ان فيها آيتين نزلتا بمكة، و هما: الآية ان اللّه يأمركم ان تؤدوا الأمانات الخ.

و الآية: وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ. و سميت سورة النساء، لأنها افتتحت بذكرهن، و فيها أحكام كثيرة تتعلق بهن.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

[سورة النساء (٤): آية ١]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا وَ بَثَّ مِنْهُمٰا رِجٰالاً كَثِيراً وَ نِسٰاءً وَ اتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسٰائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحٰامَ إِنَّ اللهَ كٰانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١)

اللغة:

الزوج يطلق على كل واحد معه آخر من جنسه، فالمرأة المتزوجة زوج، و الرجل المتزوج زوج، و هما زوجان و البث النشر، و منه قولهم: كالفراش المبثوث.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٤٢

الإعراب:

الأرحام منصوب عطفا على لفظ الجلالة، أي اتقوا اللّه، و قطع الأرحام.

المعنى:

في هذه الآية أمور نبينها فيما يلي:

١- **(يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)**. قيل: يا أيها الناس خطاب لأهل مكة. و الصحيح انه عام لجميع المكلفين، لأن ظاهر اللفظ يشمل الكل، و لا دليل على التخصيص، بل الأمر بالتقوى يؤكد الشمول و العموم، لأن وجوب اتقاء المعاصي لا يختص بفئة دون فئة.

٢- **(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ)**. نقل صاحب تفسير المنار عن استاذه الشيخ محمد عبده ان اللّه تعالى «قد أبهم أمر النفس التي خلق الناس منها، و جاء بها نكرة، فندعها نحن على إبهامها .. و ما ورد في آيات أخرى من مخاطبة الناس

بقوله: (يٰا بَنِي آدَمَ) لا ينافي هذا- أي لا يرفع الإبهام- و لا يعد نصا قاطعا في كون جميع البشر من أبناء آدم، إذ يكفي في صحة الخطاب أن يكون من وجّه اليهم الخطاب في زمن التنزيل هم من أولاد آدم، و قد تقدم في تفسير قصة آدم في أوائل سورة البقرة انه كان في الأرض قبله نوع من هذا الجنس فسدوا فيها، و سفكوا الدماء».

و يتلخص ما أراده الشيخ عبده ان القرآن لا يثبت و لا ينفي ان آدم أب لجميع البشر، بل من الجائز أن يكون للبشر العديد من الآباء، و آدم واحد منهم، أما قوله تعالى: (يٰا بَنِي آدَمَ) فإنه ان دل على شيء فإنما يدل على ان الذين خوطبوا بذلك في عهد محمد (ص) كانوا أولادا لآدم، و لا يدل على ان كل من كان و يكون من البشر هو من نسل آدم، بل يجوز أن يكون له أب غير آدم.

هذا ملخص ما أراده الشيخ.

و نجيبه أولا بأن الأوامر و النواهي الواردة في الكتاب و السنة لا تختص بمن وجد حال الخطاب، بل تشمل كل من وجد و يوجد إلى آخر يوم، لأنها من القضايا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٤٣

التشريعية التي تعم الحاضرين و الغائبين من وجد منهم و من يوجد من غير تفاوت، تماما مثل من بلغ عشرين عاما فعليه كذا، و من هذا الباب قوله تعالى: «أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِي هٰذٰا صِرٰاطٌ مُسْتَقِيمٌ- ٦٠ يس». فإنه موجه لجميع الناس دون استثناء، سواء أ كانوا في زمن الخطاب، أم لم يكونوا.

ثانيا: ان الأوامر و النواهي في الكتاب و السنة التي خوطب بها بنو آدم، لو كانت موجهة لخصوص من كانوا في عهد الرسول (ص) لما كنا نحن مكلفين بها، و لما صح لنا الاستدلال بشيء منها على حكم من أحكام اللّه، مع ان جميع المسلمين، و منهم الشيخ عبده يحتجون بالقرآن و سنة الرسول (ص)، بل هما المصدر الأول للعقيدة و الشريعة الإسلامية بضرورة الدين.

و إذا كان التكليف الموجه لبني آدم شاملا لجميع البشر فالجميع يكونون، و الحال هذه، نسلا لآدم دون استثناء، و عليه تكون الآية ٦٠ من يس، و الآية ٢٧ من الأعراف: «يٰا بَنِي آدَمَ لاٰ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطٰانُ». و الآية ١٧١ من الأعراف: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ». و الآية ٧٠ من الاسراء: «وَ لَقَدْ كَرَّمْنٰا بَنِي آدَمَ»، تكون هذه الآيات بيانا و تفسيرا للنفس الواحدة في قوله تعالى: **(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ)** و ان المراد منها هو أبونا آدم دون لبس و اشتباه بغيره.

أما قول الشيخ محمد عبده: كان قبل آدم نوع من هذا الجنس فأجنبيّ عما نحن فيه، لأن الكلام في الجنس الباقي، لا في الجنس البائد.

هذا، إلى ان اللّه سبحانه خاطبنا بقوله: (يٰا بَنِي آدَمَ) و أيضا خاطبنا بقوله:

(فَإِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ تُرٰابٍ- ٥ الحج). و أيضا قال: (إِنَّ مَثَلَ عِيسىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ) فإذا عطفنا هذه الآيات بعضها على بعض تكون النتيجة: «كلكم لآدم، و آدم من تراب» كما جاء في الحديث الشريف.

ثالثا: لقد ثبت عن رسول اللّه (ص) انه قال: أنا سيد ولد آدم. فهل لمسلم- السؤال موجه للشيخ عبده- أن يظن أو يحتمل ان الرسول (ص) أراد نوعا خاصا من البشر، لا كل البشر؟.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٤٤

٣- **(وَ خَلَقَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا)**. قيل: ان من في (منها) للتبعيض، و ان المراد بزوجها حواء، و ان اللّه تعالى خلقها من ضلع

آدم، و قيل: بل خلقها من فضل طينته كما في بعض الروايات.

و يلاحظ بأنه لا دليل على ان من في (منها) للتبعيض، بل يجوز أن تكون للبيان، مثل قوله تعالى: «وَ مِنْ آياٰتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواٰجاً- ٢٠ الروم»، و عليه يكون المعنى ان كلا من النفس الواحدة و زوجها خلق من أصل واحد، و هذا الأصل هو التراب، لقوله تعالى: «وَ مِنْ آياٰتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُراٰبٍ ثُمَّ إِذاٰ أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ- ١٩ الروم».

أما قول من قال: ان المراد بزوجها حواء فلا دليل عليه من القرآن، حيث لم يرد لها ذكر فيه على الإطلاق.

٤- **(وَ بَثَّ مِنْهُمٰا رِجٰالاً كَثِيراً وَ نِسٰاءً)**. أي و نساء كثيرا، فحذف الوصف من الثاني لدلالة الأول عليه، و من الطريف قول الرازي: ان وصف الرجال بالكثير، دون النساء للتنبيه على ان اللائق بحال الرجال الاشتهار و البروز، و اللائق بحال النساء الخفاء و الخمول ..

و ان دل هذا التعليل على شيء فإنما يدل على ان الرازي حكم على طبيعة المرأة بما تستدعيه تقاليد المجتمع الذي تعيش فيه .. و بديهة ان هذه التقاليد تتغير و تتحول بحسب مقتضيات الزمن، فمن الخطأ أن نأخذ منها مقياسا عاما، و قاعدة مطردة.

و مهما يكن، فإن المعنى واضح، و هو ان البشر متوالد من زوجين ذكر و أنثى، و منهما انتشرت الملايين جيلا بعد جيل، و يقال: ان في العالم الآن ما يزيد على ثلاثة آلاف من الملايين.

٥- **(وَ اتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسٰائَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحٰامَ)**. هذا اشارة ما يقوله بعضنا إلى بعض: سألتك باللّه أن تفعل كذا. أو سألتك بالرحم أن تفعل كذا.

أي سألتك بحق اللّه العظيم عليك، و حق الرحم العزيز عليك، و الغرض من الأمر بتقوى اللّه و الرحم أن نؤدي ما لهما علينا من حق، فالآية أشبه بقوله تعالى:

«أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوٰالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ- ١٤ لقمان».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٤٥

و الخلاصة ان اللّه سبحانه أمرنا في هذه الآية أن نتقي غضبه و عذابه، و ان نحسن إلى الأرحام، و ان لا يعلو بعضنا على بعض، و لا يظلم أحد أحدا، لأن الجميع من أصل واحد، و ختم ذلك بقوله: **(إِنَّ اللهَ كٰانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)**.

و هو تهديد و وعيد لمن عصى و تمرد.

[سورة النساء (٤): آية ٢]

وَ آتُوا الْيَتٰامىٰ أَمْوٰالَهُمْ وَ لاٰ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَهُمْ إِلىٰ أَمْوٰالِكُمْ إِنَّهُ كٰانَ حُوباً كَبِيراً (٢)

أموال اليتامى الآية

اللغة:

المراد بالخبيث هنا الحرام، و بالطيب الحلال. و الحوب الذنب و الإثم.

الإعراب:

الباء في (بالطيب) للبدلية، و تدخل على المبدل منه، و هو خير من البدل في مقام النهي، كما في هذه الآية، و في قوله تعالى: (أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ). و قوله: (وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمٰانِ). أما في غير النهي مثل بدّلت

هذا بهذا فليس بشرط أن يكون المبدل منه أفضل- على ما نرى- و الضمير في (انه) يعود إلى الأكل، و هو مصدر متصيد من لا تأكلوا.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٤٦

المعنى:

(وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ). لا بد لليتيم من عاقل أمين يرعاه في تربيته، و يدبر أمواله لمصلحته إلى أن يصبح أهلا للاستقلال في نفسه، و معرفة ما يصلحها و يفسدها، و هذه الآية تتعلق بأموال الأيتام، فتأمر أوصياءهم أن يحافظوا عليها، و لا يتعرضوا لها بسوء، و أن يوصلوها اليهم بالإنفاق عليهم ما داموا صغارا، و يسلموها لهم عند البلوغ و الاستقلال.

(وَ لا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ). المراد بالخبيث هنا المال الحرام، و بالطيب المال الحلال، و المعنى لا تأكلوا و تتمتعوا بأموال اليتيم، و تحتفظوا بأموالكم، و إذا فعلتم ذلك فقد استبدلتم الخبيث الذي حرمه عليكم من أموال اليتامى بالطيب الذي أحله اللّه لكم من أموالكم .. فهو نظير قوله تعالى: (أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ- ٦١ البقرة).

(وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً). المراد بلا تأكلوا هنا لا تتصرفوا، و المعنى لا تتسلطوا على أموال اليتامى بالأكل و الانتفاع، كما تفعلون في أموالكم، لأن مهمتكم تنحصر في حدود صيانتها، و استثمارها لصالح الأيتام، فإذا تجاوزتم هذه الحدود كنتم آثمين مجرمين.

[سورة النساء (٤): الآيات ٣ الى ٤]

وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ذلِكَ أَدْنى أَلاَّ تَعُولُوا (٣) وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (٤)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٤٧

اللغة:

القسط فعله قسط، و معناه الجور، و منه قوله تعالى: «وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً». و الاقساط فعله أقسط و معناه العدل، و هو المراد هنا.

و ان لا تعولوا تأتي بمعنى لا تميلوا، يقال: عال الميزان إذا مال، و عال الحاكم إذا جار، و تأتي بمعنى أعال الرجل إذا كثر عياله. و النحلة لغة العطية، و لكن المراد بها هنا الفريضة بالنظر إلى انه تعالى أوجبها على الزوج. و هنأ الطعام و مرأ إذا كان سائغا لا تنغيص فيه.

الإعراب:

ما في قوله تعالى **(ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ)** اسم موصول، و المراد بها النساء بالذات، كما هو صريح الآية، و قد حار المفسرون في معناها، فمنهم من فسرها بجنس النسوة، و منهم بوصفهن، و منهم بالشيء، و السر لحيرتهم قول النحاة: ان ما للذي لا يعقل، و من للذي يعقل، و بديهة ان القرآن حجة على النحاة، و ليسوا هم حجة على القرآن، و أطلق القرآن لفظة ما على من يعقل في كثير من الآيات، من ذلك: (وَ السَّماءِ وَ ما بَناها). (وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ). **(أَوْ ما مَلَكَتْ**

أَيْمانُكُمْ). كما أطلق من على الذي لا يعقل:

(فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِه).

أجل، الأغلب أن تطلق ما على الذي لا يعقل، و من على الذي يعقل.

و لكن الأغلب شيء، و عدم الجواز إطلاقا شيء آخر. و مثنى و ثلاث و رباع حال من فاعل طاب، و هذه الألفاظ معدولة عن أعداد مكررة، و هي اثنين اثنين، و ثلاثا ثلاثا، و أربعا أربعا، و لم يسمع فيما زاد على هذه الأعداد مثل خماس و مخمس. و المعنى المراد بلحاظ العطف بالواو لا بأو هو ان لكل واحد ان يختار أي عدد شاء من هذه الأعداد المذكورة، و لو كان العطف بأو لكان المعنى ان للبعض ان يختار اثنتين لا أكثر، و للآخر أن يختار ثلاثا فقط، و لثالث أن يختار أربعا. و واحدة بالنصب مفعول لفعل محذوف، أي فاختاروا واحدة.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٤٨

و نحلة منصوب على المصدر، و يجوز أن تكون حالا من الصدقات، أي حال كونها نحلة. و الضمير في منه يعود إلى الصدقات بالنظر إلى المعنى، لأن معناها المهر. و نفسا تمييز. و هنيئا مريئا صفة لمفعول مطلق محذوف، أي أكلا هنيئا مريئا.

المعنى:

(وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ). ان مبدأ تعدد الزوجات الى أربع مبدأ مقرر في الشريعة بحكم الكتاب و السنة، و الإجماع قولا و عملا، بل هذا المبدأ معلوم بضرورة الدين، و لكنه غير مباح اباحة مطلقة، بل مقيد بشرط يبرره بضرورة الدين أيضا.

و هنا سؤال يفرض نفسه، و هو إن المعنى الظاهر من هذه الآية ان من خاف منكم ان لا يعدل في اليتامى فليتزوج اثنتين و ثلاثا و أربعا، و متى فعل ذلك لا يبقى ظلم و لا جور .. و ليس من شك ان هذا المعنى لو كان مرادا لكان أشبه بالهذيان، إذ لا ربط بين فعل الشرط و جوابه .. حاشا القرآن الكريم الذي فصلت آياته من لدن عليم حكيم؟!.

و الجواب عن هذا السؤال واضح و بسيط، و لكن اختلاف أجوبة المفسرين و تضاربها ترك القارئ في حيرة لا يهتدي الى شيء .. و يتلخص الجواب بأن الكلام منذ بدايته موجه الى أوصياء اليتامى، و هم المقصودون بالخطاب في قوله تعالى: (وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ). (وَ لا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ). (وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ). و بعد هذه الخطابات المتعلقة بأموال اليتامى خاطب اللّه سبحانه الأوصياء بخطاب آخر يتعلق بنكاح اليتيمات، و هو (وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى) الخ أي في نكاح اليتامى، فحذف لفظ نكاح لدلالة فانكحوا عليه، من باب حذف الأول لدلالة الثاني، على حد تعبير النحاة، و يكون تقدير الكلام هكذا:

هذا فيما يعود إلى أموال اليتامى، أما فيما يعود إلى نكاح الإناث منهم فعليكم أيها الأوصياء ان تزوجتم بهن ان لا تقصروا في حقوقهن، و ان خفتم التقصير و عدم العدل في معاملتهن بالنظر الى انهن وحيدات لا أحد يدافع عنهن فاتركوهن،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٤٩

و تزوجوا من غيرهن فقد جعل اللّه لكم مندوحة عن اليتيمات بما أباحه لكم من التزويج بغيرهن واحدة أو اثنتين أو ثلاثا أو أربعا .. و لكن أيضا على أساس العدل، فإن خفتم أن لا تعدلوا مع التعدد فاقتصروا على الواحدة، و بهذا يتم الربط بين فعل الشرط و جوابه، تماما كما تقول لجليسك: إذا كنت لا تأكل من هذا الصنف لأنك تكثر منه، و تخاف

من داء التخمة فكل من الأصناف الأخر، و لكن على أساس عدم الإكثار منها، و الا وقعت في المحذور نفسه.

و كل كلمة قدرناها لهذا المعنى الذي ذكرناه فإن السياق يدل عليها، و المألوف من طريقة القرآن انه يوجز الكلام الى أقصى حد، و يحذف منه كل ما يمكن أن يستحضره السامع و القارئ من الاشارة و الإيماء، و ان دلت حيرة المفسرين على شيء فإنما تدل على ان هذه الآية هي أبلغ آية في الإيجاز.

(فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَةً). المراد بالعدل التسوية في الملبس و المسكن و نحو ذلك مما يدخل تحت طاقة الإنسان، أما ما لا يدخل في وسعه من ميل القلب الى واحدة دون أخرى فلا يكلف الإنسان بالعدل فيه، و بهذا نجد الفرق بين قوله تعالى: **(فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوٰاحِدَةً)** و بين قوله: (وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسٰاءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ- ١٢٨ النساء). فالمراد بالعدل الأول التسوية في الإنفاق، و بالعدل الثاني ميل القلب.

و تسأل: ان اللّه سبحانه قد أوجب الاقتصار على الواحدة مع خوف الرجل من الجور إذا عدد .. و بديهة ان الخوف حالة نفسية ذاتية تخطئ أكثر مما تصيب، و قد شاهدنا الكثير من الرجال تطغى عليهم شهواتهم و رغبتهم في تعدد الزوجات، فتعميهم عن تقدير ظروفهم، و تدبر قدرتهم، و على هذا لا يكون للشرط مقياس صحيح، و ضابط مطرد؟.

الجواب: ان هذا الاشكال لا مفر منه، إذا أردنا من الخوف الحالة النفسية، أما إذا أردنا منه ظروف الرجل المادية و الصحية، و انها تتحمل أكثر من زوجة واحدة، أما إذا أردنا هذا فالسؤال غير وارد من الأساس، لأن الأشياء المحسوسة يمكن ضبطها بسهولة .. و لا شيء في الشريعة الإسلامية يمنع أن يعهد بتقدير ظروف الرجل الذي يريد التعدد الى هيئة خاصة، كما هي الحال الآن في بعض الأقطار الإسلامية.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٥٠

(ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَلَّا تَعُولُوا). أي ان الاقتصار على الواحدة اقرب الى العدل، و أبعد عن الجور و الظلم، و في هذا إيماء الى ان على الرجل أن يكتفي بواحدة، لأن في التعدد مفاسد .. و جاء في تفسير البيضاوي ان البعض فسر لا **(تَعُولُوا)** بكثرة العيال من عال الرجل إذا كثر عياله، و على هذا يكون معنى الآية ان الأفضل ان لا يعدد الرجل زوجاته، كيلا يتحمل من أجلهن و أجل أولادهن المشاق و المتاعب، و قال صاحب المنار: «هذا هو الأرجح» .. و قال الإمام علي (ع): قلة العيال احدى اليسارين.

(وَ آتُوا النِّسٰاءَ صَدُقٰاتِهِنَّ نِحْلَةً). الصدقات المهور، و المراد بالنحلة هنا العطية التي فرضها اللّه على الزوج، و المعنى اعطوا النساء مهورهن، لأن اللّه سبحانه قد فرضها عليكم أيها الأزواج عطية منه للزوجات، لا عوضا عن الاستمتاع، لأنه مشترك بين الزوجين.

(فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً). تملك الزوجة المهر، و تتسلط عليه تسلط المالك على أملاكه، و لا يجوز معارضتها فيه، زوجا كان أو أجنبيا. (وَ آتَيْتُمْ إِحْدٰاهُنَّ قِنْطٰاراً فَلاٰ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً). إلا إذا أذنت و رخصت، تماما كغيرها من الملاك.

تعدد الزوجات:

شرع الإسلام تعدد الزوجات، على شرط، ما في ذلك ريب .. و ليس هذا المبدأ من حيث هو محلا للنظر و الاجتهاد، و لكن باب النظر و الاجتهاد مفتوح في تفسير الشرط المبرر للتعدد، فللمجتهد أن يقول: ان المراد من الخوف مجرد توقع الرجل أن يجور و لا يعدل بين الزوجات، و عليه ينسد باب التعدد إلا فيما ندر، لأن هذا التوقع قائم بالنسبة إلى الأكثرية

الغالبة .. و يؤكده ما نراه من الفساد في أكثر البيوتات التي فيها أكثر من زوجة.

و قد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: **(ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَلاَّ تَعُولُوا)** أي الاقتصار على الواحدة أقرب إلى العدل، و أبعد عن الجور، إذن، فتعليق جواز

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٥١

التعدد على الأمن من الجور و الفساد أشبه بالتعليق على المحال بالنسبة إلى الأعم الأغلب.

و الغريب ان الذين يتوقع منهم العدل بين الزوجات، و تساعدهم الظروف المادية و الصحية- يحجمون عن التعدد، و يهابونه على الرغم من رغبتهم فيه، و ميلهم اليه، أما الذين لا يتوقع العدل منهم بحال، و يفسدون المجتمع بنسلهم و تعدد زوجاتهم، أما هؤلاء فيقدمون على تعدد الزوجات بكل جرأة .. و من المؤسف ان علماء الدين و قادته يجرون عقود الزواج لهؤلاء، بلا توقف، و دون سؤال و جواب، حتى كأن التعدد مباح اباحة مطلقة دون قيد أو شرط.

و بعد، فإن تعدد الزوجات ليس من الواجبات و لا المستحبات في الشريعة الإسلامية، و إنما شرعه الإسلام ضمن نطاق خاص، و لمصلحة خاصة، و لكن أعداء الدين اتخذوا من عمل الذواقين الذين لم يراعوا الشرط المبرر، اتخذوا منه وسيلة للطعن و التشهير برسالة الإسلام و صاحبها، كما هو شأنهم و ديدنهم في الاحتجاج بعمل الأفراد على الدين و العقيدة، و لو أنصفوا لعكسوا، و احتجوا بالدين على الأفراد و الأتباع.

و إذ اشترط الإسلام على الرجل أن لا يتزوج باثنتين إلا مع أمنه من الفساد و الجوار فإن بعض النساء في بلاد أوروبا و أمريكا تتصل أحيانا- و ربما على علم من زوجها- بمن تشاء من الرجال- دون قيد أو شرط .. ان صح أخذ القيد و الشرط في مثل ذلك .. و فوق هذا أقر مجلس العموم البريطاني في العام الماضي شرعية اللواط، و وافقت عليه بعض المراجع الدينية، و عمت البلاد الفرحة لهذه البادرة «الطيبة» و السبق في ميدان الحضارة و الانسانية و التشريع الحديث.

و من غرائب نظم الزواج ان في جنوب الهند، و على حدوده الشمالية يباح للمرأة أن تتزوج بأكثر من رجل، و لا يزال هذا النظام متبعا حتى اليوم.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٥٢

[سورة النساء (٤): الآيات ٥ الى ٦]

وَ لاٰ تُؤْتُوا السُّفَهٰاءَ أَمْوٰالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّٰهُ لَكُمْ قِيٰاماً وَ ارْزُقُوهُمْ فِيهٰا وَ اكْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٥) وَ ابْتَلُوا الْيَتٰامىٰ حَتّٰى إِذٰا بَلَغُوا النِّكٰاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوٰالَهُمْ وَ لاٰ تَأْكُلُوهٰا إِسْرٰافاً وَ بِدٰاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَ مَنْ كٰانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كٰانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذٰا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوٰالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ حَسِيباً (٦)

اللغة:

السفهاء جمع سفيه، و هو المبذر الذي ينفق المال في غير وجهه. و المراد بالقيام هنا قوام الشيء و عماده. و الابتلاء الاختبار. و الإيناس الأبصار، مأخوذ من انسان العين، أي حدقتها التي تبصر بها، و منه قوله تعالى: (آنَسَ مِنْ جٰانِبِ الطُّورِ نٰاراً) و المراد بالرشد هنا التصرف في المال فيما ينبغي على العكس من معنى السفه. و الإسراف مجاوزة الحد في التصرف في المال، و السرف الخطأ، قال الشاعر: «ما في عطائهم من و لا سرف». أي يصيبون في عطائهم من هو أهل له. و البدار المبادرة و المسارعة. و الحسيب الرقيب.

الإعراب:

التي عطف بيان من الأموال، لفظها مفرد، و معناها الجمع، و عن الفراء

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٥٣

أن العرب يقولون: في النساء اللاتي أكثر من التي، و في الأموال التي أكثر من اللاتي، و كلاهما في كلتيهما جائز. و قياما مفعول جعل. و إسرافا و بدارا نصب على انهما حال، أي مسرفين و مبادرين، أو مفعول من أجله. و المصدر المنسبك من أن يكبروا مفعول بدارا. و بالمعروف متعلق بيأكل، و قيل بمحذوف حال. و باللّه الباء مزيدة. و لفظ الجلالة فاعل، و حسيبا حال أو تمييز.

المعنى:

(وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ). قيل: هذا خطاب موجه لكل من في يده مال، و انه مأمور ان لا يمكّن منه من يصرفه في غير وجهه، و يضعه في غير محله، سواء أ كان المبذر ولدا أو زوجة لمن في يده المال، أو داخلا في وصايته، أو أجنبيا عنه. و قيل: بل الخطاب موجه للآباء فقط، و ان اللّه سبحانه نهاهم ان يعمدوا الى ما خوّله لهم من مال، فيملكونه أولادهم العاقين، و عند الشيخوخة ينظرون اليها بحسرة و ندامة لحاجتهم اليها، و عقوق أولادهم السفهاء.

و الصحيح ان الخطاب موجه لخصوص الأولياء، و المعنى يا أيها الأولياء لا تسلطوا السفهاء الذين تحت ولايتكم على أموالهم .. و يدل على ذلك قوله تعالى:

(وَ ارْزُقُوهُمْ فِيها وَ اكْسُوهُمْ) فإنه خطاب لخصوص الأولياء .. هذا، الى أن الآيات السابقة خطاب لهم خاصة، فيحسن تعلق هذه بتلك.

و السفيه هو المبذر الذي يسيء التصرف في المال، فيمنع من التصرف فيه الا إذا اذن له الولي، و له تمام الحرية في التصرفات التي لا تتصل بالمال من قريب أو بعيد. و تكلمنا عن أحكام السفيه مفصلا في الجزء الخامس من فقه الإمام جعفر الصادق: باب الحجر.

و نقول: لو كان الخطاب موجها لخصوص الأولياء الناظرين في أموال السفهاء لوجب ان يقول أموالهم، لا أموالكم؟.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٥٤

الجواب: ان اللّه سبحانه أضاف أموال السفهاء إلى الأولياء بالنظر إلى انها تحت ولايتهم، و معلوم ان الاضافة تصح لأدنى مناسبة.

الايمان باللّه و مشكلة العيش:

(أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً). قال الرازي: «معناه انه لا يحصل قيامكم و معاشكم إلا بالمال، فلما كان المال سببا للقيام و الاستقلال سماه اللّه بالقيام إطلاقا لاسم المسبب على السبب» يريد بالسبب المال، و بالمسبب المعاش.

و من تتبع الآيات القرآنية، و الأحاديث النبوية يجد ان الإسلام قد أولى المال و توجيهه لتحسين المعاش عناية كبرى، بل ساوى بينه و بين النفس في العديد من الآيات، منها قوله تعالى: «إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ- ١١١ التوبة» .. فاللّه سبحانه يبيع جنته بالمال الذي ينفق في سبيله، تماما كالتاجر يبيع سلعته بالمال الذي ينفق لمصلحته. و منها قوله جل و علا: «فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ- ٩٤ النساء». و في الحديث:

«ان دماءكم و أموالكم و أعراضكم حرام عليكم». و من هنا قال الفقهاء:

الأصل في كل شيء الحل إلا في الدماء و الفروج و الأموال، فإن الأصل فيها التحريم.

و أطلق القرآن لفظ الخير على المال في كثير من الآيات، منها: «و انه لحب الخير لشديد» بل قال بعض المفسرين: ان لفظ الخير لم يطلق في القرآن إلا على المال .. و نحن لا نوافق على هذا الرأي، و لكنا نعلم بأن أكثر الآيات التي أمرت بالعمل الصالح، و التعاون على الخير، و إعداد العدة لأعداء الدين و الوطن - لا يمكن امتثالها و العمل بها إلا بالمال.

و قد نهى الإسلام عن كنز المال، و هدد الذين يكنزونه بالعذاب الأليم، كما نهى عن الإسراف و التبذير، و اعتبر المبذرين اخوان الشياطين، لأن كلا من التجميد و التبذير يعوق الحياة عن النمو و الانتاج الذي ينفع الناس، و أمر بالاقتصاد، و الرفق في صرف المال و إنفاقه. قال الرسول الأعظم (ص): إذا أراد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٥٥

اللّه لأهل بيت خيرا رزقهم الرفق في المعيشة، و حسن الخلق. و قال الإمام علي (ع): لا يذوق المرء حقيقة الايمان، حتى يكون فيه ثلاث خصال:

الفقه في الدين، و الصبر على المصائب، و حسن التقدير في المعاش.

لقد ربط الإمام بين حقيقة الايمان، و حل مشكلة العيش في هذه الأرض، لأن حسن التقدير في المعاش معناه إتقان العمل، و صرف الانتاج في وجهه النافع .. و هذا دليل قاطع على ان الدين لا ينفصل عن الحياة، و انه شرع من أجل حياة لا إشكال فيها و لا تعقيد .. و من فصل الدين عن الحياة، و نظر اليه على انه مجرد طقوس و شعارات، و زهد و مغيبات فهو اما جاهل أخذ الدين ممن يتكسبون به، و اما معاند للحق و البديهة.

و عند تفسير الآية ١٨٢ من سورة آل عمران، فقرة: «الغني وكيل لا أصيل» ذكرنا ان المال كله للّه، و ان الإنسان مأذون بالتصرف فيه ضمن حدود خاصة، فإذا تجاوزها كان من الغاصبين، فارجع اليه فإنه يتصل بهذا الموضوع، و قد نعود اليه مرة أخرى إذا عرضت آية تتعلق به، و نأتي بما يتمم أو يوضح ما ذكرناه هنا و هناك .. فإن الفكر لا يحيط بالشيء من جميع جهاته، بخاصة إذا كان مثل موضوع الايمان و العيش، و إنما يتجه الفكر بكله إلى جهة من الجهات حين تومئ اليها آية أو رواية أو حادثة من الحوادث.

(وَ ارْزُقُوهُمْ فِيها وَ اكْسُوهُمْ). الخطاب لأولياء السفهاء، و المراد به أن ينفق الأولياء على السفهاء كل ما يحتاجون اليه من مأكل و ملبس و مسكن و تعليم و زواج، و ما إلى ذلك.

و تسأل: لما ذا قال فيها، و لم يقل منها؟.

الجواب: لو قال (منها) لكان المعنى ان يأكل السفيه من أصل ماله، فينقص المال بذلك، و ربما استهلكه كله ان طال المدى، أما في فإنها ظرف، و يكون المعنى ان المال يكون محلا للرزق، و ذلك أن يتجر به الولي، و يستثمره، و ينفق على السفيه من الناتج، لا من أصل المال.

سؤال ثان: لما ذا خص الكسوة بالذكر، مع العلم بأن رزقهم يشمل الكسوة؟

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٥٦

الجواب: خص الكسوة للاهتمام بها .. فربما توهم الولي ان المهم هو المأكل، أما الملبس فلا بأس بالتساهل فيه، فدفع اللّه سبحانه هذا الوهم بذكر الكسوة صراحة.

و الولاية على السفيه تكون للأب و الجد له إذا بلغ الصبي سفيها، بحيث يتصل السفه بالصغر، أما إذا بلغ رشيدا، ثم

عرض له السفه بعد الرشد تكون الولاية للحاكم الشرعي، دون الأب و الجد.

(وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً). قد يرى بعض الأولياء ان على المولى عليه أن يسمع له و يطيع، تماما كما هو شأن الولد مع والده، فنبه سبحانه بقوله هذا كي يتلطف كل ولي بمن هو في ولايته، و يعامله معاملة يرضاها، و تطيب نفسه لها.

(وَ ابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ). دلت هذه الآية على ان المال لا يعطى للصغير، حتى يحصل له وصفان: البلوغ و الرشد، و قد أجمعت المذاهب الإسلامية على ان الاحتلام يدل على البلوغ، سواء أحصل من الذكر، أم الأنثى في أية سن، و في أية حال حصل في اليقظة، أم في المنام، و استدلوا بهذه الآية **(وَ ابْتَلُوا الْيَتامى)** و بقوله تعالى: «وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا- ٥٩ النور» .. و ثبت عن الرسول الأعظم (ص) انه قال: «رفع القلم عن ثلاثة، عن الصبي حتى يحتلم، و عن المجنون حتى يفيق، و عن النائم حتى يستيقظ .. و قال:

لا يتم بعد احتلام.

أما الرشد فيثبت بإعطاء اليتيم شيئا من ماله، يتصرف فيه، فإن أحسن و أصاب كان راشدا، و سلّم ماله اليه، و الا استمر الحجر عليه، حتى و لو بلغ المائة عملا بظاهر الآية، و قال ابو حنيفة: يسلم المال للسفيه بعد بلوغه ٢٥ عاما (و ان لم يكن رشيدا)- حاشية ابن عابدين ج ٥ باب الحجر.

(وَ لا تَأْكُلُوها إِسْرافاً). أي لا تتجاوزوا أيها الأولياء في أكلكم من مال القاصر الحد المباح لكم، لأن الولي يجوز له أن يأكل من مال القاصر، شريطة أن يكون فقيرا. كما يأتي.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٥٧

(وَ بِداراً أَنْ يَكْبَرُوا). قد يبادر الولي، و يستعجل ببعض التصرفات في أموال اليتيم مخافة أن يكبر، و ينتزع أمواله من الولي، فنهى اللّه سبحانه عن مثل هذا التصرف الذي تعود فائدته على الولي، لا على القاصر، و نبه إلى تحريمه و خطره.

(وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ). لا يخلو الولي أن يكون واحدا من اثنين: إما غنيا، و إما فقيرا، فإن كان غنيا فعليه أن ينتزه عن أكل مال اليتيم، و يقنع بما آتاه اللّه من الغنى و الرزق، و ان كان فقيرا جاز له أن يتناول منه بقدر حاجته الضرورية على أن لا يتجاوز ما يستحقه من أجر على خدمته، و في الحديث ان رجلا سأل النبي (ص) عن يتيم في حجره: هل يأكل من ماله؟ قال له: كل بالمعروف. و قيل: يأكل على سبيل القرض .. و ظاهر الحديث يدحض هذا القول.

(فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَ كَفى بِاللهِ حَسِيباً). قال الإمامية و الحنفية: لا يجب على الولي أن يشهد على تسليم المال للقاصر بعد بلوغه و رشده، و حملوا الأمر بالإشهاد في هذه الآية على الاستحباب دون الوجوب نفيا للتهمة، و تجنبا للخصومة.

و قال الشافعية و المالكية: بل الأمر هنا للوجوب، لا للاستحباب أخذا بالظاهر.

[سورة النساء (٤): الآيات ٧ الى ١٠]

لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (٧) وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٨) وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى

ظُلْماً إِنَّمٰا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نٰاراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (١٠)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٥٨

الإعراب:

للرجال متعلق بمحذوف خبر، و نصيب مبتدأ، أي حاصل للرجال نصيب، و مما ترك متعلق بنصيب. و مما قلّ أو كثر بدل مما ترك بإعادة العامل. و نصيبا حال من الضمير في قلّ أو كثر. و الضمير في منه يعود إلى المال المتروك، و مفعول يخشى محذوف، أي و ليخش اللّه. و ظلما مصدر وضع موضع الحال، أي ظالمين، و صاحب الحال الواو في يأكلون.

المعنى:

أربع آيات، كل آية نظرت إلى جهة تتضح من البيان التالي:

١- **(لِلرِّجٰالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوٰالِدٰانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّسٰاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوٰالِدٰانِ وَ الْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً)**. الوالدان واضحان، و الأقربون عام لكل ذي رحم بما فيهم الأبناء و ان نزلوا، و الآباء و ان علوا، و الاخوة و الأخوات و أولادهم، و الأعمام و العمات، و الأخوال و الخالات و أولادهم، ذكورا و إناثا، كبارا و صغارا، درهما كان المال أو قنطارا .. و مبدأ الإرث للجميع حتم في الشريعة الإسلامية، لا تجوز مخالفته بحال، بدليل قوله تعالى: **(نَصِيباً مَفْرُوضاً)**. و هو إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من حرمان الإناث و الذكور الصغار، لا لشيء إلا لأنهم لا يركبون فرسا، و لا يردون عاديا .. فأثبت الإسلام حق الإرث للإنسان على أساس طبيعته الإنسانية، لا على أساس ضربه بالسيف، و طعنه بالرمح.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٥٩

و استدل الشيعة بهذه الآية على بطلان التعصيب الذي أثبته السنة، و نفاه الشيعة- و سنتعرض له قريبا- و مؤداه توريث الرجال دون النساء في بعض الحالات، منها إذا كان للميت بنت و ابن أخ، و بنت أخ فإن السنة يعطون النصف للبنت، و النصف الآخر لابن الأخ، و لا شيء لأخته، مع انها في درجته و مساوية له، و منها إذا كان له أخت و عم و عمة فإنهم يوزعون التركة بين البنت و العم، و يحرمون العمة .. فالقرآن يورث النساء و الرجال، و هم يورثون الرجال، دون النساء. أما الشيعة فإنهم يعطون التركة كلها للبنت في الصورة الأولى و الثانية، لأنها أقرب إلى الميت من أخيه و ابن أخيه، و بالأولى من عمه.

٢- **(وَ إِذٰا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبىٰ وَ الْيَتٰامىٰ وَ الْمَسٰاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً)**. المراد بأولي القربى أقرباء الميت المحجوبون عن ميراثه بمن هو أقرب اليه منهم، كالأخ مع الابن، و العم مع الأخ، و الخطاب في (ارزقوهم) موجه إلى الورثة أو من ينوب عنهم، و بديهة ان الورثة يتصدقون على هؤلاء إذا كانوا فقراء. أما المراد باليتامى و المساكين فغير أولي القربى. و الأمر هنا بإعطائهم للندب، لا للوجوب، مثل تصدقوا و لو بشق تمرة، و لكنه ندب مؤكد.

٣- **(وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعٰافاً خٰافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّٰهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)**. الأمر في (ليخش) موجه إلى ولي اليتيم، و المعنى ان على ولي اليتيم أن يفعل بماله ما يحب الولي أن يفعل بأموال أيتامه الولي الذي يقوم على شئونهم من بعده، تماما مثل عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به.

و كما تدين تدان. و عن الإمام موسى بن جعفر (ع) ان اللّه أعد لمن يسيء التصرف في مال اليتيم عقوبتين: الأولى في الدنيا، و هي اساءة التصرف في مال أيتامه.

و الثانية في الآخرة، و هي نار الحريق. قال الإمام علي (ع): أحسنوا في عقب غيركم تحسن الناس في عقبكم.

٣- (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامىٰ ظُلْماً إِنَّمٰا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نٰاراً

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٦٠

وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً). المراد بأكل النار أكل ما يوجب العذاب في النار، فهو من باب اطلاق المسبب، و هو النار، على السبب، و هو أكل الحرام. و في الحديث أشد الناس عذابا حاكم جائر، و آكل مال اليتيم، و شاهد زور.

[سورة النساء (٤): الآيات ١١ الى ١٢]

يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ وَ إِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (١١) وَ لَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصىٰ بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٦١

اللغة:

الكلالة الاحاطة، مأخوذة من الإكليل، و يراد بها في باب الإرث قرابة الإنسان غير والديه و أولاده، كالاخوة و الأعمام، لأن الوالدين و الأولاد كالعمودين. و قد يوصف بالكلالة الميت المورّث على معنى انه قد ورّث غير أولاده و والديه، و قد يوصف بالكلالة الحي الوارث على معنى ان الوارث هو من غير صنف الآباء و الأبناء. و قد جاءت لفظة الكلالة في آيتين من القرآن، الآية الأولى هذه، و المراد بها اخوة الميت من أمه فقط، و الآية الثانية هي (يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ- ١٧٦ سورة النساء). و المراد بها في الآية الأخيرة اخوة الميت لأبيه و أمه، أو لأبيه فقط، و يأتي التفصيل.

الإعراب:

للذكر متعلق بمحذوف خبر، و مثل مبتدأ، و الجملة تفسير (يُوصِيكُمُ اللهُ) أي يقول لكم اللّه: للذكر مثل حظ الأنثيين. و الضمير في (كن) يعود على أولادكم. و فوق صفة نساء، بمعنى زائدات على اثنتين، و لكن المراد بها هنا اثنتان فما فوق بالاتفاق. و لأبويه متعلق بمحذوف خبر. و لكل واحد منهما بدل من أبويه مع تكرار العامل. و السدس مبتدأ. و من بعد وصية متعلق بمحذوف خبر مبتدأ محذوف، أي هذه الأسهم كائنة من بعد وصية. و (او) هنا للاباحة، مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، أي جالس أيهما شئت منفردا أو منضما، و لا يجب تقديم المعطوف عليه بأو، و تأخير المعطوف من حيث الفعل، بل يجوز العكس كما يجوز الجمع بينهما، فإذا قلت: كل لحما أو بطاطس،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٦٢

جاز لمن خاطبته أن يأكل البطاطس أولا، ثم اللحم، و ان يأكل أحدهما فقط، أو هما معا. و فريضة منصوب على المصدرية، أي فرض اللّه ذلك فريضة.

(وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً) قال ابن هشام في كتاب مغني اللبيب، الباب الخامس: يجوز أن نعرب كان ناقصة، و جملة يورث خبر، و كلالة حال من الضمير في يورث، و أيضا يجوز أن نعرب كلالة خبر كان و جملة يورث صفة لرجل .. و يجوز ان تكون كان تامة بمعنى وجد رجل و جملة يورث صفة له، و حينئذ يتعين أن تكون كلالة حالا من الضمير في يورث. و غير مضار حال من فاعل يوصي. و وصية منصوب على المصدرية، أي يوصيكم اللّه وصية لا يجوز تغييرها.

المعنى:

كانت أسباب الإرث في الجاهلية ثلاثة: الأول النسب في حدود الرجال الذين يحملون السلاح، و يستطيعون القتال، أما الإناث و الضعفاء من الذكور فلا ارث لهم .. و قد عمم الإسلام الإرث للجميع. السبب الثاني التبني، و هو ان يتبنى الرجل ولد غيره، و يكون له حكم الابن الشرعي في الإرث و غيره، و ألغى الإسلام ذلك بقوله: «وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ- ٤ الأحزاب».

السبب الثالث العهد، و هو أن يقول الرجل لآخر: دمي دمك، و ترثني و أرثك، و أقره الإسلام على وجه يأتي بيانه عند الاقتضاء.

و كان من هاجر مع الرسول (ص) من مكة إلى المدينة يرث من مهاجر مثله إذا كان بينهما مخالطة و ود، و لا يرث من المهاجر غير المهاجر، و ان كان قريبا.

و أيضا بعد ان آخى النبي (ص) بين كل اثنين من أصحابه كان المتآخيان يتوارثان، ثم نسخ الإسلام هذين السببين، الهجرة و التآخي، نسخهما بقوله تعالى:

«وَ أُولُوا الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ- ٧٥ الأنفال و ٦ من سورة الأحزاب».

و استقر موجب الإرث في الإسلام على أمرين: نسب و سبب، و السبب أمران: زوجية و ولاء، و يأتي البيان حسب ترتيب الآيات، و فيما يلي نشير إلى

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٦٣

مداليل ألفاظ الآيتين اللتين نحن بصددهما: و هما و ما بعدهما من الآيات المتعلقة بالإرث تفصيل لما أجمله تعالى في قوله السابق: للرجال نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون و للنساء الخ:

١- **(يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ)**. إذا اجتمع أبناء الميت و بناته معا اقتسموا للذكر مثل حظ الأنثيين، و إذا انضم اليهم غيرهم في الميراث كالزوج أو الزوجة، أو الأب أو الأم أو هما معا أخذ كل نصيبه حسب التفصيل الآتي، و الباقي يقتسمه البنون و البنات، للبنت نصف ما يأخذه الابن باتفاق المذاهب الاسلامية، دون استثناء.

و أيضا اتفقت المذاهب على ان الميت إذا ترك ابنا، و أولاد أولاد فالابن يحجب عن الإرث أولاد الأولاد، سواء أ كانوا ذكورا، أم أناثا .. و اختلف فقهاء المذاهب فيما إذا ترك بنتا واحدة، أو بنتين فأكثر، و لم يترك ابنا ..

قال فقهاء المذاهب الأربعة: تأخذ البنت الواحدة النصف فقط، و البنتان فأكثر الثلثين فقط، و الباقي يعطى لغيرهن. و قال

الشيعة الامامية: التركة كلها للبنت أو البنات، و لا شيء لغيرها. و التفصيل في كتابنا الأحوال الشخصية على المذاهب الخمسة.

٢- (فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ وَ إِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ). قال صاحب مجمع البيان: «ظاهر قوله تعالى: فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ان البنتين لا تستحقان الثلثين لكن الأمة أجمعت على ان حكم البنتين حكم من زاد عليهما من البنات». هذا هو الصحيح، و كل ما قيل من التعليل و التأويل حول (فَوْقَ اثْنَتَيْنِ) فهو من نسج الخيال.

و ليس هذا بالشيء المهم، و انما المهم بيان ما اختلفت فيه المذاهب الاسلامية من ميراث البنت و البنات إذا لم يكن للميت ولد ذكر .. و قد اتفق الفقهاء قولا واحدا على ان الميت إذا ترك بنتا واحدة أخذت النصف بالفرض، و ان ترك بنتين فأكثر أخذن الثلثين، و اختلفوا في النصف الباقي بعد فرض البنت، و في الثلث الباقي بعد فرض البنتين، لمن يعطى؟.

قال السنة: يعطى الباقي لأخي الميت، مستندين إلى رواية عن طاوس عن

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٦٤

ابن عباس عن النبي (ص) انه قال: ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي لاولي عصبة ذكر.

و أنكر الشيعة حديث طاوس لأنه كذاب «١» و قالوا: يرد النصف على البنت، فتنفرد بالتركة كلها، تأخذ النصف بالفرض، و النصف الثاني بالرد. و أيضا يرد الثلث الباقي على البنتين فأكثر، فينفردن بجميع التركة الثلثين بالفرض، و الثلث الباقي بالرد، و استدلوا بأن القرآن الكريم فرض الثلثين للبنتين فأكثر، و فرض النصف للبنت الواحدة، و لا بد من وجود شخص ما يرد عليه الباقي بعد الفرض، و القرآن لم يعيّن هذا الشخص بالذات، و إلا لم يقع الخلاف، فلم يبق لتعيين من يرد عليه الباقي إلا الآية ٧٥ من سورة الأنفال، و ٦ من سورة الأحزاب: «وَ أُولُوا الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ». حيث دلت على ان الأقرب أولى ممن هو دونه في القرابة، و ليس من شك ان البنت أقرب من الأخ.

هذا، إلى أن الشيعة لم ينفردوا بالقول: ان التركة بكاملها للبنت أو للبنات، فلقد ذهب الحنفية و الحنابلة إلى أن الميت إذا ترك بنتا أو بناتا، و لم يوجد واحد من أصحاب الفروض و العصبات فالمال كله للبنت، النصف بالفرض، و الباقي بالرد، و كذلك البنتان تأخذان جميع التركة، الثلثين فرضا، و الثلث الباقي ردا، مع العلم بأن الآية قالت: (فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ وَ إِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ).

فإذا كانت هذه الآية لا تمنع ان تأخذ البنت أو البنات جميع التركة في الصورة التي ذكرها الحنفية و الحنابلة فكذلك أيضا لا تمنع أن تأخذ البنت أو البنات التركة كلها في صورة أخرى، و الفرق تحكم، لأن دلالة الآية واحدة لا يمكن تجزؤها بحال.

و أيضا قال الحنفية و الحنابلة: إذا ترك الميت أما، و ليس معها واحد من أصحاب الفروض و العصبات تأخذ التركة كلها الثلث بالفرض، و الثلثين بالرد،

---

(١) قال السيد محسن الأمين في نقض الوشيعة فصل التعصيب: حتى طاوس أنكر أن يكون راويا لهذا الحديث، و قال- أي طاوس-: ان الشيطان ألقاه على لسان من نسب إلي هذا القول. و أسند السيد الأمين ذلك إلى رواة السنة.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٦٥

مع العلم بأن اللّه يقول: **(فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ)** فإذا جاز للام أن تأخذ التركة كلها مع قوله تعالى: **(فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ)** جاز أيضا للبنت أن تأخذ التركة كلها، و كذلك البنات. مع قوله: **(فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ وَ إِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ)** على النحو الذي قدمناه. و قد بسطنا القول في ذلك في كتاب الأحوال الشخصية على المذاهب الخمسة، و الجزء السادس من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق. و أصدر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر كتابا ضخما باسم «دعوة التقريب»، أدرج فيه بحثنا هذا بكامله .. و تجدر الاشارة إلى أن ما نقلناه عن الحنفية و الحنابلة كان مصدره كتاب المغني لابن قدامة، و ميزان الشعراني، باب الفرائض.

٣- **(وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ)**. يطلق الولد على الذكر و الأنثى، لأن لفظه مشتق من الولادة الشاملة للابن و البنت، و قد استعمل القرآن لفظ الأولاد في الذكور و الإناث، قال تعالى: **«يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ»**. و قال: «ما كان للّه أن يتخذ ولدا».

و المراد بأبويه هنا خصوص الأب و الأم، و لا يدخل فيهما الجد و الجدة ..

فإذا ترك الميت أبوين و أولادا ينظر: فإن كان في الأولاد ذكر أخذ كل من الأبوين السدس، و الباقي للأولاد، حتى و لو لم يكن إلا ذكر واحد، و ان لم يكن ذكر، و كان الأولاد بنتين فأكثر أخذ الأبوان الثلث، و الثلثان للبنات باتفاق المسلمين جميعا. و ان كان مع الأبوين بنت واحدة فلكل منهما السدس، و للبنت النصف بالفرض، يبقى سدس، يرد على الأب فقط عند السنة، و على الأب و الأم و البنت عند الشيعة، إذا لم تحجب الأم بالاخوة، و يقتسمون التركة أخماسا، واحدا منها للأب، و واحدا للأم، و ثلاثة للبنت، و ان حجبت الام بالاخوة يرد على الأب و البنت فقط أرباعا، أي ان الزائد يقسّم أربعة أسهم، واحد منها للأب، و ثلاثة للبنت.

٤- **(فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ)**. إذا لم يكن للميت ولد، و لا ولد ولد، و انحصر ميراثه بأمه و أبيه أخذت الأم الثلث ان لم يكن للميت أخوة يحجبونها عما زاد عن السدس، فإن كان له أخوة أخذت السدس فقط، و الباقي في الحالين للأب، و اختلفت المذاهب في عدد الاخوة الذين يحجبون الأم .. قال المالكية: أقل ما يحجبها اثنان من

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٦٦

الاخوة، دون الأخوات. و قال الحنفية و الشافعية و الحنابلة: اثنان من الاخوة أو الأخوات. و قال الامامية: اخوان أو أخ و اختان، أو أربع أخوات، على شريطة أن يكونوا أخوة أو أخوات للميت من أبيه و أمه، أو من أبيه فقط، و ان يكونوا منفصلين عند موت المورّث لا حملا، و ان يكون الأب حيا.

و هؤلاء الاخوة يحجبون عن الميراث، و لا يرثون.

٥- **(مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ)**. إذا ترك الميت مالا فيبدأ قبل كل شيء بما يحتاج اليه من كفنه و جهازه الى قبره، ثم بوفاء ديونه المالية، حتى الحج و الزكاة، و الخمس و النذورات، ثم بتنفيذ وصيته من ثلث ما يفضل عن تجهيزه و دينه، ثم بالميراث، لأنه أشبه بإعطاء ما زاد عن الحاجة.

و تسأل: إذا كان الدين مقدما على الوصية، فلما ذا قدمها في الذكر و اللفظ؟

الجواب: ان التقديم في الذكر و اللفظ لا يقتضي التقديم في الحكم و التنفيذ، لأن العطف بـ(أو) لا يفيد الترتيب، كما ذكرنا في فقرة الاعراب، و انما يفيد المساواة في أصل الحكم بين المعطوف و المعطوف عليه، فكأنه قال: من بعدهما .. أما التقديم عملا فيستفاد من دليل آخر، و قد ثبت عن الرسول الأعظم (ص)، و قام الإجماع على أنه لا وصية و لا ميراث إلا بعد وفاء الدين، بالاضافة الى أحاديث كثيرة ان الميت مرتهن بديونه.

٦- **(آبٰاؤُكُمْ وَ أَبْنٰاؤُكُمْ لاٰ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كٰانَ عَلِيماً حَكِيماً)**. هذه جملة معترضة، تشير إلى أن تقدير المواريث و أسرارها لا تصاب بالعقول، و انما يدركها خالق الإنسان، و هو وحده يعلم ما يضره و ينفعه .. و هذه الآية تصلح للاستدلال على ان الأحكام الإلهية شرّعت لمصلحة الإنسان و سعادته و هنائه، و من هنا نستدل على ايمان الإنسان بصالح أعماله، و على فسقه و إلحاده بضرره و فساده. **(فَرِيضَةً مِنَ اللهِ)** الحق، لا من الإنسان الذي تتحكم به الميول و الأهواء، و قد رأينا أكثر الهيئات التشريعية و المجالس البرلمانية تضع القوانين لصالح الأقوياء، و استغلالهم الضعفاء.

٧- **(وَ لَكُمْ نِصْفُ مٰا تَرَكَ أَزْوٰاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كٰانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهٰا أَوْ دَيْنٍ)**. اتفق المسلمون على

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٦٧

ان كلا من الزوج و الزوجة يشارك في الميراث جميع الورثة، دون استثناء، و على ان للزوج النصف من تركة الزوجة إذا لم يكن لها ولد منه و لا من غيره، و الربع إذا كان لها ولد منه أو من غيره. و سبق في رقم ٥ انه لا ميراث إلا بعد الدين و الوصية.

٨- **(وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كٰانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهٰا أَوْ دَيْنٍ)**. للزوجة الربع من تركة زوجها إذا لم يكن له ولد منها و لا من غيرها، و الثمن إذا كان له ولد منها أو من غيرها.

و اتفقت المذاهب الأربعة على ان المراد بالولد هنا ولد الميت للصلب، و ولد الابن فقط، ذكرا كان، أو أنثى .. أما ولد البنت فإنه لا يمنع أحد الزوجين من نصيبه الأعلى، بل قال الشافعية و المالكية: ان ولد البنت لا يرث و لا يحجب، لأنه من فئة ذوي الأرحام.

و قال الإمامية: المراد بالولد في الآية مطلق الولد، و ولد الولد، ذكرا كان أو أنثى، فبنت البنت تماما كالابن تحجب أحد الزوجين عن نصيبه الأعلى إلى الأدنى.

و إذا تعدد الزوجات فهن شريكات في الربع أو الثمن، يقتسمنه بالسوية.

و قالت المذاهب الأربعة: إذا لم يكن للميت و ارث إلا الزوج، أو الزوجة فلا يرد الباقي لا على الزوج و لا على الزوجة (مغنى ابن قدامة).

و اختلف الإمامية فيما بينهم على ثلاثة أقوال: الأول يرد الباقي على الزوج، دون الزوجة، و هذا هو المعروف بين الفقهاء اليوم، و عليه عملهم. الثاني الرد على الزوج و الزوجة إطلاقا و في جميع الحالات. الثالث الرد عليهما في غيبة الإمام العادل، دون حضوره، و نحن على هذا الرأي، و اليه ذهب الشيخ الصدوق، و نجيب الدين بن سعيد، و العلامة الحلي، و الشهيد الأول، و ذكرنا الدليل على اختيارنا في الجزء السادس من فقه الإمام جعفر الصادق (ع).

٩- (وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ). جاء لفظ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٦٨

الكلالة مرتين في القرآن الكريم: في هذه الآية، و في آخر آية من سورة النساء، و المراد بها القرابة غير الوالدين و الأولاد .. و يوصف بها الميت الموروث على معنى انه أخ أو أخت للورثة الأحياء، كما يوصف بها الحي الوارث على معنى ان الوارث أخ أو أخت للميت، و المعنيان- كما ترى- متلازمان و يتواردان على شيء واحد، فبأيهما أخذت صح المعنى.

و اتفق المفسرون على ان المقصود بالأخ و الأخت في الآية التي نفسرها خصوص الأخ و الأخت من الأم فقط، بل قرأ البعض: و له أخ أو أخت من الأم، أما ميراث الأخ و الأخت من الأبوين، أو من الأب فقط فيأتي حكمه في الآية الأخيرة من هذه السورة.

و اتفقت المذاهب على ان للواحد من ولد الأم السدس بالفرض ذكرا كان أو أنثى، و للأكثر الثلث ذكورا كانوا أو إناثا أو هما معا، و يقتسمون فيما بينهم بالسوية للأنثى مثل الذكر.

١٠- (مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ). سبق انه لا ميراث إلا بعد وفاء الدين، و تنفيذ الوصية. و قد نهى سبحانه عن الضرار في الدّين و الوصية، و الضرار في الدين أن يقر أو يوصي بدين ليس عليه بقصد الإضرار بالورثة، و الإضرار بالوصية أن يتجاوز حد الثلث مما يملك، و إذا فعل يقف تنفيذ الزائد على اجازة الورثة .. و في الحديث:

انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس. (وَصِيَّةً مِنَ اللهِ). و كل ما أوصى اللّه به يجب الإذعان له، و العمل بموجبه.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٣ الى ١٤]

تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَ مَنْ يَعْصِ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَ لَهُ عَذابٌ مُهِينٌ (١٤)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٦٩

المعنى:

المعنى واضح، و يتلخص بأن اللّه سبحانه بعد أن بيّن سهام المواريث وفق علمه و حكمته وعد المطيع بالثواب، و توعد العاصي بالعقاب، ترغيبا في الطاعة، و ترهيبا عن المعصية. و قال عن أهل الجنة خالدين بالجمع، و عن أهل النار خالدا بالأفراد، لأن أهل الجنة يتمتعون بالاجتماع، أما أهل النار فكل في شغل بنفسه عن غيره.

و تجدر الاشارة الى بعض الأحاديث الواردة في علم الفرائض- أي المواريث- و فضله، لأنه يراعي مصلحة الأسرة و المجتمع، و يضع كل فرد في مرتبته من الميت، و لا يحرم امرأة و لا صغيرا، و يفتت الثروات، و لا يدع مجالا لتضخمها و تكدسها في أيدي قلة، كما هو الشأن في بعض الأنظمة الغربية التي حصرت الميراث بالابن الأكبر.

قال رسول اللّه (ص): «تعلموا الفرائض، و علموها للناس، فاني امرؤ مقبوض، و ان العلم- أي علم الشريعة الاسلامية- سيقبض، و تظهر الفتن، حتى يختلف الاثنان في الفريضة، فلا يجدان من يفصل بينهما .. تعلموا الفرائض فإنها من

دينكم، و ان علمه نصف العلم، و انه أول ما ينتزع من أمتي».

و قوله: أول ما ينتزع من أمتي اشارة الى هذه القوانين الوضعية التي حلت محل الشريعة الاسلامية.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٥ الى ١٦]

وَ اللاَّتِي يَأْتِينَ الْفٰاحِشَةَ مِنْ نِسٰائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتّٰى يَتَوَفّٰاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَ اللَّذٰانِ يَأْتِيٰانِهٰا مِنْكُمْ فَآذُوهُمٰا فَإِنْ تٰابٰا وَ أَصْلَحٰا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمٰا إِنَّ اللّٰهَ كٰانَ تَوّٰاباً رَحِيماً (١٦)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٧٠

اللغة:

تطلق الفاحشة على الزنا و اللواط. و التوفي الاستيفاء، و هو القبض، تقول:

توفيت مالي و استوفيته إذا قبضته، و عليه فمعنى يتوفاهن يقبضهن الموت.

الإعراب:

اللاتي مبتدأ، و خبره جملة فاستشهدوا، و جاز دخول الفاء على الخبر، لأن اسم الموصول يجري مجرى الشرط. و يتوفاهن فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة.

المعنى:

(وَ اللاَّتِي يَأْتِينَ الْفٰاحِشَةَ مِنْ نِسٰائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ). لا يثبت الزنا إلا بإقرار فاعله على نفسه أربع مرات، سواء أ كان رجلا أم امرأة، أم بشهادة أربعة عدول من المسلمين، دون غيرهم، كما دلت عليه لفظة (منكم) و لا بد أن يشهد كل واحد من الأربعة شهادة صريحة في ولوج الذكر في الفرج تماما كالميل في المكحلة، فإن نقص الشهود عن الأربعة، أو اختلفت شهادتهم، و لم تتوارد على شيء واحد جلد كل واحد منهم ثمانين جلدة، و كل من يرمي امرأة أو رجلا بالزنا، و لم يأت بأربعة عدول يشهدون على النحو المتقدم- يجلد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٧١

ثمانين جلدة .. و ان دل هذا على شيء فإنما يدل ان الأولى بالإنسان ان لا ينقب عن عيوب الناس، و يكشف أسرارهم، لأن كشف العيوب يؤدي الى فساد المجتمع، و يعرض الأسرة الى الضياع و الشتات.

(فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتّٰى يَتَوَفّٰاهُنَّ الْمَوْتُ). أي إذا ثبت الزنا على المرأة حبست في بيتها، حتى الموت عقوبة لها **(أَوْ يَجْعَلَ اللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيلاً)**. يشير الى أن اللّه سبحانه لم يجعل هذه العقوبة حكما دائما، بل جعلها لفترة معينة، ثم يحدث التشريع النهائي، و هكذا كان، حيث نسخت هذه الآية، و جعل الرجم عقوبة الزنا ان حصل من متزوج أو متزوجة، و مائة جلدة ان حصل من أعزب أو عزبة، و يأتي التفصيل في سورة النور ان شاء اللّه.

(وَ اللَّذٰانِ يَأْتِيٰانِهٰا مِنْكُمْ فَآذُوهُمٰا). اختلف المفسرون في المراد من (اللذان).

و الأكثر على أنهما الزاني و الزانية، و يلاحظ على هذا القول انه خلاف الظاهر، لأن (اللذان) للمثنى المذكر، و لأن الزانية تقدم حكمها، و لا موجب للتكرار من غير فاصل، و الصحيح ان المراد بهما الرجلان: الفاعل و المفعول، لظاهر لفظ (اللذان) و لفظ منكم، أي من رجالكم كما في قوله تعالى **(أَرْبَعَةً مِنْكُمْ)**.

و عقوبة اللواط الإيذاء، و منه التأنيب و التوبيخ، و نسخت هذه العقوبة، كما نسخت عقوبة الزانية التي هي السجن المؤبد، و أصبحت عقوبة كل من الفاعل و المفعول الضرب بالسيف حتى الموت، أو الإحراق بالنار، أو الإلقاء من شاهق بعد تكتيف اليدين و الرجلين، أو هدم جدار عليه، لأنه لا جريمة أسوأ أثرا من الفعل الشنيع الذي يسلب الإنسان انسانيته، و يقلب حقيقته رأسا على عقب، و قديما قيل: لو نكح الأسد في دبره لذل.

(فَإِنْ تٰابٰا وَ أَصْلَحٰا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمٰا). أي لا تكفوا عن إيذاء هذا المجرم بمجرد قوله: تبت و استغفر اللّه ما لم تثبت توبته النصوحة بعمله و حسن سلوكه.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٧ الى ١٨]

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهٰالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَ كٰانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧) وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئٰاتِ حَتّٰى إِذٰا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قٰالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفّٰارٌ أُولٰئِكَ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً (١٨)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٧٢

اللغة:

الجهل و الجهالة ضد العلم، و كل من الكلمتين يصح استعمالها بالسفه و الحمق، و منه قوله تعالى: (أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجٰاهِلِينَ). و قوله: (إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجٰاهِلِينَ). و اتفق المفسرون على ان المراد بالجهالة هنا السفاهة، لأن معنى الآية لا يستقيم إلا على هذا الأساس. و اعتدنا من العتاد، و هو العدة.

الإعراب:

انما التوبة: الأصل انما قبول التوبة، لأن على الإنسان التوبة، و على اللّه القبول، ثم حذف و أقيم المضاف اليه مقامه، و هو مبتدأ و ما بعده خبر. و بجهالة في موضع الحال، أي جاهلين. و لا الذين يموتون في محل جر عطفا على قوله: للذين يعملون السوء.

المعنى:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهٰالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ).

السوء العمل القبيح، و الجهالة السفاهة بترك الهدى إلى الضلال، و المراد بالتوبة

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٧٣

عن قريب أن يتوب المذنب قبل أن يساق إلى الموت، لأن الموت آت لا ريب فيه، و كل آت قريب، أما قوله: انما التوبة على اللّه فهو على حذف مضاف كما بينا في فقرة الإعراب، أي قبول التوبة عليه جل و علا، و المعنى المحصل ان من أساء، ثم ندم و أناب يقبل اللّه انابته، و يصفح عنه، حتى كأنه لا ذنب له، بل ان اللّه سبحانه يثيبه ثوابا حسنا.

و تسأل: ان ظاهر الآية يدل على انه يجب على اللّه أن يقبل التوبة من النادمين، مع العلم بأن اللّه يوجب على غيره ما يشاء، و لا يوجب أحد عليه شيئا، إذ ليس كمثله شيء.

الجواب: ليس المراد ان الغير يوجب على اللّه أن يقبل التوبة .. تعالى اللّه ..

و انما المراد ان فضله و كرمه يستوجب هذا القبول، تماما كما تقول للكريم:

ان كرمك يفرض عليك البذل و العطاء، و من ذلك قوله تعالى: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».

(فَأُولٰئِكَ يَتُوبُ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ). ما داموا راغبين رغبة حقيقية في العودة إلى صفوف المؤمنين الأخيار. **(وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً)** عليم بالتوبة النصوحة و الزائفة، حكيم بقبول الأولى من التائب ..

(وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئٰاتِ حَتّٰى إِذٰا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قٰالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ). ان اللّه يقبل من تاب اليه، على شريطة أن يتوب قبل أن تظهر له أمارات الموت، أما من تاب، و هو يساق إلى القبر فلا تقبل توبته، لأنها توبة العاجز عما يئس من نواله.

و تسأل: و ما ذا أنت صانع بما روي عن رسول اللّه (ص): «من تاب قبل موته بساعة تاب اللّه عليه، و ان الساعة لكثير، من تاب، و قد بلغت الروح هذه- مشيرا الى حلقه- تاب اللّه عليه؟.

الجواب: في هذه الرواية نظر، لأمور:

الأول: انها تخالف كتاب اللّه، و قد ثبت عن رسول اللّه (ص) انه قال:

«قد كثرت عليّ الكذابة في حياتي، و ستكثر بعد وفاتي، فمن كذب عليّ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٧٤

فليتبوأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث عني فاعرضوه على كتاب اللّه، فما وافق كتاب اللّه فخذوه، و ما خالف كتاب اللّه فلا تأخذوا به». و من أجل هذا لا نأخذ بحديث قبول التوبة إذا بلغت الروح الحلقوم .. و غير بعيد ان حكام الجور في عهد الأمويين و العباسيين قد أوعزوا الى بعض أذنابهم أن يضع لهم هذا الحديث، ليحتجوا به أمام المحكومين بأن لهم مندوحة عند اللّه، مهما جاروا و أفسدوا .. فلقد كان لكل حاكم منهم حزمة من فقهاء السوء يبررون أعمالهم، و يكيفون الدين طبقا لأهواء الشياطين.

الأمر الثاني: ان قبول التوبة عند الموت إغراء بارتكاب الذنب و المعصية ..

و هذا من عمل الشيطان، لا من عمل الرحمن.

الأمر الثالث: ان اللّه سبحانه انما يقبل العمل من العامل إذا صدر منه عن ارادة و حرية كاملة .. و بديهة ان الإنسان انما يكون حرا بالنسبة الى العمل إذا كان قادرا على فعله و تركه معا، أما إذا قدر على الفعل دون الترك، أو على الترك دون الفعل فانه يكون مسيرا لا مخيرا، و من هذا الباب التوبة عند الموت، إذ المفروض ان التائب في هذه الحال يعجز عن اقتراف الذنب و المعصية، تماما كما يعجز عنها من يقول غدا: «رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذٰابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ- ١٢ الدخان». فان قبل اللّه التوبة ممن يساق الى القبر فينبغي ان يقبلها ممن يعذب في النار .. و الفرق تحكم. و لذا سوّى اللّه بينهما، و عطف أحدهما على الآخر، حيث قال: **(وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفّٰارٌ)** أي ان اللّه سبحانه لا يقبل التوبة أيضا من الذين يموتون على الكفر، و لا يندمون إلا حين يرون العذاب يوم القيامة، بل لا يقبلها منهم، و هم في طريقهم الى هذا اليوم، كما دلت الآية ١٠٠ من سورة المؤمنين: «حَتّٰى إِذٰا جٰاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قٰالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صٰالِحاً فِيمٰا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهٰا كَلِمَةٌ هُوَ قٰائِلُهٰا وَ مِنْ وَرٰائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

أجل، يجوز في نظر العقل أن يعفو جل و عز و يصفح عن المذنبين، و ان لم يتوبوا تفضلا منه و كرما .. و لكن هذا شيء، و قبول التوبة عند الموت شيء آخر.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٧٥

التوبة و الفطرة:

التوبة فرع عن وجود الذنب، لأنها طلب للصفح عنه .. و لا يخلو الإنسان من ذنب ما كبيرا كان أو صغيرا إلا من عصم اللّه، و قد نسب الى الرسول الأعظم (ص) قوله:

ان تغفر اللهم تغفر جما و أي عبد لك ما ألمّا

و قد أوجب سبحانه التوبة على من أذنب، تماما كما أوجب الصوم و الصلاة، و من الآيات الدالة على وجوبها هذه الآية: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ»

.

و قوله: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً- ٩ التحريم». و قوله:

«وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتٰاعاً حَسَناً- ٣ هود». و قوله:

«وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ- ١١ الحجرات».

و الحقيقة ان وجوب التوبة لا يحتاج الى دليل، لأنه من القضايا التي تحمل دليلها معها، فكل انسان يدرك بفطرته ان على المسيء أن يعتذر عن إساءته، و يطلب الصفح ممن أساء اليه، و قد جرى على ذلك عرف الدول و الشعوب، حتى و لو حصل التعدي خطأ، و من غير قصد، فإذا اخترقت طائرة دولة أجواء دولة أخرى، أو تجاوز زورق من زوارقها المياه الاقليمية، دون اذن سابق وجب أن تعلن اعتذارها، و الا أدانها العرف و القانون .. اذن، كل آية أو رواية دلت على وجوب التوبة فهي تقرير و تعبير عن حكم الفطرة، و ليست تأسيسا و تشريعا جديدا لوجوب التوبة.

و على هذا فمن أذنب، و لم يتب فقد أساء مرتين: مرة على فعل الذنب، و مرة على ترك التوبة، و أسوأ حالا ممن ترك التوبة من فسخها، و عاد الى الذنب بعد أن عاهد اللّه على الوفاء بالطاعة و الامتثال، قال تعالى: «عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عٰادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَ اللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقٰامٍ- ٩٥ المائدة». و في الحديث: «المقيم على الذنب. و هو مستغفر منه كالمستهزء» .. اللّه يستهزئ بهم، و يمدهم في طغيانهم يعمهون.

و يتحقق الذنب بترك ما أمر اللّه به، أو فعل ما نهى عنه عن قصد و تصميم ..

و بديهة ان أحكام العقل هي أحكام اللّه بالذات، لأنه جل و عز يبلغ أحكامه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٧٦

بوسيلتين: العقل، و لسان رسله و أنبيائه .. و النتيجة الحتمية لهذا المبدأ انه لا ذنب و لا عقاب بلا بيان، على حد تعبير الفقهاء المسلمين، أو بلا نص على حد تعبير أهل القوانين الوضعية.

إذا تمهد هذا تبين معنا ان الإنسان انما يكون مذنبا و عاصيا إذا فعل ما نهى اللّه عنه، أو ترك ما أمر اللّه به عن تعمد و علم، فإذا فعل أو ترك ناسيا، أو مكرها، أو جاهلا من غير تقصير و إهمال فلا يعد مذنبا، و ينتفي السبب الموجب للتوبة،

قال: «فَمَنْ تٰابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ» أي بعد ذنبه، لأن كل من أقدم على الذنب فقد ظلم نفسه بتعريضها للحساب و العقاب.

أما تحديد التوبة فهي أن يندم المذنب على ما كان منه، و يطلب من اللّه العفو و المغفرة، و لا يعود إلى الذنب ثانية، فإن عاد بطلت التوبة، و احتاج إلى استئنافها بعهد أحكم، و قلب أسلم، قال الإمام زين العابدين (ع): «اللهم ان يكن الندم توبة اليك فأنا أول التائبين، و ان يكن الترك لمعصيتك انابة فأنا أول المنيبين، و ان يكن الاستغفار حطة للذنوب فإني لك من المستغفرين».

و المراد بالاستغفار الاستغفار بالفعل، لا بالقول، فيبدأ قبل كل شيء بتأدية حقوق الناس، ورد ظلامتهم، فإذا كان قد اغتصب درهما من انسان أعاده اليه، و ان كان قد أساء اليه بقول أو فعل طلب منه السماحة .. ثم يقضي ما فاته من الفرائض، كالحج و الصوم و الصلاة، سمع أمير المؤمنين علي (ع) رجلا يقول: أستغفر اللّه. فقال الإمام: أ تدري ما الاستغفار؟ انه درجة العليين، و هو واقع على ستة معان .. و ذكرها الإمام، منها العزم على ترك العودة إلى الذنب، و تأدية الحقوق إلى المخلوقين، و قضاء الفرائض، و متى توافرت هذه العناصر للتائب كان من الذين عناهم اللّه بقوله: «وَ إِنِّي لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحاً ثُمَّ اهْتَدىٰ- ٨٢ طه» أي استمر على الهداية، و هي الإيمان و العمل الصالح، و في الحديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له». بل يصبح من المحسنين، قال تعالى: تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتٰاعاً حَسَناً. و قال: إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ التَّوّٰابِينَ. و قال الرسول الأعظم (ص): من رأى انه مسيء فهو محسن.

أما السر لاحسان التائب، و عظيم منزلته عند اللّه سبحانه فهو معرفته بنفسه،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٧٧

و محاسبتها على كل عيب و نقص، و جهادها على الكمال و الطاعة، هذا الجهاد الذي عبّر عنه رسول اللّه (ص) بالجهاد الأكبر .. و قديما قال الأنبياء و الحكماء:

اعرف نفسك. و مرادهم ان يعرف الإنسان ما في نفسه من عيوب، و يعمل على تطهيرها من كل شائبة.

و قد يقول قائل: ان الإنسان نتيجة لعوامل كثيرة: منها أبواه و مدرسته، و مجتمعه و مناخه، و ما إلى ذلك مما يؤثر في تكوين شخصيته، و لا حول معه و لا طول، و عليه فلا يتصف الإنسان بأنه أذنب و أساء، لأن الذنب ذنب المجتمع و الظروف، و متى انتفى الذنب انتفى موضوع التوبة من الأساس؟.

الجواب: صحيح ان محيط الإنسان و ظروفه تؤثر به .. و لكن صحيح أيضا ان ذات الإنسان و ارادته تؤثر في ظروفه و بيئته، كما يتأثر هو بها، لأن لكل من الإنسان و ظروفه واقعا ملموسا، و كل شيء له واقع ملموس لا بد أن يكون له أثر كذلك، و إلا لم يكن شيئا، و على هذا يستطيع الإنسان أن يؤثر في ظروفه، بل يستطيع أن يقلبها رأسا على عقب، إذا كان عبقريا .. و الشاهد الحس و الوجدان.

ان شأن الظروف التي يعيشها الإنسان أن تبعث في نفسه الميل و الرغبة في ثمار الظروف و نتاجها، و على الإنسان أن ينظر و يراقب هذه الثمار، و تلك الرغبة، فإن كانت متجهة الى الحسن من الثمار اندفع مع رغبته، و إلا أوقفها و كبح جماحها .. و ليس هذا بالأمر العسير .. و لو لم يكن للإنسان مع ظروفه حول و طول لما اتصف بأنه محسن، و بأنه سيء، و لبطل العقاب و الثواب، و سقط المدح و الذم، و لما كان لوجود الأديان و الأخلاق و الشرائع و القوانين وجه و مبرر.

سؤال ثان: قلت: ان التوبة فرع الذنب، مع العلم بأن الأنبياء و الأئمة كانوا يتوبون الى اللّه، و هم مبرو أن عن العيوب و

الذنوب.

الجواب: ان الأنبياء و الأئمة مطهرون من الدنس و المعاصي، ما في ذلك ريب .. و لكنهم كانوا لمعرفتهم باللّه، و شدة خوفهم منه يتصورون أنفسهم مذنبين، فيتوبون من ذنب و همي لا وجود له .. و هذا مظهر و أثر من آثار عصمتهم و علو مكانتهم .. لأن العظيم من لا يرى نفسه عظيما، بل لا يراها

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٧٨

شيئا مذكورا في جنب اللّه، و يتهمها دائما بالتقصير في طاعته و عباده، و من أجل هذا يسأله العفو، و يستعين به على حسن العاقبة، على العكس من «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا، وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً- ١٠٥ الكهف».

و خير ما قرأته في هذا الباب قطعة من مناجاة الإمام زين العابدين (ع)، يطلب فيها من اللّه أن يسخر له عبدا من عباده الصالحين مستجاب الدعوة لديه تعالى .. كي يرى هذا العبد سوء حال الإمام من شدة خوفه من اللّه، فيتأثر، و تأخذه الرقة على الإمام، و يتوسل إلى الخالق الجليل ان يرفق بالإمام، فيسمع اللّه دعوة هذا العبد الصالح، و ينجو الإمام من غضب اللّه و سخطه، و يفوز برضاه و مغفرته، و هذا ما قاله الإمام بالحرف: «فلعل بعضهم برحمتك يرحمني لسوء موقفي، و تدركه الرقة عليّ لسوء حالي، فينالني منه بدعوة هي أسمع لديك من دعائي، أو شفاعة أوكد عندك من شفاعتي تكون بها نجاتي من غضبك، و فوزي برضاك».

قال الإمام زين العابدين، و سيد الساجدين مخاطبا ربه: (لعل بعضهم أوكد عندك من شفاعتي تكون بدعوته نجاتي) قال هذا يوم لا أحد على وجه الأرض يدانيه في فضيلة واحدة من فضائله الجلى .. و هنا يكمن سر الجلال و العظمة و الكمال.

و بعد، فإن التوبة متشعبة الأطراف، و تتسع لكتاب مستقل، و قد نعود إلى الكلام عنها في مناسبة ثانية.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٩ الى ٣١]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسٰاءَ كَرْهاً وَ لاٰ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مٰا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاّٰ أَنْ يَأْتِينَ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ عٰاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اللّٰهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (١٩) وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدٰالَ زَوْجٍ مَكٰانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْدٰاهُنَّ قِنْطٰاراً فَلاٰ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتٰاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (٢٠) وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضىٰ بَعْضُكُمْ إِلىٰ بَعْضٍ وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثٰاقاً غَلِيظاً (٢١)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٧٩

اللغة:

العضل التضييق و الشدة، و منه الداء العضال. و المراد بالفاحشة هنا الزنا.

و البهتان الكذب الذي يترك المفترى عليه في دهشة و حيرة، لانقطاع حجته ضد الكاذب المكابر. و الإفضاء إلى شيء الوصول اليه بالملامسة، مأخوذ من الفضاء، و هو السعة، فكأنّ الزوج حين يباشر زوجته وسعها و وسعته إلى الحد الذي ليس بعده شيء. و الميثاق الغليظ العهد المؤكد.

الاعراب:

المصدر المنسبك من أن ترثوا في موضع رفع فاعلا ليحل، أي لا يحل لكم ارث النساء. و كرها مصدر في موضع الحال،

أي كارهات. و لا تعضلوهن يجوز أن يكون محله النصب عطفا على ترثوا، أي لا يحل لكم أن ترثوا و لا ان تعضلوا، و يجوز أن يكون محله الجزم على النهي. و المصدر المنسبك من أن يأتين في محل نصب على الحال، أي آتيات بفاحشة. و بهتانا و إثما مصدران في موضع الحال، أي باهتين آثمين عيانا، و يجوز أن يكونا مفعولا لأجله.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسٰاءَ كَرْهاً). ظاهر الآية

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٨٠

النهي عن معاملة المرأة معاملة البهائم، و أخذها على سبيل الميراث، كما كان عليه أهل الجاهلية .. فلقد كانوا يحسبون زوجة الميت من جملة ما يتركه من ميراث، فإذا مات جاء وليه- على ما يروى- و ألقى عليها ثوبا، و حازها بذلك كما يجوز السلب و الغنيمة، فإن شاء تزوجها، و ان شاء زوّجها من غيره، و قبض المهر، تماما كما يبيع السلعة، و يقبض ثمنها، و ان شاء أمسكها في البيت، و ضيّق عليها، حتى تفتدي نفسها بما يرضيه.

و قيل: ان ظاهر الآية غير مراد، و ان هناك مضافا محذوفا، تقديره لا يحل لكم أن ترثوا أموال النساء كرها، و مثال الإرث كرها أن تكون المرأة في ولاية قريب لها، كالأخ- مثلا- و هي تملك شيئا من المال، فيمنعها أخوها من الزواج طمعا في ميراثها، لأنها ان تزوجت ورثها زوجها و أولادها دونه، فأمر الإسلام بإعطاء الحرية للمرأة في الزواج، و نهى عن منعها منه بصيغة النهي عن إرثها كرها، لأن الإرث هو المقصود و الغاية، و المنع عن الزواج وسيلة له.

و نحن لا نرى حرجا على من يختار التفسير الأول، أو الثاني، أو هما معا، ما دام الإسلام ينهى عن معاملة المرأة معاملة المتروكات، و يعطي الحرية للمرأة في الزواج و اختيار الزوج.

(وَ لاٰ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مٰا آتَيْتُمُوهُنَّ). كما لا يجوز للزوج أن يملك المرأة كالبهيمة، أو يمنعها من الزواج، كذلك لا يحل للزوج أن يسيء الى زوجته بقصد أن تبذل له صداقها، لتفتدي نفسها منه، و من سوء معاملته، فإذا بذلت، و الحال هذه، و أخذ منه المال فهو آثم، إذ لا يحل مال امرئ إلا عن طيب نفس.

أجل، إذا تبين انها اقترفت فاحشة الزنا جاز له، و الحال هذه، أن يضيق عليها و يسيء معاملتها، حتى تعطيه ما يرضيه، لقوله تعالى: **(إِلاّٰ أَنْ يَأْتِينَ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ)**. المراد بالفاحشة الزنا، و مبينة، أي ثابتة. و قال جماعة: ان الفاحشة تشمل النشوز أيضا، و نقل صاحب البحر المحيط المالكي عن مالك ان للزوج أن يعضل زوجته الناشز، و يأخذ منها جميع ما تملكه. و قال الشيخ محمد عبده: الفاحشة تشمل الزنا و النشوز و السرقة و غيرها من المحرمات.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٨١

و في رأينا ان الزوج لا يحل له ان يعضل زوجته من أجل المال إلا إذا زنت، و يحرم عليه ذلك فيما عدا الزنا، مهما كان الذنب وقوفا عند اليقين من المعنى المراد من الآية .. هذا، الى ان اقتراف الذنوب لا يحلل و لا يبرر أكل أموال المذنبين، و الا اختل النظام، و عمت الفوضى .. و لمن يحل مال المذنب؟ أ لمذنب مثله، أم لمعصوم عن الذنب؟ و الأول ماله حلال، فكيف يستحل مال الغير؟

و الثاني أين هو؟.

و تجدر الاشارة الى أن القاضي لا يجوز له أن يحكم بسقوط مهر الزوجة التي ثبت عليها الزنا، لأن جواز العضل و الأخذ خاص بالزوج بينه و بين ربه ..

و بتعبير الفقهاء: للزوج أن يأخذ المهر في مثل هذه الحال ديانة لا قضاء.

من طلب المزيد عوقب بالحرمان:

(فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً). قد يكره الرجل من زوجته بعض صفاتها، و لا يصبر عليها، فيطلقها و يتزوج بأخرى، فإذا هي أسوأ حالا، و أقبح أعمالا، فيندم حيث لا ينفع الندم ..

قال صاحب الأغاني: طلق الفرزدق النوال، ثم ندم، و تزوج بعدها امرأة مطلقة، و كان يسمعها تئن و تحن الى زوجها الأول، و تعدد و تردد، فأنشأ يقول:

على زوجها الماضي تنوح و انني على زوجتي الأخرى كذلك أنوح

و قد رأيت أكثر من واحد لا يملك قوت يومه، و يعيش كلا على غيره قد تهيأ له عمل يقيم الأود، و يسد الحاجة، و يغني عن الغير، فرفضه تعاليا عنه، و طلبا لما هو أعلى و أسمى، فابتلاه اللّه بأسوأ مما كان فيه تأديبا له، و عقابا على ترفعه و تعاليه .. فتقطعت نفسه حسرات على ما ذهب وفات .. و لكن حيث لا ينفع الندم، و من الأمثال الشائعة في جبل عامل: (من طلبه كله فاته كله).

كما رأيت الكثير من حملة الشهادات العالية قد رضوا بما تيسر، و قنعوا بوظيفة

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٨٢

كاتب، أو دونها، و انتظروا الفرص متوكلين على اللّه سبحانه .. و ما مضت الأيام، حتى ارتفعوا شيئا فشيئا إلى أسمى المناصب. و جاء في الحديث: القناعة ملك لا يزول .. و كنز لا يفنى .. و المعنى المقصود ان من يكتفي بما يجد، و لا يتعالى عليه احتقارا له، و رغبة فيما لا يجد فإنه في غنى دائم، تماما كمن يملك كنزا لا يفنى.

(وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً). المعنى واضح، و يتلخص بقوله تعالى: «وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً- ٤٩ الأحزاب»، و السراح الجميل الطلاق، مع تأدية جميع مالها من حق .. و قال بعض المفسرين: اختلف العلماء في تحديد القنطار على عشرة أقوال .. و الصحيح انه كناية عن الكثرة .. و قصة المرأة التي اعترضت على عمر بن الخطاب حين أراد أن يحدد المهر، و اعتراضها عليه بهذه الآية- أشهر من أن تذكر.

(أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً). أي تأخذونه باطلا و ظلما، كالظلم بالبهتان.

و تسأل: لما ذا خص اللّه النهي عن أخذ مال الزوجة في حال استبدالها بأخرى، مع العلم بأن الأخذ محرّم على كل حال؟

الجواب: ليس من شك ان الأخذ محرم، سواء استبدل، أو لم يستبدل، و قد تكون الحكمة في ذكر الاستبدال بالخصوص ان الزوج ربما توهم ان له أخذ المهر من الأولى ليدفعه للثانية، لأنها ستقوم مقامها، فيكون لها كل ما كان لتلك، و لأن الدفع للاثنتين يثقل كاهله .. فأزال اللّه سبحانه هذا الوهم بالنص على الاستبدال بالذات.

(وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضىٰ بَعْضُكُمْ إِلىٰ بَعْضٍ). قال بعض المفسرين:

المراد بالافضاء هنا عملية الجنس فقط. و قال آخرون: بل و الخلوة أيضا. و قال ثالث يجيد صناعة الكلام: «المراد بالافضاء العواطف و المشاعر، و الوجدانيات و التصورات، و الأسرار و الهموم، و التجارب و الذكريات، و الاختلاجات و اللحظات» إلى آخر الصفات المسطورات .. رحمة اللّه عليه .. و أحسن ما جاء في كتب التفاسير لمعنى الإفضاء ما قاله الشيخ محمد عبده: «هو اشارة إلى أن وجود كل من الزوجين جزء متمم لوجود الآخر، فكأنّ بعض الحقيقة كان منفصلا عن بعضها الآخر، فوصل اليه بهذا الإفضاء، و اتحد به».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٨٣

و الأولى أن نفسر الإفضاء بالفضل، طبقا لقوله تعالى: «وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ- ٢٣٧ البقرة»، أي احسان كل من الزوجين للآخر .. فقد ذكّر اللّه بقوله: «أَفْضى بَعْضُكُمْ» ذكّر الزوج بما كان بينه و بين زوجته من قبل ليكون معها عند الطلاق، كما كان قبل الطلاق.

الزواج مبادلة روح بروح:

(وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً). حدد اللّه سبحانه عقد الزواج بألفاظ ذكرها في كتابه العزيز، و أوجب الوقوف عندها، و التعبد بها تماما كألفاظ العبادة، و أضفى على عقد الزواج من القداسة ما أبعده عن كل العقود، كعقد البيع و الاجارة، و ما اليهما، لأن البيع مبادلة مال بمال، أما الزواج فمبادلة روح بروح، و عقده عقد رحمة و مودة، لا عقد تمليك للجسم بدلا عن المال، قال الفقهاء: ان عقد الزواج أقرب إلى العبادات منه إلى عقود المعاملات و المعاوضات، و من أجل هذا يجرونه على اسم اللّه، و كتاب اللّه، و سنة رسول اللّه (ص) ..

و قال الشيخ محمود شلتوت: «إذا تنبهنا إلى أن كلمة ميثاق لم ترد في القرآن الكريم إلا تعبيرا عما بين اللّه و عباده من موجبات التوحيد، و التزام الأحكام، و عما بين الدولة و الدولة من الشؤون العامة الخطيرة علمنا مقدار المكانة التي سما القرآن بعقد الزواج اليها، و إذا تنبهنا مرة أخرى إلى أن وصف الميثاق «بالغليظ» لم يرد في موضع من مواضعه إلا في عقد الزواج تضاعف لدينا سمو هذه المكانة التي رفع القرآن اليها هذه الرابطة السامية عن كل ما اطلق عليه كلمة ميثاق».

[سورة النساء (٤): الآيات ٢٢ الى ٢٣]

وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ مَقْتاً وَ ساءَ سَبِيلاً (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خالاتُكُمْ وَ بَناتُ الْأَخِ وَ بَناتُ الْأُخْتِ وَ أُمَّهاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ وَ رَبائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٣)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٨٤

اللغة:

الربائب جمع الربيبة، و هي بنت زوجة الرجل من غيره. و الحلائل جمع الحليلة، أي المحللة من الحلال، و المراد بها الزوجة.

الإعراب:

الا ما قد سلف (ما) محل نصب على الاستثناء المنقطع، و لا يجوز أن يكون متصلا، لأن الماضي لا يستثنى من المستقبل على سبيل الاتصال، و ضمير انه و كان يعودان على نكاح الآباء، و ساء فعل ماض فاعلها مستتر يعود على ما عاد اليه ضمير (انه) و سبيلا تمييز. و قال صاحب مجمع البيان: المخصوص بالذم محذوف. و الصحيح انه لا حذف في الآية إلا إذا قلنا: ان ساء بمعنى بئس، و انها أخذت حكمها .. و لا موجب لذلك.

و سبق عند تفسير الآية ٣ فقرة الاعراب ان (ما) تستعمل في الذي يعقل، كما في قوله تعالى: (مٰا نَكَحَ آبٰاؤُكُمْ .. فَلَهُ مٰا سَلَفَ .. فَانْكِحُوا مٰا طٰابَ لَكُمْ ..

أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُكُمْ) الى غير ذلك كثير، كما ان (من) تستعمل في الذي

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٨٥

لا يعقل كقوله تعالى: فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ بَطْنِهِ .. و النحاة محجوجون بالقرآن، و لا عكس .. و غريب ان أكثر المفسرين يؤلون القرآن بقول النحاة و لا يبطلون قول النحاة بالقرآن.

المعنى:

حرّم اللّه سبحانه الزواج بأصناف من النساء، و المحرمات منهن على قسمين:

محرمات على التأبيد، أي ان السبب الموجب للتحريم غير قابل للزوال كالبنوة و الاخوة و العمومة و الخؤولة. و محرمات تحريما مؤقتا، أي ان سبب التحريم قابل للزوال، مثل كون المرأة زوجة للغير، أو أختا للزوجة، و التفصيل فيما يلي:

١- (وَ لاٰ تَنْكِحُوا مٰا نَكَحَ آبٰاؤُكُمْ مِنَ النِّسٰاءِ إِلاّٰ مٰا قَدْ سَلَفَ). كان الرجل يتزوج امرأة أبيه بعد موته إذا لم تكن أما له، بل ان امية جد أبي سفيان طلق امرأته و زوجها من ابنه، و هو حي، فنهى الإسلام عن ذلك، و تشدد فيه، و اعتبره فاحشة و مقتا و ساء سبيلا.

و اتفق الفقهاء و المفسرون على ان التحريم يشمل زوجات الأجداد للأب و الأم، و ان هذا التحريم يتحقق بمجرد العقد، سواء أحصل الدخول، أم لم يحصل، و اختلفوا فيما لو زنى الأب بامرأة: هل تحرم على ابنه؟ قال الامامية و الحنفية و الحنابلة: تحرم عليه. و قال الشافعية: لا تحرم. و عن مالك روايتان.

٢- (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهٰاتُكُمْ). أي نكاح أمهاتكم، و منهن الجدات للأب و الأم.

٣- (وَ بَنٰاتُكُمْ). و ان نزلن.

٤- (وَ أَخَوٰاتُكُمْ). سواء أكنّ للأبوين، أم لأحدهما. و يحل الزواج بأخت الأخت، و أخت الأخ إذا لم تكن أختا. و مثال ذلك أن يكون لك ولد اسمه رؤوف، و لامرأة بنت من غيرك اسمها هند، فتعقد أنت على أم هند، ثم تعقد لابنك من غيرها على بنتها هند من غيرك، فإذا جاءك ولد من أم هند كان هذا الولد أخا للزوجين، أخا لرؤوف من أبيه، و لهند من أمها.

٥- (وَ عَمّٰاتُكُمْ). العمة كل أنثى هي أخت لرجل يرجع نسبك اليه بالولادة مباشرة، أو بالواسطة، فعمتك أخت لأبيك الذي ولدت منه بلا واسطة، و عمة

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٨٦

أبيك أخت لجدك الذي ولدت منه بواسطة واحدة، و عمة جدك أخت لأبي جدك الذي ولدك بواسطتين .. و هكذا. و

أيضا تحرم عليك عمة أمك، لأنها أخت لأبي أمك الذي ولدك بواسطة واحدة. و تحل بنت العم و العمة، لأنها ليست أختا لمن ولدت منه، بل هي بنت أخيه، أو بنت أخته.

٦- (وَ خالاتُكُمْ). الخالة كل أنثى هي اخت لمن يرجع نسبك اليها بالولادة مباشرة، أو بالواسطة، فخالتك أخت لأمك التي ولدت منها مباشرة، و خالة أمك اخت لجدتك التي ولدت منها بواسطة واحدة. و مثلها خالة أبيك، و الفرق ان هذه اخت للجدة للأب، و تلك أخت للجدة للأم. و تحل بنت الخال و الخالة، لأنها ليست أختا لمن ولدت منه، بل بنتا لأخيه أو أخته.

٧- (وَ بَناتُ الأَخِ وَ بَناتُ الأُخْتِ). و ان نزلن.

٨- (وَ أُمَّهاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ). اتفقوا قولا واحدا على العمل بهذا الحديث: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

و عليه فكل امرأة حرمت من النسب تحرم مثلها من الرضاع، أما كانت أو أختا أو بنتا أو عمة أو خالة أو بنت أخ أو بنت أخت.

و اختلفوا في عدد الرضعات التي توجب التحريم. قال الامامية هي خمس عشرة رضعة كاملة، لا يفصل بينها رضعة من امرأة اخرى، أو يرضع الطفل من المرأة يوما و ليلة، على أن يكون غذاؤه طوال هذه المدة منحصرا بلبن المرأة فقط.

و قال الشافعية و الحنابلة: لا بد من خمس رضعات على الأقل.

و قال الحنفية و المالكية: يحصل التحريم بمجرد حصول الرضاع كثيرا كان أو قليلا. و هناك شروط أخرى ذكرناها مفصلا في كتاب الأحوال الشخصية على المذاهب الخمسة.

٩- (وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ). اتفقوا على ان ام الزوجة، و ان علت تحرم بمجرد العقد على البنت، و ان لم يحصل الدخول. و شذ من قال: ان العقد لا يحرّم الأم، حتى يدخل بالبنت، و استدل بالآية نفسها، حيث جعل لفظ (اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ) وصفا لأمهات النساء و الربائب .. و أعرض فقهاء المذاهب عن هذا القول، لأن الوصف يرجع إلى الأقرب، و للأحاديث الصحيحة عن الرسول الأعظم (ص). و هذه الأصناف كلها تحرم على التأبيد.

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٢٨٧

١٠- (وَ رَبائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ). اتفقوا على ان بنت الزوجة لا تحرم على العاقد بمجرد وقوع العقد على أمها، فيجوز له أن يطلق الأم قبل أن يدخل، ثم يعقد على بنتها. و ليس معنى قوله: اللاتي في حجوركم ان الربيبة تحل إذا لم تكن في حجر الرجل، لأن الربيبة تحرم، و ان لم تكن في حجر زوج الأم، و انما ذكر الحجور لبيان الفرد الغالب، لا للاحتراز من التي ليس في الحجر.

و قال الحنفية و المالكية: اللمس و النظر بشهوة يوجبان التحريم، تماما كالدخول.

و قال الإمامية و الشافعية و الحنابلة: لا تحرم إلا بالدخول، و لا أثر للمس و لا للنظر، و ان كانا مع الشهوة.

و اتفقوا على ان حكم الوطء بشبهة حكم الزواج الصحيح في ما ذكر، و معنى وطء الشبهة أن تحصل المقاربة بين رجل و امرأة باعتقاد انهما زوجان شرعيان، ثم يتبين انهما أجنبيان.

١١- (وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ). اتفقوا على ان زوجة الابن و ان نزل تحرم على الأب و ان علا بمجرد

العقد. و قوله من أصلابكم ليخرج ولد التبني، أما الولد من الرضاعة فحكمه حكم الولد من النسب، لحديث يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب.

١٢- **(وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ)**. اتفقوا على تحريم الجمع بين الأختين، فإذا فارق الرجل زوجته بموت أو طلاق جاز الزواج بأختها.

و قال الإمامية و الشافعية: إذا طلق زوجته رجعيا فلا يجوز له أن يعقد على أختها إلا بعد انقضاء العدة. أما إذا طلقها بائنا فيجوز أن يتزوج الأخت في أثناء العدة، لأن الطلاق البائن ينهى الزواج، و يقطع العصمة.

و قالت سائر المذاهب: ليس له ذلك إلا بعد انقضاء العدة، من غير فرق بين الطلاق الرجعي و البائن.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٩١

[سورة النساء (٤): الآيات ٢٤ الى ٢٥]

وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلاَّ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ كِتابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (٢٤) وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ وَ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ وَ لا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)

اللغة:

محصنات جمع محصنة بفتح الصاد، مأخوذ من الحصن، و يختلف المراد من الحصن باختلاف متعلقه، فالإسلام حصن، و الحرية حصن، و الزواج حصن، و العفة حصن، و الآيتان اللتان نفسرهما تحتويان على هذه المعاني الأربعة، و التفصيل في فقرة المعنى.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٩٢

و الاستمتاع طلب المتعة، و المراد بها هنا المتعة بالمرأة على الوجه الشرعي.

و الطول الغنى. و أخدان جمع خدن، و معناه الصديق. و يطلق على المذكر و المؤنث، و الواحد و الجمع. و العنت الجهد و الشدة.

الإعراب:

و المحصنات عطف على النساء المحرمات المذكورات في الآية السابقة، أي و حرمت عليكم المتزوجات. و كتاب اللّه نصب على المصدر، أي كتب اللّه عليكم كتابا. و أحل لكم ما وراء ذلكم (ما) نائب فاعل لأحل. و المصدر المنسبك من أن تبتغوا بدل اشتمال من ما وراء ذلكم، لأن تحليل نكاح المرأة يحتاج إلى مال، و يجوز أن يكون المصدر مفعولا لأجله لأحل. و محصنين حال من واو تبتغوا. و غير مسافحين صفة لمحصنين. و فريضة منصوبة على المصدر، أي فرض اللّه ذلك فريضة. و من لم يستطع منكم (منكم) متعلق بمحذوف حال من ضمير لم يستطع. و طولا مفعول لم يستطع. و المصدر من أن ينكح المحصنات مفعول من أجله، أي من عجز عن نكاح المحصنات لعدم المال فلينكح الإماء. بعضكم

من بعض مبتدأ و خبر. و مثله و ان تصبروا خير لكم، أي الصبر خير لكم.

المعنى:

(وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلاَّ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ). سبق في فقرة اللغة ان الإحصان في هاتين الآيتين قد جاء على أربعة معان: الزواج و العفة و الحرية و الإسلام. و المراد بالمحصنات هنا المتزوجات، لأن الزواج حصن للزوجة، يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي، و حصن للزوج أيضا للعلة نفسها، فلقد جاء في الحديث: «من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه». و المراد بما ملكت ايمانكم ان تصير المرأة ملكا للرجل، و المعنى ان المرأة إذا كانت متزوجة حرمت على غير زوجها إلا إذا تملكها مسلم، فتحل حينئذ لمالكها رغم انها زوجة للغير، و المسلم يملك المرأة بسببين:

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٩٣

الأول: ان تصير غنيمة له، و ذلك أن تقع حرب دينية بين المسلمين و المشركين، فينتصر المسلمون، فيصبح المشركون بنسائهم و أطفالهم و أموالهم غنائم حرب للمسلمين، فإذا غنم المسلم امرأة دون زوجها وقعت الفرقة بين الزوجين بإجماع المذاهب، و ان غنم الزوجين معا لم تقع الفرقة بينهما عند الحنفية و الحنابلة، و تقع عند الإمامية و الشافعية و المالكية، فإذا أراد المسلم الذي حاز المشركة أن ينكحها جاز له ذلك بعد أن تضع حملها ان كانت حاملا، و بعد أن تحيض مرة واحدة ان كانت حائلا، و من ذوات الحيض، و إلا امتنع عنها ٤٥ يوما، ثم قاربها ان شاء.

و هذه الأحكام طبقت في الفتوح الإسلامية الأولى، و عللها البعض بأنها للردع و الزجر عن الشرك، و الترغيب في اعتناق الإسلام .. أما نحن فنقول: انها أحكام تعبدية لا نعرف وجه الحكمة منها، و كل ما نعرفه ان لها أشباها و نظائر في الشرائع، و ان بعضها حلل قتل النساء و الأطفال، أما الإسلام فقد أمر بالرفق في الأسرى و العبيد، مهما كان دينهم و مذهبهم.

السبب الثاني الذي يملك به المسلم المرأة هو شراء الأمة، و ذلك أن يكون للرجل أمة مملوكة، و كان قد زوّجها من عبد له أو لغيره، ثم باعها من آخر، فهذا البيع يفسخ زواج الأمة من العبد و يبطله عند الامامية، و يحل للمشتري أن يفترش الأمة التي ابتاعها بعد ان تستبرئ بوضع الحمل، أو بحيضة، أو بخمسة و أربعين يوما.

و قال السيد رشيد رضا صاحب تفسير المنار: «ان بعض الصحابة كابن مسعود على هذا الرأي الذي ذهب اليه الامامية- ثم قال صاحب المنار-:

و لولا ما اختاره الأستاذ الإمام- يريد ان الشيخ محمد عبده اختار غير مذهب الامامية- لكان قول الامامية أرجح من مذهب جمهور أهل السنة».

فالسيد رشيد يعترف بأن قول الامامية أرجح من مذهب السنة، و مع ذلك يرفضه لا لشيء إلا لأن استاذه لم يقل به .. و غريب هذا من أمثال السيد رشيد الذي نعى في تفسيره على التقليد و المقلدين، حتى أخرجهم من الدين، لا من العلم فقط (انظر تفسيره للآية ١٦٥- ١٦٧ من سورة البقرة).

و الخلاصة ان الإسلام أباح للمسلم أن ينكح المتزوجة إذا كانت أمة، و ملكها

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٩٤

بالشراء، أو كانت مشركة، و غنمها في حرب دينية، يدافع فيها عن الإسلام، و يدعو اليه.

و تسأل: ان لفظ المحصنات جمع مؤنث، و معناه واضح من غير بيان، فأية فائدة من قوله تعالى: (مِنَ النِّساءِ)؟.

الجواب: ان القرآن كثيرا ما يأتي بالقيد للتوضيح و التوكيد، مثل (وَ قَتْلَهُمُ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ). مع العلم بأن قتل الأنبياء لا يكون و لن يكون إلا بالباطل.

ثانيا: قد يتوهم متوهم ان المراد بالمحصنات خصوص المسلمات، فجاء قيد (مِنَ النِّساءِ) لبيان العموم، و ان عقد الزواج محترم، سواء أوقع على المسلمة، أم غيرها.

(كِتابَ اللهِ عَلَيْكُمْ). هذا مجرد توكيد لما سبق من قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الخ، أي ان تحريم الأصناف المذكورة هو حتم مفروض من اللّه .. فمن خالف فإن اللّه سبحانه هو الذي يحاكمه و يعاقبه.

(وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ). لما انتهى سبحانه من بيان المحرمات أعطى قاعدة كلية، و هي ان غير الأصناف المذكورة يحل نكاحهن، على شريطة أن يحصل الزواج بهن حسب الأصول المقررة في الشريعة، و منها أن يدفع الراغب في النكاح للمرأة صداقا شرعيا، لا أجرة على البغاء، و هذا معنى قوله:

(أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ). فالمراد بالاحصان هنا العفة، و بالسفاح الزنا، و لفظ محصنين يغني عن غير مسافحين، و لكنه جاء للتوكيد، و الاشارة إلى أن لصاحب المال أن ينفق أمواله في الملذات و الطيبات غير المحرمة ..

لأن الإسلام كما حرم طرائق الكسب غير المشروع، كالربا و الغش و الغصب، فقد حرم انفاق المال في المحرمات، كالزنا و الاعتداء على حرية الآخرين.

و اتفق السنة و الشيعة على ان قوله تعالى: (وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ) يدل على جواز الجمع بين العمة و بنت أخيها، و بين الخالة و بنت أختها .. لأن المعروف من طريقة المشرعين أن يذكروا المحرمات فقط، لإمكان حصرها، أما المباحات التي لا يبلغها الإحصاء فيشيرون اليها بقولهم: (ما عدا ذلك). و لكن السنة قالوا: ثبت عن الرسول (ص) انه قال: «لا تنكح المرأة على عمتها، و لا على خالتها».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٩٥

و قال الخوارج: يجوز الجمع بينهما مطلقا، رضيت العمة و الخالة، أم أبتا.

و اختلف الإمامية فيما بينهم، فمنهم من قال بمقالة السنة. و الأكثرية منهم ذهبوا الى انه إذا تزوج أولا بنت الأخ، أو بنت الأخت فله أن يتزوج العمة أو الخالة مطلقا، و إذا تزوج العمة أو الخالة أولا فلا يجوز له أن يعقد على بنت الأخ أو بنت الأخت إلا إذا أذنت العمة أو الخالة، و استدلوا بروايات عن أهل البيت (ع).

زواج المتعة:

(فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً). الضمير في (به) يعود على ما في قوله تعالى: (وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ) و جاء بصيغة المفرد باعتبار لفظ (ما)، و الضمير في (منهن) يعود على (ما) أيضا، و جاء بصيغة الجمع باعتبار معناها، لأن المراد بما وراء ذلكم النسوة اللواتي يحل الزواج بهن، أما الأجور فالمراد بها المهور، و المعنى المحصل باتفاق المفسرين ان من أراد الزواج بامرأة من اللواتي تحل له فعليه أن يؤدي لها المهر حقا مفروضا من اللّه، لا صدقة و إحسانا.

و قد كثر الكلام و النقاش حول هذه الآية: هل المراد بها الزواج الدائم فقط، أو زواج المتعة فقط، أو هما معا، و على فرض ارادة المتعة، فهل نسخت هذه الآية، و نسخ معها زواج المتعة؟.

و فيما يلي يتضح الجواب عن جميع ما أثير أو يثار من التساؤلات حول زواج المتعة.

جاء في كتب الحديث و الفقه و التفسير للسنة و الشيعة ان المسلمين اتفقوا قولا واحدا على ان الإسلام شرّع متعة النساء، و ان النبي (ص) أمر بها أصحابه. من ذلك ما جاء في الجزء السابع من صحيح البخاري، كتاب الترغيب في النكاح ان رسول اللّه (ص) كان في جيش للمسلمين، فقال لهم: قد أذن اللّه لكم أن تستمتعوا، فاستمتعوا .. و في رواية ثانية للبخاري: أيما رجل و امرأة توافقا فعشرة ما بينهما ثلاث ليال، فإن أحبا أن يتزايدا أو يتتاركا تتاركا.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٩٦

و في صحيح مسلم ج ٢ باب «نكاح المتعة» ص ٦٢٣ طبعة ١٣٤٨ هـ عن جابر بن عبد اللّه الأنصاري انه قال: استمتعنا على عهد رسول اللّه و أبي بكر و عمر، و في الصفحة نفسها حديث آخر عن جابر، قال فيه: ثم نهانا عمر ..

و مثله عن الجزء الثالث من مسند الإمام أحمد بن حنبل.

و قال الرازي في تفسير آية (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ): «قال عمران بن الحصين، و هو من فقهاء الصحابة و فضلائهم: ان اللّه أنزل في المتعة آية، و ما نسخها بآية أخرى، و أمرنا رسول اللّه (ص) بالمتعة، و ما نهانا عنها، ثم قال رجل برأيه ما شاء .. يريد ان عمر نهى عنها».

و هذه الروايات و نظائرها موجودة في أكثر صحاح السنة و تفاسيرهم و كتبهم الفقهية، و عليه يكون النزاع في انه: هل المراد بقوله تعالى (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ الخ) الزواج الدائم فقط، أو زواج المتعة فقط، أو هما معا، يكون هذا النزاع عقيما لا جدوى منه، لأن النتيجة هي هي لا تختلف في شيء، سواء أقلنا:

ان آية (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ) عامة للمتعة، أو قلنا: هي مختصة بالزواج الدائم، إذ المفروض ان رسول اللّه (ص) قد أمر بزواج المتعة باتفاق المسلمين، و ان كل ما أمر الرسول به فإن اللّه يأمر به أيضا، لقوله تعالى: «مٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا- ٧ الحشر».

أجل، بعد ان اتفق السنة و الشيعة على ان الإسلام شرّع المتعة اختلفوا في نسخها و تحريمها بعد الجواز و التحليل؟.

قال السنة: حرمت بعد ان كانت حلالا .. و قال الشيعة: كانت حلالا، و لا تزال الى آخر يوم .. و بديهة ان على السنة أن يثبتوا النسخ و التحريم من الرسول (ص)، لأنهم يدعون زوال الشيء الثابت بطريق القطع و اليقين، أما الشيعة فلا يكلفون بالاثبات على عدم النسخ، لأن ما ثبت باليقين لا يزول إلا بيقين مثله- مثلا- إذا اتفق اثنان على ان فلانا كان حيا في العام الماضي، ثم اختلفا في موته الآن فالاثبات على من يدعي الموت، أما من يقول ببقاء الحياة فهو في فسحة، و لا يطلب منه شيء، لوجوب الحكم بإبقاء ما كان على ما كان، حتى يثبت العكس.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٩٧

و السنة يعترفون بأن عليهم عبء الإثبات دون الشيعة، و لذلك استدلوا على ثبوت النسخ بروايات عن النبي (ص)، ورد الشيعة هذه الروايات، و ناقشوها متنا و سندا، و أثبتوا بالمنطق السليم انها موضوعة على الرسول الأعظم (ص) بأدلة:

«منها» ان السنة أنفسهم يعترفون بأنها مضطربة متناقضة، قال ابن رشد في الجزء الثاني من البداية، مسألة نكاح المتعة ما نصه بالحرف: «في بعض الروايات ان النبي (ص) حرم المتعة يوم خيبر، و في بعضها يوم الفتح، و في بعضها في غزوة تبوك، و في بعضها في حجة الوداع، و في بعضها في عمرة القضاء، و في بعضها عام أوطاس، و هو اسم مكان في الحجاز، و محل غزوة من غزوات الرسول (ص)- ثم قال ابن رشد-: روي عن ابن عباس انه قال: ما كانت المتعة إلا

رحمة من اللّه، رحم بها أمة محمد (ص) و لولا نهي عمر عنها ما اضطر الى الزنا إلا شقي».

و «منها» أي من ردود الشيعة على روايات النسخ انها ليست بحجة، حتى و لو سلمت من التناقض، لأنها من أخبار الآحاد .. و النسخ انما يثبت بآية قرآنية، أو بخبر متواتر، و لا يثبت بالخبر الواحد «١».

و «منها» ما جاء في صحيح مسلم من ان المسلمين تمتعوا على عهد الرسول، و عهد أبي بكر، و هذا ينفي نسخها في عهد الرسول، و إلا كان الخليفة الأول محللا لما حرم اللّه و الرسول .. و أصدق شيء في الدلالة على عدم النسخ في عهده (ص) قول عمر بالذات: «متعتان كانتا على عهد رسول اللّه انا انهى عنهما، و أعاقب عليهما». و مهما شككت فلا أشك و لن أشك في ان عمر لو سكت عن هذا النهي لما اختلف اثنان من المسلمين في جواز المتعة و حليتها الى يوم يبعثون.

و تسأل: بعيد جدا أن يقول عمر هذا .. لأنه تحريم لما أحله اللّه، ورد على رسول اللّه الذي لا ينطق عن الهوى؟.

الجواب: أجل، هو أبعد من بعيد، لأنه كما قلت: رد على اللّه و رسوله ..

---

(١) الخبر المتواتر هو أن يرويه جماعة بلغوا من الكثرة حدا يمتنع معه عادة اتفاقهم على الكذب. و الخبر الواحد لا ينتهي إلى حد التواتر، سواء أ كان راويه واحدا، أو أكثر.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٩٨

و لكن المسلمين اتفقوا على ان عمر قال ذلك، و ما رأيت واحدا منهم نفى نسبته اليه .. بل في بعض الروايات ان عمر نهى عن ثلاثة أشياء أمر بها النبي لا شيئين، قال القوشجي في شرح التجريد- و هو من علماء السنة- قال في آخر مبحث الامامة: «ان عمر صعد المنبر، و قال: ايها الناس، ثلاث كن على عهد رسول اللّه، انا أنهى عنهن، و احرمهن، و أعاقب عليهن: متعة النساء، و متعة الحج، وحي على خير العمل» .. و روى كل من الطبري و الرازي ان عليا قال: لولا ان عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي. و مثله عن تفسير الثعلبي و السيوطي.

سؤال ثان: أ ليس من الأليق بمكانة عمر أن نحمل قوله هذا على انه رواية عن النبي (ص)، و ليس رأيا من عمر ضد النبي (ص)؟.

الجواب: أجل، ان هذا الحمل أليق و أخلق، و لكن قوله: «كانتا على عهد رسول اللّه، و أنا أنهى عنهما» يأبى هذا الحمل، حيث نسب التحليل الى الرسول، و التحريم الى نفسه، و لو كان قوله رواية، لا رأيا لنسب النهي الى الرسول، لأنه أبلغ في الردع و الزجر.

و بالاختصار: لا يمكن الجمع بحال بين القول: ان النبي (ص) نهى عن المتعة بعد أن أمر بها، و بين قول عمر: كانت المتعة على عهد رسول اللّه، و انا أنهى عنها .. و قد ثبت ان عمر قال هذا فيلزم من ذلك حتما ان النبي لم ينه عن المتعة .. هذا بعض ما يرد من الطعون بروايات النسخ المنسوبة الى النبي .. و من أراد التفصيل فليرجع الى تفسير آلاء الرحمن للشيخ محمد جواد البلاغي، و البيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي، و نقض الوشيعة للسيد محسن الأمين، و الجزء الثالث من كتاب دلائل الصدق للشيخ محمد حسن المظفر.

و تجدر الاشارة إلى أنه لا فرق بين الزواج الدائم، و زواج المتعة في ان كلا منهما لا يتم إلا بعقد و مهر، و في نشر الحرمة من حيث المصاهرة، و في وجوب التوارث و الإنفاق و سائر الحقوق المادية و الأدبية بين أولاد المتعة و أولاد الزواج الدائم، و في وجوب العدة على الممتع بها .. و في الجزء الخامس من كتابنا فقه الإمام جعفر الصادق (ع) ذكرنا ١٤ وجها يتساوى فيها الزواج الدائم، و الزواج المنقطع، أي المتعة، و ١٠ أوجه يفترق فيها كل عن الآخر.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٢٩٩

(وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ). إذا جرى الزواج على مهر مبين محدد في متن العقد يصبح حقا لازما للزوجة، تتصرف فيه كيفما تشاء، و لكن هذا لا يمنع أن يتراضى الزوجان بعد ذلك على ترك المهر كلا أو بعضا، أو الزيادة عليه، كما انه لا مانع أن يتراضيا على نوع النفقة و مقدارها، أو تركها من الأساس، أو يتراضيا على الطلاق، أو على الرجوع بعد الطلاق، أو بعد انقضاء أمد المتعة، و ما إلى ذلك ضمن الحدود الشرعية.

(وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ).

المراد بالطول هنا المال، و بالمحصنات الحرائر لمقابلتهن بالإماء المشار إليهن بقوله تعالى: **(فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ)**، لأن الامة تدخل في ملك اليمين، و المعنى من لم يجد من المال ما يمكّنه من الزواج بحرة فليتزوج أمة مؤمنة.

(وَ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ). المراد بالإيمان الدين، و المعنى لا ينبغي للمؤمن أن يستنكف عن زواج الامة للونها و عنصرها، لأن الناس جميعا من آدم، و آدم من تراب، و التفاضل عند اللّه بالتقوى، لا بالاحساب و الأنساب، و ربّ أمة هي أكرم عند اللّه من حرة، لأنها أبر و أتقى.

(فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ). و أهل الأمة سيدها و مالكها، و المراد بالأجور المهور **(مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ)**. أي عفيفات غير زانيات بصورة علنية، كالمومس، **(وَ لا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ)** أي و لا بصورة سرية، كالتي تختص بصديق في الخفاء.

(فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ).

المراد من الإحصان في (أحصن) الزواج، و في (المحصنات) الحرائر، و المعنى ان الأمة إذا زنت فعليها من العقاب نصف ما على الحرة، و هذا العقاب هو ما بيّنه سبحانه بقوله: «الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ- ٢ النور».

(ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ). ان اللّه سبحانه لا يريد أن يشق على عباده، و لا أن يقعوا في الفتنة، فمن مالت نفسه إلى المرأة فليتزوج حرة، فإن لم يجد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٠٠

المال تزوج بأمة مؤمنة، و ان استطاع الصبر عن زواجها، و كان آمنا على دينه و صحته فالصبر خير و أفضل **(وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ)**.

و هذه الآية على طولها تعرضت لحكم زواج الحر بأمة، و لعقوبتها إذا زنت، و أوجزنا في التفسير، لأن الحديث عن الإماء و أحكامهن أصبح بلا جدوى بعد الغاء الرق.

و غريبة الغرائب ان أول دولة سبقت إلى الدعوة لإلغاء الرق تعامل الملونين في بلدها معاملة الحيوانات، و تناصر الحكومات العنصرية في كل مكان، و تضع مخططات جهنمية تهدد العالم بأسره، و مستقبل الانسانية، و أصدق الدلائل على هذه الحقيقة مشاركتها في خلق إسرائيل، و مساندتها في الاعتداء على البلاد العربية، و طرد المواطنين من بلادهم،

لا لشيء إلا لتخضع العرب لنفوذها و سياستها ..

أما حشدها الجيوش بمئات الألوف في فييتنام، و تفننها في التقتيل و التخريب فلا يعرف التاريخ له مثيلا .. و أعتقد انه لا وسيلة للخلاص من شرور هذه الدولة إلا أن يرفض كل انسان في الشرق و الغرب كل ما ينتمي اليها، و يحمل أثرا من آثارها.

[سورة النساء (٤): الآيات ٢٦ الى ٢٨]

يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواٰتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧) يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً (٢٨)

اللغة:

السنن المناهج.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٠١

الإعراب:

ليبين اللام قائمة مقام ان، يقال: أردت لتذهب، أي ان تذهب، و منه قوله تعالى: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ) أي ان يطفئوا. و تسبك ان او اللام التي في معناها مع الفعل بمصدر مفعولا ليريد اللّه، أي يريد اللّه التبيين لكم.

و مفعول يبين محذوف، تقديره هذه التكاليف من حلاله و حرامه. و ضعيفا حال من الإنسان.

المعنى:

(يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ). بعد أن بيّن سبحانه في الآيات السابقة الأصناف المحرمة من النساء نسبا و صهرا و رضاعة، و بيّن أيضا ما يحل منهن بقوله: (وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذٰلِكُمْ) بعد هذا قال عز من قائل: شرعنا لكم تلك الأحكام، و بيّناها لكم، كي تستغنوا بحلاله عن حرامه، و بطاعته عن معصيته، و تتبعوا في اجتناب المحرمات سبيل من سبقكم الى الهداية و الايمان، و أيضا لكي يعرف التائب المنيب ما شرّع اللّه من الأحكام، فيتقرب اليه بفعل ما أمر به، و ترك ما نهى عنه ..

و قيل: ان اللّه سبحانه أراد بقوله: **(وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)** انه تعالى شرّع تلك الأحكام لتعملوا بها تائبين مما سلف منكم في زمن الجاهلية و أول الإسلام من نكاح حلائل الآباء، و الجمع بين الأختين، و ما الى ذلك من المحرمات، و مهما يكن فان التائب و غير التائب لا يمكنه أن يطيع اللّه، و يمتثل أحكامه إلا بعد بيانها و العلم بها، فبيان أحكامه لعباده فضل منه و نعمة عليهم، لأنه لا يأمر إلا بما فيه الخير و المصلحة، و لا ينهى إلا عما فيه الشر و المفسدة، و ليس من الضروري أن يبيّن لنا سبحانه وجه الحكمة من أمره و نهيه، و لسنا نحن مكلفين بمعرفته و البحث عنه، و ما علينا إلا التسليم و الطاعة مؤمنين بأن أحكامه تعالى هي لخيرنا دنيا و آخرة.

(وَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواٰتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٠٢

عَظِيماً). الذين يتبعون الشهوات هم دعاة التحرر من القيود الدينية و الأخلاقية، و الانطلاق مع غريزة الجنس انّى توجهت، و هؤلاء موجودون في كل عصر من عهد مزدك الى آخر يوم، و ان اختلفوا في شيء فإنما يختلفون في

الأسلوب تبعا لعصورهم، و قد تفننوا في القرن العشرين باسم الحرية و التطور، و تجاوزوا الحد في اثارة الجنس عن طريق الأفلام و الروايات، و الأعضاء العارية و الحركات ..

و هذا هو الميل و الانحراف العظيم الذي أشار اليه سبحانه بقوله: (أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً).

و تسأل: لقد كرر اللّه سبحانه التوبة في آيتين لا فاصل بينهما، حيث قال:

«وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ». فما هو القصد من ذلك؟

الجواب: جاءت التوبة الأولى تعليلا لبيان الحلال و الحرام من النساء بصرف النظر عن أمر اللّه بالتوبة و إرادته لها .. أما التوبة الثانية فهي تعبير عن أمره تعالى و ارادته التوبة بترك المحرمات، و تقابلها ارادة متبعي الشهوات .. و نظير ذلك ان تقول لولدك، اشتريت لك هذا الكتاب لتقرأه، فاقرأه .. فذكرت القراءة أولا لبيان السبب الموجب للقراءة، و أعدتها ثانية، لأنك تريدها منه، و تأمره بها.

(يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ). في تحليل من أحل لكم من النساء، بل في غيرها أيضا، قال تعالى: «يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ- ١٨٥ البقرة». «وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ- ٧٨ الحج». و في الحديث الشريف: (جئتكم بالحنيفية السهلة السمحة).

(وَ خُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً) في مقاومة الدواعي و البواعث الى الطيبات و الملذات، بخاصة لذة الجنس، و من أجل هذا أحل اللّه التمتع بالنساء ضمن الحدود التي سبق بيانها .. و في الأساطير ان إبليس قال لموسى (ع): ما خلا رجل بامرأة الا كنت صاحبه، دون أصحابي.

و ما رأيت أحدا صوّر ضعف الإنسان في نفسه و جسمه كالإمام علي (ع) حيث قال: «ان سنح له الرجاء أذله الطمع، و ان هاج به الطمع أهلكه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٠٣

الحرص، و ان ملكه اليأس قتله الأسف .. و ان ناله الخوف شغله الحذر، و ان أصابته مصيبة فضحه الجزع، و ان عضته الفاقة شغله البلاء» .. و قال: مسكين ابن آدم مكتوم الأجل، مكنون العلل، محفوظ العمل، تؤلمه البقة، و تقتله الشرقة، و تنتنه العرقة.

و كما صوّر الإمام جهة الضعف في الإنسان فقد صوّر أيضا جهة القوة و العظمة فيه، من ذلك قوله: (الإنسان يشارك السبع الشداد) أي ان موهبته لا تقف عند حد الظروف التي تحيط به، بل يتعداها الى القمر و الزهرة و المريخ، و سائر ما في الكون يسخره لحاجاته و أغراضه .. لقد أشار الإمام إلى ضعف الإنسان كي لا يركن إلى قوته و يغتر بها، فيطغى، و أشار إلى قوته كي لا يستسلم للضعف ان أصابه، فينصرف عن الجهاد و العمل .. و العاقل من يناضل، و هو على حذر من المخبآت و المفاجئات.

[سورة النساء (٤): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (٢٩) وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً (٣٠)

الاعراب:

المصدر المنسبك من أن تكون في محل نصب على الاستثناء المنقطع، لأن التجارة عن تراض ليست من جنس أكل

المال بالباطل، و التقدير كون التجارة عن

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٠٤

تراض غير منهي عنها. و قرئ تجارة بالرفع فاعلا لتكون على انها تامة، و قرئ بالنصب خبرا لتكون على انها ناقصة، و اسمها ضمير مستتر يعود على الأموال، أي إلا أن تكون الأموال تجارة. و عن تراض متعلق بمحذوف صفة لتجارة. و عدوانا و ظلما مفعول من أجله، و يجوز أن يكونا موضع الحال، أي معتدين و ظالمين.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَأْكُلُوا أَمْوٰالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبٰاطِلِ). سبقت هذه الجملة بحروفها مع تفسيرها في الآية ١٨٨ من سورة البقرة .. و نعطف على ما سبق ما روي عن الإمام جعفر الصادق (ع): ان من كان عليه دين، و عنده مال، فأنفقه في حاجته، و لم يف به الدّين فقد أكل المال بالباطل، بل عليه أن يفي به دينه، حتى و لو احتاج إلى الصدقة .. أجل، يجوز له أن يستثني منه مئونة يوم و ليلة.

(إِلاّٰ أَنْ تَكُونَ تِجٰارَةً عَنْ تَرٰاضٍ مِنْكُمْ). و لفظة (منكم) اشارة إلى انه لا بد من رضى الطرفين .. و يدل هذا الاستثناء على ان التجارة لا يشترط فيها أن يكون العوضان متساويين، بحيث يكون كل منهما على قدر الآخر بالقسطاس المستقيم، لأن ذلك يكاد يكون مستحيلا، و من ثم اذن اللّه سبحانه لكل من المبتاعين أن يأكل الزائد عن ماله، ما دام الطرف الآخر أوقع الصفقة برضاه و اختياره، على شريطة عدم الغش و الكذب.

و تسأل: إذا أبدى التاجر براعة في الدعاية لسلعته و تزيينها و ترويجها، فهل يكون هذا من باب الغش، و أكل المال بالباطل؟.

الجواب: كلا، و لكن إذا وقع البيع على السلعة بشرط أن تكون على وصف خاص، ثم تبين العكس كان للمشتري الخيار في أن يفسخ البيع، و يرجع السلعة لصاحبها، و يسترد الثمن.

(وَ لاٰ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ). أي لا يقتل بعضكم بعضا، و فيه اشعار بوحدة

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٠٥

الانسانية و تكافلها. و في الحديث الشريف: «المؤمنون كنفس واحدة». و قيل معنى **(لاٰ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)** لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة بفعل ما نهاكم اللّه عنه ..

و هذا المعنى صحيح في نفسه، و لكنه خلاف ظاهر الآية.

(وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوٰاناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نٰاراً). ذلك اشارة الى قتل النفس، و أكل المال بالباطل، و العدوان و التعدّي على الحق، و مثله الظلم، و جاز العطف مع اتحاد المعنى لاختلاف اللفظ، كقول الشاعر: «و ألفى قولها كذبا و مينا». و يمكن التفريق بين العدوان و الظلم بأن الظلم يكون للنفس و للغير، أما العدوان فلا يكون إلا على الغير ..

و على أية حال، فان الناسي و الخاطئ و المكره لا يتصف فعلهم بظلم و لا عدوان إلا فعل المكره على القتل فانه يتصف بالظلم و العدوان- مثلا- إذا قال ظالم قادر لزيد: اقتل هذا، و إلا قتلتك. فلا يجوز لزيد أن يقتل المظلوم، حتى و لو تيقن ان الظالم سينفذ وعيده فيه، إذ لا يجوز للإنسان أن يدفع عن نفسه ضرر القتل بإدخاله على الغير، و إذا نفّذ زيد ارادة الظالم، و قتل المظلوم قتل زيد به قصاصا، و سجن الظالم الآمر بالقتل، حتى الموت.

[سورة النساء (٤): آية ٣١]

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبٰائِرَ مٰا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (٣١)

اللغة:

الكبائر واحدتها كبيرة، و هي المعصية العظيمة. و مدخل بضم الميم من أدخل، و بفتحها من دخل، و في الحالين هو اسم مكان: و المراد به الجنة.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٠٦

الإعراب:

مدخلا مفعول فيه لندخلكم، لأن المراد به المكان، و هو الجنة.

المعنى:

قسم القرآن الكريم الذنوب الى قسمين: كبائر و صغائر، و قد جاء هذا التقسيم في العديد من الآيات، منها هذه الآية، لأن المراد من (سيئاتكم) في قوله تعالى: **(نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ)**، المراد منها ما عدا الكبائر باتفاق المفسرين، و المعنى: من اجتنب كبائر الذنوب محونا عنه صغائرها.

و منها قوله تعالى في الآية ٣٢ النجم: «الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبٰائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوٰاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ» و اللمم هي الصغائر.

و منها قوله سبحانه في الآية ٥٠ الكهف: «لاٰ يُغٰادِرُ صَغِيرَةً وَ لاٰ كَبِيرَةً إِلاّٰ أَحْصٰاهٰا».

و منها الآية ٧ الحجرات: «وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيٰانَ». و هي صريحة في ان المنهيات أقسام ثلاثة: الكفر، و هو الجحود و الإنكار. و الفسوق، و هو اقتراف الكبائر. و العصيان، و هو الصغائر.

و بهذا يتبين معنا ان قول من قال: كل الذنوب كبائر، و لا صغائر فيها، لأن معصية اللّه في شيء كبيرة، مهما كان ذلك الشيء، ان هذا القول مخالف لظاهر القرآن. بالإضافة الى ان الشرائع الوضعية تقسم الجريمة الى جنحة و جناية.

أجل يمكن نفي الصغائر بوجه سنشير اليه.

و مهما يكن، فإن الكتاب العزيز لم يضع حدا فاصلا بين الكبيرة و الصغيرة، و لذا اختلف الفقهاء في معنى الكبيرة، فذهب جماعة الى أن كل ما جاء في القرآن مقرونا بذكر الوعيد فهو كبيرة، و ما عداه صغيرة .. و خير الأقوال قول من قال: ان الذنوب جميعا في نفسها كبائر، كما قال من نفى الصغائر من الأساس، و انما تقسم الذنوب الى كبائر و صغائر بمقارنة بعضها الى بعض.

مثلا: النظر الى الأجنبية بريبة ذنب كبير في نفسه، صغير بالنسبة الى القبلة،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٠٧

و القبلة صغيرة بالنسبة الى الجنس. و كذا الأكل على مائدة عليها خمر كبير في نفسه، صغير بالقياس الى شرب الخمر.

و تجدر الإشارة الى ان لذات الفاعل و سوابقه و ظروفه و دوافعه تأثيرا بالغا في جعل الذنب كبيرا أو صغيرا على حد تعبير الفقهاء، و جناية أو جنحة على حد تعبير المشرعين الجدد .. فعلينا قبل أن نضفي على الذنب صفة الشدة أو الضعف أن ننظر الى الفاعل، هل فعل ما فعل لعدم فطنته و ضعف ارادته، كما لو لبّس عليه غاو أثيم، أو فعله لحاجة ماسة، أو لأنه مولع بالإساءة الى الناس، كما هو شأن الكثيرين .. و قد تواتر عن الرسول (ص) انه قال: «انما الأعمال بالنيات، و لكل امرئ ما نوى .. لا صغيرة مع إصرار، و لا كبيرة مع استغفار».

و عن الإمام الصادق (ع): «انما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن يعصوا اللّه أبدا لو خلدوا فيها، و انما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم أن يطيعوا اللّه أبدا، فبالنيات خلد هؤلاء و هؤلاء». و بسطنا القول في تأثير النية عند تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران، فقرة لكل امرئ ما نوى ..

و من المفيد أن نذكر خبرا عن الإمام جعفر الصادق (ع) يعدد فيه أنواع الكبائر ..

روي ان عمرو بن عبيد دخل على الإمام، و سأله عن الكبائر في كتاب اللّه؟

فقال:

«ان أكبر الكبائر الشرك باللّه، لقوله تعالى: «إِنَّ اللهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ». و قال: «مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواٰهُ النّٰارُ».

و بعده اليأس من روح اللّه، لأن اللّه يقول: «لاٰ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكٰافِرُونَ».

ثم الامن من مكر اللّه، لأن اللّه يقول: «فَلاٰ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخٰاسِرُونَ».

و منها عقوق الوالدين، لأن اللّه تعالى جعل العاق جبارا شقيا في قوله:

«وَ بَرًّا بِوٰالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبّٰاراً شَقِيًّا».

و منها قتل النفس التي حرّم اللّه الا بالحق، لأنه تعالى يقول: «وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزٰاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰالِداً فِيهٰا».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٠٨

و قذف المحصنات، لأن اللّه يقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنٰاتِ الْغٰافِلاٰتِ الْمُؤْمِنٰاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ».

و أكل مال اليتيم، لقوله سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوٰالَ الْيَتٰامىٰ ظُلْماً إِنَّمٰا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نٰاراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً».

و الفرار من الزحف، لأن اللّه يقول: «وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتٰالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بٰاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَ مَأْواٰهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ».

و أكل الربا، لقوله سبحانه: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبٰا لاٰ يَقُومُونَ إِلاّٰ كَمٰا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطٰانُ مِنَ الْمَسِّ». و لقوله: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَ رَسُولِهِ».

و السحر، لأن اللّه يقول: «وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرٰاهُ مٰا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاٰقٍ».

و الزنا، لأن اللّه يقول: «وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثٰاماً يُضٰاعَفْ لَهُ الْعَذٰابُ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهٰاناً».

و اليمين الغموس «١»، لأن اللّه يقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَ أَيْمٰانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولٰئِكَ لاٰ خَلاٰقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ».

و الغلول «٢»، قال تعالى: «وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمٰا غَلَّ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ».

و منع الزكاة، لقوله جل و عز: «يَوْمَ يُحْمىٰ عَلَيْهٰا فِي نٰارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوىٰ بِهٰا جِبٰاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ».

و شهادة الزور، و كتمان الشهادة، لأن اللّه يقول: «وَ مَنْ يَكْتُمْهٰا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ».

و شرب الخمر، لأن اللّه عدل بها عبادة الأوثان.

و ترك الصلاة متعمدا، أو شيئا مما فرض اللّه، لأن رسول اللّه (ص) يقول:

«من ترك الصلاة متعمدا فقد برئ من ذمة اللّه، و ذمة رسوله، و نقض العهد».

و قطيعة الرحم، لأن اللّه يقول: «أُولٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدّٰارِ».

(١) اليمين الغموس هي الكاذبة التي تغمس صاحبها في النار.

(٢) الغلول ذو الحقد و الغش.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٠٩

فخرج عمرو بن عبيد، و له صراخ من بكائه، و هو يقول: هلك من قال برأيه، و نازعكم في الفضل و العلم يا أهل البيت.

[سورة النساء (٤): الآيات ٣٢ الى ٣٣]

وَ لا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَ سْئَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٣٢) وَ لِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٣٣)

اللغة:

موالي جمع مولى، و لفظه مشترك بين معان كثيرة، منها السيد الذي أعتق عبده، و منها العبد الذي اعتقه مولاه، و منها الوارث، و هذا المعنى هو المراد في الآية. و أيمانكم بفتح الهمزة جمع يمين، بمعنى القسم، أو بمعنى اليد، لأنها تعطى عادة عند العهد و العقد، حيث تكون المصافحة باليدين عند التعاقد و التعاهد.

الإعراب:

للرجال نصيب مبتدأ و خبر. و مما اكتسبوا (مما) متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف، كأنّ سائلا يسأل: ما هو هذا النصيب فقيل: هو مما اكتسبوا،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣١٠

على أن تكون من في (مما) للبيان لا للتبعيض، ان هذا النصيب هو كل ما اكتسبوه لا بعضه. و موالي مفعول أول لجعلنا. و لكل متعلق بمحذوف مفعولا ثانيا، و التقدير جعلنا موالي وارثين لكل مال «١» تركه الوالدان و الأقربون، و على هذا تكون من في (مما) للبيان، لا للتبعيض، كأنّ قائلا يقول: ما هو المال الذي ترثه الموالي، فقيل: هو كل ما تركه الوالدان و الأقربون. و الذين عقدت ايمانكم (الذين) مبتدأ، و خبره فآتوهم نصيبهم، و جاز دخول الفاء على الخبر لأن اسم الموصول فيه رائحة الشرط.

المعنى:

(وَ لا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ). ظاهر النهي ان الإنسان لا يجوز له أن يتمنى لنفسه ما يستحسنه عند غيره من النعمة و الفضل، سواء أتمنى مع ذلك زوال النعمة عن الغير، و هو الحسد المذموم، أم لم يفكر في ذلك إطلاقا، بل تمنى أن يكون له مثل ما لغيره، و هذه هي الغبطة.

و لكن ظاهر الآية على إطلاقه غير مراد، لأن الغبطة لا بأس بها، و لا ضرر منها، أما الحسد فمحرم إذا بغى صاحبه على المحسود، أو تضمن الاعتراض على اللّه و حكمته، قال الرسول الأعظم (ص): «إذا حسدت فلا تبغ» أي إذا شعرت من نفسك الرغبة في زوال النعمة عن غيرك فتمالك و اكبت هذا الشعور، و جاهده كي لا يظهر له أثر الى الخارج في قول

أو فعل .. فان تمالكت فأنت غير مسؤول أمام اللّه، و ان اندفعت وراء شعورك تدس و تفتري على صاحب النعمة فإنك معتد أثيم.

و على هذه الحال وحدها يحمل النهي في الآية، لأن قول الرسول (ص):

«إذا حسدت فلا تبغ» بيان و تفسير لها، و إذا جاز للإنسان أن يتمنى لنفسه مثل ما لغيره من دون بغي فبالأولى أن يجوز له أن يتمنى ما يشاء من الخير،

---

(١) لو قدرنا لكل انسان كما فعل غيرنا لكانت الموالي من جملة متروكات الإنسان، و لا يستقيم المعنى إلا بتقدير محذوف، أما إذا قدرنا لكل مال كما فعلنا نحن فيستقيم المعنى من غير حذف.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣١١

دون أن ينظر الى ما فضل اللّه به غيره عليه .. قال تعالى في معرض المدح:

«وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ- ٢٠١ البقرة».

(لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ). في تفسير مجمع البيان: «جاءت وافدة النساء الى رسول اللّه (ص) فقالت: يا رسول اللّه أليس اللّه رب الرجال و النساء و أنت رسول اللّه اليهم جميعا؟ فما بالنا يذكر اللّه الرجال، و لا يذكرنا؟ نخشى أن لا يكون فينا خير، و لا للّه فينا حاجة.

فنزلت هذه الآية.»

و المعنى الظاهر منها ان لكل انسان نتيجة عمله، فلا ينبغي له ان يشغل نفسه بالحسد المذموم، لأنه يعود على صاحبه بالوبال دنيا و آخرة، قال الإمام علي (ع):

لا تحاسدوا، فان الحسد يأكل الإيمان، كما تأكل النار الحطب» و قال:

«صحة الجسد من قلة الحسد». و ذكر اللّه سبحانه النساء للتنبيه على ان الرجل و المرأة سواء في ان لكل منهما ما سعى:

«أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ- ١٩٥ آل عمران.

يدعو اللّه و يعمى عن سبيله:

(وَ سْئَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ). فإن خزائنه لا تنفد، و نعمه لا تحصى، قال الإمام زين العابدين (ع) في بعض مناجاته:

«علمت- يا إلهي- ان كثير ما أسألك يسير في وجدك، و ان خطير ما أستوهبك حقير في وسعك، و ان كرمك لا يضيق عن سؤال أحد، و ان يدك في عطاياك أعلى من كل يد».

و في الحديث: «سلوا اللّه من فضله، فاللّه يحب أن يسأل».

و تقول: ان الأمر بالسؤال يستدعي الاجابة، مع العلم بأن كل الناس، أو جلهم يسألون و يلحون في السؤال و الدعاء، و لا يستجيب اللّه لهم؟

الجواب: ان اللّه سبحانه كما أمر بالدعاء فقد أمر أيضا بالسعي و الجد، و قال: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى- ٤٠ النجم».

و معنى هذا ان اللّه سبحانه ضمن اجابة الداعي عن طريق السعي و العمل، و لم يضمن الإجابة عن

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣١٢

كل ما يمر بخاطر الإنسان بمجرد ان يطلب و يسأل .. كيف؟ و لو فعل لخرب الكون .. ثم هل اللّه جل و عز آمر، أو مأمور؟ و ما ذا يفعل إذا تلقى دعوتين متناقضتين في آن واحد؟ و ما قولك بمن يدعو اللّه، و يعمى عن سبيله؟.

و بالتالي، ان أمره تعالى بالسؤال من فضله تعبير ثان عن أمره بالجد و العمل، و ان على الإنسان ان يتجه الى كسبه متوكلا على اللّه وحده، و لا ينظر الى كسب الغير، و ما آتاه اللّه من فضله .. و ما من أحد شغل نفسه بغيره الا تنغص عيشه، و تاه عقله، و ارتبك في جميع أموره .. و قد عرفت، و أنا طالب في النجف الأشرف زملاء لا ينقصهم الاستعداد و الذكاء، و أمضوا في النجف سنوات طوالا، و مع ذلك كانوا من الفاشلين، لا لشيء الا لأنهم اشتغلوا بالناس عن أنفسهم و دروسهم .. و للّه من قال: «من راقب الناس مات غما». و تكلمنا مفصلا عن الدعاء و الاجابة في تفسير الآية ١٨٦ من سورة البقرة.

(وَ لِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ). المراد بالموالي هنا الورثة، و قد ذكر اللّه منهم في هذه الآية ثلاثة أصناف: الأول الوالدان، و يشملان الأجداد و الجدات. الثاني الأقربون، و يشملون الأولاد و الأخوة و الأعمام و الأخوال. الثالث الذي جرى بينهم و بين المورّث عقد خاص أو عام يترتب عليه الإرث، و العقد الخاص، كعقد الزواج و عقد الملك، و عقد ضمان الجريرة، و العقد العام هو الإسلام، و كل هؤلاء يدخلون في قوله تعالى: «**وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ**».

و عقد الزواج معروف، أما عقد الملك فهو أن يملك الحر عبدا، ثم يعتقه تقربا الى اللّه، لا لقاء شيء، أو كفارة عن شيء، فإذا مات هذا العبد المعتق، و لا وارث له ورثه الذي كان قد أعتقه. أما عقد ضمان الجريرة، أي الجناية فهو أن يتفق اثنان على أن يضمن كل منهما جناية الآخر، أو يضمن أحدهما ما يجنيه الآخر، دون العكس، فإذا تم الاتفاق بينهما حسب الشروط المقررة في كتب الفقه كان على الضامن بدل الجناية، و له لقاء ذلك ميراث المضمون إذا لم يكن له من وارث الا الضامن، أما عقد الإسلام فالمراد به العهد العام بين النبي (ص) و من آمن به، فإذا مات المسلم، و لا وارث له إطلاقا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣١٣

فميراثه للنبي (ص) أو لمن يقوم مقامه، فقد روي عن رسول اللّه انه قال:

«أنا وارث من لا وارث له». و في رواية ثانية: «أنا ولي من لا ولي له».

و في ثالثة: «أنا مولى من لا مولى له، أرث ماله، و أفك عنه» .. و كفى دليلا على ذلك قوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ- ٦ الأحزاب».

و في كتاب وسائل الشيعة العديد من الروايات ان عليا أمير المؤمنين (ع) كان يقول: «إذا مات الرجل، و ترك مالا، و لا وارث له اعطوا المال أهل بلده». و لا يتنافى هذا مع قول الرسول (ص)، لأن الرسول قد وهب حقه في هذا الميراث للفقراء من أهل بلد الميت.

و تقدمت الإشارة الى نصيب الأبوين و الأخوة و الزوجين في الآية ١٢ و ما بعدها من هذه السورة، و تفصيل أنصبة جميع الورثة في كتب الفقه.

[سورة النساء (٤): الآيات ٣٤ الى ٣٥]

الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ بِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ

بِما حَفِظَ اللهُ وَ اللاَّتي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً (٣٤) وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً (٣٥)

اللغة:

قوامون جمع قوام على وزن فعّال مبالغة قيام، و معناه القيام بالأمر، و المراد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣١٤

به هنا الذي يقوم بشئون المرأة، و هو الزوج، و قانتات جمع قانتة، و المراد بها المطيعة، و حافظات للغيب جمع حافظة، و هي المرأة التي تحفظ زوجها لدى غيابه فيما يجب حفظه من النفس و المال. و النشوز الارتفاع و نشوز أحد الزوجين ترفعه عن القيام بالحقوق الزوجية. و الشقاق الخلاف الذي يجعل كلا من المختلفين في شق. و الحكم هو الذي يفصل بين المتخاصمين.

الاعراب:

بما فضل اللّه الباء للسبب. و ما مصدرية، أي بتفضيل اللّه، و المجرور متعلق بقوامين، و بما أنفقوا معطوف على بما فضل اللّه. و فالصالحات مبتدأ، و قانتات خبر، و حافظات خبر ثان. و بما حفظ اللّه (ما) مصدرية، و التقدير بحفظ اللّه، و المعنى ان المرأة الصالحة تحفظ غيبة زوجها بأمر اللّه أو كما أمر اللّه.

و بين أصلها ظرف مكان، ثم استعملت اسما للوصال و الفراق، مثل: هذا فراق بيني و بينك. و أضيف الشقاق هنا الى بين تجوّزا، لأن الشقاق يضاف حقيقة الى الزوجين، لا الى بينهما، و أصل الكلام هكذا: و ان خفتم شقاقا بينهما، مثل مكر الليل، أصله مكر في الليل.

المعنى:

(الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ بِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ). الرجل و المرأة ركنا الحياة، و محال أن تستقيم بأحدهما دون الآخر، و معنى هذا ان بين الرجل و المرأة نوعا من التفاوت .. و لو تساويا من جميع الجهات لأمكن الاكتفاء بأحد النوعين، و كان وجود الآخر و عدمه سواء ..

فالدعوة- اذن- الى المساواة بينهما في كل شيء تخالف منطق الحياة.

و رب قائل: ان المرأة و أنصارها يريدون لها المساواة في الحقوق و الواجبات، و لا يريدون لها المساواة مع الرجل في كل شيء، حتى الحمل و الرضاعة- مثلا-.

و نجيب ان التفاوت في التكوين العضوي يستدعي حتما التفاوت في بعض الحقوق

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣١٥

و الواجبات، بل و في بعض الغرائز النفسية أيضا، و عليه فمن يطلب التساوي في جميع الحقوق و الواجبات بينهما فقد ابعد، تماما كمن يطلب التفاوت في الجميع، و الصواب انهما يشتركان في أكثر الحقوق، أو الكثير منها، و أهمها المساواة أمام اللّه و القانون، و حرية التصرف في المال، و اختيار شريك الحياة. و يفترقان في بعض الحقوق .. و عند تفسير الآية ٢٢٨ من سورة البقرة ذكرنا ١٤ فرقا بين الرجل و المرأة في الشريعة الإسلامية. أما الآية التي نفسرها فإنها تفيد:

١- ان الرجال قوامون على النساء، و المراد بالرجال هنا خصوص الأزواج، و بالنساء خصوص الزوجات، و ليس المراد

بالقيام على المرأة السلطة المطلقة، بحيث يكون الزوج رئيسا دكتاتوريا، و الزوجة مرءوسة له، لا ارادة لها معه و لا اختيار، بل المراد ان له عليها نحوا من الولاية، و قد حدد الفقهاء هذه الولاية بجعل الطلاق في يد الزوج، و ان تطيعه في الفراش، و لا تخرج من بيته الا بإذنه، و هما فيما عدا ذلك سواء: «وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ».

٢- ان اللّه سبحانه ذكر سببين لهذا النحو من ولاية الزوج على الزوجة، و أشار الى السبب الأول بقوله: **(بِمٰا فَضَّلَ اللّٰهُ بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ)**. و الى السبب الثاني بقوله: **(وَ بِمٰا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوٰالِهِمْ)**. و نبدأ بالسبب الأول ..

فالضمير في (بعضهم) يعود على النساء و الرجال معا، و ذكّر الضمير من باب التغليب، و المراد ببعض الأولى الرجال، و ببعض الثانية النساء.

و تسأل: لما ذا قال تعالى: **(بِمٰا فَضَّلَ اللّٰهُ بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ)** و لم يقل بما فضلهم عليهن، مع انه أخصر و أظهر؟.

الجواب: لو قال: فضلهم عليهن لفهم منه تفضيل جميع أفراد الرجال على جميع أفراد النساء، و هذا غير مقصود، لأنه بعيد عن الواقع، فكم من امرأة هي أفضل من ألف رجل، فجاء لفظ بعض للاشارة الى أن هذا التفضيل انما هو للجنس على الجنس من حيث هو بصرف النظر عن الأفراد.

و قد أبهم سبحانه، و لم يبين وجه الأفضلية، حيث قال: **(بِمٰا فَضَّلَ اللّٰهُ)** و كفى .. و قال المفسرون و غيرهم: ان الرجل أقوى من المرأة في تكوينه العضوي و العقلي، و أطالوا الكلام و الاستدلال، و منهم من ألّف كتبا خاصة في هذا الموضوع.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣١٦

و الذي نشاهده ان الأعمال الجليلة في ميدان العلم و الدين و الفن و الفلسفة و السياسة كلها من الرجال، لا من النساء، و إذا وجدت امرأة، لها دور في ذلك فهي من الطرائف و النوادر .. و بديهة ان الشاذ النادر يؤكد القاعدة، و لا ينفيها ..

و فوق هذا شاهدنا المرأة تهتم قبل كل شيء بالتفصيلات و الأزياء التي تجسم أنوثتها، و تبرزها عريانة، و تلونها بكل ما يجذب الرجل، و يلهب شعوره نحو الجنس اللطيف .. و من هنا كانت بيوت الأزياء و مبتكرات التفصيل للنساء، دون الرجال، و لا تفسير لاهتمام المرأة بانوثتها، و انصراف الرجل الى جليل الأعمال في ميادين الحياة الا التباين في الغرائز و التكوين النفسي بين الاثنين.

أما السبب الثاني لأفضلية الرجل فقد بينه سبحانه بقوله: **(وَ بِمٰا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوٰالِهِمْ)** كما أشرنا، و هو واضح لا إبهام فيه كالسبب الأول، لأن الذي يتحمل مسؤولية الإنفاق على غيره لا بد أن يكون أفضل من الذي لا يطلب منه شيء، حتى الإنفاق على نفسه .. ان هذا حامل، و ذاك محمول.

و تجدر الاشارة الى ان قوله تعالى: **(وَ بِمٰا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوٰالِهِمْ)** يشعر بأن الزوج إذا لم ينفق على زوجته لم يكن قواما عليها، و كان لها، و الحال هذه، ان تطلب من الحاكم الشرعي الطلاق، و على الحاكم أن ينذر الزوج، فان امتنع عن الإنفاق لعجز أو عنادا أمره بالطلاق، فان امتنع طلّقها عنه، لأن الحاكم ولي الممتنع، و على هذا مالك و الشافعي، و جماعة من علماء الشيعة الامامية، منهم السيد صاحب العروة الوثقى و ملحقاتها، و السيد محسن الحكيم، و نحن على هذا الرأي .. و عقدنا لهذه المسألة الهامة فصلا مستقلا في الجزء السادس من كتاب «فقه الإمام جعفر الصادق» بعنوان: طلاق الحاكم لعدم الإنفاق، عرضنا فيه الأقوال و الأدلة بنحو من التفصيل.

(فَالصّٰالِحٰاتُ قٰانِتٰاتٌ حٰافِظٰاتٌ لِلْغَيْبِ بِمٰا حَفِظَ اللّٰهُ). الزوجة الصالحة هي الموافقة لزوجها، الحافظة لنفسها حسبما

أمر اللّه و أراد، فلا تعصيه في شيء أباحه اللّه له، و لا تعطيه في شيء حرمه اللّه عليه و عليها، قال رسول اللّه (ص): «خير النساء التي إذا نظرت اليها سرتك، و إذا أمرتها أطاعتك، و إذا غبت عنها حفظتك في نفسها و مالك».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣١٧

و الحديث عن الزواج لا ينتهي الى حد، و لا أحد يعرف السر الكامن في قول من قال: لا أتزوج و لو شنقوني، إلا المتزوجون .. ان بعض الزوجات سرطان يقضي على الأرواح ببطء .. و إذا كان الإنسان مخيرا، لا مسيرا فان هذا الإنسان هو الأعزب، أما المتزوج فلا ارادة له، و لا اختيار الا من شذ .. و في بعض الديانات ان اللّه غدا لا يعاقب بالنار، و لا يثيب بالجنة، بل يزوج العاصي عجوزا فانية تؤلمه في خلقها و خلقها، و يزوج المطيع شابة جميلة تسره خلقا و خلقا.

(وَ اللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ).

و المراد بالنشوز في الآية الامتناع عن القيام بحقوق الزوجية .. و قد يكون النشوز من الزوجة فقط، أو من الزوج، أو منهما معا .. و بعد أن أشار سبحانه الى الزوجة الصالحة أشار الى الزوجة الناشزة، و أباح للزوج إذا تمردت عليه زوجته من غير حق ان يعظها، فإن هي قبلت، و الا هجرها في الفراش فان هي قبلت و إلا ضربها ضربا خفيفا للزجر و التأديب، لا للتشفي و الانتقام .. هذا الى ان الأمر بالوعظ، ثم بالهجر، ثم بالضرب هو أمر للاباحة و الترخيص، لا للوجوب و الإلزام، فقد اتفق الفقهاء جميعا على ان ترك الضرب أولى، و ان الذي يصبر على أذى الزوجة و لا يضربها خير و أفضل عند اللّه ممن يضربها، كما اتفقوا على انه كلما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به، و حرم الأشد.

قال رسول اللّه (ص): «لا يضرب أحدكم امرأته كما يضرب البعير أول النهار ثم يضاجعها آخر النهار .. خيركم خيركم لأهله، و أنا خيركم لأهله».

و من الطريف ان الطبري الذي وصفوه بشيخ المفسرين قال في تفسير قوله تعالى: **(وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ)**. انه أمر من اللّه للزوج إذا عصته زوجته ان يربطها بالحبل- كما يربط البعير- في البيت الذي يضاجعها فيه .. و الذي حمله على هذا التفسير ان العرب تسمي الحبل الذي يربطون به البعير هجارا، فإذا كان كذلك يكون معنى اهجروهن اربطوهن بالهجار .. و أبلغ رد لهذا التفسير قول الزمخشري: «و هذا من تفسير الثقلاء».

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً). من السبل الثلاث، لأن الوعظ و الهجر و الضرب وسيلة الى الطاعة، فإذا حصلت الغاية ذهبت الوسيلة. و يشير قوله تعالى: **(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً)** الى ان الزوج لا يجوز له

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣١٨

ان يلتمس الأعذار الكاذبة لإيذاء الزوجة، حتى و لو كانت كارهة له، ما دامت قائمة بحقوقه المشروعة .. فان الحب و البغض لا يدخلان في استطاعة الإنسان، و اللّه سبحانه لا يحاسب و لا يعاقب إلا على ما يظهر من قول أو فعل.

(إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً). قال الرازي ما يتلخص بأن المقصود من قوله تعالى: **(إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً)** أمور، الأول: تهديد الأزواج على ظلم النساء. الثاني: ان اللّه لا يكلف إلا بالحق. الثالث: انه سبحانه لا يكلف إلا ما يطاق، فعلى الأزواج ان لا يكلفوا النساء ما لا يقدرن عليه. الرابع:

انه لا يكلف العاصي إذا تاب، فإذا تابت المرأة عن نشوزها فدعوا معاقبتها.

الخامس: انه لم يهتك السرائر، فأنتم أولى أن تكتفوا بظاهر حال المرأة، و لا تفتشوا عما في قلبها من البغض.

و الرازي من الأشاعرة القائلين بأن للّه ان يكلف الإنسان ما لا يطيق، و دافع عن هذا المذهب بحرارة في كثير من الموارد

في تفسيره الكبير، بخاصة عند تفسير قوله تعالى: «لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهٰا- ٢٨٦ البقرة» .. و قد ذهل هنا عن مذهبه التقليدي، و رجع الى الفطرة الصافية التي فطر اللّه الناس عليها، و قال ما نصه بالحرف: «ان اللّه لا يكلفكم إلا ما تطيقون، فكذلك لا تكلفوهن محبتكم، لأنهن لا يقدرن على ذلك».

(وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقٰاقَ بَيْنِهِمٰا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِهٰا). تعرضت الآية السابقة لنشوز الزوجة، و تعرضت هذه لنشوز الزوجين، و امتناع كل منهما عن القيام بحقوق الآخر، و قوله تعالى: **(وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقٰاقَ بَيْنِهِمٰا)** أراد به الخوف من استمرار الشقاق الحاصل بالفعل. و الخطاب في خفتم و ابعثوا خاص بالحكام الشرعيين، لأنه بهم أليق و أنسب، و الأمر ببعث الحكمين للاستحباب، لا للوجوب، و الغرض منه إصلاح ذات البين، و المحافظة على الاسرة، و الخوف من ضياع الأطفال و الصغار.

و يشترط في الحكم ان يكون أهلا للإصلاح، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، و يجوز أن يكون من غير الأهل و الأرحام، لأن القرابة ليست شرطا في الحكم، و لا في الوكيل، و ذكر الأهل في الآية للأفضلية، لا للإلزام، لأنهم أعرف ببواطن الحال، و أشفق من الغير، و أكتم للأسرار، و مهمة الحكمين ان يسعيا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣١٩

في الصلح، فإن تعذر رفعا تقريرا للحاكم الشرعي بواقع الحال، و ما يريانه من مصلحة الطرفين، و لا حق لهما بالتفريق الا بإذن الزوج، و لا بالبذل عن الزوجة الا بإرادتها.

(إِنْ يُرِيدٰا إِصْلاٰحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمٰا). اختلف المفسرون في ضمير يريدا، و ضمير بينهما على من يعودان؟ قيل: ان ضمير يريدا يعود الى الحكمين، و ضمير بينهما الى الزوجين، و يكون المعنى ان أراد الحكمان إصلاحا بين الزوجين يوفق اللّه بين الزوجين، و هذا بعيد عن الصواب أولا: لأن المفروض بالحكمين انهما يريدان الإصلاح، و الا لم يكونا حكمين. ثانيا: قد يريد الحكمان الإصلاح، و مع ذلك لا يحصل التوفيق، مع ان اللّه قال: ان يريدا إصلاحا يوفق اللّه بينهما، و عليه يجب حصول التوفيق بمجرد وجود ارادة الإصلاح من الحكمين .. و الواقع هو العكس.

و الصحيح ان الضميرين يعودان الى الزوجين، و يكون المعنى ان الزوجين إذا صلحت نيتهما، و كانا قاصدين استمرار الزواج و المحافظة على بقاء الأسرة، فإن مهمة الحكمين تنجح، و يوفق اللّه بين الزوجين لا محالة، لأنه متى صلحت النية صلحت الحال، و استقامت الأفعال، و إذا ساءت نية الزوجين فإن مآل وظيفة الحكمين الى الفشل، حتى و لو قصدا الإصلاح، و بذلا كل الجهود و أقصاها.

و تجدر الاشارة الى أن اللّه سبحانه ذكر نشوز الزوجة ثم نشوز الزوجين معا، و لم يذكر نشوز الزوج فقط .. و لكن الفقهاء تعرضوا له، و قالوا: إذا تعدى الزوج، و منع الزوجة بعض حقوقها الواجبة و عظته، فإن قبل، و الا فليس لها هجره، و لا ضربه كما له هجرها و ضربها إذا نشزت، ليس لها ذلك، حتى و لو علمت ان هجره و ضربه يجديانها نفعا، لأن الهجر و الضرب يحتاجان الى الاذن من الشرع، و لا اذن منه لها بهما .. أجل، لها أن ترفع أمرها الى الحاكم الشرعي، و على الحاكم أن يتثبت و يتبين، فإن ثبت لديه تعدي الزوج نهاه، فإن عاد عزّره بما يرى من الشتم أو الضرب أو السجن .. و ان امتنع عن الإنفاق عليها، مع قدرته عليه جاز للحاكم أن يأخذ من مال الزوج، و ينفق عليها، و لو ببيع شيء من أملاكه، و ان لم يملك شيئا كان له- على رأي- ان يطلقها قهرا عنه، ان طلبت هي الطلاق .. و سبقت الاشارة الى ذلك عند تفسير قوله تعالى: **(وَ بِمٰا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوٰالِهِمْ)**.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٢٠

[سورة النساء (٤): آية ٣٦]

وَ اعْبُدُوا اللهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ بِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ الْجارِ ذِي الْقُرْبى وَ الْجارِ الْجُنُبِ وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً (٣٦)

اللغة:

ذو القربى صاحب القرابة، كالأخ و العم، و من اليهما. و الجار ذو القربى هو الذي قرب جواره. و الجار الجنب الذي بعد جواره. و الصاحب بالجنب من كان رفيقا في السفر، أو جليسا في الحضر، أو شريكا في الدرس، أو في حرفة، و ما إلى ذلك. و ابن السبيل المسافر المنقطع عن أهله و ماله. و ملك اليمين الرق، لا وجود له اليوم.

الإعراب:

شيئا مفعول مطلق، لأن المراد به هنا شيء من الشرك. و إحسانا مفعول مطلق لفعل محذوف، أي أحسنوا بالوالدين إحسانا. و بذي القربى و ما بعده معطوفان على الوالدين.

المعنى:

(وَ اعْبُدُوا اللهَ). و ما عبد اللّه بشيء أفضل من الجهاد و الاستشهاد من أجل الحق و الحرية و الانسانية، أما طلب العلم و العمل من أجل الحياة، و التعاون

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٢١

على ما فيه الخير، و إصلاح ذات البين فأفضل من عامة الصلاة و الصيام، كما جاء في الحديث.

(و تشركوا به شيئا). انكار الألوهية من الأساس كفر و جحود. أما الشرك فهو على نوعين: شرك في الألوهية، كمن يؤمن بأن الخالق و الرازق أكثر من واحد. و من هذا الشرك الاعتقاد بأن للّه وزراء و أعوانا و مستشارين. و شرك في الطاعة، كمن يؤمن بأن الخالق و الرازق واحد لا شريك له و لا أعوان له و لا وزراء و لا مستشارين، و لكنه يعصي الخالق في طاعة المخلوق، و يؤثر مرضاته على مرضاة اللّه، و من هذا الشرك الرضا عن الحاكم الجائر، و عن الوزير أو النائب الخائن، و القاضي الجاهل الفاسق، و عن كل من تولى شأنا من الشؤون العامة، و ما هو له بكفؤ. و في الحديث من رضي بفعل قوم فهو شريك لهم.

(وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً). قرن اللّه سبحانه وجوب التعبد له بوجوب البرّ بالوالدين في العديد من الآيات، منها هذه الآية، و منها قوله تعالى: «وَ قَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً- ٢٤ الاسراء».

و منها: «أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ- ١٤ لقمان».

و من دعاء الإمام زين العابدين لوالديه: «يا إلهي أين طول شغلهما بتربيتي؟

و أين شدة تعبهما في حراستي؟ و أين إقتارهما على أنفسهما للتوسعة عليّ؟ هيهات ما يستوفيان مني حقهما، و لا أدرك ما يجب عليّ لهما، و لا أنا بقاض وظيفة خدمتهما».

(وَ بِذِي الْقُرْبى). بعد الأمر بالإحسان للوالدين أمر بالإحسان للأقارب و الأرحام، ثم **(الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ)** و لو

انهم أبعد مكانا من الجار، لأن اليتيم فقد الناصر و المعين، أعني الأب، و لأن المسكين لا ينتظم حال المجتمع الا بالعناية به، و المسكين الذي ينبغي العناية به هو الضعيف العاجز عن الكسب، أما اعانة القادر على العمل، و مع ذلك آثر البطالة و الكسل، فتشجيع على الرذيلة، و في الحديث: ان اللّه يحب العبد المحترف .. و يكره العبد البطال. و قال الحواريون لعيسى: من أفضل منا؟ قال: أفضل منكم من يعمل بيده، و يأكل من كسبه.

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٣٢٢

و ذكرنا في فقرة «اللغة» معنى **(الْجارِ ذِي الْقُرْبىٰ وَ الْجارِ الْجُنُبِ وَ الصّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ)**. و لا ينحصر الإحسان بإعطاء المال، بل يشمل الرفق و التواضع و السعي في قضاء الحوائج، و النصح في المشورة، و كتمان السر، و غض الطرف عن العورات، و عدم اشاعة السيئات، و اعارة الأدوات، و ما إلى هذه .. و على أية حال، فان الأمر بالإحسان الى هؤلاء ندب لا فرض.

(إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً). هذا تهديد و وعيد لمن يأنف من أقاربه الفقراء، و جيرانه الضعفاء.

[سورة النساء (٤): الآيات ٣٧ الى ٣٩]

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبُخْلِ وَ يَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (٣٧) وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النّاسِ وَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً (٣٨) وَ ما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَ كانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً (٣٩)

اللغة:

الرئاء المراءاة. و القرين الصاحب.

الإعراب:

الذين يبخلون يجوز أن يكون محل (الذين) النصب بدلا من (من) في

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٣٢٣

قوله تعالى: (لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً). و يجوز الرفع على الابتداء، و الخبر محذوف تقديره مذمومون أو معذبون، و على هذا يكون الكلام مستأنفا. و الذين ينفقون عطف على الذين يبخلون. و رئاء مفعول من أجله لينفقون، و يجوز أن تكون في موضع الحال، أي مرائين، و له متعلق بكلمة قرين الأولى. و ساء فعل ماض، و الفاعل مستتر يعود على قرين. و كلمة قرين الثانية تمييز.

المعنى:

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النّاسَ بِالْبُخْلِ). بعد أن أمر سبحانه في الآية السابقة بالبذل و الإحسان هدد في هذه الآية من يبخل، و يأمر غيره بالبخل ..

و كل بخيل يأمر الناس بالبخل، بل كل مسيء يود أن يجد له أقرانا و أمثالا، لكي تتوزع المسئولية على الجميع: و يتقي ألسنة القدح و الذم .. و بديهة ان كثرة اللصوص لا تبرر اللصوصية، و تجعلها حلالا، بل تضاعف من جرمها و جريرتها.

و ما رأيت كلاما تستجيب له النفس كالأمر بالبخل و الإمساك، ذلك ان المال عزيز يعادل الروح، و لا تسخو بشيء منه- في الغالب- إلا بعد جهد جهيد، و الأمر بالإمساك يصادف هوى في النفس، فتستجيب له بيسر و سهولة ..

قال الشيخ محمد عبده عند تفسير هذه الآية: ان للآمرين بالبخل شبهة قوية، و قد أثرت في نفسي، فكنت أرد الدراهم

الى جيبي بعد إخراجها، لأن المنفرين من الإنفاق كانوا يقولون لي: ان هذا غير مستحق، و إعطاؤه اضاعة، فإذا وضعت المال في مكان آخر يكون خيرا و أولى.

و الصحيح ما قلناه: ان الأمر بالبخل إنما يؤثر على المرء حين يجد هوى في نفسه، لا لقول المنفرين و شبهتهم، و مهما يكن، فان العظيم هو الذي يتغلب على هوى نفسه، و يرغمها على تقبل الشاق العسير، ان كان فيه خيرها و صلاحها.

قال الإمام علي (ع): أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه. و في الحديث:

أفضل الأعمال أحمزها، أي أشقها.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٢٤

(وَ يَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ). و فضل اللّه سبحانه يشمل كل نعمة، و منها المال و العلم. و كتمان العلم محرم، و نشره واجب، و لكن بأسلوب يبشر و لا ينفر، و يقرب و لا يبعد، لأن العلم وسيلة، و العمل هو الغاية.

و قال بعض العلماء: ان الغني إذا كتم غناه، و تفاقر أمام الناس فقد فعل محرما، و استدل بهذه الآية، و بقوله تعالى: «وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ- ١١ الضحى». و في الحديث: إذا أنعم اللّه على عبد نعمة أحب ان يرى أثر نعمته عليه.

(وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً). سياق الآية يدل على ان المراد بالكافرين هنا الذين كتموا فضل اللّه و نعمته، و عن الإمام موسى بن جعفر الصادق (ع) انه قال: التحدث بنعم اللّه شكر، و ترك ذلك كفر. و في الآية ٧ من سورة ابراهيم: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ». و على هذا يحمل الكفر في الآية على كفران النعم، لا على الكفر بمعنى جحود الالوهية.

(وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ). سبقت هذه الآية مع تفسيرها في سورة البقرة، الآية ٢٦٤. و يتلخص المعنى بأن الذي ينفق ماله رياء، و الذي يبخل به سواء عند اللّه، و ربما كان المرائي أسوأ حالا، لأنه أشبه بالكافر الذي لا يعمل للّه.

قرين الشيطان:

كل ما يزين فعل الغواية، و يغري بالفساد و الضلال فلك ان تسميه شيطانا، خاطرا كان، أو إنسانا، أو أي شيء فلفظ الشيطان رمز لكل غوي مضل، يخفي حقيقته في أثواب الصالحين، و من أجل هذا نرى كثيرا من الناس يقولون و يفعلون بوحي من الشيطان و غوايته، و هم يحسبون انه وحي من اللّه و هدايته ..

و أقرب المقربين لدى الشيطان من وثق الناس بقداسته، و لم يعرفوا شيئا عن حقيقته، و هذا هو المقصود بقوله تعالى: **(وَ مَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً)**.

و بقوله: (وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً- ١٢٠) النساء).

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٢٥

و كما ان الشيطان قرين له في الدنيا فهو قرين له في الآخرة أيضا، فقد جاء في الحديث: الإنسان مع من أحب. و قال الإمام علي (ع): «فكيف إذا كان بين طابقين من نار: ضجيع حجر، و قرين شيطان».

و الشيطان يقسّم أتباعه الى أقسام، و يوكل الى كل مهمة تناسبه، تماما كقائد الجيش، فمنهم من يغريه بإراقة الدماء، و التعدي على الشعوب الآمنة، كالدول التي أوجدت إسرائيل، و أمدتها بالمال و السلاح للاعتداء على العرب و بلاد العرب، لا لشيء الا لتخضعهم للاستعمار سياسيا و اقتصاديا. و قسم يغريهم بالفسق و الفجور و التهتك و التبرج. و قسم

يأمرهم بالصلاة و الصيام، و ارتداء ثوب الصالحين و الزاهدين، ليصطاد بهم البسطاء و الأبرياء.

و إذا استعصى عليه المتقون، و أعيته فيهم الحيل رضي منهم و لو بكلمة حق يقولونها تلبية لطلبه، روي ان إبليس قال لعيسى ابن مريم (ع): قل: لا إله الا اللّه. قال له عيسى: أقولها، لا لقولك، بل لأنها حق. فرجع اللعين خاسئا .. و ترمز هذه الحكاية الى ان الإيمان لا يكون بالتهليل و التكبير، و لا بالصيام و الصلاة، فإن هذه قد تكون من مصائد الشيطان و مكائده، و انما الإيمان الحق يقاس بالعلم باللّه و أحكامه، و معرفة مداخل الشيطان التي تفسد على المؤمن إخلاصه و أعماله.

(وَ ما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ). لقد ربط سبحانه بين الإيمان به و باليوم الآخر، و بين الإنفاق، لأنه نفى الإيمان عن البخيل الممسك، و معنى هذا ان الإنفاق دليل الإيمان، و الإمساك دليل الكفر، و الوجه في ذلك ان المؤمن المتوكل على اللّه حقا ينفق، و هو واثق بالخلف، و من أيقن بالخلف جاد بالعطية، كما قال الإمام علي أمير المؤمنين (ع)، أما ضعيف الإيمان فيستمع الى شيطانه الذي يأمره بالإمساك، و يوعده الفقر، ان هو أنفق. و مهما يكن، فإن المراد بالإيمان هنا ايمان الطاعة و العمل، لا ايمان العقيدة فقط، و المراد بالكفر كفر الطاعة و العمل، لا الجحود، و انكار الألوهية.

و من أقوال الإمام علي (ع) في البخيل: «عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، و يفوته الغنى الذي إياه طلب، يعيش في الدنيا عيش الفقراء،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٢٦

و يحاسب في الآخرة حساب الأغنياء». و معنى قوله: الغني يستعجل الفقر، انه أسوأ حالا من الفقير، لأن الغني ما يزال خائفا من زوال غناه، أما الفقير فلا يزال راجيا لزوال فقره.

[سورة النساء (٤): الآيات ٤٠ الى ٤٣]

إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (٤٠) فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَ لا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً (٤٢)

اللغة:

المثقال أصله المقدار الذي له ثقل، و ان قلّ. و الذرة ما يوجد من الأجسام، و هي هنا تمثيل للقليل، و في آية ثانية تمثيل للقليل بحبة الخردل.

الإعراب:

مفعول لا يظلم محذوف تقديره لا يظلم أحدا، و مثقال ذرة صفة لمفعول مطلق محذوف، تقديره ظلما مثقال ذرة. و تك ناقصة، و ضميرها مستتر يعود على مثقال ذرة، و حسنة خبرها، و أصل، تك، تكون بضم النون، فحذفت الضمة للجزم، و حذفت الواو لالتقاء الساكنين عليها و على النون، فصارت تكن، ثم حذفت النون للتخفيف، و قد وردت في القرآن بحذف النون كهذه الآية،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٢٧

و بإثباتها كقوله تعالى: إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً. فكيف للإنكار، و موضعها الرفع خبرا لمبتدأ محذوف، تقديره فكيف حال

هؤلاء. و من كل أمة متعلق بمحذوف حال من شهيد. و شهيدا حال من ضمير بك. و لو مصدرية بمعنى ان، و المصدر المنسبك مفعول يود تسوية الأرض، و لا يكتمون معطوف على يود. و لفظة اللّه منصوبة بنزع الخافض، أي لا يكتمون عن اللّه حديثا.

المعنى:

(إِنَّ اللهَ لاٰ يَظْلِمُ مِثْقٰالَ ذَرَّةٍ). بعد أن أمر سبحانه بعبادته، و بالإحسان للوالدين، و من ذكر معهم، و عقب بذم البخل، و من أنفق رياء، و من كتم فضل اللّه، و توعد المختالين و اخوان الشياطين، بعد هذا بيّن سبحانه مؤكدا انه لا ينقص أحدا من أجر عمله شيئا، و ان كان كذرة الهباء، بل يضاعف ثواب المحسنين تفضلا من عنده، كما قال: (وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضٰاعِفْهٰا وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً). و من لدنه اشارة الى انه تعالى يعطي المحسن في مقابل حسناته، ثم يزيده علاوة على أجره (أَضْعٰافاً كَثِيرَةً).

و للفلاسفة أقوال في ان اللّه: هل يثيب المطيع على سبيل الحتم و الاستحقاق، بحيث لو منعه لكان ظالما له .. تعالى اللّه .. أو على سبيل التفضل و الإحسان؟.

و الأقرب في رأينا ان اللّه سبحانه يثيب على الواجب تفضلا، لأنه لا أجر و لا شكر على واجب، أما المستحب فيثبت عليه استحقاقا .. و على أية حال، فإن الأمر سهل، لأن الثواب حاصل، ما في ذلك ريب و لا خلاف، و عليه يكون النزاع في أن سببه التفضل أو الاستحقاق يكون هذا النزاع عقيما، ما دام السبب خارجا عن المقدور و الاستطاعة.

(فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنٰا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً). يجمع اللّه الناس غدا للحساب و العقاب، و قبل كل شيء يشهد على كل قوم نبيهم بأنه قد بلغهم رسالة ربه، و علمهم الحلال و الحرام مباشرة، أو بواسطة أصحابه، أو التابعين لهم، أو العلماء و الفقهاء، فالمراد بالشهيد الأول كل نبي سابق على محمد، و بالشهيد الثاني محمد (ص). و هؤلاء اشارة الى أمة محمد (ص) و أبعد من

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٢٨

قال: ان هؤلاء اشارة الى جميع الأنبياء السابقين، و ان محمدا يشهد عليهم، و هم يشهدون على أممهم .. لقد أبعد هذا القائل، لأن الشهادة انما تجوز و تسمع على من يجوز في حقه الإهمال لواجبه، و هذا محال في حق الأنبياء، فالشهادة عليهم كذلك .. و عند تفسير الآية ١٤٣ من سورة البقرة ذكرنا ان محمدا (ص) يشهد على علماء أمته بأنه بلغهم الإسلام و أحكامه، و علماء الأمة يشهدون عليها بأنهم قد بلغوها رسالة الإسلام على وجهها.

و قال الشيخ محمد عبده في تفسير هذه الآية ما يتلخص بأن اللّه سبحانه سيقابل غدا و يقارن بين عقيدة كل أمة و أعمالها و أخلاقها، و بين عقيدة نبيها، فان كانت هي هي كانت الأمة من الأمم الناجية، و إلا فهي من الهالكين ..

و هذا التفسير من وحي ثورة الشيخ على البدع و التقاليد البغيضة .. و هو غير بعيد عن الواقع، فإن عملية هذه المقارنة إذا لم تقع بالذات في حضرة الخالق جل و علا فان نتيجتها كائنة لا محالة.

(يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوّٰى بِهِمُ الْأَرْضُ). المعنى ان الكفار يتمنون يوم القيامة، حيث ينكشف لهم الغطاء لو انهم لم يخلقوا، و انهم كانوا و الأرض سواء، أي ترابا، كما في الآية ٤٠ من سورة النبأ: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مٰا قَدَّمَتْ يَدٰاهُ وَ يَقُولُ الْكٰافِرُ يٰا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرٰاباً».

(وَ لاٰ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً). هذا كلام مستأنف، و معناه انهم لا يستطيعون كتمان ذنب من ذنوبهم التي اقترفوها، و

أخفوها عن أعين الناس في الدنيا، لأن اللّه سبحانه محيط بهم و بأعمالهم، و لأن الملائكة و سمعهم و أبصارهم و ألسنتهم و جلودهم و أيديهم و أرجلهم، كل هؤلاء تشهد عليهم بما كانوا يفعلون: «حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ- ٢٠ فصلت» .. «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ- ٢٥ النور».

اللهم رحمة بمن لا طاقة له بعدلك، و غوثا لمن لا نجاة له دون عفوك.

و تسأل: كيف تجمع بين قوله تعالى: **(وَ لا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً)** و بين قوله: (وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٢٩

تَزْعُمُونَ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَ اللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ- ٢٣- ٢٤ الانعام).

الجواب: من الجائز أن يكون مرادهم انهم لم يكونوا مشركين في اعتقادهم، حتى تحقق لهم الآن شركهم و خطأهم. و إلى اللقاء عند تفسير سورة الانعام ان شاء اللّه تعالى.

[سورة النساء (٤): آية ٤٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ وَ لا جُنُباً إِلاَّ عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً (٤٣)

اللغة:

الجنب، بضم الجيم و النون، هو الذي اصابته الجنابة، و يستوي فيه المذكر و المؤنث، و الواحد و الجمع. و الغائط المكان المنخفض من الأرض، و جمعه غيطان، و يقصده أهل البوادي و القرى عند قضاء الحاجة. و المراد بملامسة النساء هنا الجماع. و معنى التيمم في اللغة القصد، و في الشرع الطهارة بالتراب. و الصعيد وجه الأرض. و الطيب الطاهر.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٣٠

الإعراب:

و أنتم سكارى مبتدأ و خبر، و الجملة حال، و صاحبه الواو في تقربوا، و لا جنبا معطوف على الحال، فكأنه قال: لا تقربوا الصلاة سكارى و لا جنبا.

و عابري سبيل منصوب على الحال، لأن المستثنى منه غير مذكور، و هو الأحوال، و المعنى لا تقربوا الصلاة أو موضع الصلاة و أنتم جنب في جميع الأحوال إلا في حال عبوركم، و يسمى هذا الاستثناء بالمفرغ، و (الا) فيه مهملة غير عاملة، و ما بعدها يعرب بحسب ما قبلها، و قال صاحب مجمع البيان: عابري سبيل منصوب على الاستثناء .. و هذا اشتباه ظاهر، لأن (الا) هنا مهملة، كما قدمنا.

و من قال: بوجوب مسح تمام الوجه و اليدين في التيمم قال: الباء في (بوجوهكم) زائدة، و من قال بوجوب مسح بعض الوجه و بعض اليدين قال: الباء للتبعيض.

المعنى:

(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَقْرَبُوا الصَّلاٰةَ وَ أَنْتُمْ سُكٰارىٰ حَتّٰى تَعْلَمُوا مٰا تَقُولُونَ وَ لاٰ جُنُباً إِلاّٰ عٰابِرِي سَبِيلٍ حَتّٰى تَغْتَسِلُوا). هنا مسائل:

١- ان هذا الخطاب موجه للمسلمين قبل تبيين الحكم بتحريم الخمر الذي تعرضت له الآيتان ٩٠ و ٩١ من سورة المائدة، و الآية ٣٢ من الأعراف معطوفة على الآية ٢١٩ من البقرة، و ذكرنا ذلك مفصلا في المجلد الأول من التفسير الكاشف ص ٣٢٨ و ما بعدها عند تفسير الآية ٢١٩، و في الجزء الرابع من فقه الإمام جعفر الصادق، باب الأطعمة و الأشربة.

و تجدر الإشارة الى ان النهي عن الصلاة حال السكر لا يدل على انه حلال في غير الصلاة- مثلا- إذا قلت: لا تنظر الى النساء، و أنت ماش في الطريق فلا يفهم من قولك هذا الاذن بالنظر إليهن في الصالونات .. و بكلمة ان الآية دلت على تحريم الصلاة حال السكر، و سكتت عن حكم السكر في غير هذه الحال.

٢- اختلفوا: هل المراد بالصلاة نفس الصلاة، أو المسجد الذي تقع فيه

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٣٣١

الصلاة، من باب اطلاق الحال على المحل، و الكائن على المكان، و منه اطلاق اسم القهوة على المكان الذي تشرب فيه، و أكثر المفسرين على المعنى الأول، و هو أظهر من ارادة المسجد.

٣- اختلفوا أيضا: هل المراد بالسكر سكر الخمر، أو سكر النوم و النعاس؟

و الظاهر من السكر الشراب، لا النعاس.

٤- جاء على لسان بعض الرواة ان جماعة من الصحابة اجتمعوا عند أحدهم، فصنع لهم طعاما و شرابا قبل أن يبين اللّه حكم الخمر، فأكلوا و شربوا، فلما ثملوا جاء وقت الصلاة، فقدموا أحدهم ليصلي بهم، فخلط في صلاته، و حرّف آية من القرآن.

و قد تتبع الشيخ محمد جواد البلاغي «١» في تفسيره آلاء الرحمن، و أثبت كذب هذه الروايات بالأرقام، و تتلخص نتيجة بحثه الدقيق بأن الترمذي روى ان صاحب الدعوة هو عبد الرحمن بن عوف، و ان عليا كان إمام الجماعة .. و روى أبو داود ان صاحب الدعوة رجل من الأنصار، و كان عبد الرحمن من جملة المدعوين ..

و ابن جرير الطبري قال في تفسيره، و السيوطي في الدر المنثور: ان إمام الجماعة كان عبد الرحمن بن عوف. و في الدر المنثور أيضا ان الآية نزلت في أبي بكر و عمر و علي و عبد الرحمن و سعد، و ان صاحب الدعوة هو علي. و في مسند أحمد و النسائي ان عمر قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا، فنزلت: «**يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَقْرَبُوا الصَّلاٰةَ وَ أَنْتُمْ سُكٰارىٰ**».

و كما اضطربت الروايات في الداعي، و الإمام و المأموم كذلك تناقضت و تضاربت في الآية التي حصل فيها التحريف، فرواية تقول: ان إمام الجماعة قال:

---

(١) هو من كبار علماء الإمامية، و كان دؤوبا صبورا على العلم و البحث و التأليف لا يفتر عنه ليل نهار، و أتقن اللغة العبرية، و عرف أسرار اليهودية، و نشر الكثير من معايبها، و له: الهدى إلى دين المصطفى، و أعاجيب الأكاذيب، و التوحيد و التثليث، و الرحلة المدرسية، و غيرها و

من تنكره لذاته و أنانيته، و انصرافه للّه وحده كان لا يضع اسمه على كتاب أنفق في تأليفه زهرة حياته، و حين سئل عن السبب قال: لعلي أخطأت في بعض ما قلت، فيطعن الذي في قلبه مرض على الطائفة التي أنا منها بسببي.

توفي سنة ١٣٥٢ هـ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٣٢

أعبد ما تعبدون. و ثانية تقول: بل قرأ ليس لي دين. و كذلك اختلفت في زمن النزول و سببه. و فوق ذلك كله أثبت صاحب آلاء الرحمن ان الراوي الأول الذي قال: كان إمام الجماعة عليا، أثبت انه خارجي، و من أعدى أعداء علي.

و على أية حال، فإن صح ان جماعة من الصحابة شربوا، و ان إمامهم خلط في صلاته فإن هؤلاء هم الذين أشركوا باللّه، و عبدوا الأوثان، و شربوا الخمر، و أكلوا الحرام في الجاهلية التي نشأوا فيها، و تربوا عليها .. و علي بن أبي طالب ليس منهم، لأنه نشأ و ترعرع في حجر الرسول الأعظم (ص)، و هو الذي تولى تربيته و تهذيبه منذ نعومة أظفاره، و صاغه كما يشاء و يريد.

و ربّ قائل: ان قولك هذا من وحي العقيدة، لا من وحي الواقع.

و أجيبه بأن الحكم الذي يعتمد على نشأة الشخص و تربيته هو من وحي الحق و الواقع، لا من وحي العاطفة و العقيدة.

(وَ لا جُنُباً إِلاَّ عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا). قيل: المراد بعابري سبيل المسافرون، و ان المعنى لا تقربوا الصلاة سكارى، و لا جنبا الا في حال السفر ..

و يلاحظ بأن الآية قد تعرضت لحكم المسافرين، حيث جاء فيها **(وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ)**. فإن فسرنا عابري سبيل بالمسافرين يلزم التكرار في كلام واحد بلا موجب. ثانيا: جاء في بعض الأحاديث تفسير **(عابِرِي سَبِيلٍ)** بالمرور في المسجد، و انه يحرم على الجنب أن يدخل المسجد الا عابرا، ما عدا المسجد الحرام، و مسجد الرسول (ص)، حيث لا يجوز للجنب أن يدخلهما إطلاقا، و لو عابرا.

و قالت المذاهب الأربعة: متى عمّ الماء جميع البدن تحقق غسل الجنابة من غير فرق بين الابتداء من أعلى أو من أسفل البدن.

و قسّم الإمامية غسل الجنابة الى نوعين: ترتيب و ارتماس. و الترتيب عندهم أن يصب المغتسل الماء على جسمه صبا، و أوجبوا في هذه الحال الابتداء بالرأس، ثم بالجنب الأيمن، ثم بالأيسر، فلو قدم المؤخر، أو اخّر المقدم بطل الغسل.

أما الارتماس فهو غمس تمام الجسم تحت الماء دفعة واحدة، كالغسل في البحر و النهر و ما اليهما.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٣٣

المريض و المسافر و التيمم:

(وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ).

اضطربت أقوال المفسرين في هذه الآية، حتى قال الشيخ محمد عبده:

«طالعت في تفسيرها خمسة و عشرين تفسيرا، فلم أجد فيها غناء، و لا رأيت قولا يسلم من التكلف». و قال الألوسي

في روح البيان: «ان هذه الآية من المعضلات». و راجعنا نحن حوالي عشرين تفسيرا للسنة و الشيعة، و أكثر أصحابها نقل العديد من تفاسير الآية، فرأينا الأمر كما قال الشيخ محمد عبده، و لكن لم نر في الآية أية مشكلة أو معضلة، كما رأى الألوسي .. و بعد وثوقنا من معناها، و ركوننا الى المراد منها حاولنا إيضاحه بالأسلوب التالي:

لقد ذكر سبحانه في الآية أربعة أصناف، و هم المرضى، و المسافرون، و الذين جاءوا من الغائط، و الذين لامسوا النساء، و أوجب عليهم أن يلجئوا الى التيمم عند عدم وجود الماء، لأن الأمر بالتيمم وقع جوابا لفعل الشرط المتضمن للأصناف الأربعة.

و من المتسالم عليه عند جميع المذاهب ان ظاهر القرآن لا يجوز الاعتماد عليه، بخاصة في استخراج الأحكام الشرعية إلا بعد الرجوع الى السنة النبوية، لأنها أحد مصادر الشريعة، كما أنها تفسير و بيان للقرآن بنص الآية ٧ من سورة الحشر: «وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ».

و عليه، فإذا لم يوجد في السنة النبوية ما يصرف لفظ الآية عن ظاهره وجب العمل به، و إلا وجب العمل بما نستفيده من الكتاب و السنة مجتمعين، لأنهما يصدران من معين واحد، و هو الوحي.

و نتكلم فيما يلي عن كل واحد من الأصناف الأربعة الذين ذكرتهم الآية، و منه يتضح الجواب عن هذا التساؤل: هل في السنة النبوية ما يتنافى مع ظاهر الآية بالنسبة الى كل واحد من هذه الأصناف؟.

١- المريض، و ظاهر الآية يدل على انه يتيمم إذا لم يجد الماء، و قد أجمع الفقهاء على العمل بهذا الظاهر، لأن الصحيح يتيمم مع عدم وجود الماء فبالأولى

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٣٤

المريض .. و إذا وجد المريض الماء، و خاف الضرر من استعماله فهل يتيمم، أو يستعمل الماء، حتى مع خوف الضرر؟. و قد اتفق الفقهاء على ان المريض يتيمم مع وجود الماء إذا خاف من استعماله، و استدلوا بحديث: «لا ضرر و لا ضرار»، و بما روي ان بعض الصحابة أصابته جنابة، و كان به جراحة عظيمة، فسأل بعضهم، فأمره بالاغتسال، فلما اغتسل مات، و حين سمع النبي (ص) بذلك قال: قتلوه قتلهم اللّه. و عليه يكون قوله تعالى: **(فَلَمْ تَجِدُوا ماءً)** قيدا لجميع الأصناف المذكورة في الآية، دون استثناء.

هذا هو المعنى الذي دلت عليه عبارة الآية بالاصالة، لا بالتبع، أما المعنى الذي تدل عليه بالتبع لوجود ان الشرطية، و المعبر عنه بلسان الفقهاء و علماء الأصول بمفهوم الشرط، أما هذا المعنى المفهوم بالتبع فانه يوجب على كل واحد من الأصناف الأربعة أن يستعمل الماء إذا وجده، و لا يجوز له التيمم بحال، حتى و لو تضرر من استعماله .. و لكن قد علمت مما تقدم ان الفقهاء قد أجمعوا، و ان السنة النبوية قد دلت على ان المريض يتيمم مع وجود الماء، و خوف الضرر من استعماله، و عليه فلا بد من إخراج المريض من هذا المعنى المفهوم بالتبع، و إبقاء الأصناف الثلاثة الذين يجب عليهم استعمال الماء بموجب هذا المفهوم التبعي، إذا وجدوا الماء.

و اختصارا ان الأصناف الأربعة يتيممون، مع عدم الماء، ما في ذلك خلاف و لا ريب، اما مع وجود الماء فيستعمله من لا يخاف الضرر على نفسه من استعماله، اما من مرض مرضا يخاف معه من استعمال الماء فيدعه و يتيمم.

٢- المسافر، و تدل الآية على انه يتيمم إذا لم يجد الماء، سواء أ كان سفره طويلا، أم قصيرا، و هذا محل وفاق عند الجميع، و لكن اختلفوا في الحاضر غير المريض الذي لم يجد الماء: هل يتيمم و يصلي، أو تسقط عنه الصلاة من

الأساس؟.

قال أبو حنيفة: تسقط عنه الصلاة، لأن ظاهر الآية ان التيمم يسوغ في السفر، لا في الحضر.

و اتفقت بقية المذاهب على ان فاقد الماء يجب عليه أن يتيمم و يصلي، سواء

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٣٥

أ كان مسافرا، أم حاضرا، لأن جواز التيمم في السفر لا يمنع من جوازه في الحضر .. و قد تواتر عن الرسول الأعظم (ص): «ان الصعيد الطيب طهور المسلم، و ان لم يجد الماء عشر سنين» .. و قال أبو بكر المعروف بابن العربي في كتاب أحكام القرآن ج ١ ص ١٧٦ طبعة ١٣٣١ هـ: «ان أبا حنيفة كثيرا ما يترك الظواهر و النصوص للاقيسة».

و تسأل: إذا كان كل من المسافر و الحاضر سواء في الحكم، من حيث وجوب استعمال الماء مع وجوده، و التيمم مع عدمه، فلما ذا نص القرآن على السفر بالذات؟.

و أجابوا بأن اللّه سبحانه نص على السفر لأن الغالب فيه عدم وجود الماء، أما عدم الماء في الحضر فنادر .. و هذا الجواب قول على اللّه بالظن و الاستحسان، لأنه لا يستند الى آية، أو رواية متواترة، أو حكم جازم من العقل .. و لذا نسكت عنه ..

٣- **(أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ)**. الغائط كناية عما يخرج من السبيلين، و هو البول و العذرة و الريح، فمن خرج منه شيء من ذلك، و أراد الصلاة فعليه أن يتوضأ ان وجد الماء، و يتيمم ان فقده اجماعا و سنة.

٤- **(أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ)**. كناية عن الجماع، و من طريقة القرآن أن يكني عنه، و لا يصرح، ففي الآية ١٨٧ من البقرة: «فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ». و في الآية ٢٢٢ منها: «وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ». و في الآية ٢٣٧ منها أيضا: «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ». و قال الشافعي: المراد بالمس في الآية مجرد الصاق الجسم بالجسم.

و مهما يكن، فان من أجنب و وجد الماء، و أراد الصلاة فعليه أن يغتسل، و ان فقد الماء تيمم بدلا من الغسل، و كل ما يوجب الوضوء يسميه الفقهاء الحدث الأصغر، و كل ما يوجب الغسل يسمونه الحدث الأكبر.

(فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً). الصعيد الأرض، و الطيب الطاهر، و هذه الآية في معنى الحديث الشريف: «خلقت لي الأرض مسجدا و طهورا».

(فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ). اتفقت المذاهب كلها على ان التيمم لا يكون إلا في هذين العضوين. و اختلفوا في تحديد ما يجب مسحه بالتراب من الوجه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٣٦

و اليدين، فقالت المذاهب الأربعة: يجب مسح جميع الوجه، و يدخل فيه اللحية، تماما كما هو الشأن في الوضوء. و قال الحنفية و الشافعية: يجب مسح اليدين بالتراب الى المرافق كالوضوء.

و قال الإمامية: يجب مسح بعض الوجه، لا كله، لأن الباء في قوله تعالى **بِوُجُوهِكُمْ** للتبعيض، تماما كقوله: وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ بالنسبة الى الوضوء، لأنها لو لم تكن للتبعيض تكون زائدة، و الأصل عدم الزيادة. و قالوا: يجب مسح الكفين فقط .. و التفصيل في كتاب الفقه على المذاهب الخمسة.

[سورة النساء (٤): الآيات ٤٤ الى ٤٧]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَ اللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ وَ كَفى

بِاللهِ وَلِيًّا وَ كَفىٰ بِاللهِ نَصِيراً (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هٰادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنٰا وَ عَصَيْنٰا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ رٰاعِنٰا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ أَطَعْنٰا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنٰا لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ وَ لٰكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاٰ يُؤْمِنُونَ إِلاّٰ قَلِيلاً (٤٦) يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ آمِنُوا بِمٰا نَزَّلْنٰا مُصَدِّقاً لِمٰا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهٰا عَلىٰ أَدْبٰارِهٰا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمٰا لَعَنّٰا أَصْحٰابَ السَّبْتِ وَ كٰانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (٤٧)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٣٧

اللغة:

الوالي من يتولى الشيء. و النصير الناصر. و راعنا ارقبنا. وليا، أي فتلا و تحريفا. و أقوم أعدل. و الطمس ازالة الأثر أو اخفاؤه، و قريب منه الطسم و الطلس. و الوجه يطلق على الوجه المعروف و على النفس، و منه أسلمت وجهي للّه. و اللعن العذاب و الابعاد. و أصحاب السبت اليهود.

الإعراب:

و كفى باللّه وليا الباء زائدة، و لفظ الجلالة فاعل، و وليا حال، أو تمييز، على معنى من ولي، و مثله و كفى باللّه نصيرا. من الذين هادوا متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير من الذين هادوا فريق أو قوم يحرفون الكلم، و مثل هذا الاستعمال كثير، و منه: من الناس يقول كذا، و منهم يقول كذا أي من يقول. و غير مسمع حال، و صاحبه الضمير في اسمع. وليا مفعول لأجله، و العامل فيه يقولون، و مثله طعنا. و لو انهم المصدر المنسبك من ان و اسمها و خبرها فاعل لفعل محذوف، و التقدير لو ثبت قولهم، أو لو وجد قولهم. و لكان ناقصة، و اسمها ضمير مستتر يعود على المصدر المتصيد من قالوا، و التقدير لكان قولهم خيرا. و الا قليلا منصوب على الاستثناء من فاعل لا يؤمنون، أي قليلا منهم آمنوا. و لا يجوز أن يكون قليلا صفة لمفعول مطلق محذوف، كما قال صاحب مجمع البيان، إذ يكون المعنى على هذا انهم آمنوا ايمانا ضعيفا، و هذا المعنى غير مقصود.

إسرائيل و قوى الشر:

(أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتٰابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاٰلَةَ وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ)، يدل سياق الكلام على ان المراد بالذين أوتوا نصيبا من الكتاب هم اليهود، حيث وصفهم اللّه بالضلال أولا في قوله: **(يَشْتَرُونَ الضَّلاٰلَةَ)**.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٣٨

ثم بالإضلال ثانيا في قوله: **(يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا)**. ثم بتحريف الكلم عن مواضعه في قوله: **(مِنَ الَّذِينَ هٰادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوٰاضِعِهِ)**.

و ما عرف التاريخ قوما أشد عنادا للحق، و عداء للخير من اليهود، فقد كانوا ضالين مضلين محرفين يوم كانوا أذلاء محكومين، أما اليوم، و بعد أن خلق لهم الاستعمار دولة القراصنة و السفاحين، فلم يقفوا عند الضلال و الإضلال و التحريف، بل صاروا رمزا للشر العالمي، و سلاحا فتاكا يملكه كل مستعمر و متآمر على العباد و البلاد، و مقياسا يميز قوى الشر و الغدر عن قوى الخير و التحرر .. فما من دولة استعمارية في هذا العصر تهدف الى استعباد الشعوب الا و تلجأ الى إسرائيل لتحقق أهدافها و مراميها، و ما من فئة مستغلة باغية في الشرق و الغرب الا تستعين في حماية

مصالحها بهذه العصابة الغاشمة الآثمة.

و لكن الدلائل التي ظهرت في فييتنام تبشر، و للّه الحمد، بتهيئة السبيل و تمهيده لإنسان جديد يعرف كيف يقضي على أعداء الحق و الانسانية .. ان انسان اليوم في فييتنام- نحن الآن في سنة ١٩٦٨- و انسان الغد في كل مكان يختلف تماما عن انسان الأمس .. انه يميز بين المخلص و الخائن، و لا يخفى عليه هذا، حتى و لو تقنّع بألف قناع و قناع، يميز بينهما، و يضع كلا في مرتبته و المكان الذي يستحقه، و عندها يعيش الناس بلا مشاكل و قنابل .. و قد أثبتت الحوادث و بخاصة نكبة ٥ حزيران ٦٧ ان مشاكلنا نحن العرب و المسلمين لم يكن لها من مصدر الا وجود غير الأكفاء في مركز القوة، و هذا أمر عارض يزول مع الأيام.

(وَ اللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ وَ كَفى بِاللهِ وَلِيًّا وَ كَفى بِاللهِ نَصِيراً). اللّه يعلم، و نحن أيضا نعلم ان اليهود و من يساندهم أعداء الحق و الانسانية، و لم يعد هذا خافيا على أحد بعد أن أصبحت الصهيونية و دولة إسرائيل رمزا للشر العالمي، و لكن الكثير منا لا يعرف المنافقين العملاء، لأنهم يختفون بثوب الأخيار، و يموهون على البسطاء .. و لهؤلاء يوم يظهرون فيه على حقيقتهم، و يتولى اللّه خزيهم، و استئصال شأفتهم في أيدي المؤمنين و الأحرار الطيبين.

(مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ). و في الآية ٤١ من المائدة:

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٣٩

«وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ- و هم الذين يريدون اخضاع العباد و البلاد لسياستهم-: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ». و في الآية ٧٥ من البقرة: «يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ».

تماما كما فعلوا بقرار الأمم المتحدة بوجوب انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها في ٥ حزيران سنة ١٩٦٧، و فسروه بوجوب المفاوضة مع العرب «١» و عرقلوا بذلك مهمة (غونار يارينغ) المبعوث الدولي لتنفيذ القرار .. و كل كلام لا يتفق مع مقاصدهم الشريرة يحرفونه عن مواضعه، حتى و لو عقلوا و علموا أنه من عند اللّه، فلقد حرفوا التوراة من قبل، و وضعوا مكان آيات العدل و الرحمة الأمر بالسلب و النهب، و قتل النساء و الأطفال، قال في تفسير المنار عند تعرضه لتفسير هذه الآية: «أثبت العلماء تحريف كتب العهد العتيق، و العهد الجديد بالشواهد الكثيرة، و في كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة اللّه الهندي مائة شاهد على التحريف اللفظي و المعنوي فيها». ثم ذكر صاحب تفسير المنار بعض الشواهد لهذا التحريف في الجزء الخامس ص ١٤١ طبعة ١٣٢٨ هـ و ألف الشيخ جواد البلاغي كتابا قيما جامعا في هذا الموضوع، أسماه الرحلة المدرسية، و طبع أكثر من مرة.

لقد دعا النبي (ص) يهود الحجاز مرارا الى اتباع الحق، و عدم تحريف الكلام، فكانوا يصرون على العناد: **(وَ يَقُولُونَ سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ)**.

أي غير مسموع منك، و لا مجاب لك فيما تدعونا اليه .. و ليس هذا بغريب من عناصر الشر، و مصادر الفساد.

(وَ راعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ). قال المفسرون: ان اليهود قالوا للنبي (ص): راعنا، و هم لا يريدون المعنى الظاهر من هذه الكلمة، و هو مراقبتهم و الإصغاء اليهم، و انما أرادوا الرعونة و الحمق، و هذا هو اللي و الطعن في الدين. و سبق الكلام عن لفظة راعنا في تفسير الآية ١٠٤ من سورة البقرة، المجلد الأول ص ١٦٦.

(١) ألف علماء المسلمين العديد من الكتب في اعجاز القرآن، و ذكروا أنواعا من هذا الاعجاز، و لكن لم يذكروا منها وصف القرآن لطبيعة اليهود و حقيقتهم، مع انه لا يقل اعجازا عن غيره.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٤٠

(وَ لَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ). و لأن هذا القول أعدل و أفضل، و أقوم و أسلم أعرضوا عنه، و لم يتفوهوا به. قال الرازي في تفسير هذه الآية: «المعنى انهم لو قالوا بدل قولهم **(سَمِعْنا وَ عَصَيْنا)** سمعنا و أطعنا، لأنهم يعلمون بصدقك، و بدل قولهم **(وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ)** و اسمع فقط، و بدل قولهم **(راعِنا)** انظرنا، أي تمهل علينا حتى نفهم عنك، لو قالوا هذا لكان خيرا لهم عند اللّه و أقوم، أي أعدل و أصوب».

(وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ). و تمردهم على الحق، و تعصبهم للباطل، و لعنة اللّه هي غضبه و سخطه **(فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً)**. لقد دخل الناس في الإسلام أفواجا من جميع الطوائف و الأديان على مدى التاريخ إلا اليهود، فما أسلم منهم إلا قليل كعبد اللّه بن سلام، و بعض أصحابه، بل حاربوا الإسلام و المسلمين، و ما زالوا يكيدون له بكل الوسائل و الدسائس، و هذا من أقوى الأدلة على ان الإسلام حق و صدق .. و الغريب ان قادة الإسلام و دعاته لم يستدلوا على عظمته و انسانيته بعداء اليهود الذين قالوا: «يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ» عدائهم للإسلام، و لكل من قال: لا إله إلا اللّه.

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ). ظاهر الخطاب يشمل اليهود و النصارى، لأنهم جميعا من أهل الكتاب .. و قيل: الخطاب مختص باليهود بقرينة السياق. و المراد بما أنزلنا القرآن الكريم، فانه مصدق للتوراة كما نزلت على موسى (ع)، و للانجيل كما نزل على عيسى (ع).

لقد دعا النبي (ص) اليهود الى الإسلام باعتباره حقا من عند اللّه، و قدم لهم الدلائل و البينات مرات بعد مرات .. و لكن ما لليهود و الحق و براهينه؟ ..

انهم لا يدينون إلا بالربح و المال، و لن يجدوا الربح العاجل في الإسلام، و لا في التوراة، و انما يجدونه في الاحتكار و الربا، و في السلب و النهب، و الغش و الخداع، و الدعارة و القمار، و اثارة الفتن و الحروب، و ما الى هذه من المفاسد و الموبقات: و من أجل هذا سبقوا في هذا الميدان الأولين و الآخرين، و النبي (ص) يعلم هذا حق العلم، و لكنه دعاهم لالقاء الحجة فقط: «وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً- ١٦ الاسراء».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٤١

(مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها). رأينا لهذه الآية أربعة تفاسير متناقضة، و أرجحها فيما نرى تفسير الشيخ محمد عبده، و يتلخص بأن الطمس كناية عن أن اللّه سبحانه يعمي عليهم السبيل، بحيث لا يستطيعون التوجه الى مقاصدهم، تماما كالذين يردّون الى الوراء كلما أرادوا التقدم الى الأمام.

(أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ). و أصحاب السبت قوم من اليهود حرفوا الدين، و تعدوا حدود اللّه، فخذلهم و انتقم منهم في الدنيا قبل الآخرة، و تعرضنا لهم في تفسير الآية ٦٥ من سورة البقرة ص ٢٢٠ من المجلد الأول.

و في هذه الآية هدد اللّه خلفهم بأنهم إذا لم يرتدعوا عن الضلال و الإضلال و التحريف فانه تعالى يخذلهم، كما خذل أسلافهم .. و في كثير من التفاسير، و منها تفسير الرازي و مجمع البيان و البحر المحيط قرأت جملة انقلها بالحرف، و

هي «عندنا انه لا بد من طمس أو مسخ في اليهود قبل قيام الساعة» .. اللهم آمين رب العالمين. (وَ كانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً) لا رادّ لحكمه، و لا ناقض لأمره الذي يقول للشيء كن فيكون .. اللهم عجل هذا الأمر الذي يجعل دينك الأعلى، و حزبك الأقوى.

[سورة النساء (٤): الآيات ٤٨ الى ٥٠]

إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرىٰ إِثْماً عَظِيماً (٤٨) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَ كَفىٰ بِهِ إِثْماً مُبِيناً (٥٠)

اللغة:

أفترى فلان الكذب اختلقه. الفتيل ما كان في شق النواة، و النقير النقطة

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٤٢

التي في ظهر النواة، و القطمير القشرة الرقيقة على النواة، و كل واحد من هذه يضرب مثلا للشيء التافه الحقير.

الاعراب:

اثما مفعول مطلق لافترى، لأن الافتراء معناه الإثم، فهو مثل جلست قعودا.

و فتيلا صفة لمفعول مطلق محذوف، أي لا يظلمون ظلما مقدار فتيل، و قال صاحب مجمع البيان هو مفعول ثان مثل ظلمته حقه، و هو اشتباه، لأن الظلم في مثاله وقع على الحق بالذات، لا على نظيره، أما في الآية الكريمة فالمراد به انه لم يقع على نظير الفتيل لا على نفس الفتيل. و كيف محل نصب على الحال، و العامل فيه يفترون. و جملة يفترون محل نصب مفعول انظر. و كفى به الباء زائدة، و الهاء راجعة الى الافتراء، و هو مصدر متصيد من يفترون، و التقدير و كفى الافتراء. و اثما تمييز بمعنى من اثم.

المعنى:

(إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ). و قبل الشروع بتفسير الآية نمهد بأمرين يتصلان بها اتصالا وثيقا:

١- ينقسم الشرك الى نوعين: شرك في الألوهية، كمن يعتقد بتعدد الخالق و الرازق. و شرك في الطاعة، كمن يؤمن بإله واحد نظريا، و لكن يطيع المخلوق في معصية الخالق. و الكفر أيضا على نوعين: كفر في الألوهية و جحودها من رأس. و كفر في الطاعة، كمن يؤمن بإله واحد، ثم يعصيه تهاونا، و منه كفران النعم، و عدم شكر المنعم. و المراد بالشرك في الآية النوعان الأولان من الشرك و الكفر، أي الايمان بتعدد الآلهة، و عدم الايمان بشيء إطلاقا.

٢- إذا ورد كلام عام يحكم حكما ايجابيا على عديد من الأفراد، و ورد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٤٣

أيضا كلام خاص ينفي حكم الخاص عن بعض الأفراد التي تناولها العام، و كان الكلامان من مصدر واحد، ان كان الأمر كذلك وجب حمل العام على الخاص، أي استثناء ما دل عليه الخاص مما دل عليه العام، و للتوضيح نضرب هذا المثال: قال تعالى: «وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمٰا». فقد دلت الآية على ان كل سارق تقطع يده، حتى أيام المجاعة، ثم جاء الحديث الشريف يقول:

«لا يقطع السارق في عام مسنت» أي مجاعة، فوجب، و الحال هذه، أن نقيد آية السرقة العامة بحديث المجاعة، و الحكم بأن كل سارق يقطع الا أيام المجاعة.

و بعد ان تمهد معنا هذا نقارن بين ثلاث آيات، و من نتيجة المقارنة يتضح المراد من قوله تعالى: «**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**».

جاء في الآية ٥٣ الزمر: «قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». فلفظ هذه الآية عام، و معناها واضح، و هو ان اللّه يغفر كل ذنب، حتى الشرك، و لكن آية (**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**) لفظها خاص، و معناها واضح أيضا، و هو ان اللّه لا يغفر الشرك، فوجب استثناء المشرك من آية الزمر جمعا بين الآيتين، ثم جاءت آية ثالثة تقول: «وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى- ٨٢ طه»، فهذه الآية أخرجت التائب من آية (**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ**) تماما كما أخرجت هي المشرك من آية الزمر.

فتحصل معنا من مقارنة الآيات الثلاث، و عطف بعضها على بعض ان من تاب من الشرك غفر اللّه له، لأنه كفّر عن ذنبه، و ان من مات على الشرك فلا نجاة له، لأنه فوّت الفرصة على نفسه، و لأن الصفح عنه إغراء بالشرك و الخضوع لغير الحق و العدل .. هذا، الى ان العفو عن المشرك، معناه ان اللّه يقول لمن أساء: أحسنت .. تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا.

و تسأل: ان قوله تعالى: (**وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ**) يشعر بأن أي ذنب- غير الشرك- يرتكبه الإنسان يجوز أن يغفره اللّه قبل التوبة، لأن غفران الذنب مع التوبة ثابت بنص الكتاب و السنة، فيختص قوله: (**يَغْفِرُ**) بالمؤمن المذنب غير التائب .. و بكلمة ان الآية تدل على ان الصفح عن ذنب المؤمن لا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٤٤

ينحصر بالتوبة فقط، بل قد يصفح اللّه عن ذنوب المؤمنين، دون أن يتوبوا؟.

الجواب: اتفق المسلمون على أن من مات على توبة قبل اللّه منه للآيات القرآنية و الأحاديث النبوية، و اختلفوا في المسلم المذنب إذا مات قبل التوبة.

قال الخوارج: هو مخلد في النار، تماما كالكافر، سواء أ كان ذنبه كبيرا أم صغيرا.

و قالت طائفة من المرجئة: هو في الجنة من غير عقاب، إذ لا يضر مع الايمان معصية، و لا ينفع مع الكفر طاعة بزعمهم.

و قال الشيعة و السنة: لا يخلد في النار، و يترك ذنبه لمشيئة اللّه، فإن شاء غفر، و ادخله الجنة منذ اللحظة الأولى، و ان شاء عذّبه بمقدار ما يستحق، ثم أدخله الجنة.

و الذي نراه نحن لا يختلف كثيرا عن قول السنة و الشيعة، و نقرره بهذا الأسلوب: ان اللّه سبحانه لا يشاء الغفران عبثا، و من غير حكمة تستدعيه، و الحكمة الموجبة للغفران لا تنحصر بالتوبة، فقد تكون الشفاعة، أو غيرها، و ليس من الضروري أن نعلمها بالتفصيل، بل يكفي العلم بأن اللّه حكيم و كفى.

و عليه فلا مانع في نظر العقل أن يغفر اللّه ذنوب المؤمن، و ان لم يتب .. و سبق منا كلام يتعلق بهذا البحث عند تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة، فقرة مرتكب الكبيرة ص ١٣٩ من المجلد الأول.

دليل التوحيد و الأقانيم الثلاثة:

(**وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً**). لأنه آمن بالمستحيل. و من الأدلة على ان اللّه واحد انه لو وجد إلهان: فلا يخلو: إما أن يكون أحدهما قادرا على تدبير العالم، و اما ان لا يكون، فان كان قادرا كان وجود الثاني عبثا، و لزوم ما لا

يلزم، و ان لم يكن قادرا فلا يصلح للالوهية، لعجزه من جهة، و عدم الفائدة من وجوده من جهة ثانية.

و خير الأدلة كلها ما استدل به سبحانه على وحدانية ذاته بذاته، حيث

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٤٥

قال: «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ- ٢٢ الأنبياء». أي لو كان في السماء و الأرض آلهة سوى اللّه لما استقامتا، و لفسد من فيهما و ما فيهما، و لم ينتظم أمر من الأمور. ذلك انه لو وجد إلهان لكان كل منهما قادرا، و من شأن القادر أن يكون مريدا ضد ما يريده الآخر، و عليه فإذا أراد أحدهما خلق شيء، و أراد الآخر خلافه، فاما أن يحصل مرادهما معا، فيلزم اجتماع الوجود و العدم، و هو محال، و اما أن يحصل مراد أحدهما دون الآخر، فيكون هذا الآخر عاجزا و مغلوبا على أمره .. و بديهة ان العاجز لا يكون إلها.

و في الآية ٩١ المؤمنون: «مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ». و من الأمثلة الشائعة «حصانان لا يربطان على معلف واحد».

و قال علي أمير المؤمنين لولده الحسن (ع): «و اعلم يا بني انه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، و رأيت آثار ملكه و سلطانه، و لعرفت أفعاله و صفاته».

و تسأل: هل القول: ان اللّه واحد، و لكنه ذو أقانيم ثلاثة: أب و ابن و روح القدس هو من باب التوحيد، أو من باب تعدد الآلهة؟.

الجواب: ان هذا يتوقف على بيان المراد من الأقانيم، فان أريد منها الصفات كالرحمن و الرحيم فهو من التوحيد، و ان أريد منها الشخص فهو من التعدد ..

و قال سعيد الخوري الشرتوني في أقرب الموارد: «أقانيم جمع أقنوم، و معناه الأصل و الشخص». و على هذا يكون من تعدد الآلهة، لا من التوحيد، و يؤيده ان لفظ الأب و الابن، يستدعيان التعدد و التغاير في الشخص و الذات .. بالاضافة الى ان الصور و التماثيل في المعابد الخاصة للسيدة العذراء (ع) تعبر بوضوح عن التعدد، لأنها تحمل بين يديها طفلا يرمز الى السيد المسيح (ع).

(أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ). قال المفسرون: نزلت هذه الآية في اليهود، و سواء أ كان غرور اليهود هو السبب لنزول هذه الآية، أو لم يكن فإنها أصدق صورة عن مزاعمهم و ادعاءاتهم التي لا مثيل لها في الكذب و الافتراء، مثل قولهم: نحن أبناء اللّه و أحباؤه، و قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٤٦

و قولهم: نحن شعب اللّه المختار، أي ان اللّه لهم وحدهم، و انه خلق الناس جميعا عبيدا لهم .. و لم يكتفوا بهذا، حتى دفعهم الجهل و الغرور الى القول:

ان اللّه فقير و نحن أغنياء.

أجل، لا أحد أغنى و أقدر منهم إطلاقا على الاختلاق، و التمويه، و التزوير، فبالأمس القريب أشاعوا و أذاعوا، و ملأوا الشرق و الغرب صراخا و عويلا ان العرب يعدون العدة للهجوم عليهم، في حين كانوا و من يساندهم من دول الاستعمار يبيتون المكر و الغدر، و يدبرون عملية الاغتيال و الهجوم على العرب، و بعد أن أحكموا الخطة نفذوها على حين غرة، و اقترفوا من المظالم و المآثم ما أنسى الناس أعمال هتلر و جنكيز خان.

هذه صورة مصغرة من مزاعم اليهود، ذكرناها على سبيل المثال، لا الحصر و الإحصاء .. و هل تحصى مزاعم إسرائيل الكاذبة، و فضائحها الآثمة؟.

و تسأل: إذا كانت هذه هي حال إسرائيل فكيف استطاعت أن تقيم دولة مضى عليها أكثر من عشرين عاما حتى الآن؟.

الجواب: ان دول الاستعمار هي التي صنعت إسرائيل لحماية مصالحها في الشرق، و ليس لليهود من الدولة الا الاسم، أما بقاؤها الى اليوم فلبقاء الاستعمار الذي ضرب عليها خيمة من الأوكسجين .. و هو في طريقه الى الزوال، و ان طال الزمن، و بديهة ان صنيع الشيء يزول بزواله.

و ان سألت كيف سلّط اللّه الطغاة الكافرين على عباده الموحدين تجد الجواب في فقرة «نكسة ٥ حزيران» عند تفسير الآية ١٣٨ من سورة آل عمران.

(بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ). لا من يشهد لنفسه بنفسه، و بديهة ان اللّه سبحانه لا يزكي الا من تشهد له أفعاله بالتزكية .. و الآية، و ان نزلت في اليهود، فإنها تشمل كل من يزكي نفسه، لأن اللفظ عام، و العبرة بعموم اللفظ، لا بسبب النزول .. و قد أثبتت التجارب ان ما من أحد يزكي نفسه الا لجهله و غروره، أو لنقص فيه يحاول إخفاءه، و لكن بشهادة غير مقبولة، حتى عند نفسه لأنه يعلم كذبها.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٤٧

(انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) بقولهم: نحن شعب اللّه المختار .. و أبناء اللّه و أحباؤه. و ما إلى ذلك. «وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى».

[سورة النساء (٤): الآيات ٥١ الى ٥٣]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (٥٢)

اللغة:

الجبت يطلق على معان، و المراد به هنا معبود غير اللّه. و الطاغوت مصدر بمعنى الطغيان، مثل رحموت بمعنى الرحمة.

الإعراب:

سبيلا تمييز، و العامل فيه أهدى. مثل أحسن منه قولا.

المعنى:

(أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ).

وصف اللّه سبحانه اليهود في الآيات السابقة بالضلال و الإضلال و التحريف و اللي في الكلام، و تزكية النفس كذبا و افتراء، ثم وصفهم في هذه الآية بأنهم **(يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ)** أي بالأصنام التي يعبدها قريش.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٤٨

و تسأل: كيف قال سبحانه عن اليهود انهم **(يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ)** مع العلم بأنهم لا يعترفون بأصنام قريش؟.

الجواب: أجل، ان اليهود لا يعترفون بأصنام قريش بينهم و بين أنفسهم، و لكنهم اعترفوا بها دجلا و نفاقا، و تعصبا و عنادا لمحمد (ص) و من آمن به، و قالوا لعبدة الأصنام: أنتم أهدى سبيلا من المسلمين .. و كان الأولى باليهود أن يناصروا المسلمين على عبدة الأصنام، لأن المسلمين أهل كتاب، و يعترفون بالتوراة على العكس من عبدة الأصنام، فلما

خالف اليهود الحق و وقفوا مع المشركين وصفهم اللّه تعالى بأنهم كعبدة الأوثان (يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ).

و بهذا نجد تفسير قوله تعالى: (هٰؤُلاٰءِ أَهْدىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً). أي ان اليهود قالوا: المشركون أهدى سبيلا من المؤمنين، فالجواب عن السؤال موجود في الآية نفسها.

و بهذا يتبين ان: (هٰؤُلاٰءِ) اشارة الى عبدة الأوثان، و ان اللام في (لِلَّذِينَ كَفَرُوا) للتعليل، أي ان اليهود قالوا من أجل إرضاء الذين كفروا، و هم مشركو قريش، و لم يقولوا ذلك ايمانا منهم بما قالوا.

(أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ). و هم اليهود الذين نافقوا و صدقوا بالأصنام تعصبا و عنادا للمسلمين المصدقين بنبوة أنبيائهم، كموسى و داود و سليمان، و يحيى و زكريا.

(وَ مَنْ يَلْعَنِ اللّٰهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً). الا أميركا التي سلحت إسرائيل، و ساندتها يوم ٥ حزيران، و دافعت عنها في الأمم المتحدة و مجلس الأمن دفاعا لا ينساه كل عربي مخلص، و لا مسلم مؤمن، مهما طال الزمن .. و نحن على ما بنا من جراح نؤمن ايمانا لا ريب فيه بأن اللّه وحده هو الناصر القاهر، و ان العاقبة في النهاية للحق و العدل، و ما على طلابه الا أن يصبروا و لا يتعجلوا الوصول، و يصمدوا و لا يهابوا سلاح العدو أيا كان .. و بالتالي أن يستفيدوا من التجارب.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٤٩

[سورة النساء (٤): الآيات ٥٣ الى ٥٥]

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاٰ يُؤْتُونَ النّٰاسَ نَقِيراً (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النّٰاسَ عَلىٰ مٰا آتٰاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنٰا آلَ إِبْرٰاهِيمَ الْكِتٰابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنٰاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً (٥٥)

اللغة:

النقير نقرة في ظهر النواة، و منها تنبت النخلة.

الإعراب:

أم حرف عطف، و تستعمل في معنيين: الأول المعادلة، نحو أزيد عندك ام بكر؟ أي أيهما عندك؟ و تسمى المتصلة. المعنى الثاني الاضراب عما قبلها، نحو انها لإبل أم شاء، أي بل شاء، و تسمى منقطعة، و أم هنا للاضراب بمعنى بل. و اذن حرف جواب و جزاء، و تنصب المضارع بثلاث شروط أن تقع في صدر الكلام، و ان لا يفصل بينها و بين الفعل فاصل- و لا يضر الفصل بالقسم و لا النافية- و ان يكون الفعل للاستقبال لا للحال. و إذا سبقها حرف العطف جاز فيها الإهمال و الاعمال، و هي هنا مهملة لتقدم الفاء عليها، و يجوز إعمالها. و سعيرا تمييز.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٥٠

المعنى:

ما زال الكلام عن اليهود، فقد وصفهم اللّه سبحانه في الآية ٤٤ بالضلال و الإضلال، و في الآية ٤٥ بعدائهم المؤمنين، و في الآية ٤٦ بتحريف الكلام و اللي فيه، و في الآية ٤٩ بتزكيتهم لأنفسهم، و في الآية ٥٠ بالافتراء، و في الآية ٥١ بالعناد و التعصب، و تفضيل عبدة الأصنام دجلا و نفاقا على الموحدين، ثم وصفهم سبحانه بالبخل في هذه الآية:

(أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاٰ يُؤْتُونَ النّٰاسَ نَقِيراً). و المعنى ان اليهود ليس لهم دولة و ملك، و لو كان لهم

نصيب من السلطان لاحتكروا جميع الخيرات، و لم يتركوا لأحد شيئا، حتى و لو كان مقدار النقير الحقير .. و صدق اللّه العظيم، و نبوءة القرآن الكريم، فقد كانوا، و ما زالوا لا يطيقون نعمة اللّه على عبد من عباده، فإن استطاعوا انتزاعها منه بالدس و المؤامرة، أو بالربا، أو بالإغراء ببناتهم و نسائهم فعلوا، و ان كان لهم شيء من القوة سلبوا و نهبوا و أجروا الدماء نهرا، فمن اليوم الذي اغتصبوا فيه أرض فلسطين سنة ١٩٤٨ أخرجوا أهلها من ديارهم بعد أن أقاموا مذابح للنساء و الأطفال في أكثر من مكان .. و في سنة ٦٧ قامت إسرائيل بمساندة الاستعمار بعملية الاغتيال لأجزاء أخرى من البلاد العربية، و كررت فعلتها الأولى من الذبح و التشريد، و ليس هذا بغريب على تاريخهم و طبيعتهم.

و قد ملك العرب، و امتد سلطانهم مئات السنين، و انتشر شرقا و غربا، و كان اليهود من جملة رعاياهم، فأقاموا العدل بين الجميع، و أحسنوا لليهود و غيرهم من أهل الأديان، حتى قال المنصفون من علماء الغرب كغوستاف لوبون: «ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب» و شهد غيره منهم بمثل شهادته .. و لا بدع (فكل إناء بالذي فيه ينضح) كما قال ابن الصيفي.

و من المفيد أن ننقل ما ذكره صاحب المنار عند تفسير هذه الآية منذ ٦٠ عاما حين كانت فلسطين في حكم العثمانيين، قال ما نصه بالحرف:

«و حاصل معنى الآية ان هؤلاء اليهود أصحاب أثرة و شح مطاع يشق عليهم ان ينتفع منهم أحد، فإذا صار لهم ملك منعوا الناس أدنى النفع و أحقره،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٥١

فكيف لا يصعب عليهم أن يظهر من العرب نبي يكون لأصحابه ملك يخضع له اليهود، و هذه الصفة لا تزال غالبة على اليهود، حتى اليوم، فإن تم لهم ما يسعون اليه من اقامة دولة بفلسطين يطردون المسلمين و النصارى، و لا يعطونهم نقيرا .. و الدلائل متوفرة على ان القوم يحاولون امتلاك الأرض المقدسة، و حرمان غيرهم من جميع أسباب الرزق .. و قد ادخروا لذلك مالا كثيرا، فيجب على العثمانيين أن لا يمكنوا لليهود في فلسطين، و لا يسهلوا لهم امتلاك أرضها، و كثرة المهاجرين، فإن في ذلك خطرا كبيرا ..». و قال صاحب تفسير المنار: «ان الآية لا تثبت و لا تنفي ملك اليهود في فلسطين، و انما بينت ما تقتضيه طباعهم من العمل في فلسطين و غيرها لو ملكوا».

هذا ما قاله عالم من علماء المسلمين في تفسير هذه الآية: «**أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً**». قاله قبل أربعين عاما من قيام دولة إسرائيل بفلسطين، و ان دل هذا على شيء فإنما يدل على صدق محمد (ص) في نبوته و رسالته، حيث أخبر بوحي من السماء قبل أكثر من ألف و ثلاثمائة سنة ان اليهود لو ملكوا لكان منهم الذي حدث بالفعل سنة ١٩٤٨ و سنة ١٩٦٧:

«أَ فَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ- ٢٢ الزمر».

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ). هذه صفة أخرى من صفات اليهود و هي الحسد، و المراد بالناس محمد (ص) و من معه من المؤمنين:

و حسدهم اليهود على ما أفاء اللّه عليهم من دين الحق، و التمكين في الأرض ..

و لما عجز اليهود عن رد هذه النعمة عن المسلمين تحالفوا ضدهم مع المشركين، و بثوا الدعايات الكاذبة ضد الإسلام و

نبي الإسلام، و في النهاية دارت عليهم دائرة السوء، و طردوا من الحجاز بما كانوا يفعلون.

(فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً). المراد بالكتاب زبور داود، و توراة موسى، و بالحكمة النبوة و العلم. و المعنى لما ذا تحسدون أيها اليهود محمدا (ص) و العرب على النبوة و التمكين في الأرض؟ فان اللّه قد وهب من قبل مثل ذلك لأسلافه، كيوسف و داود و سليمان.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٥٢

(فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ كَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً). اختلف المفسرون: هل الضمير في (به) يعود الى محمد (ص) أو الى ابراهيم أو الى الكتاب؟. و الأرجح الذي يتلائم مع المعنى، و يساعد عليه الاعتبار انه يعود الى كل نبي آتاه اللّه الكتاب و الحكمة، و لفظ (كل نبي) و ان لم يذكر في الآية صراحة فإنه مفهوم من مجموع الكلام و سياقه .. و على أية حال، فلا خلاف في أن معنى الآية انه لا غرابة ان لا يؤمن هؤلاء و أمثالهم بمحمد (ص) فإن الأنبياء السابقين آمن بهم فريق، و كفر بهم فريق، و الفريق الكافر كان كثيرا كما قال سبحانه: «فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ- ٢٦ الحديد». (وَ كَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً). أي احتراقا و التهابا لمن صدّ عن الحق.

[سورة النساء (٤): الآيات ٥٦ الى ٥٧]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللهَ كانَ عَزِيزاً حَكِيماً (٥٦) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلاً (٥٧)

اللغة:

نصليهم أي نشويهم، يقال: شاة مصلية، أي مشوية. و نضج الثمر أو اللحم أدرك و طاب، و المراد بنضجت هنا احترقت و تلاشت.

الاعراب:

نارا منصوب بنزع الخافض، أي نصليهم بالنار، و مثله ظلا ظليلا، أي

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٥٣

ندخلهم في ظل ظليل و الظليل صفة للظل، و اشتق من لفظه للمبالغة في الوصف، كقولهم ليل أليل، و داهية دهياء. و كلما منصوب على الظرف، لأنه مضاف الى (ما) المصدرية الظرفية، و العامل فيه بدلناهم.

المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها). هذه الآية بيان لقوله تعالى في آخر الآية السابقة: (وَ كَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً). و المراد بالآيات هنا كل ما ثبت في الدين بالضرورة، مثل علم اللّه و قدرته، و الملائكة و الجنة و النار، و ما الى ذلك مما يعود الى أصول الدين، و مثل وجوب الصوم و الصلاة، و تحريم الزنا و الخمر، و ما اليهما من الأحكام الفقهية، و المسائل الفرعية.

و ليس من شك ان الجحود كفر: و هل التشكيك كفر أيضا كالجحود؟.

بحثنا ذلك مفصلا في فقرة حكم تارك الإسلام عند تفسير الآية ١١٥ من سورة آل عمران.

و تسأل: ان اللّه سبحانه عادل ما في ذلك ريب، فإذا أحرق الجلد الذي عصى فيه صاحبه فقد زال و تلاشى، فإذا خلق

مكانه جلدا جديدا و عذّبه كان هذا تعذيبا لجلد لم يعص اللّه، و هو غير جائز عليه عز و جل؟.

و عن الإمام جعفر الصادق (ع) انه أجاب عن هذا السؤال بقوله: ان الجلد هو هو، و هو غيره، و ضرب لذلك مثلا باللبنة تكسرها، حتى تصير ترابا، ثم تصب عليه ماء و تجبله حتى يصير لبنة من جديد، فتكون هي هي في مادتها، و هي غيرها في صورتها.

و غير بعيد ان يكون تبديل الجلود كناية عن أليم العذاب و شدته .. و في جميع الأحوال فان المطلوب منا ان نؤمن بعدل اللّه و قدرته. أما التفاصيل فغير مسؤولين عنها.

(لِيَذُوقُوا الْعَذٰابَ). أي ان السبب الموجب لتبديل الجلود هو احساسهم بالعذاب الدائم. و هذا النوع من العذاب مختص بالجاحد و المشرك و من تخاف

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٥٤

الناس من شره، و نحن نحيا و نموت على شهادة: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه، و على العداء لكل شرير غاشم، قال أهل العلم باللّه: الذين يدخلون النار، و لا يخرجون منها خمسة: مدعي الربوبية كنمرود و فرعون، و من نفى الإله جملة واحدة، و من جعل مع اللّه إلها آخر، و المنافق، و قاتل النفس المحرمة.

و بديهة أن من أظهر أفراد المنافقين من يثير الحروب باسم المحافظة على السلم، و يستعبد الشعوب باسم صيانة الحرية، و ينهب أقوات العباد باسم العمل على رفع مستوى معيشتهم، و ينشر الفجور و التهتك باسم التطور و التمدن.

(وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ الخ تقدم نظيرها مع التفسير في سورة آل عمران الآية ١٥ .. هذا الى أنها واضحة لا تحتاج الى تفسير.

[سورة النساء (٤): الآيات ٥٨ الى ٥٩]

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمٰانٰاتِ إِلىٰ أَهْلِهٰا وَ إِذٰا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّٰاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمّٰا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كٰانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨) يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩)

اللغة:

المراد بالتأويل في قوله: و احسن تأويلا المآل و العاقبة، من آل يؤول إذا رجع. و قيل، المراد به التفسير.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٥٥

الإعراب:

المصدر المنسبك من أن تؤدوا في محل جر بالباء المحذوفة، و التقدير يأمركم بتأدية الأمانة. و إذا حكمتم معطوف على يأمركم، و المعنى و يأمركم إذا حكمتم أن تحكموا بالعدل. و نعما نعم فعل ماض، و معناها المدح. و ما محل نصب على التمييز بمعنى شيئا، و هي مفسرة للضمير المستتر في نعم، و التقدير نعم الشيء شيئا. و المخصوص بالمدح محذوف خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير هو تأدية الأمانة و العدل في الحكومات. و جملة يعظكم صفة لما. و الجملة من نعم و ما بعدها خبر انّ. و ذلك مبتدأ. و خير خبر، و أحسن معطوف على خير. و تأويلا تمييز.

المعنى:

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمٰانٰاتِ إِلىٰ أَهْلِهٰا). لقد تضمنت الآيتان وجوب تأدية الأمانة، و العدل في الحكم، و اطاعة الله و الرسول و أولي الأمر .. و قد جاء في الكتاب و السنة العديد من الآيات و الروايات في الحث على حفظ الأمانة و أدائها لصاحبها برا كان أو فاجرا، لأنها حق له بما هو انسان، لا بما هو صالح أو طالح، فمن القرآن هذه الآية: «**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمٰانٰاتِ**». و منه:

«يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَخُونُوا اللهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِكُمْ- ٢٧ الأنفال».

و من الروايات: «لا ايمان لمن لا أمانة له، و لا دين لمن لا عهد له».

و لكن لم يرد في الكتاب و السنة- على ما نعلم- تحديد لمعنى الأمانة.

و الذي نفهمه ان الأمانة هي الوديعة عندك لغيرك .. و عليك أن تحتفظ بها و تحرص عليها، و ان تردها لصاحبها عند طلبها، كما هي، فإذا أمسكتها عنه، أو رددتها ناقصة محرفة فأنت خائن بحكم الكتاب و السنة.

و ليس من الضروري أن تكون الأمانة عينا حسية، كالمال و الكتاب، فقد تكون سرا، أو نصيحة، أو عملا .. و أيضا ليس من الضروري أن يكون صاحبها الذي أن تؤديها له شخصا حقيقيا، فقد يكون الدين أو العلم، بل قد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٥٦

تكون نفسك بالذات صاحبة الأمانة، و أمانة الدين و العلم ما تعلمه من حلال اللّه و حرامه، و من الخير و الشر، و تتحقق التأدية لهذه الأمانة بأن تعمل بما تعلم، أما أمانة نفسك عندك فأن تختار ما هو الأصلح لها في دنياها و آخرتها.

و بكلمة ان الأمين هو الذي يؤدي ما عليه كاملا غير منقوص، سواء أ كان الذي فرض هذا الواجب هو الدين، أو العلم، أو الوطن، أو المجتمع، أو أي شيء آخر .. فليست الأمانة- على هذا- ذوقا و سليقة يعجبها من الطعام أو الشراب هذا، لا ذاك، و من النساء هذه، لا تلك، و لا وصفا يحبب الناس بصاحبه، كاللطف و خفة الروح، بل الأمانة عصب الحياة و قوامها الذي لا يستقيم شيء بدونه، و الى هذا المعنى أشار الإمام علي (ع) بقوله: «الأمانات نظام الأمة» أي ان الأمة لا تنتظم شئونها الا إذا أدى كل انسان ما يطلب منه .. و قال:

«من لم يختلف سره و علانيته، و فعله و مقالته فقد أدى الأمانة، و أخلص العبادة .. و من استهان بالأمانة، و رتع في الخيانة، و لم ينزه نفسه و دينه عنها فقد أحل بنفسه في الدنيا الخزي، و هو في الآخرة أذل و أخزى، و ان أعظم الخيانة خيانة الأمة، و أفظع الغش غش الأمة». يشير الى القادة اللصوص، و سوء أثرهم، و فظاعة خطرهم.

و من الدلائل على قداسة الأمانة و عظمتها قول الفقهاء: من أعلن الحرب على الإسلام و المسلمين، و أباح دماءهم و أموالهم، لا لشيء الا بغضا بكلمة التوحيد حل ماله و دمه، و لا تحل أمانته، قال الإمام زين العابدين (ع): لو ائتمني قاتل أبي على السيف الذي ذبحه به لما خنته .. و قال رجل للإمام الرضا (ع):

ان يهوديا خانني في ألف درهم، و حلف، ثم وقعت له عندي أرباح، فهل اقتص منه؟. قال الإمام: ان كان ظلمك فلا تظلمه .. و في رواية ثانية:

«ان خانك فلا تخنه، و لا تدخل فيما عبته عليه»، و السر في ذلك ان الأمانة حق لصاحبها بوصفه إنسانا، لا بوصفه مسلما، لا مشركا، أو طيبا، لا خبيثا. و سنعود الى الحديث عن الأمانة عند تفسير الآية ٧٢ من سورة الأحزاب:

«إِنَّا عَرَضْنَا الأَمٰانَةَ عَلَى السَّمٰاوٰاتِ وَ الأَرْضِ».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٥٧

(وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ). بعد أن أوجب سبحانه رد الأمانة الى أهلها عقب بوجوب العدل في الحكم بين الناس، لأن من لا ينصف الناس من نفسه فلا يحق له أن ينصبها حكما بينهم .. و وجوب العدل لا يختص بالقاضي، بل يشمل الوالي أيضا، و الوالي العادل هو الذي يهتم بجميع نواحي الحياة، كالصحة و الثقافة و العيش و الحرية للجميع .. و قبل كل شيء يجب عليه أن لا يدع منفذا لطامع - أجنبيا كان أو من الوطن - يسلك منه الى التحكم و السيطرة على شأن من شئون الناس و مقدراتهم .. فلقد أثبتت الأحداث التي مررنا بها ان المصدر الأول و الأخير لما أصابنا من ويلات و نكبات هو تسرب اللصوص و غير الاكفاء الى مراكز القوة، و المناصب العالية.

أما عدل القاضي فيتمثل في مساواته بين الخصمين في كل شيء، و إعطاء كل ذي حق حقه بصرف النظر عن دينه و عقيدته، و صداقته و عداوته، و عظمته وضعته، و ما عرف التاريخ شريعة اهتمت و تشددت في ذلك كالشريعة الاسلامية، قال رسول اللّه (ص): «من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين» يشير الى أن مهمة القاضي أصعب المهمات و أدقها، لأن عليه أن يجاهد نفسه و يكافحها إذا كان الحق على غير ما يهوى .. و قال «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، و قاض في الجنة، فأما الذي في الجنة فرجل علم الحق، فقضى به، و أما اللذان في النار فرجل قضى للناس على جهل، و رجل علم الحق، و قضى بخلافه» .. و قد تواتر ان عليا أمير المؤمنين (ع) جلس للمحاكمة بين يدي قاضيه شريح هو و نصراني خاصمه في درع.

(إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ). المراد بالعظة هنا الأمر برد الأمانة، و لفظ نعم يشعر بأن اللّه سبحانه لا يأمر إلا بما فيه الخير و الصلاح.

من هم أولو الأمر؟

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ). لقد كثر الكلام و النقاش حول المراد من أولي الأمر، و ما يعتبر فيهم من صفات، كما تشبث بها الحكام الأدعياء على وجوب اطاعتهم، أو السكوت عنهم - على

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٥٨

الأقل - و أيضا استدل بها جماعة من الفقهاء على أن مصادر الشريعة و أصولها تنحصر بأربعة، و هي: كتاب اللّه لقوله تعالى: أَطِيعُوا اللهَ. و السنة النبوية لقوله: و أطيعوا الرسول. و الإجماع لقوله: و أولي الأمر منكم. و القياس لقوله: فان تنازعتم في شيء فردوه الى اللّه و الرسول، حيث زعموا ان المعنى قيسوا ما لا نص فيه على نظيره الذي فيه نص من الكتاب و السنة، و يأتي البيان عن ذلك، و لا خلاف في ان الكتاب و السنة هما الأصلان الأساسيان للتشريع، أما الإجماع و القياس فقد اختلفوا في حجيتهما، و في دلالة الآية عليهما. و فيما يلي نعرض الجهات التي تضمنتها الآية، و الآراء التي قيلت حولها.

١- لا يختلف اثنان من المسلمين في أن اطاعة اللّه و الرسول انما تكون بالعمل بكتاب اللّه و سنة نبيه، و انهما وسيلتان للتعبير عن شيء واحد، «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ- ٨٠ النساء». «وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا- ٧ الحشر». «وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى- ٥ النجم». و من هنا اتفق المسلمون قولا واحدا على رفض كل ما ينسب الى النبي (ص) إذا تنافى مع مبدأ من مبادئ القرآن و حكم من أحكامه.

و تسأل: لما ذا كرر لفظ الاطاعة عند ذكر الرسول، و لم يكررها عند ذكر أولي الأمر؟

الجواب: للتنبيه على ان اطاعة الرسول أصل بذاته، تماما كإطاعة اللّه، و من هنا كان قول كل منهما مصدرا من مصادر

الشريعة، و ليس كذلك اطاعة أولي الأمر .. انها فرع و تبع لاطاعة اللّه و الرسول، ان اولي الأمر رواة عن الرسول.

٢- ان لفظ منكم يدل بوضوح على ان حاكم المسلمين يجب أن يكون منهم، و لا يجوز إطلاقا ان يكون من غيرهم، و يؤيد ذلك قوله تعالى: «وَ لَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً- ١٤١ النساء».

٣- اختلفوا في المراد من أولي الأمر بعد اتفاقهم على شرط الإسلام، فمن قائل: انهم الخلفاء الراشدون. و قائل: انهم قادة الجيش. و قال ثالث: هم علماء الدين. و قال الشيخ محمد عبده: هم الأمراء و الحكام و العلماء و رؤساء الجند، و سائر الزعماء الذين يرجع اليهم الناس في الحاجات و المصالح، فإذا اتفق

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٥٩

هؤلاء على أمر وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا أمناء و ألا يخالفوا أمر اللّه، و لا سنة رسوله، و أن يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر و اتفاقهم عليه.

و قال الشيعة الإمامية: ان اللّه سبحانه عطف بالواو اطاعة أولي الأمر على اطاعة الرسول بدون قيد، و العطف بالواو يقتضي الجمع و المشاركة في الحكم، و معنى هذا ان اطاعة أولي الأمر هي اطاعة الرسول، و ان أمرهم هو أمره ..

و ليس من شك ان هذه المرتبة السامية لا تكون الا لمن اتصف بما يؤهله لهذا الطاعة، و لا شيء يؤهله لها الا العصمة عن الخطأ و المعصية، فهي وحدها التي تجعل طاعته و طاعة الرسول سواء، و قد اعترف الرازي بفكرة العصمة صراحة، و قال: ان أولي الأمر الذين تجب اطاعتهم لا بد أن يكونوا معصومين، و الرازي- كما هو معروف- من كبار علماء السنة و فلاسفتهم و مفسريهم، و هذا ما قاله بالحرف:

«اعلم ان قوله (أولي الأمر) يدل عندنا على ان اجماع الأمة حجة، و الدليل على ذلك ان اللّه تعالى أمر بالطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، و من أمر اللّه بطاعته لا بد أن يكون معصوما عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوما عن الخطأ، كان بتقدير اقدامه على الخطأ مع ان اللّه قد أمر بمتابعته، فيكون ذلك أمرا بفعل الخطأ، مع العلم بأن متابعة المخطئ منهي عنها ..

فثبت ان المقصود من أولي الأمر المذكورين في الآية لا بد أن يكون معصوما».

و هذا عين ما قاله الشيعة في تفسير هذه الآية، و الخلاف بينهم و بين السنة في التطبيق و تعيين المعصوم، فالسنة يقولون: العصمة للأمة، و فسروا الأمة بأهل الحل و العقد، و قال كثير منهم: يكفي بعض أهل الحل و العقد .. و قال الشيعة: ان المراد بأولي الأمر أهل البيت، و هم المعصومون و المطهرون من الرجس و الدنس، ففكرة العصمة- اذن- ليست خاصة بالشيعة، و لم يتفردوا بالقول بها، بل هي عند السنة، كما هي عند الشيعة، و الفرق انما هو في التطبيق و تعيين المعصوم، كما قلنا، فالحملة على الشيعة من أجل القول بالعصمة، دون غيرهم، لا مبرر لها الا التعصب، و بث روح الشقاق و التفرقة.

و استدل الشيعة على عصمة أهل البيت بأن العصمة منحة إلهية يختص اللّه بها

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٦٠

من ارتضى من عباده، و محال أن تحصل العصمة بالاكتساب، مهما اجتهد الإنسان، و جاهد، كما هو شأن سائر الصفات، كالعدالة و الايمان، و ما اليهما. و عليه ينحصر الطريق الى معرفة العصمة بالوحي فقط، و قد ثبت النص كتابا و سنة على عصمة أهل البيت (ع)، من ذلك قوله تعالى: «إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً- ٣٣

الأحزاب».

و من ذلك قول الرسول الأعظم (ص): «من أطاعني فقد أطاع اللّه، و من عصاني فقد عصى اللّه، و من أطاع عليا فقد أطاعني، و من عصى عليا فقد عصاني». رواه الحاكم في المستدرك و قال: هذا حديث صحيح، و صححه أيضا الذهبي في تلخيص المستدرك، و في الكتاب المذكور قال النبي «ص»: علي مع القرآن، و القرآن مع علي لن يفترقا، حتى يردا علي الحوض. و روى الترمذي في مسنده و الحاكم في مستدركه و ابن حجر في صواعقه عن الرسول الأعظم «ص» انه قال: اللهم أدر الحق مع علي كيف دار. و أيضا روى الامام ابن حنبل و الترمذي و الحاكم و ابن حجر قوله «ص»: اني قد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي الثقلين: كتاب اللّه و عترتي أهل بيتي، و اشتهر عن النبي «ص»: انما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا.

الى عشرات الأحاديث، و كلها مدوّنة في كتب السنة و صحاحهم، و مروية بأسانيدهم، و قد جمعها و وضع لها علماء الشيعة مؤلفات خاصة في القديم و الحديث، فمن القديم كتاب الشافي للشريف المرتضى، و تلخيصه للشيخ الطوسي، و نهج الحق للعلامة الحلي، و من الحديث المجلد الثالث من أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين، و دلائل الصدق للشيخ المظفر، و المراجعات لشرف الدين.

و بالإجمال ان الشيعة و السنة يؤمنون معا بالعصمة كمبدأ «١» و أيضا يتفق الشيعة

---

(١) ان فكرة العصمة لا تختص بالشيعة و لا بالسنة، فالمسيحيون قالوا بعصمة البابا، و الشيوعيون بعصمة ماركس و لينين، و الصينيون بعصمة ماوتسي تونغ، و الاخوان المسلمون بعصمة حسن البنا، و القوميون السوريون بعصمة أنطون سعادة، و هكذا كل حزب يقول بعصمة رئيسه و مؤسسه و واضع مبادئه.

و قد تكلمنا عن العصمة مفصلا عند تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة، فقرة الإمامة و فكرة العصمة، ص ١٩٦ من المجلد الأول. [.....]

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٦١

و أكثر السنة، أو الكثير منهم على ان أولي المذكورين في الآية معصومون، و أيضا يتفقون على ان الدليل على عصمتهم ان اللّه أوجب اطاعتهم، تماما كما أوجب اطاعة اللّه و الرسول، و لكن السنة و الشيعة يختلفون في المراد من أولي الأمر المعصومين: هل هم أهل الحل و العقد، أو هم أهل البيت (ع)؟.

قال السنة: هم أهل الحل و العقد. و قال الشيعة: هم أهل البيت، لأن العصمة منحة إلهية لا تعرف الا بالنص من اللّه و الرسول، و قد ثبت النص عنهما على عصمة أهل البيت، اذن يكون المراد بأولي الأمر أهل البيت دون غيرهم، و بتعبير ثان ان أولي الأمر في الآية معصومون لوجوب اطاعتهم، لأن من وجبت اطاعته فهو معصوم .. و أيضا ثبتت عصمة أهل البيت بالنص، و لم تثبت عصمة غيرهم، و من ثبتت عصمته فهو واجب الطاعة، فالنتيجة الحتمية ان أولي الأمر هم أهل البيت، و ان أهل البيت هم أولو الأمر دون غيرهم .. و مثل ذلك أن يقول لك قائل: استمع للناصح الأمين، و لا ناصح أمين الا زيد، فالنتيجة استمع لزيد.

و مما استدل به الشيعة على عدم جواز الرجوع الى أهل الحل و العقد في الأمور الدينية- قوله تعالى: «وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ

لا يَعْلَمُونَ- ١٨٦ الأعراف».

و قوله: «وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ- ١٠٦ المائدة». و قوله: «وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ- ٣٤ التوبة». و معنى هذا ان الحق لا يعرف بالناس قلّوا أو كثروا، و انما تعرف الناس بالحق الذي يؤخذ من كتاب اللّه، و سنة نبيه، و حكم العقل البديهي الذي لا يختلف فيه اثنان.

- على الهامش- أرسم هذه الكلمات في شهر آذار سنة ١٩٦٨ و الانتخابات لمجلس النواب بلبنان قائمة على قدم و ساق، و الأكثرية تزدحم على صناديق الاقتراع، لتنتخب من دفع لها سلفا ثمن الأصوات بعد المزايدة، أو وعد أصحابها بتلبية أغراضهم و أهوائهم. و سلام على من وصف بعض الانتخابات بقوله: «فصغى رجل لضغنه- أي مال مع حقده- و مال آخر لصهره، مع هن و هن» كناية عن أشياء يكره ذكرها. و قال في مناسبة ثانية: «همج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، و لم يلجئوا الى ركن وثيق».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٦٢

القياس:

(فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَ الرَّسُولِ). قدمنا ان قوله تعالى:

(أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ) يدل بالاتفاق على وجوب التمسك بالكتاب و السنة، و ان قوله: **(وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)** يدل على وجوب اطاعة أهل بيت النبي (ص) عند الشيعة، و على اطاعة أهل الحل و العقد عند أكثر السنة، أو الكثير منهم.

و الآن نتكلم عن قوله: **(فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)** الخ) و هل يدل على وجوب العمل بالقياس، أو هو أجنبي عنه؟. و قبل الجواب عن هذا السؤال نطرح السؤال التالي:

لما ذا أوجب اللّه سبحانه الرد عند التنازع الى اللّه و الرسول، دون أولي الأمر مع العلم بأنه أوجب اطاعة الثلاثة؟.

الجواب: لأن التنازع قد يقع في تعيين أولي الأمر أنفسهم، كما حدث ذلك بالفعل، حيث قال السنة: هم أهل الحل و العقد. و قال الشيعة: هم أهل البيت، و عليه يجب الرجوع في هذا التنازع الى كتاب اللّه، و سنة الرسول، و من أجل هذا استدل الشيعة بآية التطهير و حديث الثقلين و غيره على ان أولي الأمر هم أهل البيت.

و نعود الآن الى دلالة الآية على وجوب العمل بالقياس، أو عدم دلالتها عليه.

و القياس هو إعطاء حكم الواقعة المنصوص عليها شرعا لواقعة أخرى لم ينص الشارع عليها لمشاركة الواقعتين في علة يستنبطها الفقيه من تلقائه و عنداياته- مثلا- نص الشارع على ان الجدة لأم ترث، و لم ينص على الجدة لأب، فنورّث الجدة لأب قياسا على الجدة لأم، لأن كلتيهما جدة ..

قال السنة: ان قوله تعالى: «**فَإِنْ تَنٰازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَ الرَّسُولِ**» يدل على صحة العمل بهذا القياس، لأن «معناه فردوه الى واقعة بيّن اللّه حكمها، و لا بد أن يكون المراد فردوها الى واقعة تشبهها».

و قال الشيعة: ان الآية بعيدة عن القياس و لا تدل على أكثر من وجوب الرجوع الى الكتاب و السنة في المسائل الدينية التي يقع فيها الخلاف بين الفقهاء، و أقوال الأئمة المعصومين تدخل في السنة، لأنها روايات عن جدهم رسول اللّه (ص)،

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٣٦٣

أما طريقتهم فيما لا نص فيه من الكتاب و السنة فهي الرجوع الى حكم العقل البديهي القطعي الذي لا يختلف فيه اثنان، مثل قبح العقاب بلا بيان، و ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، و ليس القياس من هذا الباب، لأن نتائجه كلها ظنية، و الظن لا يغني عن الحق شيئا «١».

و مما استدل به الشيعة على بطلان القياس ان الأمور العرفية يصح قياس بعضها على بعض، لأن أسبابها بيد العرف، أما الأحكام الدينية فلا يصح فيها القياس، لأن الشرع قد جمع بين المختلفات، كما في موجبات الوضوء، حيث سوّى بين النوم و البول، و فرّق بين المجتمعات، حيث أوجب قطع يد من سرق درهما، دون من اغتصب مئات الألوف.

(إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ). قال صاحب مجمع البيان: «فما أبين هذا و أوضحه». و نقول: ما ألطف هذا التفسير و أحسنه. **(ذٰلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً)**. أي ان اطاعة اللّه و الرسول، و إرجاع حكم المختلف فيه الى الكتاب و السنة أحمد عاقبة و مآلا، هذا إذا فسرنا التأويل في الآية بالمال. و قيل:

المراد به التفسير، و عليه يكون المعنى ان تفسير اللّه و الرسول لما تنازعتم فيه خير و أحسن من تفسيركم، و مهما يكن، فان لفظ التأويل يتحمل المعنيين.

[سورة النساء (٤): الآيات ٦٠ الى ٦٣]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحٰاكَمُوا إِلَى الطّٰاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ الشَّيْطٰانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاٰلاً بَعِيداً (٦٠) وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ تَعٰالَوْا إِلىٰ مٰا أَنْزَلَ اللهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنٰافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (٦١) فَكَيْفَ إِذٰا أَصٰابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جٰاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنٰا إِلاّٰ إِحْسٰاناً وَ تَوْفِيقاً (٦٢) أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مٰا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (٦٣)

---

(١) هذا ما عليه العمل اليوم عند علماء الشيعة، و لكن الموجود في عهد علي أمير المؤمنين لمالك الأشتر ان الرد إلى اللّه في الآية هو الأخذ بالنص الصريح في كتاب اللّه، و الرد إلى رسول اللّه هو الأخذ بسنته التي أجمع المسلمون على نسبتها اليه.

اللغة:

الزعم في أصل اللغة القول حقا كان أو باطلا، ثم كثر استعماله في الظن و الاعتقاد اللذين يعتقد ببطلانهما، أو يشك بصدقهما، و لم يستعمل في القرآن الا في الكذب و الباطل، فمن استعماله في الباطل قوله تعالى: «هٰذا لِلّٰهِ بِزَعْمِهِمْ- ١٣٦ الانعام». و من استعماله في الكذب قوله: «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا- ٧ التغابن». و الطاغوت مصدر، و فيه مبالغة، و المراد به هنا المبطل. و الصدود الإعراض.

الاعراب:

كيف في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي كيف صنيعهم إذا أصابتهم مصيبة. و جملة يريدون حال، و مثلها جملة و قد أمروا، و جملة يحلفون. أما جملة ان أردنا الا إحسانا فجواب القسم. و في أنفسهم متعلق ببليغ، أي قل لهم قولا يؤثر في نفوسهم.

المعنى:

(أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٦٥

يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ). ألم تر الخطاب للنبي (ص) بصيغة الاستفهام، و المراد به التعجب من حال المنافقين الذين أبطنوا الكفر، و أظهروا الإسلام و الإيمان بالكتب السماوية، و محل التعجب انهم كذّبوا أنفسهم بأنفسهم، حيث رفضوا التحاكم عند أهل الحق، و انصرفوا عنهم الى أهل الباطل، مع ان الإسلام يأمرهم بالابتعاد عن الضالين و المبطلين، و لكن الواقع تغلب على التزييف و التمويه، و أبطل ما كان يدعون.

قال صاحب مجمع البيان: تخاصم يهودي و منافق من المسلمين، فقال اليهودي:

أحاكمك الى محمد، لأنه علم ان محمدا (ص) لا يقبل الرشوة، و لا يجوز في الحكم. فقال المنافق: بل بيني و بينك كعب الأشراف- يهودي- لأنه علم ان كعبا يأخذ الرشوة، و يجور في الحكم.

و رغم علمنا بأن أكثر المفسرين لا يتثبتون في أسباب التنزيل، و أنهم يتخذون من الحادثة سببا لنزولها، رغم علمنا هذا فلا نرى مثالا يفسر المعنى المراد من الآية أوضح من هذه الحادثة التي ذكرها صاحب مجمع البيان .. رفض المنافق التحاكم الى الرسول (ص)، لأنه يكفر به و بدينه، أما اليهودي فانه يؤمن باليهودية، و مع ذلك أبى التحاكم عند يهودي مثله، و طلب التحاكم الى الرسول (ص)، و هو كافر به و بدينه، و السر هو المنفعة .. و لا تختص هذه الظاهرة باليهود، فكل من نال خيرا من دين، أو مبدأ فلا ينبغي الوثوق به و لا بدينه إلا بعد الابتلاء، فان كثيرا من الناس يقبضون الألوف، و يعيشون سعداء، لا لشيء إلا لثقة الناس بإيمانهم و صلاحهم. و ربما كانوا ممن ينطبق عليهم قوله تعالى:

«وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ- ١١ الحج».

و قال الإمام علي (ع): الثناء بعد البلاء. و قال ولده الإمام الحسين (ع):

الناس عبيد الدنيا، و الدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت عليه معايشهم، فإذا محصوا بالبلاء قل الديانون. و كان الرسول الأعظم (ص) يقول في السراء:

«الحمد للّه المنعم المفضل، و يقول في الضراء: الحمد للّه على كل حال».

يشير الى انه مؤمن باللّه راض بما قدّر، حتى في هذه الحال، تماما كالولد البار، يبقى على إخلاصه لوالده، حتى في حال تأديبه له.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٦٦

قال الإمام علي (ع): لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على ان يبغضني ما أبغضني. و كان حفيده الإمام زين العابدين (ع) يقول فيما يقول إذا أصابته شدة: يا إلهي أي الحالين أحق بالشكر لك؟ و أي الوقتين أولى بالحمد لك؟ أوقت الصحة التي هنأتني فيها؟ أو وقت العلة التي محصتني بها؟ .. اللهم اجعل مخرجي من علتي الى عفوك، و سلامتي من هذه الشدة الى فرجك.

(وَ يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً). هذا دليل صريح على ان الشر من الشيطان، لا من الرحمن .. و كل فكرة تدفع بك الى الشر تسمى شيطانا، قال تعالى: «الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ». و في الحديث:

«إذا قال لك الشيطان: ما أكثر صلاتك! .. فقل له: غفلتي أكثر. و إذا قال لك: ما أكثر حسناتك! .. فقل: سيئاتي أكثر. و إذا

قال: ما أكثر من ظلمك! .. فقل: من ظلمته أكثر». و بديهة ان النفس هي التي تصور لصاحبها انه عابد و محسن و مظلوم، و لا ينخدع بأباطيلها هذه الا جاهل مغرور.

(وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلىٰ ما أَنْزَلَ اللهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً). لأنهم لا يؤمنون باللّه و لا برسوله، و لا بشيء الا بالعاجل من أين أتى.

(فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ). و أعظم المصائب كلها على المنافقين أن ينكشف أمرهم، و يفتضح سرهم أمام الملأ، حيث يعرفون عند الناس بالخيانة و الغدر و الكذب و المكر و الخداع و الجبن و الهوان.

(ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ إِحْساناً وَ تَوْفِيقاً). يأتون الرسول خاضعين خانعين يتعللون بالمعاذير، و اللّه يعلم، و رسوله يعلم، و الناس يعلمون ان المنافقين لكاذبون، و انهم يتخذون ايمانهم جنة و وقاية من الخزي و العقوبة.

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ). أي تجاهل أمرهم، فلا تقبل منهم عذرا، لأنهم يستغلون قبولك هذا في أغراضهم، و لا تعاقبهم، لأنهم اعتذروا و لو ظاهرا **(وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً)**. كأن يأمرهم النبي (ص) بتقوى اللّه بأسلوب يشعرون معه بأنهم مخطئون، و ان عليهم أن يحاولوا تطهير أنفسهم بالانابة .. هذا هو مبدأ الإسلام في كل مجرم لا يعاجله بالعقوبة، و لا يؤيسه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٦٧

من العفو، بل يستنفد معه جميع الطرق الى إصلاحه: «اذْهَبا إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشىٰ- ٤٤ طه». و قال الإمام أمير المؤمنين (ع): الفقيه، كل الفقيه من لم يقنّط الناس من رحمة اللّه، و لم يؤيسهم من روح اللّه، و لم يؤمنهم من مكر اللّه، و مصدر هذه الحكمة قوله تعالى: «قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ- ٥٣ الزمر».

[سورة النساء (٤): الآيات ٦٤ الى ٧٠]

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً (٦٤) فَلا وَ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥) وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً (٦٦) وَ إِذاً لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (٦٧) وَ لَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٦٨)

وَ مَنْ يُطِعِ اللهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً (٦٩) ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَ كَفىٰ بِاللهِ عَلِيماً (٧٠)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٦٨

اللغة:

الشجر معروف، و شجر الأمر بين القوم، و تشاجروا تنازعوا و تداخل كلام بعضهم ببعض، مأخوذ من التفاف أغصان الشجر، و تشابكها و تداخل بعضها ببعض. و الحرج الضيق. و التثبيت التقوية و جعل الشيء ثابتا راسخا. و الصديقين جمع صديق مبالغة في الصدق و المداومة عليه.

الاعراب:

من رسول (من) زائدة، و يؤتى بها بعد النفي في مثل الآية لتأكيد العموم و الاستغراق. و اللام في ليطاع لام كي، و المصدر المنسبك من ان المضمرة و الفعل مجرور باللام متعلق بأرسلنا على معنى المفعول من أجله. و جملة جاءوك خبر أنهم، و المصدر المنسبك من ان و اسمها و خبرها فاعل لمحذوف، و التقدير لو حصل مجيئهم. فلا و ربك (فلا) أفادت هنا نفي ما سبق، أي ليس الأمر كما زعموا، ثم استأنف القسم. و يحكموك منصوب بأن مضمرة بعد حتى. و ثم لا يجدوا معطوف على فعل مقدر، أي فتقضي ثم لا يجدوا. و ان اقتلوا (ان) مفسرة بمعنى أي. و قليل بالرفع على انه بدل من ضمير فعلوه، و يجوز النصب على الاستثناء. و تثبيتا تمييز. و اذن سبق اعرابها في الآية ٥٣ من هذه السورة.

و رفيقا تمييز على معنى من رفيق، و يجوز ان يكون حالا، أي في حال المرافقة.

و كفى باللّه الباء زائدة، و لفظ الجلالة فاعل .. و عليما تمييز.

المعنى:

(وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللهِ). المراد بإذن اللّه أمره جل و علا، و تسأل: ان هذا الاخبار أشبه بتوضيح الواضح، لأن اضافة الرسول الى اللّه تدل بذاتها على انه أرسل كي يطاع، و إلا لم يكن للاضافة معنى، فما هو القصد، اذن من هذا البيان؟.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٦٩

الجواب: القصد إلقاء الحجة على المنافقين الذين عصوا الرسول، و رفضوا التحاكم اليه .. و وجه الحجة ان اللّه سبحانه بيّن للمنافقين و غيرهم في هذه الآية ان معصية الرسول ليست معصية له بالذات، و انما هي معصية للّه، حيث أبى إلا ان يجري الأمور على سننها: و من هذه السنن أن يبلغ أحكامه لعباده بواسطة رسول منهم، و على هذا فمن عاند الرسول فيما يبلغه من أحكام اللّه فقد عاند اللّه، و الى هذا المعنى يشير قوله تعالى: **(بِإِذْنِ اللهِ)**. و النتيجة ان المنافقين، و كل من يعصي اللّه مستحقون للعقاب لأنهم عصوا اللّه و خالفوه.

(وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً). ظلموا أنفسهم، حيث عرضوها للعذاب و الهلكة بما اقترفوا من ذنوب، و ظلموا اللّه أيضا بتجاوز حدوده، و عصيان أوامره، و ظلموا النبي (ص)، لأنهم رفضوا حكمه، و ارتضوا حكم الطاغوت، و أظهروا له خلاف ما يضمرون.

و بالرغم من هذا كله فان اللّه قد فتح لهم باب التوبة، و ما عليهم إلا أن يلجوه، و يطلبوا المغفرة، فان فعلوا أدخلهم في رحمته، و ان استنكفوا فلا يجدون من دونه وليا و لا نصيرا.

و تسأل: ان قوله تعالى: **(وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ)** يتنافى مع مبدأ الإسلام الذي يرفض فكرة الوسطاء بين اللّه و الناس؟.

الجواب: أجل، لا واسطة بين اللّه و عباده، و لكن فيما يعود الى حقوقه تعالى، و التعدي عليها، أما التعدي على حقوق الناس فالأمر اليهم، و الصفح عنها يطلب منهم، لا من غيرهم .. و المنافقون قد آذوا الرسول، و تعدوا على حقه فكان لا بد في توبتهم ان يظهروا الندم له، و يطلبوا الصفح منه، و كل من أظهرت له خلاف ما تضمر فقد ظلمته، و تعديت على حقه، بل لو علمت ان (فلانا) ظن بك وصفا حسنا، و ما هو فيك، و عاملك و ائتمنك على أساسه، ثم تجاهلت و أغضيت و لم تلفت نظره، و على الأقل تتهرب منه، إذا كان كذلك فأنت ظالم له.

(حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمٰا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)، لأن جميع الأحكام التي تلفّظ بها محمد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٧٠

ليست منه، و إنما هي من اللّه وحده، و النبي لسانه و بيانه.

(ثُمَّ لاٰ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً). المعنى انهم لا يؤمنون، حتى يعلموا علم اليقين ان حكمك هو حكم اللّه بالذات، و ان من ردّ عليك فعلى اللّه يرد .. و محال أن يشعر المؤمن حقا بالضيق و الحرج من حكم يعلم انه من عند اللّه .. أجل، قد يريد بينه و بين نفسه أن يكون الأكل مباحا في شهر رمضان- مثلا-، و لكنه مع ذلك يصوم و يمتنع عن الأكل خوفا من عذاب اللّه الذي هو أشد و أشق من الصيام، و قد تغلبه نفسه على المعصية، و لكنه يتألم و يتبرم منها، و يلعنها، لأنها استثقلت الحق .. و هذا عين الايمان.

(وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيٰارِكُمْ مٰا فَعَلُوهُ إِلاّٰ قَلِيلٌ مِنْهُمْ). ان دين اللّه سعة و يسر، و خير و صلاح، فلا يكلف أحدا فوق طاقته، و لا بغير منفعته دينا و دنيا، قال تعالى: «وَ مٰا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ- ٧٨ الحج». و قال: «يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاكُمْ لِمٰا يُحْيِيكُمْ- ٢٤ الأنفال». و عليه فإن اللّه سبحانه لا يأمر بالخروج من الديار، و لا بقتل النفس الا ما كان من الاسرائيليين لأمر استحقوا من أجله هذا القتل.

و تسأل: إذا كان الأمر كذلك فلا وجه لقوله تعالى: (وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنٰا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) لأنه أمر بما لا يطاق؟.

الجواب: ان هذا مجرد فرض، و لذا جيء بـ(لو) التي تدل على امتناع شيء لامتناع غيره، و الغرض من هذا الفرض أن يبين اللّه سبحانه ان المنافقين لا عذر لهم إطلاقا في العناد و التمرد على أحكامه سبحانه، حيث لا مشقة فيها و لا إرهاق، بل هي رحمة لهم، وسعة عليهم، و مع هذا عصوا و استنكفوا.

و إذا استنكف المنافقون و اضرابهم عن طاعته جل و علا، على ما فيها من سهولة و يسر فإن في صحابة الرسول (ص) من لو أمر بقتل نفسه لفعل، و الى هؤلاء أشار تعالى بقوله: (إِلاّٰ قَلِيلٌ) و من هذا القليل ياسر و زوجته اللذان استشهدا في التعذيب من أجل الإسلام، و ولدهما عمار الذي قتلته الفئة الباغية يوم صفين، و كان في مناجاته يخاطب اللّه، و يقول: اللهم انك تعلم لو اني أعلم ان مرضاتك

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٧١

في ان أضع سيفي هذا في صدري، و أنحني عليه، حتى يخرج من ظهري لفعلت.

(وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مٰا يُوعَظُونَ بِهِ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً). المراد بفعل ما يوعظون به اطاعة اللّه في أوامره و نواهيه: «وَ مَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فٰازَ فَوْزاً عَظِيماً- ٧١ الأحزاب». و المراد بالتثبت الثبات على الإيمان، قال الإمام علي (ع): «فمن الايمان ما يكون ثابتا مستقرا في القلوب، و منه ما يكون عواري بين القلوب و الصدور الى أجل معلوم». و بهذا فسّر الامام الصادق قوله تعالى:

«فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ- ٩٨ الانعام».

(وَ إِذاً لَآتَيْنٰاهُمْ مِنْ لَدُنّٰا أَجْراً عَظِيماً). هذا بيان للخير في قوله سبحانه:

(لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ) و كل أجر اللّه و ثوابه عظيم، و ان قل- ان صح التعبير- فكيف إذا وصفه هو بالعظمة.

(وَ مَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدٰاءِ وَ الصّٰالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً). هذه الآية تأكيد للآية السابقة، و ترغيب في الايمان و الصلاح الذي يجعل صاحبه رفيقا للنبيين

و الشهداء و الصالحين.

من هم الصديقون؟

قال الشيخ محمد عبده: «الصديقون هم الذين زكت فطرتهم، حتى أنهم يميزون بين الحق و الباطل، و الخير و الشر بمجرد عروضه عليهم».

و هذا القول قريب من قول الصوفية بأن الإنسان إذا جاهد نفسه و روّضها أدركت الحق تلقائيا من غير تعلم.

و الأليق بالواقع أن نفسر الصديقين بالأئمة المعصومين الكاملين في أنفسهم المكلمين لغيرهم، لأن اللّه سبحانه قد جعلهم في المرتبة الثانية من النبيين بلا فاصل، و هذه المرتبة لن تكون أبدا لمن يجوز عليه الخطأ، لان من جاز عليه الخطأ لا يكون مكملا لغيره كمالا حقيقيا، بل يحتاج الى كامل حقيقي يرده عن خطأه، و هذا الكامل هو المعصوم، و بتعبير ثان ان الصادق على نوعين:

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٧٢

الأول أن لا يتعمد الكذب، و لكن يجوز عليه الخطأ و الاشتباه، كمن يخبر بشيء، و هو يؤمن بصدق ما اخبر، ثم يتبين ان خبره غير مطابق للواقع، فيكون هو صادقا في قصده، و خبره كاذبا .. و هذا كثيرا ما يحدث.

النوع الثاني: ان لا يتعمد الكذب، و لا يجوز عليه الخطأ، بحيث لا يخالف قوله الواقع بحال، و هذا هو المراد بالصديقين، و بأولي الأمر في الآية ٥٩ من هذه السورة، و عند تفسير هذه الآية، فقرة «من هم أولو الأمر» ذكرنا الدليل من الكتاب و السنة على ان أهل البيت (ع) معصومون لا يجوز عليهم الخطأ و الاشتباه. و على هذا يكون المراد بالصديقين في الآية ٦٩، و أولي الأمر في الآية ٥٩ هم أهل البيت.

و أيضا قال الشيخ محمد عبده: «ان المراد بالشهداء هنا أهل العدل و الانصاف الذين يؤيدون الحق بالشهادة لأهله بأنهم محقون، و يشهدون على أهل الباطل بأنهم مبطلون».

و هذا تأويل لظاهر اللفظ من غير دليل. فان المفهوم من الشهداء انهم الذين قتلوا في سبيل اللّه و الحق .. أجل، جاء في الحديث ان مداد العلماء كدماء الشهداء، و ان من مات دون ماله، أو تمنى الاستشهاد في سبيل الحق مات شهيدا، أي له ثواب الشهيد. و بديهة ان الشهيد شيء، و من له منزلته شيء آخر.

أما الصالحون فهم الذين صلحت عقائدهم و أعمالهم، قال الامام علي (ع):

بالايمان يستدل على الصالحات، و بالصالحات يستدل على الايمان». و ليس من شك ان المعرفة بحلال اللّه و حرامه اجتهادا أو تقليدا شرط أساسي في الصلاح، لأن الجهل يفسد الاعتقاد و العمل.

(ذٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّٰهِ). أجل، ان مرضاة اللّه، و رفقة النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين هي السعادة الحقة، و الفضل الدائم، لا هذا المتاع الزائل.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٧٣

[سورة النساء (٤): الآيات ٧١ الى ٧٣]

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبٰاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً (٧١) وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصٰابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قٰالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَ لَئِنْ أَصٰابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللّٰهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يٰا لَيْتَنِي

كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (٧٣)

اللغة:

للنفر معان كثيرة، و المراد به هنا الخروج للحرب. و الثبات بضم الثاء جمع ثبة. و هي الجماعة المنفردة، و التبطئة من الإبطاء، و المراد بها هنا الحمل على البطء و التأخر. و المراد بالشهيد الحاضر.

الإعراب:

ثبات حال من الواو في (انفروا) و مثله جميعا. و اللام في (لمن) للابتداء دخلت على اسم ان و اللام في (ليبطئن) جواب قسم محذوف، أي اقسم ان منكم لمن ليبطئن، و القسم و جوابه صلة لمن. و كأن للتشبيه، و هي مخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن محذوف، أي كأنه. و جملة لم يكن خبر، و جملة كأن مع اسمها و خبرها لا محل لها من الإعراب، لأنها معترضة بين قوله تعالى:

(لَيَقُولَنَّ) و مفعول القول، و هو **(يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ)**. و يا للتنبيه، و ليست للنداء، و المنادى محذوف، كما قيل. و فأفوز منصوب بأن مضمرة بعد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٧٤

الفاء، و المصدر المنسبك معطوف على مصدر متصيد من معنى ليتني كنت معهم، أي ليت كان لي الحضور معهم فأفوز.

المعنى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ). هذه الآية من آيات الحث على الجهاد، و سبق منها كثير، و ما يأتي أكثر، و لكن هذه الآية توجب النفير العام، و حشد الأمة كلها الى الحرب، ان أحوج الحال .. و ان دل هذا الاهتمام على شيء فإنما يدل على ما كان للإسلام من أعداء، يدبرون له المكائد و المصائد، و ما للمسلمين من خصوم يناصبونهم و يفتنونهم عن دينهم .. و الى اليوم يقاسي الإسلام و المسلمون الكثير من أهل الكفر و الطغيان، فمن الطبيعي- اذن- ان يحث اللّه سبحانه المسلمين على الحذر و التعرف على قوة العدو و الاستعداد له بسلاح أمضى و أقوى.

(فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً). انفروا أمر بالخروج للحرب، و ثبات أي فصائل و فرقا من الجنود المتخصصين للقتال، و جميعا أي جيشا و شعبا، حسبما تقتضيه الحال. و القصد هو الاستعداد لمجابهة العدو، و حشد جميع الطاقات و القدرات، و استنفاد كل وسيلة لردعه عن البغي و العدوان، حتى و لو أدى الدفاع الى تطوع الأمة كلها للحرب كبارا و صغارا، رجالا و نساء. قال العلامة الحلي في التذكرة: «لو أحوج الحال الى الاستعانة بالنساء وجب».

الحرب بين الأمس و اليوم:

كانت الحرب فيما مضى بالرجال، و تعبئة الجنود و الكتائب، أما اليوم فقد أصبح العلم قوة في كل ميدان، و حوّل السيف و الرمح، و غيرهما من أدوات الحرب الى صواريخ موجهة، و قاذفات القنابل، و غواصات نووية، و دبابات برمائية، و حاملات طائرات، و غازات سامة، و مخترعات للتجسس جوا و برا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٧٥

و بحرا «١» .. الى ما لا يعلمه إلا اللّه و الراسخون في علم التخريب و التدمير.

و لم يكتف تجار الحروب بتوجيه العلم، و عبقرية العلماء الى اختراع آلات الخراب و الدمار، حتى أنشأوا معاهد للتخصص بعمليات التخريب، و تدبير المؤامرات و الانقلابات، و إيقاظ الفتن و الأحقاد، و اشاعة الفوضى و الجرائم، و

وضع الخطط لانتشار الخوف و الرعب و انهيار الأعصاب، و الاستخفاف بالأخلاق و القيم، و الايمان بالأساطير و الخرافات .. الى كل ما يمهد لسيطرة القوي على الضعيف، و عبودية المتخلف للمتقدم.

هذا هو نوع السلاح الذي يحاربنا به عدو الدين و الانسانية .. فبأي شيء نتقي شره و عدوانه؟. أ بالسباب و الشتائم، أو بالندب و البكاء، أو بالمشاحنات و الخلافات؟

لا شيء- و نحن الآن على ما نحن- الا ان نعرف من هو عدونا؟ و ما هي مقدرته؟. و نحذر منه و من أساليبه و ألاعيبه، و لا نطمئن اليه في شيء، و أن نتعلم من أخطائنا، و نتحرر من الخونة، و نعمل جاهدين يدا واحدة على تقويتنا في شتى الميادين، و بهذا نستطيع أن نقف في وجه العدو .. و على الأقل لا يصل بنا الأمر الى الحد الذي وصلنا اليه الآن.

لقد سحق شعب فيتنام الأعزل رؤوس الأمريكيين، على رغم ما يحشدونه من قوى، و ينفقونه من ملايين الدولارات. و قبل فيتنام تحررت كوبا من امريكا، و هي أقوى دول العالم على الإطلاق .. و الآن تأسر كوريا الشمالية سفينة التجسّس بيبلو، و لا تستطيع أمريكا أن تبدي حراكا .. و السر- فيما نعتقد- ان هذه الشعوب قد وعت مصالحها و نظمت صفوفها، و تلافت أخطاءها، فضربت على أيدي الخونة، و أبعدتهم عن القيادة و مركز القوة، و آمنت بحقها و مبادئها، و استهانت بالحياة في سبيلها. و لا يمكن لقوى العالم مجتمعة أن تقهر شعبا منظما واعيا فيتناميا كان، أو عربيا، و الفرق في الأوضاع، لا في الطباع، و في الوعي و الصلابة فيما يؤمن و يعتقد.

(وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ). يشير سبحانه الى الطابور الخامس الذي يندس

---

(١) يدور الآن ٤٠ قمرا صناعيا حول الأرض بحجة بحوث الفضاء، و مهمتها في الواقع التجسس، و لامريكا وحدها ٣٠ سفينة للتجسس، و ألفا محطة على الأرض للغاية نفسها.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٧٦

في صفوف الطيبين بقصد التخريب و التثبيط عن مقاومة العدو.

و تسأل: ان (منكم) خطاب للمؤمنين، و المنافقون أبعد الناس عن الايمان، فكيف ساغ جعلهم من المؤمنين؟.

الجواب: لأنهم معدودون من المؤمنين في الظاهر، و يعاملون معاملتهم، تماما كمن يحمل جنسية بلد، و هو عميل لمن يستعمره و يستغله، و هؤلاء موجودون في كل زمان و مكان.

(فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً). هذا القول حكاية لحال المنافق الذي كان يفرح و يغتبط إذا هزم المسلمون في معركة لم يشهدها معهم .. و كل من فرح بسلامته من البلاء الذي أصاب إخوانه في سبيل اللّه، و الجهاد لإعلاء كلمة الدين فهو منافق.

و تسأل: ان قوله: **(قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ)** اقرار منه بوجود اللّه، فكيف ساغ جعله من المنافقين؟.

الجواب: انه نافق بإظهار الإسلام و الإيمان بمحمد (ص)، و إضمار الكفر بنبوته، و هذا لا يتنافى مع الإقرار بالخالق، فما كل من آمن باللّه آمن بمحمد (ص)، و قد أخبر اللّه ان من الناس من يؤمن به، و في الوقت نفسه يؤمن بغيره، أو بمن يقربه اليه زلفى: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ- ١٠٦ يوسف».

(وَ لَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً). بعد أن أخبر سبحانه ان المنافق يفرح بتخلفه عن المسلمين إذا هزموا و نكبوا أخبر انه يندم على ترك الغزو معهم إذا انتصروا و غنموا .. و بديهة ان من هذا شأنه فليس من المسلمين في شيء، و لو كان مسلما كما يدعي، و يظهر المودة بينه و بين المسلمين لشعر بأن خيرهم خيره، و شرهم شره، و اشتهر الحديث عن رسول اللّه (ص): ان المسلمين كأعضاء الجسم الواحد، و كالبنيان يشد بعضه بعضا، و ان من لم يهتم بأمورهم فليس منهم.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٧٧

[سورة النساء (٤): الآيات ٧٤ الى ٧٦]

فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ وَ مَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (٧٤) وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً (٧٦)

اللغة:

يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، أي يبيعونها بالآخرة، كما في قوله تعالى:

«وَ لَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ- ١٠٢ بقرة».

الإعراب:

و من يقاتل (من) اسم شرط في موضع رفع على الابتداء، و خبرها جواب الشرط، و هو فسوف نؤتيه و (فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ) عطف على فليقاتل. و ما لكم مبتدأ و خبر. و جملة لا تقاتلون حال، أي ما لكم تاركين القتال.

و المستضعفين عطف على سبيل اللّه بحذف مضاف، و التقدير و في خلاص المستضعفين من الكفار. و الذين عطف بيان للرجال و النساء و الولدان. و الظالم صفة للقرية.

و أهلها فاعل لظالم، و جاز وصف المؤنث، و هو قرية بالمذكر، و هو الظالم.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٧٨

لأن الوصف إذا كان عاملا عمل الفعل يلحظ في تذكيره و تأنيثه الاسم المعمول له، و أهلها مذكر، لا مؤنث.

المعنى:

(فَلْيُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ). يشرون، أي يبيعون. و احسن ما قيل عند تفسير هذه الآية ما يلي:

«ان الإسلام لا يقاتل على الأرض، و لا للاستيلاء على السكان، لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات، و الأسواق للمنتجات، أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات و شبه المستعمرات، انه لا يقاتل لمجد شخص، و لا لمجد بيت، أو طبقة، أو دولة، أو أمة، أو جنس، انما يقاتل في سبيل اللّه. لإعلاء كلمة اللّه في الأرض، و لتمكين منهجه من تصريف الحياة، و لتمتيع البشرية بهذا المنهج، و عدله المطلق بين الناس، مع ترك كل فرد حرا في اختيار العقيدة التي يتمتع بها».

و تمنيت، و أنا أقرأ قوله، (لا يقاتل الإسلام ليجد الخامات للصناعات) ان يعطف عليه هذه الجملة: و لا ليشحم المعامل و

الفبارك بدماء الأحرار و النساء و الأطفال.

(وَ مَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً).

كل من ناصر الحق لوجه الحق، و امتثالا لأمر اللّه وحده فهو مشكور و مأجور، سواء انتصر و غنم، أو غلب و هزم .. و اتفق المؤرخون على اختلاف نزعاتهم ان السر في انتشار الإسلام هو عقيدة النبي (ص) و الصحابة بأنهم الرابحون على كل حال، مقتولين أو قاتلين، فإن تكن الأولى فالمصير الى الجنة، و ان تكن الثانية فقد علت كلمة الحق، و هذا ما يبغون .. بالاضافة الى اعتقادهم بأن أجلهم إذا جاء لا يستأخرون ساعة، و لا يستقدمون .. و متى بلغ معتقد المرء هذا المبلغ لم يقف في وجهه حاجز.

(وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ).

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٧٩

هاجر النبي (ص) من مكة الى المدينة، و هاجر معه من استطاع من المسلمين، و بقي فيها من عجز عن الهجرة، و فيهم رجال و نساء و أطفال، و كانوا يلقون من المشركين أذى شديدا من أجل دينهم، و لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، و لا يجدون معينا، و من أجل هذا وصفهم سبحانه بالمستضعفين، و لما تقطعت بهم الأسباب لجأوا الى اللّه، و هم يقولون: **(رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ** - أي مكة -: **الظَّالِمِ أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً).**

و قد جعل اللّه من محنة المستضعفين سبيلا لحث المسلمين على الجهاد لخلاص إخوانهم في الدين.

و بقي جماعة من المستضعفين بمكة الى عام الفتح، حيث دخل الرسول المسجد الحرام منتصرا، و استسلم صناديد الشرك، و تحطمت الأصنام، و علت كلمة الإسلام، و منّ اللّه على الذين استضعفوا في مكة، و صاروا أعز أهلها.

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ).

أمر سبحانه المؤمنين في الآية ٧١ أن ينفروا و يخرجوا للحرب سرايا أو كافة، و في الآية ٧٤ أمرهم بالقتال في سبيل اللّه، و في الآية ٧٥ بالحث على خلاص المستضعفين .. و قسم في هذه الآية المقاتلين الى مؤمنين يقاتلون من أجل الحق و العدل، و الى كافرين يقاتلون من أجل السيطرة و السلب و النهب، و هؤلاء هم أولياء الشيطان .. و قد أمر اللّه المؤمنين بجهادهم، و إعلان الحرب عليهم، و عدم مهادنتهم بحال، لأن قتالهم خير و صلاح للانسانية، و مهادنتهم شر و فساد.

و الخلاصة ان الآيات التي أشرنا اليها و غيرها الواردة في القتال كلها تهدف الى شيء واحد، الى الصلابة و الثبات في جهاد المبطلين و المستغلين، و لا تختلف آيات الجهاد إلا بالاسلوب و التعبير .. «عباراتنا شتى و حسنك واحد».

(فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً). و تسأل: ان المعنى الظاهر من هذه الآية ان المحقين ينتصرون دائما على أهل الباطل .. و العكس هو الواقع في أغلب الأحيان، فما هو السر؟

و سبق نظير هذا السؤال مع جوابه مفصلا عند تفسير الآية ١٣٧ من سورة

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٨٠

آل عمران، فقرة نكسة حزيران، و نجيب هنا بأسلوب آخر، استوحيناه من خطبة للإمام (ع) في نهج البلاغة بعنوان «من خطبة له عليه السلام في المكاييل و الموازين». و خلاصة الجواب ان الحشرة السامة لا تحيا و تنمو إلا في القذارة و الأوساخ .. و هكذا الشيطان لا يجد منفذا لكيده إلا حيث يفسد المجتمع، فهنا تقوى عدته، و تمتلئ شباكه، و يظهر من قول الامام ان مهمة إبليس تنجح، حيث يكون في المجتمع فقراء بائسون، و أغنياء متمردون، و هذا ما قاله بالحرف:

«هذا أوان فيه قويت عدة الشيطان، و عمت مكيدته، و أمكنت- أي سهلت- فريسته، اضرب بطرفك، حيث شئت من الناس، فهل تبصر الا فقيرا يكابد فقرا، أو غنيا بدّل نعمة اللّه كفرا، أو بخيلا اتخذ البخل بحق اللّه وفرا، أو متمردا كأنّ باذنه عن السمع وقرا، أين خياركم و صلحاؤكم؟. و أين أحراركم و سمحاؤكم؟ و أين المتورعون في مكاسبهم، و المتنزهون في مذاهبهم- الى ان قال- أ فبهذا تريدون أن تجاوروا اللّه في دار قدسه، و تكونوا أعز أوليائه عنده ..

لعن اللّه الآمرين بالمعروف التاركين له، و الناهين عن المنكر العاملين به».

[سورة النساء (٤): آية ٧٧]

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ آتُوا الزَّكاٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتٰالُ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النّٰاسَ كَخَشْيَةِ اللّٰهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَ قٰالُوا رَبَّنٰا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتٰالَ لَوْ لاٰ أَخَّرْتَنٰا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتٰاعُ الدُّنْيٰا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقىٰ وَ لاٰ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٨١

الإعراب:

لما هنا حرف، و تقتضي جملتين فعليتين، و تدل على أن الثانية وجدت عند وجود الجملة الأولى، و لذا تسمى حرف وجود لوجود، و بعضهم يسميها حرف وجوب لوجوب، و المعنى واحد. و إذا هنا حرف مفاجأة وقعت في جواب لما، و لا تدخل إلا على الجمل الاسمية، نحو خرجت فإذا أسد بالباب، و فريق مبتدأ.

و منهم متعلق بمحذوف صفة له. و جملة يخشون خبر. و الكاف في كخشية اللّه بمعنى مثل في موضع نصب صفة لمفعول مطلق محذوف، أي يخشون الناس خشية مثل خشية اللّه. و (أو) بمعنى بل. و محل أشد الجر عطفا على كخشية اللّه، و خشية تمييز. و لو لا هنا للتحضيض، أي الطلب، و تدخل على المضارع، و على الماضي إذا كان بمعنى المضارع، كما في الآية، أي لولا تؤخرنا. و متاع خبر لمبتدأ محذوف، أي ما تستمعون به متاع قليل. و فتيلا صفة لمفعول مطلق محذوف، أي لا تظلمون ظلما مقدار فتيل.

المعنى:

دعا النبي (ص) أول ما دعا الى اللّه في مكة، فقاومه الأقوياء خوفا على مصالحهم، و نعتوه بالجنون و السحر و الكذب، و لولا حماية عمه أبي طالب له لقضوا على حياته ... و إذا عجزوا عنه فقد نكلوا بمن آمن به، و كان النبي (ص) يأمرهم بالصبر، و كف الأيدي لكثرة العدو، و قلة الناصر .. و لما اشتد إيذاء المشركين و بطشهم بالمؤمنين المستضعفين قالت فئة منهم للرسول (ص): يا رسول اللّه إءذن لنا بقتال المشركين. فقال: اني أمرت بالصبر .. و كان (ص) يبث في قلوب صحابته روح الثقة، و الأمل بانتشار الإسلام، و زوال سلطان البغي.

و بعد أن أمضى بمكة ثلاث عشرة سنة من بدء الدعوة هاجر الى المدينة، و هاجر معه من استطاع من المسلمين، و من جملتهم الذين استأذنوه بقتال مشركي مكة .. و لما كثر عدد المسلمين في المدينة، و أصبح في مقدورهم الدفاع عن أنفسهم أمرهم اللّه بجهاد المشركين اتقاء لشرهم، بعد ان كان قد نهاهم عنه،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٨٢

و هم قلة مستضعفون، لأن حكمته تعالى اقتضت ان تجري الأمور على سننها و أسبابها، و ان لا ينتشر دينه بين الناس الا

بالوسائل البشرية، و ان لا يفرض الدين عليهم فرضا بقدرته العلوية، كما تفرض الأمطار و الزوابع.

و حين جد الأمر بالقتال جزع و خاف الذين كان يأخذهم الحماس لقتال المشركين، و يستعجلونه، و هم في مكة، حيث لم يكن مأذونا لهم بالقتال ..

و هذا هو شأن الذين يندفعون مع العاطفة من غير تفكير و روية، يشتدون و يتحمسون للنزال و القتال الى حد الهوس، حيث يكون الإقدام تهورا و انتحارا، و يتراجعون جزعا و انهيارا، حيث تشتد الحاجة الى القتال، و يكون حتما لا مناص منه.

و ليس من الضروري ان يكون هؤلاء من المنافقين أو الشاكين في دينهم ..

فقد يكونون منافقين، و قد يكونون من الضعفاء الذين يخافون الموت، و يؤثرون الحياة جبنا على الاستشهاد في سبيل الحق .. و قد تعرضت الآية التي نحن في صددها لهذا الفريق من المسلمين، و حماسهم للقتال في مكة، ثم خوفهم منه في المدينة .. و مهدنا بما تقدم قبل أن نشرع بتفسير الآية لتوضيح المراد منها.

(أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا الصَّلاٰةَ وَ آتُوا الزَّكاٰةَ).

المراد بـ(الذين) من استعجلوا القتال، و تحمسوا له، و هم في مكة. و قوله تعالى: قيل لهم الخ اشارة الى أن النبي (ص) كان قد أمرهم بالصبر و الكف عن القتال، و الانصراف الى ما أمروا به من اقامة الصلاة، و إيتاء الزكاة، لأن هذا هو الموقف الحكيم يوم كانوا في مكة.

(فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتاٰلُ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النّٰاسَ- أي العدو- **كَخَشْيَةِ اللّٰهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً)**. المعنى انه لما توافرت أسباب القتال للمسلمين بعد ان هاجروا الى المدينة، و اشتدت اليه الحاجة أمروا به .. و لكن فريقا من الذين كانوا يستعجلون القتال في مكة، حيث لم يفرض عليهم كرهوه بعد أن فرض عليهم حبا بالحياة، وجبنا عن مقابلة العدو، و خشية من نكاله .. و قوله تعالى:

(يَخْشَوْنَ النّٰاسَ كَخَشْيَةِ اللّٰهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً) كناية عن ان الخوف بلغ بهم نهايته.

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٣٨٣

و الخلاصة ان هذا الفريق من المسلمين تحمس للقتال حين النهي عنه، لأنه عملية انتحارية، و تقاعسوا حين الأمر به، لأن تركه موت و انتحار .. و كان عليهم أن يتحمسوا للقتال عند ما أمروا به، لا عند ما نهوا عنه.

(وَ قٰالُوا رَبَّنٰا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتاٰلَ لَوْ لاٰ أَخَّرْتَنٰا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ). طلبوا المزيد في آجالهم رغبة في متاع الحياة .. و ان اتجاههم هذا الى اللّه بتضرع و أسى ينبئ عن ايمانهم به .. و بديهة ان عصيان أمر اللّه بالموت لا يدل على الإلحاد، كما ان اختيار الموت على حياة الذل لا يدل على الإيمان باللّه، فلقد رأينا الكثير من الملحدين يؤثرون الموت أحرارا على الحياة مع الظالمين، كما رأينا الكثير من المسلمين يوقعون صكوك الاذلال و الاستعباد على أنفسهم و قومهم.

(قُلْ مَتٰاعُ الدُّنْيٰا قَلِيلٌ). المراد بقليل هنا عدم البقاء، و سرعة الزوال، و كل متاع الدنيا الى زوال، بالاضافة الى انه مشوب بالهموم و المكاره.

(وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقىٰ). الآخرة نهاية المطاف، و القليل من نعيمها خير من نعم الدنيا مجتمعة، كما ان القليل من عذابها أعظم من عذاب الدنيا بكامله ..

و العاقل هو الذي يؤثر العظيم الدائم، و ان كان مؤجلا على الحقير الزائل و ان كان معجلا.

[سورة النساء (٤): الآيات ٧٨ الى ٧٩]

أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمالِ هٰؤُلاٰءِ الْقَوْمِ لاٰ يَكٰادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (٧٨) مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَ مٰا أَصٰابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَ أَرْسَلْنٰاكَ لِلنّٰاسِ رَسُولاً وَ كَفىٰ بِاللهِ شَهِيداً (٧٩)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٨٤

الإعراب:

أينما ظرف لاستغراق الأمكنة، و محلها النصب بفعل الشرط، و هو تكونوا، و تجزم فعلين لأنها بمعنى ان الشرطية. و **(فَمالِ هٰؤُلاٰءِ)** مبتدأ و خبر. و معنى (ما) هنا الاستفهام مع الإنكار، نحو أي شيء حصل لك؟. و رسولا حال.

و للناس متعلق به، و المراد بهذا التعليق التعميم، مثل قوله تعالى: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ كٰافَّةً لِلنّٰاسِ- ٢٨ سبأ». و شهيدا تمييز.

المعنى:

(أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ). سبق نظيرها عند تفسير الآية ١٤٥ من سورة آل عمران، فقرة «الأجل محتوم».

(وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ). كل ما يراه الإنسان حسنا يقال له حسنة، و يرادفها لفظ الخير الذي يرغب فيه الإنسان و يتمناه، و كل ما يراه سيئا يقال له سيئة، و يرادفها لفظ الشر الذي يبتعد عنه الإنسان و يأباه، و قد يكون الخير عاما كالخصب و الرخاء الذي لا يختص بفرد أو فئة، و قد يكون خاصا كسعادة المرء ببيته و أسرته، و كذلك الشر يكون خاصا كشقاء المرء بزوجته و أولاده، و يكون عاما كالجدب و الغلاء، و المراد بالحسنة في الآية خير الطبيعة الذي يعم الجميع، كالمطر و نحوه، و بالسيئة شرها العام الذي يشمل الجميع، كالقحط و ما اليه، لأن المنافقين و المشركين كانوا ان أصابتهم نعمة كالمطر قالوا: ان اللّه أكرمنا بها، و ان أصابهم نقمة كالقحط قالوا: هذا بسبب محمد، تماما كبني إسرائيل الذين أخبر اللّه عنهم بقوله: «فَإِذٰا جٰاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قٰالُوا لَنٰا هٰذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسىٰ- ١٣١ الأعراف».

ليس بالإمكان أبدع مما كان:

(قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمالِ هٰؤُلاٰءِ الْقَوْمِ لاٰ يَكٰادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً). هذا رد على

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٨٥

من نسب الحسنة الى اللّه، و السيئة الى رسول اللّه، لأنهما معا من اللّه، ذلك ان القحط و الأمطار، و الزلازل و المعادن، كل هذه و ما اليها من لوازم الطبيعة و آثارها، و اللّه سبحانه هو الذي خلق الطبيعة و أوجدها، اذن، ينسب خير الطبيعة و شرها اليها مباشرة، و الى اللّه سبحانه بواسطة إيجاده للطبيعة .. فهو جلت عظمته سبب الأسباب.

و تسأل: لما ذا لم يخلق اللّه الطبيعة من غير شر، بحيث تكون خيرا خالصا من كل شائبة، و يريح بهذا عباده من الويلات و المتاعب؟.

و قد طرح هذا السؤال أو الإشكال منذ آلاف السنين، و حلّه «زرادشت» بوجود إلهين: إله للخير، و هو «موزد» و إله للشر، و هو «اهريمن».

و قال آخرون: ان اللّه خلق هذه الطبيعة بما فيها و لها من خير و شر، و لكنه في الوقت نفسه خلق عقولا تكيّف هذه الطبيعة الى خير الإنسان و صالحه، و منها هذه المخترعات التي قربت البعيد، و سهلت العسير، و أنشأت السدود لصد الفيضان، و تنبأت بالعواصف قبل وقوعها. الى ما لا يحصى كثرة. و قال عابد زاهد:

ان الشر لا بد منه لعقوبة العصاة و المذنبين .. و هذا الجواب يكذبه العيان و القرآن، فان الطبيعة لا ترحم مؤمنا و لا ضعيفا، و الزلازل لا تميز بين الطيب و الخبيث، قال تعالى: «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً- ٢٥ الأنفال».

و منهم من قال: اللّه يعلم، و نحن لا نعلم شيئا. و قال الأشاعرة، هذا السؤال مردود شكلا و أساسا، لأن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض و الغايات: «لا يسأل عما يفعل».

و جاء في كتاب الأسفار للعظيم الشهير بالملا صدرا ما يتلخص بأنه من المحال ذاتا إيجاد كون لا شر فيه، فان الكون الطبيعي من حيث هو، و بموجب وضعه و تكوينه يلزمه حتما ان يكون فيه خير و شر، و قوة و ضعف، و حنان و عنف، و إلا استحال وجوده من الأساس، كما يستحيل على أمهر المتخصصين في فن البناء ان يبني من حبة الرمل حصنا منيعا «١». ذلك ان الطبيعة يستحيل أن توجد و تتكون إلا من عناصر متضادة متباينة، و هذه العناصر في حركة دائمة بين جذب

---

(١) و الفلاسفة يعبرون عن هذا و أمثاله بالعجز في المقدور، لا في القادر.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٨٦

و دفع، و تفاعل مستمر، و من هذا التفاعل تتولد الظواهر الطبيعية، كالزوابع و العواصف، و الحر و البرد، و المطر و الصحو، و ما إلى ذلك من آثار الطبيعة خيرها و شرها، و على هذا يدور الأمر بين اثنين لا ثالث لهما: أما ان لا يوجد الكون من رأس، و اما أن يوجد بخيره و شره، و هذا هو معنى القول المشهور:

«ليس بالإمكان أبدع مما كان». كما انه يتفق تماما مع قول علماء الطبيعة:

ان في كل جزء من أجزائها قوة موجبة، و أخرى سالبة.

و بهذا يتبين معنا ان قول القائل: لما ذا لم يخلق اللّه الطبيعة من غير شر، ان هذا أشبه بقول من قال: لما ذا لم يخلق اللّه نارا، لا حرارة فيها، و ثلجا، لا برودة فيه، و عقلا لا ادراك له، و حياة لا حراك فيها، و موتا، لا جمود فيه .. ان هذا السؤال تعبير ثان عن هذيان المحموم، و قوله: لما ذا لا يكون الشيء غير نفسه .. و بهذا ندرك السر البليغ العميق في قوله تعالى:

(فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً).

و الخلاصة انه لا تأثير لمحمد (ص)، و لا لغيره في شيء من خير الطبيعة و شرها. و قد اشتهر عن الرسول الأعظم انه قال حينما انكسفت الشمس عند موت ولده ابراهيم: الشمس و القمر آيتان من آيات اللّه يجريان بأمره مطيعين له، لا ينكسفان لموت أحد، و لا لحياته.

(مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَ مٰا أَصٰابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ). و تسأل:

ان اللّه سبحانه أضاف في الآية الأولى كلا من الحسنة و السيئة الى نفسه، حيث قال: (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ) و في الآية الثانية أضاف الحسنة اليه، و السيئة الى العبد، فما هو وجه الجمع؟

الجواب: قدمنا ان المراد بالحسنة في الآية الأولى خير الطبيعة، و بالسيئة شرها، و انهما من ظواهر الطبيعة، و هي من صنع اللّه، فصحت نسبتهما اليه تعالى بهذا الاعتبار. أما المراد بالحسنة في الآية الثانية فهو نجاح المرء في هذه الحياة دينا و دنيا، و المراد بالسيئة فشله و خذلانه فيهما، و قد نسب اللّه سبحانه هذا النجاح المعبر عنه بالحسنة، نسبه الى نفسه بالنظر الى انه تعالى قد زوّد الإنسان بالصحة و الإدراك، و أمره بالعمل من أجل سعادته في الدارين، فإن امتثل و عمل و بلغ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٨٧

النجاح نسب نجاحه الى اللّه، لأنه هو الذي أقدره عليه، و زوده بأدواته، و بهذا اللحاظ قال تعالى: (مٰا أَصٰابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ).

و أيضا يجوز أن ينسب النجاح الى الإنسان، لأنه آثر الجد و العمل على الإهمال و الكسل .. و لا دلالة في الآية على ان الإنسان لا تأثير له إطلاقا في نجاحه، أما إذا أهمل و تكاسل، و لم يصل الى شيء بسبب إهماله و تكاسله فلا ينسب فشله و حرمانه الا اليه، لأنه هو الذي بلغ بنفسه هذا المبلغ بسوء ما اختار لها من الإهمال. و بهذا الاعتبار قال سبحانه: (وَ مٰا أَصٰابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ). و لا يجوز أن ينسب الفشل الى اللّه بحال، لأنه جل و علا قد أمر الإنسان بالعمل، و حثه عليه بعد أن زوده بجميع الأدوات و المؤهلات.

[سورة النساء (٤): الآيات ٨٠ الى ٨٣]

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللهَ وَ مَنْ تَوَلّٰى فَمٰا أَرْسَلْنٰاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (٨٠) وَ يَقُولُونَ طٰاعَةٌ فَإِذٰا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طٰائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَ اللهُ يَكْتُبُ مٰا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَ كَفىٰ بِاللهِ وَكِيلاً (٨١) أَ فَلاٰ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاٰفاً كَثِيراً (٨٢)

اللغة:

حفيظا، أي تحفظ عليهم أعمالهم، و تحاسبهم عليها. و برزوا من عندك، أي خرجوا من عندك. و التبييت كل شيء دبّر بليل، و المراد به هنا التزوير.

و التدبر التأمل و النظر في عواقب الأمور.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٨٨

الإعراب:

حفيظا حال، و صاحبه الكاف في أرسلناك. و طاعة خبر لمبتدأ محذوف، أي شأننا طاعة، أو مبتدأ و الخبر محذوف، و التقدير عندنا طاعة. و كفى باللّه وكيلا مرّ اعرابه أو اعراب نظيره عند تفسير الآية ٤٤ و ٧٨ من هذه السورة.

المعنى:

(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطٰاعَ اللهَ). سبق تفسيره في الآية ٥٩ من هذه السورة.

(وَ مَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً). ان وظيفة الرسول تحددها كلمة الرسول نفسها، كما تحدد كلمة الشمس معناها، أما الحساب و العقاب فإلى اللّه، لا الى الرسول: «إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ- ٢٦ الغاشية». و تكلمنا عن هذا الموضوع مفصلا عند تفسير الآية ٢٧٠ من سورة البقرة، المجلد الأول ص ٤٢٢.

(وَ يَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ- الطائفة التي أظهرت الطاعة- و اللّه يكتب ما يبيتون). ظاهر الآية ان المسلمين بجملتهم أظهروا طاعة الرسول (ص) و لكنهم لم يكونوا جميعا مخلصين فيما أظهروا، بل منهم فئة منافقة تخادع الرسول، و تبيت خلاف ما تبديه له من الطاعة .. و هذه الآية رد مفحم لمن ادعى ان جميع الصحابة عدول، و ان مجرد الصحبة للرسول (ص) تعصم صاحبها من كل شبهة.

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ). الخطاب للنبي (ص)، و المعنى ان الحكمة تستدعي ان لا تهتك ستر المنافقين، و تذكرهم بأسمائهم، و أيضا لا تطمئن اليهم، و تقبل عليهم إقبالك على المؤمنين المخلصين .. و الأيام كفيلة بإظهارهم على حقيقتهم. و مثل هذه الآية الآية ٦٣ من السورة نفسها، و تقدمت هي و تفسيرها.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٨٩

اليهود و اعجاز القرآن:

(أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً).

عند تفسير الآية ٢٣- ٢٥ من سورة البقرة، المجلد الأول ص ٦٥، فقرة «سر الاعجاز في القرآن» تعرضنا لهذا السر على سبيل الإجمال، لأن التفصيل يستغرق كتابا في حجم هذا المجلد .. و بعد ان مضينا في التفسير اكتشفنا أسرارا لإعجاز القرآن لم يتنبه اليها من سبق من علماء المسلمين، حتى الذين ألفّوا كتبا خاصة في اعجاز القرآن، و ما كان هذا عن قصور أو تقصير منهم .. حاشا، و لكن كتاب اللّه لا تنقضي أسراره و عجائبه: «قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً- ١١٠ الكهف».

و قد أصاب من هذه الكلمات كل بقدر ما أسعفه عصره و مواهبه، فان الزمان عنصر فعال في الكشف عن معاني القرآن و أسراره، قال ابن عباس: «في القرآن معان سوف يفسرها الزمان». و من هذه المعاني ما أومأت اليه الآية ٥٣ من هذه السورة: «أَمْ لَهُمْ- أي لليهود- نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً». و ذكرنا عند تفسيرها و تفسير الآية ٤٦ من السورة نفسها تنبؤ القرآن بفظائع اليهود و جرائمهم إذا ملكوا، و بعد نيف و ثلاثة عشر قرنا تحقق هذا التنبؤ، و هذا دليل قاطع على نبوة محمد (ص) و صدق رسالته .. و هذا هو الاعجاز الذي أردناه من قولنا: لم يتنبه اليه العلماء و المفسرون، لأن اليهود كانوا آنذاك أذلاء محكومين، لا نصيب لهم من الملك في فلسطين و لا في غيرها.

و من جملة الأدلة على ان القرآن وحي من اللّه قوله تعالى: (وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) من هذا الاختلاف عدم التناسق و التناسب في أقوال البشر أسلوبا و تفكيرا ... فما من عالم أو أديب أو أي انسان إلا و يختلف قوة و ضعفا في تعبيره و تفكيره، أما القرآن فهو على مستوى واحد في بلاغة أسلوبه، و عظمة معانيه.

و السر ان للإنسان ظروفا و حالات تختلف و تتغير من حين الى حين، بل من لحظة الى لحظة، و هو تابع لها يتقلب بحسبها، و لا ينفك تغيره عن تغيرها

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٩٠

بحال. و في قوله تعالى: (كَثِيراً) اشارة الى ان تقلّب الإنسان مع ظروفه لا يبلغه الحصر، و هذا الاختلاف يفسر لنا التفاوت في أسلوب الإنسان و تفكيره، أما الذات القدسية فإنها هي هي متوحدة في كل شيء أزلا و أبدا، لا تتبدل بالأحوال، و لا تتغير بالظروف: «و كيف يجري على اللّه ما هو أجراه، و يعود فيه ما هو أبداه، و يحدث فيه ما هو أحدثه؟. اذن، لتفاوتت ذاته، و تجزأ كنهه». كما قال الإمام علي (ع). و هذا وحده يفسر لنا التناسق و التناسب في كتاب اللّه أداء و مضمونا من ألفه الى يائه.

[سورة النساء (٤): آية ٨٣]

وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذٰاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لٰا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطٰانَ إِلاّٰ قَلِيلاً (٨٣)

اللغة:

الاستنباط الاستخراج، و يستعمل- غالبا- في استخراج الحكم من مصدره بالاجتهاد.

الإعراب:

فضل اللّه مبتدأ، و خبره محذوف، أي لولا فضل اللّه كائن، أو كائنان بالنظر الى ان و رحمته معطوفة على فضل اللّه. و قليلا منصوب على الاستثناء المنقطع من الضمير في لاتبعتم، و قيل: هو صفة لمفعول مطلق محذوف، و التقدير اتباعا قليلا.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٩١

المعنى:

(وَ إِذٰا جٰاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذٰاعُوا بِهِ). كان في صحابة الرسول (ص)- كما يكون في أي حزب و معسكر- المخلص و المنافق، و الشجاع و الجبان، و القوي و الضعيف في إيمانه، و العاقل المجرب الذي يرتفع الى مستوى الأحداث، و الجاهل الذي لا يتدبر الأمور و لا يقدر العواقب، و قد تحدث القرآن عن كل هؤلاء تصريحا تارة، و تلويحا أخرى.

و اتفق المفسرون على ان هذه الآية نزلت فيمن كانوا يسمعون أخبار الأمن و الخوف التي كانت تتعلق بقوة المسلمين العسكرية، فيذيعونها بين الناس، ثم اختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المذيعين: هل هم المنافقون، أو البسطاء السذج من ضعفاء المؤمنين؟ فقال كل فريق بما ترجّح عنده .. أما نحن فلم يترجح لدينا ارادة المنافقين، دون الضعفاء، و لا الضعفاء، دون المنافقين، لأن كل ما أفاده ظاهر الآية ان جماعة من الذين كانوا حول النبي (ص) إذا وصل اليهم خبر من أخبار السلام و الأمان، أو الحرب و العدوان تكلموا به، و أفشوه بين الناس .. و لا شيء أضر على الأمن الداخلي و الخارجي من افشاء الأسرار العسكرية، بخاصة مع عدم تثبت المذيعين من صدق الخبر، فإن الكثير من أنباء الحرب يختلقها و يروجها العدو بقصد الاستفادة منها، و اشاعة الفتن و القلاقل في صفوف المسلمين.

(وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ).

ضمير أولي الأمر منهم يعود على المسلمين، و من للتبعيض، أي ان أولي الأمر هم بعض المسلمين، أما ضمير منهم في يستنبطونه منهم فقد اختلف فيه المفسرون، فمن قائل: انه يعود على الذين أذاعوا خبر الأمن أو الخوف. و قائل: انه يعود

على أولي الأمر، و هو الأظهر، و من للبيان، لا للتبعيض. و المراد بأولي الأمر من يثق الرسول (ص) بكفاءتهم الدينية و العلمية، و الذين عناهم اللّه بقوله:

«هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ- ٦٣ الأنفال».

و المعنى كان الأولى بالذين أذاعوا ما سمعوه من أخبار الحرب ان يمسكوا عن

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٩٢

الخوض فيما بلغهم، و يعرضوه على الرسول و الأكفاء من أصحابه فهم وحدهم الذين يعرفون أخبار الحرب و مكائدها، و يستخرجون الأشياء من مصادرها، و يردونها الى أصولها، فقوله تعالى: **(لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ)** معناه ان الأكفاء يعرفون حقيقة الخبر المذاع، و القصد منه، لأنهم هم الذين يستخرجون الخفايا و الحقائق من منبعها الأول، و يفعلون ما توجبه الحكمة و المصلحة.

(وَ لَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلاَّ قَلِيلاً). المراد بفضل اللّه و رحمته انزال القرآن، و بعثة محمد (ص). و المعنى لو لا كتاب اللّه و سنة نبيه لبقيتم على الكفر و الضلال الا قليلا منكم، مثل قس بن ساعدة، و ورقة بن نوفل، و زيد بن عمرو، و من اليهم ممن آمن باللّه وحده بوحي من فطرته الصافية قبل أن يبعث اللّه محمدا (ص)، و هذا النوع من المؤمنين يسمون الحنيفية.

و الحنيف عند العرب من كان على دين ابراهيم (ع).

[سورة النساء (٤): آية ٨٤]

فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ اللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْكِيلاً (٨٤)

اللغة:

الحض التحريض على الشيء. و المراد بالتنكيل هنا العقاب و العذاب، و عسى في كلام اللّه واجبة التحقق، و في كلام غيره متوقعة.

الاعراب:

فقاتل الفاء واقعة في جواب شرط مقدر، أي ان أردت الفوز فقاتل. و لا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٩٣

تكلف مبني للمجهول، و الضمير المستتر نائب فاعل. و نفسك مفعول ثان، على حذف مضاف، أي لا تكلف إلا أفعال نفسك، و بأسا و تنكيلا تمييز.

المعنى:

(فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ). بعد أن ذكر سبحانه في الآية ٧٧ الذين خافوا من القتال، و قالوا: ربنا لم كتبت علينا القتال، و ذكر في الآية ٨١ الذين أظهروا الطاعة، و أضمروا العصيان، و قالوا طاعة، و بيتوا غير الذي قالوا، و ذكر في الآية ٨٣ الذين أذاعوا ما سمعوا من أخبار الحرب و أسرارها بعد هذا كله أمر اللّه نبيه بالقتال و الجهاد، دفاعا عن الحق، و ان يحرض المسلمين، و يحثهم على الجهاد معه، و يحارب بمن يستجيب له، و يعرض عمن أعرض منهم، فانه غير مسؤول، و لا مكلف بأعمال غيره، و انما هو مكلف بأعمال نفسه فقط. و هذا معنى

قوله: «لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ» و ليس معناه قاتل وحدك ان لم يقاتل أحد معك، كما قيل، لأن اللّه قد نهى النبي و المسلمين عن القتال في بدء الدعوة، و أمرهم بالصبر على إيذاء المشركين لهم حين كانوا بمكة، لأن القتال كان آنذاك أشبه بالعمليات الانتحارية منه بالجهاد في سبيل اللّه .. و لم يأمرهم بالجهاد إلا بعد أن هاجروا الى المدينة، و أصبح بمقدورهم الوقوف في وجه الأعداء، فكيف يأمر النبي بالقتال منفردا؟

(عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا). عسى هنا واجبة التحقق، لأنها من كلام اللّه، و اللّه لا يخلف الميعاد، و المراد بالذين كفروا صناديد قريش الذين أخرجوا النبي (ص) من مكة، و جيشوا الجيوش لحربه مرات .. و قد أنجز اللّه وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب المشركة وحده.

[سورة النساء (٤): الآيات ٨٥ الى ٨٧]

مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهٰا وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهٰا وَ كٰانَ اللهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (٨٥) وَ إِذٰا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهٰا أَوْ رُدُّوهٰا إِنَّ اللهَ كٰانَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (٨٦) اللهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلىٰ يَوْمِ الْقِيٰامَةِ لاٰ رَيْبَ فِيهِ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً (٨٧)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٩٤

اللغة:

الشفاعة مأخوذة من الشفع، و هو ان يصير الإنسان شفعا لصاحبه، أي ناصرا له. و الكفل الحظ و النصيب. و المقيت بفتح الميم من المقت بمعنى البغض، و هذا غير مراد هنا. و المقيت بضم الميم بمعنى معطي القوت، و هذا الإعطاء يستدعي المقدرة، و عليه يصح أن يطلق المقيت بالضم، و يراد به المقتدر، و هذا المعنى هو المراد هنا، و قد عدّ المقيت بالضم من أسماء اللّه تعالى. و الحسيب يأتي بمعنى المحاسب على العمل، و بمعنى الكافي، و أي المعنيين أردت من الآية صح.

الاعراب:

اللّه لا إله إلا هو (اللّه) مبتدأ، و لا نافية للجنس، و إله اسمها، و الخبر محذوف، أي موجود، و هو بدل من إله على المحل، لأن اسم (لا) محله الرفع، و الجملة من لا و اسمها و خبرها خبر لفظ الجلالة. و اللام في ليجمعنكم واقعة في قسم محذوف، و التقدير و اللّه ليجمعنكم. و حديثا تمييز.

المعنى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهٰا وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٩٥

لَهُ كِفْلٌ مِنْهٰا). يدل سياق الكلام على ان المراد بالشفاعة الحسنة التحريض على القتال، و بالشفاعة السيئة تثبيط العزائم عنه .. و لكل من المشجع و المثبط جزاء دعوته و آثارها، فلمن يدعو الى الجهاد نصيب من أجره، و لمن يدعو الى التخاذل نصيب من وزره .. و المبدأ عام في كل شفاعة خير، و كل شفاعة سوء، و في الحديث: «من سنّ سنة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها، و من سن سنة سيئة كان له مثل وزر من عمل بها». فالإسلام يبارك كل خير، سواء أ كان سنة يقتدي بها الغير، أو عملا صدر من ملحد، أو نية مجردة عن العمل، فالمهم أن يصدق عليه اسم خير أو فضيلة أو حسن

أو طيب أو ما اليه. و تعرضنا لذلك عند تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران، فقرة «لكل امرئ ما نوى»، و عند تفسير الآية ١٧٨ من السورة نفسها، فقرة «الكافر و عمل الخير».

(وَ كانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً). أي قادرا على أن يجازي كلا بما يستحق، فيثيب صاحب الشفاعة الحسنة، و يعاقب صاحب الشفاعة السيئة- أنظر معنى مقيت في فقرة اللغة-.

(وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها). اتخذ الإسلام كلمة التوحيد شعارا لعقيدته، و جعل السلام تحيته المختصة به للاشارة الى ان منهاجه في الحياة هو نشر السلام، و مقاومة العدوان .. بالاضافة الى ان معنى الإسلام التسليم للعدل و الإحسان، و الخير و الأمان، و فوق ذلك كله فإن السلام من أسماء اللّه تعالى: «هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ- ٢٣ الحشر».

(إِنَّ اللهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً). يحاسب على عدم رد التحية، و غيره من ترك المحرمات، و فعل الواجبات.

و استدل الفقهاء بهذه الآية على وجوب رد السلام، اما بالمثل، أي أن تعيد تحية من حياك بالحرف دون زيادة أو نقصان، و اما ان تزيد عليها: و رحمة اللّه، و أمثالها.

و الرد فرض على سبيل العين إذا وجهت التحية الى شخص معين، و كفاية إذا وجهت الى جماعة، ان قام به البعض سقط عن الباقين، و الا فالكل ملومون و مؤاخذون .. و في الحديث: التحية تطوع، و الرد فرض.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٩٦

و قال أصحاب أبي حنيفة: المراد بالتحية في الآية الكرامة بالمال، فمن أهدى اليك شيئا فعليك أن تهديه بمقدار ما أهدى اليك، أو تزيد. (أحكام القرآن للقاضي أبي بكر الأندلسي).

طرق متنوعة لاثبات المعاد:

اهتم الإسلام اهتماما بالغا بالدعائم الأولى للإسلام، و إثباتها بشتى الأساليب، و هذه الدعائم هي: الايمان باللّه، و الرسول، و اليوم الآخر .. و في المجلد الأول عقدنا لكل واحد من هذه الثلاثة فصلا مستقلا، تكلمنا عن الأول بعنوان التوحيد عند تفسير الآية ٢١ من سورة البقرة، المجلد الأول ص ٥٩، و عن الثاني بعنوان: فأتوا بسورة من مثله عند تفسير الآية ٢٣ ص ٦٤، و عن الثالث بعنوان كيف تكفرون باللّه عند تفسير الآية ٢٨ ص ٧٤. و من تتبع آي الذكر الحكيم الواردة في البعث و الحشر يجدها على أنواع، منها:

١- مجرد اخبار عن وقوع يوم القيامة: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ- ٤٨ ابراهيم».

٢- اخبار مع تأكيد الوقوع بالقسم و نفي الريب، كهذه الآية: «**لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ**». أي و اللّه ليجمعنكم.

٣- الاستدلال على إمكان المعاد بخلق السموات و الأرض .. أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ- ٣٣ الأحقاف». و أوضح تفسير لهذه الآية قول من قال: «و من ركب البحر استقل السواقيا».

٤- الاستدلال بخلق النبات: «وَ اللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ- ٩ فاطر».

٥- الاستدلال بخلق النشأة الأولى للإنسان: «فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ- ٥١ الاسراء».

٦- الاستدلال بالمشاهدة و العيان، من ذلك ان اللّه سبحانه أمات جماعة من بني إسرائيل ثم أحياهم:

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٩٧

«وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ، وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ- ٥٦ البقرة».

و أحيا الرجل الاسرائيلي بعد قتله: «فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللهُ الْمَوْتى وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ- ٧٣ البقرة».

و أيضا أحيا عزيرا بعد موته: «فَأَماتَهُ اللهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ- ٢٥٩ البقرة».

و أيضا أحيا طيور ابراهيم الأربعة بعد أن قطعها أجزاء: «قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً- ٢٦٠ البقرة».

و أحيا أهل الكهف بعد أن أماتهم ٣٠٩ سنوات: «وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ- ١٩ الكهف».

و صدق اللّه العظيم: «وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ- ٢٧ الزمر».

و هل يتذكر جاهل يقيس من لا يعجزه شيء على من لا يقدر على شيء؟

و كيف يؤمن المنافق بيوم يعز الصادقين، و يذل المنافقين؟ و لا أدري أي ضرر على المجتمع أو الأفراد من الايمان بيوم يميز اللّه فيه الخبيث من الطيب، و بمحكمة يتساوى فيها الجميع أمام الحق و العدالة؟.

[سورة النساء (٤): الآيات ٨٨ الى ٩٠]

فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اللهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٩٨

اللغة:

الركس و النكس واحد، و هو تحوّل الشيء من حال الى حال أردأ منها.

و السبيل الطريق، و يستعمل في الحجة، تقول: لا سبيل لك عليه، أي لا حجة لك تعتل بها عليه. و الميثاق العهد. و حصرت صدورهم، أي ضاقت.

الإعراب:

فما لكم الفاء تفريع على ما قبلها من الآيات. و (ما) استفهام انكار.

و لكم متعلق بمحذوف خبر، أي ما حصل لكم. و فئتين حال، و العامل فيه الخبر المحذوف. و جملة و اللّه أركسهم حال من المنافقين. و من يضلل (من) اسم شرط محله الرفع بالابتداء، و خبره جملة جواب الشرط، و الجملة من المبتدأ و

الخبر حال من الواو في تهدوا. و ودوا لو تكفرون (لو) هنا مصدرية، و تقع كثيرا بعد ود و يود، و لكنها غير ناصبة، و المصدر المنسبك منها و مما بعدها مفعول ودوا، أي ودوا كفركم. و جملة حصرت صدورهم حال من واو جاءوكم، أي جاءوكم و قد حصرت صدورهم. و لو شاء اللّه (لو) للامتناع.

و اللام في لسلطهم واقعة في جواب لو، و مثلها اللام في فلقاتلوكم، لأن المعطوف على الجواب جواب.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٣٩٩

المعنى:

(فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ). نزلت هذه الآيات في خصوص المنافقين الذين بقوا في دار الكفر، و لم يهاجروا الى المدينة بدليل قوله تعالى: **(حَتَّى يُهاجِرُوا)** لأن الهجرة انما تكون من دار الكفر الى دار الإسلام، و قبل فتح مكة كانت المدينة هي الدار الوحيدة للإسلام .. و ظاهر هذه الآيات صريح في أن حكم من نافق، و بقي في دار الكفر غير حكم من نافق و هو مقيم في دار الإسلام، لأن اللّه سبحانه أمر بقتل أولئك و أسرهم، دون هؤلاء .. و قبل أن ينزل هذا الأمر من السماء اختلف الصحابة، و انقسموا فئتين في حكم المنافقين الذين بقوا في دار الكفر: فئة ترى مقاطعتهم و عدم الاستعانة بهم في شيء، بل و إعلان الحرب عليهم، تماما كمن جاهر بالشرك و عداء المسلمين. و فئة ترى التساهل و التسامح، و ان يعاملوا معاملة المسلمين.

و يظهر ان النبي (ص) سكت عن هذا الخلاف، حتى حسمه اللّه بقوله:

(فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ) أي لا ينبغي أن تختلفوا في أمرهم، بل عليكم أن تجمعوا قولا واحدا على عدم التساهل معهم بحال، و بيّن سبحانه السبب الموجب بقوله: **(وَ اللهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا)** أي رد حكمهم الى حكم الكفار المحاربين من جواز قتلهم و سبيهم، لأنهم كالكافر المحارب، أو أشد ضررا بسبب بقائهم في دار الشرك الذي لا يستفيد منه إلا عدو الإسلام و المسلمين.

الإضلال من اللّه سلبي لا ايجابي:

(أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ). هذا يشعر بأن الفئة المتسامحة من المسلمين كانت تأمل أن يعود هؤلاء المنافقون الى الهداية، فقطع اللّه أملهم بقوله:

(وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً). و تسأل: لقد أخبر أولا، عظمت كلمته، انه أركس أولئك المنافقين بسبب كسبهم و سوء اختيارهم للبقاء في دار الكفر .. ثم قال سبحانه: انه هو الذي أضلهم .. فأضاف اضلالهم اليه بعد ان أضافه اليهم، فما هو وجه الجمع؟.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٠٠

الجواب: ليس المراد بمن أضل اللّه و يضلل اللّه خلق الإضلال فيهم ..

كلا، و انما المراد ان من حاد عن طريق الحق و الهداية بإرادته، و سلك طريق الباطل و الضلال باختياره فإن اللّه يعرض عنه، و يدعه و شأنه .. و ليس من شك ان من أوكله اللّه الى نفسه لا يجد سبيلا الا الضلال، و الجور عن القصد، و هذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى: **(وَ اللهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا)** كل الانسجام.

و بتعبير أوضح: كل من سلك طريق الحق فإن اللّه يشمله بعنايته، و يرعاه بتوفيقه: «إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ

مُحْسِنُونَ- ٢٨ النحل». و هذه العناية من اللّه بالمتقين تسمى هداية و توفيقا و ولاية و وكالة من اللّه، و ما الى ذلك .. و كل من سلك طريق الباطل فإن الله يعرض عنه، و لا يرده الى الهداية قسرا، و يلجئه اليها إلجاء. و هذا الإعراض منه تعالى يسمى اضلالا و خذلانا و اركاسا، و ما اليه .. و بكلمة واحدة ان الإضلال من اللّه معناه سلبي، لا ايجابي، و معنى الهداية منه ايجابي بنحو من اللطف و التدبير.

و لا بد من التنبيه الى ان حكمة اللّه سبحانه تستدعي ان يلطف بعبده، و لا يتخلى عنه، تماما كما لا تتخلى الوالدة عن وليدها الا إذا كان العبد هو السبب الموجب لتخلي اللّه عنه لولوجه في العصيان و التمرد كما تتخلى الأم عن ابنها الذي أوغل في العقوق.

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً). كل انسان يود أن يكون جميع الناس على شاكلته. و سبق تفسيره في المجلد الأول ص ١٧٣ الآية ١٠٩ من سورة البقرة.

(فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ). بعد أن هاجر رسول اللّه (ص) الى المدينة أوجب سبحانه الهجرة اليها على كل من أسلم إلا إذا عجز عنها، أو أذن له الرسول لبقاء لمصلحة تعود على المسلمين .. و من الآيات التي حث اللّه بها على الهجرة قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا- ٧٢ الأنفال». و السر- كما يبدو لنا- ان المسلمين كانوا قلة قبل فتح مكة، فإذا تفرقوا هنا و هناك ضعفوا و طمع بهم العدو، و إذا اجتمعوا في مكان واحد حول الرسول الأعظم (ص)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٠١

قويت شوكتهم، و هابهم من يطمع بهم و هم متفرقون .. هذا الى فوائد كثيرة تترتب على الاجتماع و الانضمام .. و بقيت الهجرة الى المدينة واجبة، حتى فتح النبي مكة، و نصره اللّه على أعدائه، و دخل الناس في دين اللّه أفواجا، و لم يبق للهجرة من سبب .. قال رسول اللّه (ص): «لا هجرة بعد الفتح، و لكن جهاد و نية».

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ). أي ان أولئك المنافقين إذا لم يتركوا دار الكفر و يهاجروا الى المدينة، و ينضموا الى الرسول و المسلمين فخذوهم أي أأسروهم، و اقتلوهم أينما ظفرتم بهم **(وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً)**. المراد بالوالي هنا الحليف، و النصير معروف، و القصد ان يعرضوا عنهم إعراضا كليا، فلا يستنصحوهم و لا يستنصروهم و لا يستعينوا بهم في شيء.

و تسأل: ان الإسلام دين الحرية و التسامح مع جميع الطوائف و أهل الأديان، و شريعته تحافظ على حياة الناس، كل الناس، و حقوقهم المعنوية و المادية، بصرف النظر عن آرائهم و معتقداتهم .. فما باله هنا يأمر بأسر المنافقين و قتلهم أينما وجدوا؟.

الجواب: فرق بعيد بين الطوائف و أهل الأديان، بل و الملحدين الذين أعلنوا عقائدهم و آراءهم على الملأ، و لم يضمروا العداء لإنسان، و لا غدروا و لا تآمروا و لا ناصروا مبطلا على محق، فرق بعيد بين هؤلاء الذين لزموا جانب الحياد، و بين المنافقين الذين أظهروا الإسلام، و تستروا بكلمته، و بقوا في دار الكفر بقصد الكيد للمسلمين، و التآمر عليهم، و مناصرة أعدائهم .. اذن: الأمر بأسر هؤلاء و قتلهم كان جزاء على عدائهم للإسلام في حين أنهم أظهروا الايمان به و أضمروا الكيد للنبي و المسلمين و الغدر بهم، و التآمر عليهم .. أما تسامح الإسلام مع بقية الطوائف و أهل الأديان فهو انسجام مع مبدأه في حماية الحرية لكل فرد، و عدم الإكراه في الرأي و العقيدة حقا كانت أو باطلا، ما دام وزرها على

صاحبها فحسب، و الناس في أمن منها و منه.

سؤال ثان: وشى به الجواب عن السؤال السابق، و هو ان الإسلام يتسامح مع المنافقين، تماما كما يتسامح من غيرهم من الطوائف و أهل الأديان بدليل ان

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٠٢

اللّه أمر نبيه بتجاهلهم و الاغضاء عنهم، كما سبق في الآية ٦٣ من هذه السورة:

«فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً»؟.

الجواب: ان هذه الآية أي ٦٣ نزلت في المنافقين الذين كانوا مع النبي (ص) بالمدينة، و لم يكن في وسع هؤلاء أن يتعاونوا مع المشركين لبعدهم عنهم و قربهم من الرسول و قوة المسلمين، و الآية التي نحن بصددها، أي ٨٩ نزلت في المنافقين الذين أصروا على البقاء في دار الشرك للكيد و الغدر بالمسلمين .. هذا، الى أن اللّه أمر نبيه بالإغضاء عن المنافقين حين كان الإسلام ضعيفا قليل الأنصار، ثم أمره بقتلهم بعد أن أصبح قويا كثير الأنصار، تماما كما أمره بالصبر في مكة، و الجهاد في المدينة.

و بعد ان أمر اللّه بالتنكيل بأولئك المنافقين الأعداء الألداء استثنى منهم صنفين:

و أشار الى الصنف الأول بقوله: **(إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ)**. يريد بهذا جل و علا ان من يلتجئ من أولئك المنافقين الى قوم بينهم و بين المسلمين عهد في المهادنة و ترك القتال، ان هذا اللاجئ يترك لا يؤسر و لا يقتل، لأنه- و الحال هذه- يكون مسالما للمسلمين، تماما كالذين التجأ اليهم، فيعامل معاملتهم في عدم التعرض له .. و من المفيد أن ننقل ما قاله الرازي- هنا-:

«اعلم ان هذا يتضمن بشارة عظيمة لأهل الايمان، لأنه تعالى لما رفع السيف عمن التجأ الى من التجأ الى المسلمين فبالأولى أن يرفع العذاب في الآخرة عمن التجأ الى محبة اللّه و محبة رسوله».

و ليس من شك ان محبة أهل بيت الرسول (ص) هي محبة للّه و للرسول، لقوله تعالى: «قُلْ لاَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى- ٢٣ الشورى».

و أشار الى الصنف الثاني بقوله: **(أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ)**. أي ان الذين يتحرجون أن يحاربوا المسلمين مع قومهم المشركين، أو يحاربوا قومهم مع المسلمين، و جاءوا الى النبي (ص) يطلبون منه الرضا بالوقوف على الحياد، لا معه و لا عليه، ان هؤلاء يتركون أيضا، لا يقتل و لا يؤسر أحد منهم، لأنهم غير محاربين. و خير مثال يفسر هذه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٠٣

الآية ما جاء في مجمع البيان ان جماعة من أشجع جاءوا الى النبي (ص)، و قالوا له: ان دارنا قريبة من دارك، و قد كرهنا حربك، و حرب قومنا، و أتينا لنوادعك، فقبل منهم، و وادعهم. فرجعوا الى بلادهم.

و لا شيء أقوى و أصدق من هذا في الدلالة على ان الإسلام سلم لمن سالمه، و حرب على من حاربه.

(وَ لَوْ شاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ). ان اللّه سبحانه لا يتدخل بمشيئته التكوينية «١» في شيء من أمور الناس، و انما أراد بقوله هذا ان يذكّر المسلمين بفضله عليهم .. و انه كان من الممكن أن ينضم هؤلاء الى أعداء المسلمين، و لكن اللّه سبحانه صرفهم عن ذلك بوقوفهم على الحياد، فقوله: **(وَ لَوْ شاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ)** معناه لجرأهم عليكم،

و لم يجعل لكم هيبة في نفوسهم تبعثهم على طلب الموادعة و المتاركة .. و ليس هذا من باب المشيئة التكوينية، بل من المشيئة التوفيقية، ان صح التعبير.

(فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً).

«إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ- ٤٢ الشورى» .. و أيضا قال عز من قائل: «لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ- ٨ الممتحنة» ..

و قال جلت حكمته: «وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها- ٦٢ الأنفال». الى غير ذلك من الآيات التي تدعو الى المحبة و الاخوة و المساواة، و التعاون على كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات .. و أروع ما في الإسلام انه يعتبر الأعمال الانسانية من صميم الدين و صلبه، بل يعتبرها السبيل الوحيد الى اللّه.

[سورة النساء (٤): آية ٩١]

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً (٩١)

---

(١) تكلمنا عن ارادة اللّه التكوينية و التشريعية عند تفسير الآية ٢٦- ٢٧ من سورة البقرة، فقرة التكوين و التشريع، المجلد الأول، ص ٢٧.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٠٤

اللغة:

الفتنة في اللغة الاختبار، و المراد بها هنا الشرك. و الارتكاس الرد. و الثقف الحذق، يقال ثقف ثقافة، أي صار حاذقا. و المراد بثقفتموهم في الآية وجدتموهم، أو ظفرتم بهم. و المراد بالسلطان الحجة، لأن صاحبها يتسلط بها على خصمه، و في بعض التفاسير: ان السلطان في كتاب اللّه هو الحجة.

الاعراب:

كلما منصوب على الظرفية، لأنه مضاف الى (ما) المصدرية، و العامل اركسوا. و الكاف في أولئكم حرف خطاب تدل- في الغالب- على حال المخاطب من التذكير و التأنيث و الافراد و التثنية و الجمع، أما المشار اليه فتعرف حاله من لفظ اسم الاشارة، لا من الكاف. و بتعبير ثان ان مثل ذاكم كلمتان الأولى ذا، و تدل على ان المشار اليه مفرد مذكر، و الثانية (كم) و تدل على ان المخاطب جمع مذكر، فإن كان مؤنثا قلت ذاكن، و ان كان مثنى قلت ذاكما، و هكذا الحال في سائر أسماء الاشارة، و من خوطب بها.

لا قتل و لا قتال في الإسلام:

عرضت الآيات السابقة صورا متنوعة للذين لاقى منهم الرسول (ص) ألوانا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٠٥

من المكر و الخبث و التمرد على اللّه و رسوله .. و هذه الآية تعرض صورة أخرى لفريق هم أكثر الناس عددا في كل زمان و مكان، أعني المتميعين المذبذبين الذين لا واقع لهم الا التقلب و التردد، يؤمنون بالقيم حينا، و حينا بها يكفرون

..

و نحن لا ننكر ان الإنسان يتأثر بظروفه، و انه كثيرا ما يتغير بحسبها، بل أثبتنا ذلك عند تفسير الآية ١٤٣ من سورة البقرة، فقرة «تغير الأخلاق و الأفكار»، و مع هذا فانّا نعتقد- استنادا الى العيان- ان لبعض الأشخاص ذاتا تتذبذب بطبيعتها، و تنتقل من حال الى حال، حتى و لو اتحدت ظروفها.

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ). المراد بالرد الدعوة، و بالفتنة الكفر، و بالارتكاس الرجوع و التحول. و المعنى ان هذا الفريق كلما دعوا الى الكفر و الارتداد رجعوا اليه، و كانوا أقبح من كل كافر ثبت على كفره، و خير ما قيل في تصويرهم ما حكاه بعض المفسرين: انهم كانوا إذا رجعوا الى قومهم يقال لأحدهم: قل: الخنفساء ربي. و القرد ربي. فيقولها.

و يقال لأمثال. هؤلاء: إمعون جمع إمع، أي اني معك من باب النحت.

و مهما بلغت الحال بهؤلاء من الانحطاط و انعدام الشخصية و الذبذبة بين الكفر و الإيمان فإن الإسلام يدعهم و شأنهم ما لم يعتدوا و يقاتلوا .. فإن اعتدوا و قاتلوا فالإسلام يأمر بردعهم و قتلهم أينما وجدوا إذا أصروا على الحرب و القتال .. و هذا ما أراده اللّه بقوله: **(فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ)**.

و هذا دليل من عشرات الأدلة التي يقدمها القرآن الكريم، و السنة النبوية على ان الخط الأساسي لدين الإسلام ان لا قتل و لا قتال إلا لردع من قاتل و سعى فسادا في الأرض: «وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ- ١٩٠ البقرة» .. «وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ- ١٩٣ البقرة» .. اذن، الإسلام سوّغ القتال، حيث سوغته جميع الشرائع قديما و حديثا، و أوجبته جميع العقول .. و رغم هذه الأدلة و غيرها فان أعداء الإسلام أبوا إلا أن يقولوا: انه دين السيف و القتال، تماما كالذي قال: عنزة و ان طارت.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٠٦

انظر تفسير الآية السابقة ٩٠: «وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً».

و قارن بينها و بين قوله تعالى في الآية التي نفسرها ٩١: «**وَ أُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً**». فان كلا منهما تؤيد الأخرى في ان القتال لم يشرع في الإسلام إلا دفاعا عن النفس، و درءا للفساد، و انه يقدر بهما وجودا و عدما، و كما و كيفا.

[سورة النساء (٤): الآيات ٩٢ الى ٩٣]

وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَ كانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (٩٢) وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً (٩٣)

الإعراب:

خطأ نعت لمفعول مطلق محذوف، أي الا قتلا خطأ، و مثلها خطأ الثانية.

فتحرير رقبة مبتدأ محذوف الخبر لدلالة الكلام عليه، أي فالواجب عليه تحرير رقبة. و ان يصدقوا أصله يتصدقوا،

فأدغمت التاء في الصاد لقرب مخرجهما.

و قال صاحب مجمع البيان: ان المصدر المنسبك من ان يصدقوا وقع موقع الحال ..

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٠٧

و هو اشتباه منه، لأن المصدر هنا معناه الاستقبال: و الحال لا يكون مستقبلا، و الأليق انه واقع موقع الاستثناء، أي تجب الدية الا مع التصدق فلا تجب.

و توبة مفعول لأجله، و العامل فيه فصيام شهرين، لأنه بمعنى الفعل.

المعنى:

(وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا). القتل على أنواع ثلاثة:

١- عمد محض، و هو ان يتعمد العاقل البالغ قتل غيره مباشرة، كالذبح و الخنق، أو تسبيبا، كدس السم بالطعام، أو منعه عن الطعام، حتى مات جوعا. فإذا تحققت المساواة بين القاتل و المقتول في الدين و الحرية، و لم يكن القاتل أبا للمقتول كان الخيار لولي المقتول بين ان يقتل القاتل قصاصا، و بين أن يأخذ منه الدية، ان رضي القاتل بإعطائها، فالخيار بين القصاص و الدية للولي في قتل العمد، فان اختار الدية كان الخيار للقاتل بين أن يقدم نفسه للقتل، أو يدفع الدية، فلا الولي يجبر القاتل على دفع الدية، و لا القاتل يجبر الولي على أخذها. و الدية الشرعية ألف دينار، و تبلغ ٣ كيلوات و نصفا و ٢٩ غراما من الذهب.

٢- شبه العمد، و هو أن يكون القاتل عامدا في فعله، مخطئا في قصده، كمن ضرب صبيا للتأديب فمات، و هذا النوع من القتل يوجب الدية، دون القصاص، و هي ألف دينار تماما كدية العمد، و تكلمنا عن قتل العمد و شبهه عند تفسير الآية ١٧٨- ١٧٩ من سورة البقرة، المجلد الأول ص ٢٧٤.

٣- خطأ محض، و هو أن يكون القاتل مخطئا في فعله و قصده، كمن رمى حيوانا فأصاب إنسانا فقتله، فان الإنسان غير مقصود، لا بالرمي، و لا بالقتل. و هذا هو المراد بقوله تعالى: **(وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا)**. و قد دل الكتاب و السنة مجتمعين على أن من قتل مسلما متعمدا فعليه أن يكفّر بعتق رقبة، و صيام شهرين متتابعين،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٠٨

و اطعام ستين مسكينا، فيجمع بين هذه الأصناف الثلاثة، و تسمى هذه بكفارة الجمع.

و ان كان القتل خطأ، أو شبه عمد فيكفّر بعتق نسمة، فان عجز صام شهرين متتابعين، فان عجز أطعم ستين مسكينا.

أما دية الخطأ فتتحملها العاقلة، و هم البالغون العقلاء الأغنياء من الذين يتقربون الى القاتل بالأب، كالاخوة و الأعمام و أولادهم الذكور دون الإناث، و مقدار الدية الف دينار، و الدية حق لأولياء المقتول، ان شاءوا طالبوا بها، و ان شاءوا أسقطوها عن القاتل. و الى هذا أشار تعالى بقوله: **(إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا)**. و قال الفقهاء: وجبت الكفارة على من قتل خطأ زجرا له عن التقصير، و حثا على الحذر في جميع الأمور، و وجبت الدية على العاقلة رفقا بمن أخطأ، و وجب القصاص في قتل العمد تأديبا له على تعمد الحرام.

(فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ). المراد بقوم عدو الكفار المحاربون، و ضمير هو

يعود على المقتول. و المعنى ان المسلم إذا قتل شخصا باعتقاد انه كافر، ثم تبين انه مسلم يقيم بين قومه الكفار، إذا كان كذلك فلا شيء على القاتل الا عتق نسمة، و تسقط عنه الدية، لأن المفروض ان أهل المقتول كفار، فإذا أعطوها تقووا بها على حرب المسلمين.

(وَ إِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ). أي إذا كان المسلم المقتول خطأ من قوم كفرة، و لكنهم غير محاربين، لأن بينهم و بين المسلمين عهد المسالمة، إذا كان كذلك تعطى دية المقتول الى أهله، و ان كانوا كفرة، لأن حكمهم، و الحال هذه، تماما كحكم المسلمين، من حيث وجوب الدية.

و على القاتل أن يكفّر بعتق نسمة، فإن عجز صام شهرين متتابعين، و شرع اللّه هذه الكفارة على القاتل، لتكون توبة له على ما صدر منه.

(وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً). أشرنا في صدر الكلام رقم (١) الى حكم القاتل عمدا، و انه القتل إلا أن يعفو الولي، و ذكر اللّه سبحانه في هذه الآية ان جزاءه في الآخرة الخلود في جهنم، و الغضب و اللعنة من اللّه، و العذاب العظيم .. و هذه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٠٩

العقوبات الأربع كلها تأكيد و عطف تفسير، و القصد التعظيم من اثر هذه الجريمة الشنعاء، و انها من الكبائر التي لا يعادلها الا الكفر، قال بعض الفقهاء: انها من أظهر أفراد الكفر و معانيه .. و يأتي الكلام عن قتل النفس ظلما في المجلد الثالث الآية ٣٢ من سورة المائدة ان شاء اللّه. و سبق الكلام عن الخلود في النار عند تفسير الآية ٢٥٧ من سورة البقرة، فقرة الخلود في النار، المجلد الأول صفحة ٤٠٠.

[سورة النساء (٤): آية ٩٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٩٤)

اللغة:

الضرب في الأرض السفر. و التبين التثبت. و العرض بفتح الراء الشيء الذي يقل لبثه، و يأخذ منه البر و الفاجر. و المغنم اسم لمكان الغنيمة أو زمانها، و يطلق على ما يكتسبه الرجل من مال عدوه في الغزو.

الاعراب:

تبتغون الجملة حال من الواو في تقولوا. و كذلك كنتم الكاف بمعنى مثل في محل نصب خبرا مقدما لكنتم، و ذلك مجرور بالاضافة.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤١٠

المعنى:

اتفق المفسرون و المحدثون على ان السبب الموجب لنزول هذه الآية ان النبي (ص) أرسل سرية من أصحابه، فالتقت برجل معه مال، كغنم و ما اليه، فحسبوه كافرا، فتلفظ بما يدل على إسلامه من تحية الإسلام، أو كلمة الشهادة و نحوها،

فاعتبرها بعضهم انها كلمة يقولها لينجو بها من القتل، فقتله.

و لما علم النبي (ص) شق ذلك عليه، و أنّب القاتل. فقال: انما تعوذ بها من القتل. فقال له- كما في بعض الروايات- هلا شققت عن قلبه.

و ألفاظ الآية لا تأبى هذا المعنى، بل هي صريحة فيه، فان قوله تعالى:

(إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا) معناه إذا ذهبتم الى الجهاد فتأنوا، و لا تقدموا على قتل من تشتبهون في دينه و عداوته **(وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً)** لأن كل من أظهر الإسلام كان له ما للمسلمين، و عليه ما عليهم، بخاصة فيما يعود الى حقن الدماء، و حفظ الأموال، أما باطنه فموكول الى اللّه وحده.

(تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ). و يشعر هذا بأن الذي دفع بهم الى قتل الرجل انما هو الطمع بما لديه من أموال، و هو الذي جعلهم يتخيلون ان إظهاره لكلمة الإسلام كان بقصد الخلاص و النجاة .. فكثيرا ما يتصور الإنسان نفسه على غير حقيقتها، فيكون واقعها شيئا، و انطباعه عنها شيئا آخر، مع العلم بأنه هو هي، و هي هو .. و هذا من خصائص الإنسان و عجائبه .. و على أية حال، فان اللّه قد نبّههم الى خطئهم هذا، و انهم قد استعجلوا الغنيمة، مع ان مغانم اللّه و نعمه لا تعد و لا تحصى، فيعوضهم منها عن مال المقتول أضعافا مضاعفة.

(كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ). هذا رد عليهم، و نقض لفعلهم بمنطق العقل و الوجدان، و تقريره انكم كنتم مشركين من قبل، ثم دخلتم في الإسلام بنفس الكلمة التي نطق بها القتيل، و قبلها النبي (ص) منكم، و بها حقنت دماؤكم و أموالكم، فكان عليكم ان تقبلوا من القتيل ما قبله النبي منكم .. و هكذا أكثر

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤١١

الناس، يطلبون من غيرهم الرضا بالنصيب الأدنى، و لا يرضون لأنفسهم إلا النصيب الأوفى.

(فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ) بقبول الإسلام، و جعلكم من الصحابة بمجرد كلمة الشهادة، و لم يبحث النبي عما في قلوبكم، فلما ذا لم تعاملوا غيركم بما عاملكم به رسول اللّه (ص) **(فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً)**. أي لا تفعلوا أي شيء بعد الآن، حتى تكونوا على بينة مما تقدمون عليه، و لا تأخذوا أحدا بالظن و التهمة، فان اللّه خبير بواقعكم و دوافعكم، و يحاسبكم عليها بما تستحقون.

وعدّ الفقهاء هذه الآية مع آيات الأحكام «١» و استخرجوا منها حكمين شرعيين:

الأول: وجوب التثبت في كل شيء، بخاصة في الأحكام الشرعية، و بوجه أخص في الدماء و الأموال، حيث أوجب الفقهاء فيهما التحفظ و الاحتياط، و ألحقوا بهما الفروج.

الثاني: ان كل من نطق بكلمة الإسلام، و قال: أنا مسلم فحكمه حكم المسلمين من حيث الزواج و الإرث، و ما الى ذلك من الأحكام التي تترتب على مجرد اظهار الإسلام، لا على نفس الإسلام حقيقة و واقعا.

[سورة النساء (٤): الآيات ٩٥ الى ٩٦]

لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَ الْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَ كُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى وَ فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (٩٥) دَرَجاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (٩٦)

(١) كل آية يستخرج منها حكم شرعي فهي من آيات الأحكام، كآيات الحج و الصيام، و الزواج و الإرث و المأكولات المحرمة، و قد بلغت هذه الآيات حوالى ٥٠٠ آية، وضع لها فقهاء الشيعة و السنة كتبا مستقلة، فمن كتب السنة آيات الأحكام للجصاص، و من كتب الشيعة كنز العرفان في آيات الأحكام للمقداد.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤١٢

اللغة:

الاستواء المماثلة، تقول: استوى هذا و هذا، أو تساويا، أي تماثلا.

و الضرر كل ما يضر، و المراد به هنا العمى و العرج و المرض، و ما اليه مما يمنع من الجهاد. و المراد بالدرجة عند اللّه المنزلة، قال رجل: يا رسول اللّه ما الدرجة؟. فقال: أما انها ليست بعتبة أمك، ما بين الدرجتين مائة عام.

الإعراب:

من المؤمنين متعلق بمحذوف حال من القاعدين. و غير صفة لهم. و درجة قائمة مقام المفعول المطلق لفضّل، لأن الدرجة هنا تتضمن معنى التفضيل، أي فضّل اللّه المجاهدين تفضيلا، أو تفضلة. و كلا مفعول أول لوعد، و الحسنى مفعول ثان. و أجرا قائم مقام المفعول المطلق، لأنه يتضمن معنى التفضيل.

و درجات بدل من أجر.

المعنى:

(لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَ الْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ). من تخلف عن الجهاد لعذر مشروع، كالعمى و العرج، و ما اليه فهو معذور، بل و مأجور إذا كان مؤمنا مخلصا يحب النصر للدين، و الخير و أهله، و يود في واقعه لو كان معافى ليشارك المجاهدين في جهادهم، فقد جاء في الحديث: «المرء مع من أحب» أي من أحب مجاهدا لا لشيء الا لأنه مجاهد فله أجر المجاهدين، و من أحب صادقا لصدقه فله منزلته، و من

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤١٣

أحب ظالما لظلمه فهو شريكه، و من أحب كافرا لكفره فهو مثله، هذا حكم القاعدين غير الأصحاء.

أما الأصحاء منهم فينظر: فإن قعدوا عن الجهاد الذي وجب عليهم و على غيرهم، كما في النفير العام فإنهم غير معذورين، بل ملومين مستحقين للعقاب، لأنهم تمردوا و عصوا، و عليه فلا تصح المفاضلة بينهم و بين المجاهدين بحال، لأن المفاضلة مفاعلة، و هي تقتضي المشاركة، و هؤلاء لا يشاركون المجاهدين في شيء .. و ان كان الجهاد فرض كفاية يحصل الغرض منه بفعل البعض، و لا حاجة الى الكل يكون القاعدون عنه معذورين، مع قيام غيرهم بهذا الواجب، و لكن المجاهدين أفضل من القاعدين، على الرغم من وجود عذرهم المشروع، لأنهم آثروا الكسل على العمل، و الاعتزال على النضال، و هؤلاء القاعدون هم المقصودون بقوله تعالى: «**لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ**». و على هذا يكون المعنى لا يستوي عند اللّه القاعدون الأصحاء و المجاهدون الذين لم يجب عليهم الجهاد بالخصوص، بل وجب عليهم و على غيرهم كفاية، و لكن هم الذين تصدوا لهذا الواجب، و أدوه على أكمله، و أسقطوه عن الباقين. و هذا المعنى هو الذي أراده اللّه، و أوضحه بقوله:

(فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً). بعد أن نفى التسوية بينهم و بين القاعدين بيّن ما امتاز به المجاهدون، و هو تفضيلهم على القاعدين بدرجة، فيكون قوله هذا تفصيلا بعد إجمال، و سر التفضيل ما أشرنا اليه من تحملهم مسؤولية الدفاع منفردين، تماما كما لو هاجم العدو بلدا، فصده عنه فريق دون فريق من أهله، فيمتاز الفريق الأول على الثاني بالبداهة، و ان كان الثاني غير مؤاخذ بعد أن قام الأول بالواجب، و حقق الغرض المطلوب، و لذا قال تعالى: (وَ كُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى). و لكنه أعاد مؤكدا و مرغبا في الجهاد بقوله:
(وَ فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً) و بيّن هذا الأجر العظيم بأنه (دَرَجاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً). و درجة واحدة عند اللّه خير من الكون بما فيه، فكيف الدرجات!! أما رحمته فلا شيء خير منها الا من هي منه ..

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤١٤

و كفى بمغفرته أمانا من عذابه و سخطه .. هذه هي المغفرة و الرحمة و الدرجة عند اللّه، من نال واحدة فهو في عليين، فكيف بمن نالها مجتمعة؟!.

اللهم اني أسألك يسيرا من رحمتك و مغفرتك، و أنت تعلم ان بي فاقة اليه .. و ما ذا يكون لو مننت و جبرت مسكنتي؟! أ تخشى نفاد مغفرتك، و كنوز رحمتك؟. أم ما ذا يا مولاي؟! ألا إني مذنب .. أجل، و لكن ألا تعلم بأني أعلم ان لا ملجأ لي منك إلا اليك، و انه يسرني أن تعفو عني و تصفح .. اللهم إن كنت كاذبا فيما قلت فعاملني بما أنا أهله، و ان كنت صادقا فيه فعاملني بما أنت أهله.

علي و أبو بكر:

قال الرازي بالنص الحرفي:

«قالت الشيعة: دلت هذه الآية (وَ فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً) على ان علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر، و ذلك لأن عليا أكثر جهادا، فالقدر الذي فيه التفاوت كان أبو بكر من القاعدين فيه، و علي من القائمين، و إذا كان كذلك وجب أن يكون علي أفضل منه لقوله تعالى:
(وَ فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً).

ثم ردّ الرازي على الشيعة بقوله- أيضا بالنص الحرفي-: «فيقال لهم:

ان مباشرة علي لقتل الكفار كانت من مباشرة الرسول لذلك، فيلزمكم بحكم هذه الآية أن يكون علي أفضل من محمد (ص)، و هذا لا يقوله عاقل، فإن قلتم:

ان مجاهدة الرسول مع الكفار كانت أعظم من مجاهدة علي معهم، لأن الرسول كان يجاهد الكفار بتقرير الدلائل و البينات و ازالة الشبهات و الضلالات، و هذا الجهاد أكمل من ذلك الجهاد، فنقول: فاقبلوا منا مثله في حق أبي بكر».

و هذه غفوة من فيلسوف المفسرين .. و لا أقول هفوة. أولا: ان كل من قاس محمدا (ص) بواحد من صحابته في تقرير الدلائل و البينات فقد خرج عن الإسلام من حيث يريد، أو لا يريد .. اللهم إلا لشبهة علقت بذهنه .. ذلك ان محمدا يقرر الدلائل و البينات بوحي من اللّه- كما سنشير- و صحابته يقررونها

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤١٥

بتعلم منه .. فالمقام الأول للّه وحده، و لا شريك معه، و المقام الثاني لمحمد وحده، و لا أحد معه، و الإيمان بهما معا

في رتبة واحدة، من حيث ان كلا من الإيمان باللّه و الإيمان برسوله ركن مقوّم للإسلام، و لا يتحقق بأحدهما، دون الآخر، و عليه تكون الخلافة و الصحبة و الجهاد، و نحوه فرعا عن الإيمان بالنبوة، و النبوة أصل، و الفرع لا يقاس بالأصل.

ثانيا: ان المعنى الظاهر من لفظ المجاهدين في آية: (وَ فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ) هو الجهاد بالسيف، لا بغيره باعتراف الرازي في تفسيره .. و لكنه ذهل عما قال، و ناقض نفسه بنفسه .. و لندع ظاهر الآية، و جميع التفاسير، و نرجع الى من نزل القرآن على قلبه، و نسأله: أي الناس أفضل؟ و نستمع لما يجيب ..

و قد روى مسلم في صحيحه: ان رجلا سأل رسول اللّه (ص): أي الناس أفضل؟ فقال: «رجل جاهد في سبيل اللّه بنفسه و ماله» .. و كلنا يعلم (ان عليا أكثر جهادا) على حد تعبير الرازي فيكون أفضل الناس، ما عدا النبي (ص)، حيث لا شيء فوق مقام النبوة الا مقام الألوهية- كما بينا- و أيضا كلنا يعلم بالبداهة ان الجهاد بالنفس أفضل و أعظم من الجهاد بالمال، لأن المال يبذل في سبيلها، و هي لا تبذل في سبيله.

ثالثا: ان الرسول الأعظم (ص)- كما قدمنا- لم يقرر الدلائل و البينات، و لم يزح الشبهات و الضلالات من عنده، بل اللّه سبحانه كان يلقنها لمحمد (ص)، و محمد يبلغها بالحرف: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ- ٧٩ يس» ..

«قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ- ٣٤ يونس» .. «قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ- ٣٨ يونس» ..

«قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا- ١٦ الرعد» ..

الى عشرات الآيات .. و غريب ان يذهل الرازي عنها بعد ان أطال في شرحها و تفسيرها.

و الأعجب الأغرب قوله: «فاقبلوا منا مثله- أي مثل ما قبلتم من محمد- في حق أبي بكر». كلا، و ألف كلا، لا نحن و لا أي مسلم يقبل منك و من غيرك أن يكون لأبي بكر مثل ما كان لمحمد (ص) (في تقرير الدلائل

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤١٦

و البينات و ازالة الشبهات و الضلالات) و الا كان أبو بكر نبيا ينزل الوحي عليه من اللّه .. استغفره و أعوذ به .. هذا، الى أن منزلة علي من العلم لا تدانيها منزلة واحد من الصحابة على الإطلاق، و كفى شاهدا على ذلك ما تواتر عن الرسول الأعظم «أنا مدينة العلم و علي بابها». و قد حفظ التراث الاسلامي من علم علي ما لم يحفظه لأبي بكر، و لا لغيره من الصحابة.

[سورة النساء (٤): الآيات ٩٧ الى ١٠٠]

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً (٩٩) وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٠)

اللغة:

توفى الشيء أخذه وافيا تاما، و المراد به هنا قبض الأرواح عند الموت.

و راغمت الرجل إذا فعلت ما يكره. و اشتقاقه من الرغام، و هو التراب، يقال

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤١٧

رغم أنفه، لأن الأنف يكنى به عن العزة، و التراب يكنى به عن الذلة، لأن الناس تدوسه بأقدامها. فإذا أضفت إحدى الكلمتين الى الأخرى كانتا كناية عن ذل صاحب الأنف.

الاعراب:

الذين اسم ان، و جملة قالوا فيم خبر. و توفاهم يجوز اعتبارها فعلا ماضيا إذا أبقيتها كما هي، و لم تقدر تاء محذوفة، و يجوز اعتبارها مضارعا على معنى تتوفاهم. و ظالمي أنفسهم حال من ضمير تتوفاهم. و فيم (ما) للاستفهام، حذفت منها الألف، و المجرور، متعلق بمحذوف خبرا لكنتم، أي كنتم في أي شيء. و أولئك مبتدأ أول، و مأواهم مبتدأ ثان، و جهنم خبر المبتدأ الثاني، و هو و خبره خبر المبتدأ الأول. و مصيرا تمييز. و نصب المستضعفين على الاستثناء المنقطع من أولئك، لعدم دخولهم في أهل جهنم. و سبيلا منصوب بنزع الخافض، أي لا يهتدون الى سبيل، أو مفعول، لأن لا يهتدون تتضمن معنى لا يعرفون.

و مهاجرا حال من الضمير في يخرج.

المعنى:

كان للمسلمين في عهد الرسول (ص) هجرتان من مكة: إحداهما الى الحبشة، و كانت لخمس سنين من مبعثه، و الثانية الى المدينة، و كانت بعد ثماني سنين من الأولى، و من الصحابة من هاجر الهجرتين، كجعفر بن أبي طالب الذي ختم حياته بالشهادة بعد أن قطعت يداه، فأكرمه اللّه عنهما بجناحين يطير بهما في الجنة، و من أجلهما سمي الطيار.

أما سبب الهجرة فهو الابتعاد عن الوقوع في التهلكة، و اللجوء الى مكان الأمن، و تدبير الخطة للجهاد المنظم، و مصارعة الباطل و صرعه .. و بالهجرة و فضلها انتصر الإسلام على أعدائه، و لولاها لانطفأت شعلته، و تحول الى رماد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤١٨

تذروه الرياح، و من هنا كانت الهجرة حينذاك هي الفضيلة العظمى، و المنقبة الأولى التي لا يدانيها شيء.

هاجر النبي (ص) من مكة الى المدينة، و أمر المسلمين بالهجرة اليها.

فاستجاب له كثيرون، و تخلف آخرون تمسكا بأموالهم و مصالحهم، لأن المشركين كانوا لا يدعون مهاجرا يحمل معه شيئا من ماله، و يشددون عليه بالأذى، و يمنعونه من اقامة دينه، و هو عاجز عن الدفاع و المقاومة، و لكنه كان قادرا على الخلاص و التحرر من الاضطهاد، و اقامة الدين على أكمل الوجوه بالهجرة من دار الحرب على المسلمين الى دار الإسلام و الأمان، الى المدينة، حيث النبي و الصحابة .. لذلك وبخ اللّه سبحانه الذين آثروا البقاء في دار الكفر و الحرب على الدين و أهله، وبخهم و أنبهم بلسان ملائكة الموت قائلا:

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ) بترك الجهاد و الهجرة الى دار الإسلام، و الرضا بالبقاء في دار الكفر و الاذلال و الإخلال بواجبات الدين، و تكثير الكافرين و تقليل المؤمنين **(قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ)** أي قال ملائكة الموت للذين تركوا الهجرة: في أي شيء كنتم؟ .. و ليس هذا سؤالا في واقعه، و انما هو تأنيب و تبكيت، و بديهة ان التأنيب يكون على شيء واقع و معلوم، و هو هنا تخلفهم عن إخوانهم المهاجرين الذين أطاعوا الرسول في تنفيذ خطته لتحطيم الشرك و إعلاء كلمة اللّه.

و ان سأل سائل: هل كان هذا التوبيخ من ملائكة الموت للمتخلفين حين الاحتضار و قبل الموت، أم بعده؟.

أجبناه: ان علم هذا عند ربي، و قد سكت عنه، فنسكت نحن أيضا عما سكت اللّه عنه، قال رسول اللّه (ص): «ان اللّه سكت عن أشياء لم يسكت عنها نسيانا فلا تتكلفوها».

(قٰالُوا كُنّٰا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ). هذا اعتذار و اعتلال من المتخلفين، و معناه ان المتخلفين أجابوا الملائكة الذين أنبوهم على التقصير في أمر الدين، أجابوهم: كنا عاجزين في دار الشرك عن القيام بواجبات الدين، لأن المشركين اضطهدونا، و منعونا من ممارسة ما نعتقد، فرد الملائكة هذا الاعتذار

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤١٩

و **(قٰالُوا)**- لهم مبكتين-: **أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وٰاسِعَةً فَتُهٰاجِرُوا فِيهٰا)**. أي كنتم قادرين على الهجرة الى دار الإسلام، حيث تتخلصون من الذل، و تقيمون الدين في حرية، كما فعل غيركم من المسلمين .. و ان دل هذا الحوار على شيء فإنما يدل على ان اللّه سبحانه لا يعذب أحدا الا بعد إتمام الحجة .. بل الا بعد تراكم الحجج عليه، بحيث لا يدع للمذنب ملجأ الا مغفرته تعالى و رحمته التي وسعت كل شيء .. اللهم و أنا شيء فلتسعني رحمتك.

(فَأُولٰئِكَ- أي المتخلفون- **مَأْوٰاهُمْ جَهَنَّمُ وَ سٰاءَتْ مَصِيراً إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجٰالِ وَ النِّسٰاءِ وَ الْوِلْدٰانِ**- الذين- **لٰا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لٰا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً)**.

بعد أن هدد سبحانه و توعد المتخلفين استثنى منهم المعذورين لمرض أو عدم النفقة، و أسقط عنهم تكليف الهجرة، لأن اللّه لا يكلف نفسا الا وسعها.

و تسأل: ان استثناء الرجال و النساء المعذورين له وجه معلوم .. فما الوجه لاستثناء الولدان، مع العلم بأنهم ليسوا من أهل التكليف؟.

و أجيب عن هذا السؤال بأن المراد بالولدان هنا العبيد و الإماء .. أما نحن فنجيب بأن كثيرا من الولدان يستطيعون الهجرة بخاصة المراهقين، بل ان بعضهم أقدر عليها من الكبار، و من أجل هذا قد يتوهم متوهم ان الهجرة تجب على من قدر منهم، فدفع اللّه هذا التوهم، و بيّن ان الهجرة تجب على كل قادر إلا إذا كان من الولدان.

الفقهاء و وجوب الهجرة:

و قد استدل الفقهاء بهذه الآية على ان المسلم لا يجوز له أن يقيم في بلد الكفر إذا تعذر عليه اقامة الدين فيه، حتى و لو كان وطنه، و له فيه أملاك و مصالح.

و لا موضوع اليوم لهذا الحكم، لأن لكل انسان في كل بلد أن يعبد اللّه بالشكل الذي يريد، فإذا ترك فهو وحده المسئول.

و تسأل، إذا علم ان إقامته في بلد غير مسلم تؤدي به الى ترك الفريضة ..

لا لأن أحدا يمنعه عنها، بل لضعف الدافع عليها، و وجود الصارف عنها، كالملاهي و نحوها: فهل تجوز له الاقامة في هذا البلد؟.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٢٠

الجواب: إذا علم علما يقينيا ان الذهاب الى أي مكان كان بلدا أو مجلسا أو سوقا يوقعه حتما في ترك الواجب، أو فعل الحرام وجب عليه الاحجام عنه، و إذا كان مقيما فيه وجب عليه الرحيل عنه، لأن السبب التام الذي يستلزم حتما الحرام فهو حرام .. قال تعالى: «فَلٰا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ- ٦٨ الانعام». و قال الإمام أمير المؤمنين (ع): «و

الهجرة قائمة على حدها الأول» أي لم يزل حكمها الوجوب على من يتعذر عليه القيام بأحكام دينه إلا في بلد مسلم. أما قول النبي (ص): «لا هجرة بعد الفتح» فان المراد به الهجرة من مكة، و تدل عليه لفظة الفتح.

(وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً). ان الأرزاق لا تنحصر بالأوطان، و الهجرة لا تستوجب الحرمان، فبلاد اللّه واسعة، و رزقه أوسع، و نعمه في كل بلد لا تعد و لا تحصى .. و ان كثيرا من الفقراء قد جمعوا من مهاجرهم أموالا لم يحلموا بجزء منها، و هم في أوطانهم .. و لو ان المتخلفين هاجروا لوجدوا من الرزق و العزة ما يرغمون به أنوف المشركين الذين أذاقوهم ألوانا من الذل و الاضطهاد .. و لكن المتخلفين رفضوا الهجرة، و تحملوا الهوان و الاذلال من أعداء دينهم، لا لشيء الا لأن الشيطان وعدهم الفقر، ان هاجروا، فركنوا الى وعده، و آثروه على مغفرة اللّه و فضله:

«الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ اللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلاً وَ اللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ- ٢٦٨ البقرة».

(وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ). كل من قصد بجد و اخلاص عملا من أعمال الطاعة، ثم عجز عنه فان اللّه سبحانه يكتب له ثوابه تاما كاملا تفضلا منه و كرما. و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران، فقرة لكل امرئ ما نوى .. و روي ان جندب بن ضمرة لما سمع آية الهجرة قال لبنيه: و اللّه لا أبيت في مكة، حتى أخرج منها، فاني أخاف أن أموت فيها، و كان مريضا شديد المرض، فخرجوا يحملونه على سرير، حتى إذا بلغ مكانا في الطريق يقال له التنعيم مات، فنزل قوله تعالى: **وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ وَ رَسُولِهِ** الخ ..

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٢١

بين هجرة الرسول من مكة المكرمة و هجرة الفلسطينيين من الأرض المقدسة:

من عجيب الصدف و غرائبها أن يتفق- من غير قصد- وصولي بتفسير القرآن الكريم الى آيات الهجرة- مع أول السنة الهجرية لعام ١٣٨٨، و إسرائيل تحتل أرضنا المقدسة، و أهلنا يهاجرون منها فرارا من التنكيل و التقتيل الجماعي الذي مارسته إسرائيل، و ما زالت تمارسه.

و قد أوحت إليّ هذه الصدفة بالمقارنة بين اعتداء المشركين في مكة على المسلمين، و إخراجهم من ديارهم، و بين الاعتداء الاسرائيلي- و بالأصح- الاعتداء الاستعماري على الأرض المقدسة، و إخراج أهلها من ديارهم. ثم انتقلت من هذه المقارنة الى استخراج العبرة و العظة من جهاد النبي (ص) و المسلمين في هجرتهم، و تدبير الخطط و أحكامها الذي بلغ بالمسلمين الى أوج النصر على عدوهم، و تحطيم طغيانه و عدوانه، و أوقف صناديد قريش الذين أخرجوا النبي من مكة، أوقفهم بين يديه أذلاء مستسلمين، يستمعون اليه، و هو يقول لهم: «ما تظنون اني فاعل بكم»؟

و قد يظن البعض ان الهدف الأول من هجرة النبي و المسلمين هو مجرد الهروب بدينهم من المشركين الذين تعرضوا لهم بالأذى، و منعوهم من ممارسة الشعائر و الأعمال الدينية، تماما كما يلتجئ العابد الزاهد الى المسجد، لقيم فيه صلاته بعيدا عن الضوضاء و الغوغاء ... كلا، لقد كانت هجرة المسلمين أبعد و أعمق من ذلك ... و الدليل ما حققته من نتائج و أهداف. لقد كانت هجرة الرسول بالاضافة الى الهروب بالدين- خطة مرسومة و مدبرة تمهيدا للمعركة الفاصلة، تماما كانسحاب الجيش من ميدان القتال الى موقع آخر من مواقعه استعدادا للهجوم المعاكس و الانقضاض على العدو

بضربة قاضية لا تقوم له بعدها قائمة.

و بعد أن وصل النبي الى المدينة آخى بين أصحابه، و جمع القلوب المتخاصمة، و أذاب ما فيها من عصبية و أحقاد، و حين تم له ذلك بدأ يرغّب المسلمين في الجهاد، و يحثهم على الدفاع عن كيانهم و عقيدتهم، و يضمن الجنة لمن يقتل في سبيل اللّه، و العزة و الكرامة دنيا و آخرة لمن ينجو من القتل. و لما أخذت هذه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٢٢

التعاليم سبيلها الى نفوسهم شرع في تجنيدهم و تأليف السرايا، يبعثها هنا و هناك ..

و قادها بنفسه أكثر من مرة، و حققت الاستقرار و الأمن للمسلمين، كما أقلقت راحة قريش و سلامتها .. ثم تحولت السرايا الى معارك كبرى، و المسلمون يبذلون أرواحهم و أموالهم، حتى جاء نصر اللّه و الفتح: «وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلىٰ وَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا».

و أحسب ان هذه الاشارة كافية لاستخراج العبرة التي يجب أن ننتفع بها في نكبتنا باسرائيل و من ساند إسرائيل.

هاجر النبي (ص) من مكة لاعتداء المشركين عليه و على أصحابه، و هاجر الفلسطينيون من الأرض المقدسة لاعتداء الصهيونية و الاستعمار عليهم و على نسائهم و أطفالهم. و كانت هجرة المسلمين آنذاك ابتعادا عن الوقوع في التهلكة، و انسحابا من ميدان المعركة لتجميع القوى، و الاستعداد للضربة القاضية على العدو. و يجب أن يكون خروج الفلسطينيين من ديارهم بهذا القصد و الروح، و لهذه الغاية بالذات، لا بقصد اخلاء البيت للصوص يسرحون فيه و يمرحون.

و بدأ النبي هجرته بالتآخي بين أصحابه .. و على قادة العرب و المسلمين أن يبدءوا بالتآخي و التصافي بين القلوب، و ان يوحدوا كلمتهم لمجابهة العدو، تماما كما فعل النبي قبل أن يجابه المشركين. و من حاد عن هذا السبيل فقد التقى مع إسرائيل، و حقق امنيتها من حيث يريد أو لا يريد.

و أرسل النبي السرايا ليقلق أمن المشركين، و أمدّ المسلمون هذه السرايا بكل ما يحتاجون .. و يجب على العرب و المسلمين أن يشجعوا الفدائيين من الفلسطينيين و غيرهم، و يمدوهم بالمال و العتاد و يتعاونوا معهم الى أقصى الحدود، ليقلقوا راحة إسرائيل و أمنها .. و عبأ النبي جميع المسلمين للمعركة الفاصلة الكبرى، و استأصل الشرك من جذوره بعد أن رسخ قرونا في كل جزء من أرض الجزيرة العربية .. و هذا ما يجب أن يفعله قادة العرب و المسلمين.

و إذا لم نعتبر بهذا الدرس من تراثنا و تاريخنا، و نكون جميعا جنودا من جنود اللّه و الوطن فلسنا جديرين باسم العرب و العروبة، و لا باسم الإسلام و المسلمين ..

بل و لا باسم الإنسان و الانسانية بعد أن أصبح هذا العصر عصر الفداء و الكفاح و التحرر من كل ما فيه شائبة الظلم و الاستغلال.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٢٣

و نختم هذه الكلمة بالتحية و الإكبار لأبنائنا الفدائيين الأشاوس الذين ضربوا أروع الأمثلة للبطولة و الفروسية، و الفداء و التضحية في أرضنا المحتلة، و أثبتوا للعالم كله اننا في مستوى عصر الكفاح و النضال من أجل الحرية و الكرامة.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكافِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً (١٠١) وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذا سَجَدُوا

فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (١٠٢) فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً (١٠٣)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٢٤

المعنى:

الصلاة لا تترك بحال، حتى حين المرض و الحرب، و بالأولى في السفر، و يؤديها كل مكلف حسب مقدرته على الوقوف أو الجلوس، فان عجز عنهما أداها مضطجعا، حتى الأخرس يجب عليه أن يحرك لسانه، و يشير بيده بدلا عن النطق، و التفصيل في كتب الفقه.

(وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا). نزلت هذه الآية في أحكام الجهاد و الخوف، تماما كالآيات السابقة، فان سياق الجميع واحد، و أوضح من السياق قوله: **(إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا)** فان المراد بالفتنة هنا القتل، أما السفر المراد من الضرب بالأرض فقد ورد مورد الغالب، لا لبيان الشرط و القيد، أما قوله:

(فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ) فالمراد به الوجوب و الإلزام، لا الرخصة و الاباحة، لأن الأخبار فسرته بالالزام، و مثله آية الطواف: (فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما- ١٥٨ البقرة». و حيث وردت الآية في صلاة الخوف، لا في صلاة القصر فيكون المراد بقوله: **(أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ)** القصر في عدد الركعات و التغيير في هيئة الصلاة حسبما تستدعيه الضرورة.

و لصلاة الخوف شروط، أهمها أن يكون في العدو قوة، يستطيع بها الهجوم و الفتك .. أما كيفيتها فقال الشهيد الثاني في اللمعة: انها كثيرة تبلغ العشرة .. و تصح جماعة و فرادى، و هذه صورة لصلاة الخائف منفردا، ذكرها صاحب الشرائع، قال بالنص الحرفي:

«أما صلاة المطاردة، و تسمى صلاة الخوف مثل أن تنتهي الحال الى المعانقة و المسايفة، فيصلي حسب إمكانه واقفا أو ماشيا أو راكبا، و يستقبل القبلة بتكبيرة الإحرام، ثم يستمر، ان أمكنه الاستمرار، و الا استقبل بما أمكنه، و صلى، مع التعذر الى أي جهة أمكن، و إذا لم يتمكن من النزول صلى راكبا، و يسجد على قربوس سرجه، و ان لم يتمكن أومأ إيماء، فان خشي صلى بالتسبيح، و يسقط الركوع و السجود، و يقول بدل كل ركعة: سبحان اللّه و الحمد للّه، و لا إله إلا اللّه، و اللّه أكبر».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٢٥

و هذه الصورة كافية وافية في الدلالة على ان الصلاة فرض لازم، لا يسقط أثناء النزال و القتال، و لا حين النزع و الاحتضار، و ان المرء يؤديها كما و كيفا حسب إمكانه و مقدرته.

(وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ).

هذا بيان لصلاة الخوف جماعة، و المعنى إذا أردت يا محمد الصلاة جماعة بالمقاتلين فاجعلهم طائفتين: واحدة تصلي معك، و هي حاملة السلاح، و الثانية تقف بإزاء العدو للحراسة، و كما تصح جماعة مع النبي (ص) تصح مع غيره أيضا.

(فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ). أي إذا سجد من يصلي مع الرسول (ص) فلتقف الطائفة الحارسة خلف المصلين. (وَ لْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ). أي بعد أن تنتهي الأولى من الصلاة تأخذ الثانية مكان الأولى في الصلاة، و تأخذ الأولى مكان الثانية في الحراسة. (وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً). هذا بيان للحكمة التي استدعت تشريع الصلاة في هذه الحال بهذا الشكل، و هي ان لا يغتنم العدو فرصة اشتغال المسلمين المقاتلين بالصلاة، فيباغتهم، و ينال منهم ما يريد.

(وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ). بعد أن أمر سبحانه المصلين بحمل السلاح أذن لهم بتركه، إن ثقل عليهم حمله بسبب المطر أو المرض، و لكنه تعالى أوجب عليهم الحيطة و التيقظ، كي لا يصيب العدو منهم غرة.

(فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِكُمْ). المراد بالصلاة هنا صلاة الخوف و بقضائها الفراغ منها. و المعنى ان ذكر اللّه حسن على كل حال، لا في الصلاة فقط، قال الامام علي (ع): افترض اللّه من ألسنتكم الذكر، و أوصاكم بالتقوى، و جعلها منتهى حاجته من خلقه. و قال ابن العربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية: من حاز على ذكر اللّه في قيامه و قعوده و اضطجاعه فقد حاز الوجود.

(فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً).

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٢٦

المراد بالكتاب ان الصلوات الخمس مكتوبة و مفروضة، و المراد بالموقوت انها محدودة بأوقات معينة صباحا و مساء، و القصد انه متى وضعت الحرب أوزارها، و زال الخوف فعليكم ان تؤدوا الصلاة في أوقاتها، و لا تتهاونوا بها. و تكلمنا عن الصلاة و اهتمام الإسلام بها فيما سبق من الآيات، و ان تركها يؤدي الى الكفر.

(أنظر المجلد الأول ص ٣٦٨).

و تسأل: ان الآية أوجبت صلاة الخوف، حيث كان القتال بالسيف و الرمح و الخنجر، أما الآن فقد تطور سلاح الحرب الى ما نعلم من آلاته الجهنمية ..

و عليه ينبغي ارتفاع صلاة الخوف لارتفاع موضوعها.

الجواب: ان السبب الموجب لهذه الصلاة هو الخوف من حيث هو بصرف النظر عن الحرب و آلاته قديمة كانت، أو حديثة، فإذا حصل الخوف بسبب غير الحرب جاز قصرها كما و كيفا.

قال صاحب الجواهر: «إذا خاف من سيل أو سبع أو حية أو حريق، أو غير ذلك جاز أن يصلي صلاة شدة الخوف، فيقصر عددا و كيفية، لعدم الفرق في أسباب الخوف المسوغة، فقد سئل الإمام جعفر الصادق (ع) عمن خاف من سبع أو لص: كيف يصلي؟ قال: يكبر و يومئ إيماء».

و مرة ثانية نقول مؤكدين: ان الصلاة لا تسقط بحال، و ان كل انسان يؤديها بالنحو الذي يستطيعه من القول و الفعل، فإن عجز عنهما أومأ الى الصلاة بطرفه، فإن عجز عن الإيماء استحضر صورة الصلاة في ذهنه.

[سورة النساء (٤): آية ١٠٤]

وَ لا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللهِ ما لا يَرْجُونَ وَ كانَ اللهُ عَلِيماً

حكيماً (١٠٤)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٢٧

اللغة:

الوهن الضعف. و الابتغاء الطلب. و الرجاء الأمل، و قيل: المراد به هنا الخوف. و الصحيح انه على بابه.

الإعراب:

كما تألمون الكاف بمعنى مثل و محلها النصب صفة لمفعول مطلق محذوف. و ما مصدرية، و التقدير يألمون ألما مثل ألمكم.

المعنى:

(وَ لا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللهِ ما لا يَرْجُونَ). لو نزل اليوم وحي من السماء في وضعنا مع إسرائيل لما زاد حرفا واحدا على هذه الآية .. ان أحوج ما نحتاج اليه لمقاومة العدو الشرس المتغطرس، و ردعه عن الغي و البغي هو ان نشد عزائمنا، و نثق باللّه و بأنفسنا، و ان لا نصغي الى المستعمرين و الانتهازيين الذين يبغون استغلالنا و هزيمتنا، و يلفقون الدعايات و الاشاعات المضللة ليخدعونا عن واقعنا و طاقاتنا.

ان مجرد القلق يفيد العدو، و يكون عونا له على ما يريد فضلا عن الخوف و الانهيار، و من أجل هذا نهانا سبحانه عن الخوف من عدو اللّه و الانسانية، مهما كان و يكون، و أمرنا بالثبات على مقاومته، و أنبأنا بأنه يألم منا كما نألم منه، و لكنا أعلى منه، لايماننا باللّه و اعتمادنا عليه .. أما إسرائيل فإنها تعتمد على الاستعمار و المستعمرين و اخوان الشياطين الذين أوجدوها، و أمدوها بالمال و السلاح، و شجعوها على الاعتداء، و ناصروها في الأمم المتحدة و مجلس الأمن.

و ما من شك انه إذا وثقنا بأنفسنا، و ثبتنا في المقاومة مخلصين، و بذلنا ما نملك من طاقات، كما أمرنا اللّه عز و جل يكون النصر لنا لا محالة.

و قال تعالى في آية ثانية: «فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللهُ

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٢٨

مَعَكُمْ- ٣٥ محمد» .. و المسلمون هم الأعلون بعقيدتهم و تاريخهم و عددهم و مقدراتهم، و لا تذهب هذه الطاقات، و لن تذهب هباء .. و لا بد ان يظهر أثرها بإذن اللّه عاجلا أو آجلا.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٠٥ الى ١١٣]

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) وَ اسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٦) وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَ كانَ اللهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (١٠٨) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩)

وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً (١١٠) وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَ كانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (١١١) وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (١١٢) وَ لَوْ لا

فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٢٩

اللغة:

الخصيم هنا بمعنى المدافع، أي لا تكن مدافعا و محاميا للخائنين، و يوضحه قوله تعالى: **(وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ)**. و يختانون أنفسهم، أي يخونونها، لأن وبال الخيانة يعود عليها، كما تقول للمجرم: قد ظلمت نفسك.

و الخوان مبالغة في الخيانة. و يستخفون يتسترون حياء أو خوفا. و يبيتون يدبرون و يزورون. و جادلتم عنهم، أي دافعتم، و في فقرة «المعنى» نفرق بين السوء و الإثم و الخطيئة.

الاعراب:

أراك اللّه رأى هنا بمعنى الرأي، و تعدت الى مفعولين بسبب الهمزة، و المفعول الأول الكاف، و المفعول الثاني ضمير محذوف، و تقديره بما أراكه اللّه. و اللام في (للخائنين) معناها شبه التمليك، مثل جعل لكم من أنفسكم أزواجا، و قال ابن هشام في المغني: «تأتي اللام بمعنى عن». و هذا المعنى أليق بهذه اللام.

ها أنتم (ها للتنبيه)، و أنتم مبتدأ. و هؤلاء خبر. و جملة جادلتم عطف بيان و تفسير لهؤلاء. وام من عطف على فمن يجادل اللّه. و لولا حرف يدل على امتناع الشيء لوجود غيره. و فضل مبتدأ، و خبره محذوف، أي لولا فضل اللّه عليك موجود.

المعنى:

من تتبع التفاسير، و تأمل في هذه الآيات، و تدبّر معانيها يطمئن الى انها نزلت في رجل من المسلمين سرق متاعا، و رمى بجريمته بريئا، و ان قوم السارق و أقاربه ذهبوا الى النبي (ص)، و حاولوا أن يقنعوه بشتى الأساليب ان يدافع عن صاحبهم، و يبرئه من السرقة، و انه إذا لم يفعل ذلك هلك صاحبهم، و كاد النبي يستجيب لدعوة هؤلاء المضللين، و لكن اللّه سبحانه رفق بأمين وحيه،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٣٠

و مبلّغ شريعته، و عصمه عما تآمروا به عليه، و أطلعه على الحقيقة، و فضح السارق، و برأ الذي رماه بجرمه ظلما و بهتانا .. و قيل: ان المتهم البريء كان من اليهود، و السارق كان من الأنصار، و انه بعد ان افتضح هرب و انضم الى المشركين .. و ظاهر الآيات ينطبق كل الانطباق على هذه الحادثة، و اليك البيان.

(إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ). نقول- و نستغفر اللّه- ان هذا الخطاب من اللّه لنبيه الأكرم يومئ الى نحو من العتاب، فكأنه جلت عظمته يقول له: اني اصطفيتك لنفسي و رسالتي دون الخلق، و أنزلت عليك القرآن لكي تحكم بين الناس بما تعلم علم اليقين انه حكم اللّه، و الآن أوشك المخادعون أن يغرروا بك، و لكن اللّه عصمك عما دبروه لك من حملك على تبرئة غير البريء، حيث أطلعك على حقيقتهم و مؤامراتهم.

و ان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان العصمة ليست أمرا قهريا كالطول و القصر، و انما هي وصف يصرف صاحبه

عن الحرام، مع قدرته على فعله، و يدفع به الى فعل الواجب، مع قدرته على تركه.

و هذه الآية رد و إبطال لقول القائلين بأن النبي يحكم في بعض المسائل باجتهاده، لأنها صريحة واضحة في أنه لا يحكم إلا بوحي من اللّه .. هذا، الى ان المجتهد يصيب و يخطئ، و النبي يفصل في خلاف المجتهدين، و يبيّن خطأ من أخطأ و صواب من أصاب.

(وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً). النبي ما خاصم، و محال أن يخاصم عن الخائنين، و نهيه عن التخاصم عنهم لا يستلزم وقوعه منه، بل ان النهي عن المحرم يقع قبل اقترافه، و لو ورد بعده لانتقض الغرض منه.

و تسأل: إذا كان فعل الحرام محالا على النبي لمكان عصمته، فما هو المسوغ- اذن- لنهيه عنه؟.

الجواب: ان للّه ان يوجه أمره الى نبيه في جميع الحالات، لأنه أمر من الأعلى الى من هو دونه في العلو .. هذا، الى ان الأمر بالواجب، و النهي عن المحرم كثيرا ما يوجهان من اللّه الى الأنبياء لمجرد الاعلام بالحكم.

(وَ اسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً). قال الطبري في تفسيره: ان

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٤٣١

اللّه أمر النبي أن يستغفر عن عقوبة ذنبه في المخاصمة عن الخائنين .. و نحن نستغفر اللّه من هذا التفسير، فان النبي (ص)- كما قدمنا- لم يخاصم عن الخائنين بدليل الآية الآتية ١١٣: **(وَ لَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ)**. أما الأمر بالاستغفار من الذنب فانه لا يستلزم وجود الذنب .. و الذي نراه في تفسير الآية ان النبي (ص) بصفته بشرا قد يحسن الظن بمن لا يستحقه، ثم تنكشف له الحقيقة عن طريق الوحي أو غيره قبل ان يرتب أي أثر على حسن ظنه، فأمره سبحانه أن يستغفر اللّه مما يعرض له من حسن الظن بمن ليس أهلا له .. و القصد ان يتحفظ و يحتاط، و لا يركن إلا بعد اليقين.

(وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً).

الخطاب بظاهره للنبي (ص)، و لكن التكليف عام لكل عاقل بالغ، بخاصة القضاة و الحكام، أما الذين يختانون أنفسهم فهم من اقترف ذنبا و رمى به بريئا ..

و من جادل عنهم فهو مثلهم، و معنى خيانة المرء لنفسه ان يحملها ما لا تطيق من العذاب لإخلاله بالواجبات، و ارتكابه المحرمات، و قدمنا ان النبي (ص) ما دافع، و لن يدافع عن الخائنين، و هذه الآية تؤكد قوله: **(وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً)** و تبين أيضا ان من ظلم غيره فقد ظلم نفسه، و انه تعالى يمقت كل خائن و ظالم لنفسه و لغيره.

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ). يخفي المجرم جريمته، و يتوارى في الظلام عن أعين الناس رغبة في مدحهم، أو رهبة من ذمهم، و كان الأولى أن يعكس القضية فيستخفي من اللّه- لو أمكن- و لا يعتني إطلاقا بالناس، لأن اللّه وحده هو مالك الضر و النفع، و غيره لا يغني عنه شيئا، و مديح الناس و ذمهم مجرد كلمات تذهب مع الريح .. و إذا كان الاختفاء من اللّه محالا فطاعته تكون حتما، لا ندبا .. و لا حكمة أبلغ من هذا البيت:

فليت الذي بيني و بينك عامر و بيني و بين العالمين خراب

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٤٣٢

(ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً).

الخطاب و الاشارة- هؤلاء- لقوم السارق الخائن، لأنهم وحدهم الذين دافعوا عنه، و ناضلوا دونه، و قد أنبهم تعالت كلمته بأن دفاعهم عنه لا يجدي الخائن نفعا يوم يعرض على اللّه، و يقول له و لكل مجرم من أمثاله و أمثالهم: «وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ- ٥٩ يس».

(وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً).

هذا هو المخرج من الذنب، الاعتراف به، و التوبة منه، فهي وحدها تكفره و تتداركه .. و كما ان اللّه سبحانه شديد العقاب فإنه غفور لمن تاب، رحيم بمن التجأ اليه، و في الحديث: ان اللّه لا يمل، حتى تملوا، فإذا تركتم ترك.

أي إذا تركتم التوبة من الذنب ترك الصفح عنه .. فكان الأولى بالذين دافعوا عن المجرم أن يؤنبوه على جريمته، و ينصحوه بالتوبة لو كانوا من الناصحين المؤمنين حقا.

و في هذه الآيات أربع كلمات لا بد من الاشارة الى وجه الفرق بينها، ليتضح الفرق بين الآيات التي ظاهرها التكرار .. الكلمة الأولى الإثم في الآية ١٠٧ و ١١١ و ١١٢، و الكلمة الثانية و الثالثة السوء و ظلم النفس، و قد ذكرا في الآية ١١١، و الرابعة الخطيئة في الآية ١١٢، و يجمع هذه الآية معنى واحد، و هو المعصية، و تفترق هذه الكلمات عن بعضها بأن السوء ما يساء به الى الغير، و ظلم النفس إدخال الضرر عليها بترك واجب، أو فعل محرم، و الخطيئة الخطأ الذي لا يعذر فيه صاحبه، كالجاهل المقصر، يخطئ في تأدية ما عليه لجهله، مع قدرته على التعلم، و حكمه حكم المتعمد في المسئولية، لتهاونه في البحث و السؤال: «فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ- ٤٣ النحل»، و الإثم ارتكاب الذنب عن علم به، و تصميم على فعله، و هو عام يشمل السوء، و ظلم النفس.

و على هذا يكون معنى: (مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً). معناه من أساء الى غيره بالشتم أو الضرب، و ما اليه،

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٤٣٣

أو الى نفسه فقط كاليمين الكاذبة ثم تاب قبل اللّه منه، حتى كأنه لم يسيء، و لم يظلم.

و معنى: (وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ) ان من يتعمد ارتكاب الذنب فقد أساء الى نفسه، سواء اقتصرت هذه الاساءة عليه وحده، أو تعدت الى غيره.

و معنى: (وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً) ان من رمى غيره بجرم ليس فيه فإنه يعاقب عقاب المفتري المتعمد، سواء ارتكب هو الجرم، و لصقه بغيره عن قصد، و هذا ما يدل عليه لفظ الإثم، أم لم يرتكب أي جرم، و لكن رمى به بريئا قبل أن يتثبت، و هذا ما يدل عليه لفظ الخطيئة .. و الغرض ان المرء لا يجوز له أن يدين غيره بشيء حتى يكون على يقين منه، تماما كالشمس.

(وَ لَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ). المراد بالطائفة الذين دافعوا و جادلوا عن السارق، و ضمير منهم عائد على قومه و أنصاره، و ان يضلوك، أي يخدعوك بلحن القول و صلاح المظهر، و لا يضلون الا أنفسهم، لأن محاولة الإضلال تستلزم الضلال، و المضل ضال و

زيادة، و المعنى المحصّل ان فريقا من أنصار السارق و جماعته تآمروا على أن يخدعوك عن الحق، و حاولوا أن يحملوك على الوقوف الى جانبهم في نصرة صاحبهم، و كدت تركن اليهم مغترا بما أظهروه لك من الصلاح، و لكن اللّه عصمك منهم، و أطلعك على مؤامرتهم، ورد كيدهم الى نحورهم.

و هذه الآية رد صريح على من زعم من المفسرين ان النبي (ص) دافع و جادل عن الخائنين، فان قوله تعالى: **وَ لَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ**. و قوله: **وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ**، لا يقبلان التأويل و الشك في ان النبي لم يجادل عن السارق، و لم يبرئه من السرقة و الخيانة، و ان الذي فعل هذا غيره.

(وَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً). الكتاب القرآن، و الحكمة هنا النبوة، و إذا وجب على محمد (ص)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٣٤

أن يشكر اللّه، حيث جعله خاتم النبيين، و سيد المرسلين، و علمه ما لم يكن يعلم فيجب على العرب أن يشكروا محمدا، حيث أصبحوا به شيئا مذكورا بعد جاهليتهم الجهلاء، و يشكروا اللّه، حيث جعل أشرف خلقه، دون استثناء منهم لا من غيرهم.

[سورة النساء (٤): الآيات ١١٤ الى ١١٥]

لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١١٤) وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدىٰ وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّىٰ وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (١١٥)

اللغة:

النجوى و المناجاة سر بين اثنين أو أكثر، و تأتي بمعنى المتناجين، قال تعالى:

(وَ إِذْ هُمْ نَجْوىٰ). و المعروف ما اعترف به الشرع، و لم ينكره العقل. و ابتغى الشيء و بغاه طلبه. و المشاقة المعاداة. و الصلاء لزوم النار.

الإعراب:

من أمر بصدقة على حذف مضاف، أي الا نجوى من أمر، و محل نجوى هذه المحذوفة النصب على الاستثناء المتصل، و من مجرور بإضافتها. و ابتغاء مفعول لأجله ليفعل. و مصيرا تمييز.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٣٥

المعنى:

(لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ). بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة الذين يبيتون ما لا يرضى من القول، و يجادلون عن الخائنين قال في هذه الآية: «**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ**» فضمير نجواهم يعود على هؤلاء بدلالة ظاهر السياق، و لكنه في المعنى يعم كل نجوى في شئون الناس، لأن السبب الموجب عام لا يختص بفرد، دون فرد، و لا بفئة دون فئة .. و الصدقة بذل المال للبؤساء و المعوزين، و الإصلاح بين الناس يوفر عليهم الكثير من المتاعب، و يدفع عنهم الكثير من المشاكل، و المعروف ما يعترف العقل و

الشرع به و يريانه حسنا، و المنكر ضده، و يشمل العلم و جميع الأعمال الحسنة، و منها الصدقة، و إصلاح ذات البين، و خصهما اللّه سبحانه بالذكر للتنبيه على أهميتهما.

قال الرازي: «ان مجامع الخيرات مذكورة في هذه الآية» .. و أجمع منها قوله تعالى: «إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ».

و تسأل: ان الناس تتناجى في شئون التجارة و الصناعة و الزراعة، و ما اليها من شئون الحياة، فهل هذا التناجي مما لا خير فيه؟.

الجواب: ان هذا التناجي خير محض ما دام ضمن حدوده المشروعة، و منه ما هو واجب شرعا و عرفا و عقلا، و هو كل ما لا تتم الحياة إلا به .. و الآية بمعزل عن هذا النوع من التناجي، و انما تعرضت للذين يتناجون و يتحدثون عن الناس، كما هو شأن البطالين، يملئون فراغهم بالقال و القيل، و الاشتغال بهذا طويل، و هذا قصير .. و قد جاء لفظ (كثير) في الآية للدلالة على ان النجوى في شئون الناس لا خير فيها إلا إذا عادت عليهم بالفائدة و النفع بجهة من الجهات .. أما التناجي في شئون الحياة فلم تتعرض له الآية سلبا و لا إيجابا.

(وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً). الأمر بالمعروف خير، ما في ذلك ريب، و لكن العامل به لوجه اللّه، لا للكسب

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٣٦

و الجاه أفضل من الذي يأمر بالمعروف، و يفلسفه، و يبين محاسنه و فوائده و لا يعمل به، بل الحجة على هذا أقوى و أبلغ .. قال تعالى: «إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً- ٣٠ الكهف». و لم يقل: من أحسن قولا .. ان الامر بالمعروف و الدعوة اليه وسيلة، و العمل هو الغاية، و من أمر به و أتمر كان ممن عناه اللّه بقوله: «وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ- ٣٢ فصلت». فالقول المعروف حسن، و يزداد حسنا إذا اقترن بالعمل .. هذا، الى أن الأقوال و ان ترتب على ظاهرها آثار الإسلام، كالزواج و الميراث، و لكن لا يدل على الايمان الصحيح إلا الاعمال الصالحات، قال الإمام علي (ع): «فبالإيمان يستدل على الصالحات، و بالصالحات يستدل على الايمان».

(وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً). الشقاق العداوة، و كل من يعصي اللّه فهو عدو لرسول اللّه (ص). قال الإمام أمير المؤمنين (ع): «ان ولي محمد من أطاع اللّه، و ان بعدت لحمته، و ان عدو محمد من عصى اللّه، و ان قربت لحمته». و لكن المراد بعدو الرسول هنا كل من ظهر له الحق، و اقتنع به بينه و بين نفسه، و قامت عليه الحجة كافية وافية، مع ذلك أنكره عنادا و تعصبا لهوى في نفسه، كمن يعرف ان الإسلام حق، أو انه أهدى من دين قومه، و مع ذلك يتعصب لدين آبائه حرصا على مصالحه الشخصية من مال أو جاه.

و ذكر المفسرون ان هذه الآية نزلت في بشير بن أبيرق الذي أسلم، ثم ارتد و لحق بالمشركين، و المعروف من عادة المفسرين انهم يتسامحون في أسباب النزول، و يذكرون له أية حادثة تقترن بزمن نزول الآية إذا كانت تناسبها، و هذه الآية تنطبق على ارتداد بشير، و على كل من عاند الحق **(مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى)**.

و معنى **(نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى)** ان اللّه سبحانه يكل كل انسان الى ما انتصر به، و اعتمد عليه، فمن اعتز بمال أو منصب أو صحة أو عشيرة تخلى اللّه عنه، و تركه الى ما اعتز به.

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٤٣٧

و في الحديث القدسي: «و عزتي و جلالي لاقطعن أمل كل مؤمل من الناس».

و في هذه الآية فوائد:

«منها» ان قوله تعالى: «نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى» صريح في ان الإنسان مخير لا مسير.

و «منها» ان قوله: «مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى» دليل على ان من بحث و دقق، و لم يتبين له الهدى فهو معذور، تماما كمن لم تبلغه الدعوة، على شريطة ان يكون متوجها الى طلب الحق، و العمل به متى ظهر له.

و «منها» ان الإنسان مكلف بما يفهمه من الدليل، و غير مسؤول عن الواقع كما هو عند اللّه، و ان المطلوب منه مجرد البحث و التنقيب، حتى يحصل له اليأس من وجود الدلائل و القرائن، فإن أصاب الواقع بعد هذا البحث كان له أجران، و ان أخطأه فله أجر واحد، كما جاء في الحديث.

و «منها» ما جاء في تفسير الرازي ان الشافعي سئل عن آية في القرآن تدل على ان الإجماع حجة؟ فقرأ القرآن ثلاثمائة مرة، حتى وجد قوله تعالى:

«وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ» حيث دل على ان اتباع غير سبيل المؤمنين حرام فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين واجبا. و سبيلهم هو إجماعهم على الشيء.

و ان دل هذا على شيء فإنما يدل على انه لا مصدر للإجماع في كتاب اللّه ..

ذلك ان المراد بغير سبيل المؤمنين سبيل المشركين و المنافقين الذين يعاندون اللّه و الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، و هذا أجنبي عن الإجماع و بعيد عنه كل البعد .. بالاضافة الى ما قاله الشيخ محمد عبده: «ان الإجماع الذي يعنونه هو اتفاق مجتهدي هذه الأمة بعد وفاة نبيها، و الآية نزلت في عصره، لا بعد عصره».

يموت من أجل الحلوى:

ذكر صاحب تفسير المنار مثالا لمن يؤثر الهوى على الهدى ننقله عنه للاستفادة منه، و للتخفيف عن القارئ، قال:

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٤٣٨

«ان صاحب الهوى يستحوذ عليه النفع العاجل لضعف نفسه و مهانتها .. فقد حكي ان الحجاج مدّ سماطا عاما للناس، فجعلوا يأكلون، و هو ينظر اليهم، فرأى فيهم أعرابيا يأكل بشره شديد، فلما جاءت الحلوى ترك الطعام، و وثب يريدها، فأمر الحجاج سيافه أن ينادي: من أكل هذه الحلوى ضربت عنقه، فصار الأعرابي ينظر الى السياف نظرة، و الى الحلوى نظرة، يرجح بين مرارة الموت، و لذة الحلوى .. و لم يلبث، حتى التفت الى الحجاج، و قال له:

أوصيك بأولادي خيرا، و هجم على الحلوى يأكل أكل مودع للحياة .. فتركه الحجاج و شأنه».

[سورة النساء (٤): الآيات ١١٦ الى ١٢٣]

إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِناثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطاناً مَرِيداً (١١٧) لَعَنَهُ اللهُ وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (١١٨) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً (١١٩) يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢٠)

أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً (١٢١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهَا الأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً (١٢٢)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٣٩

اللغة:

الدعاء الطلب، و لكن يدعون هنا بمعنى يعبدون، لأن من عبد شيئا دعاه عند الحاجة. و معنى إناث معروف، و المراد بها هنا اللات و العزى و مناة، لأن أسماءها مؤنثة، و قيل: المراد بالإناث الأموات، لأن العرب تصف الضعيف بالأنوثة، و المريد بفتح الميم مبالغة في العصيان و التمرد. و اللعن الطرد و الاهانة.

و النصيب المفروض الحصة الواجبة. و الأماني جمع أمنية. و البتك القطع.

و المحيص المهرب، و الميم فيه زائدة، لأنه مصدر حاص يحيص، يقال: وقع في حيص بيص، و في حاص باض، أي في أمر يعسر التخلص منه، و قال البيضاوي: المحيص اسم مكان، و هو الأرجح، و عليه تكون الميم من أصل الكلمة. و القيل و القال بمعنى واحد، و هما مصدران لقال.

الإعراب:

ان يدعون (ان) نافية. و إلا أداة حصر. و إناثا مفعول يدعون، و مثلها شيطانا. و جملة لعنه اللّه في موضع نصب صفة للشيطان. و اللام في لأتخذن و ما بعدها واقعة في جواب قسم محذوف. و لأضلنهم و لأمنينهم و لآمرنهم، كل فعل من هذه الأفعال الثلاثة قد عمل بشيء محذوف، أي لأضلنهم عن الهدى، و أمنينهم الباطل، و آمرنهم بالضلال. و المفعول الثاني ليعدهم محذوف، أي يعدهم النصر. و عنها متعلق بمحذوف حالا من محيص، أي كائنا عنها محيصا، و لو تأخر لفظ (عنها) لتعلق بصفة لمحيص، و لا يجوز أن يتعلق بيجدون، لأن يجدون لا تتعدى بعن. و الذين آمنوا مبتدأ، و خبره سندخلهم. و خالدين حال من الذين آمنوا. و أبدا منصوب على الظرفية، و يدل على استغراق المستقبل.

و وعد اللّه مفعول مطلق لسندخلهم، لأنه يتضمن معنى الوعد. و حقا حال من وعد اللّه، و يجوز أن ينصب على المصدر، أي حق ذلك حقا. و من أصدق استفهام، فيه معنى النفي، أي لا أحد أصدق، و محله الرفع بالابتداء، و أصدق خبر. و قيلا تمييز، تماما كقولك: هو أكرم منك فعلا.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٤٠

المعنى:

(إِنَّ اللهَ لاٰ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مٰا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِيداً). تقدمت هذه الآية مع تفسيرها في الآية ٤٨ من هذه السورة، و لا اختلاف بين النصين إلا في التتمة، حيث قال هناك: «وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرىٰ إِثْماً عَظِيماً» و قال هنا: «**وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً بَعِيداً**» و المعنى واحد.

مرة ثانية التكرار في القرآن:

تكلمنا عن التكرار في القرآن عند تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة، المجلد الأول ص ٩٦، و نعطف عليه ما قاله صاحب تفسير المنار عند تفسيره لهذه الآية:

«ان القرآن ليس قانونا، و لا كتابا فنيا، يذكر المسألة مرة واحدة، يرجع اليها حافظها عند ارادة العمل بها، و انما هو كتاب

هداية .. و انما ترجى الهداية بإيراد المعاني التي يراد ايداعها في النفوس في كل سياق يعدها و يهيؤها لقبول المعنى المراد، و انما يتم ذلك بتكرار المقاصد الاساسية، و لا يمكن أن تتمكن دعوة عامة إلا بالتكرار، و لذلك نرى أهل المذاهب الدينية و السياسية الذين عرفوا سنن الاجتماع و طبائع البشر و أخلاقهم يكررون مقاصدهم في خطبهم و مقالاتهم التي ينشرونها في صحفهم و كتبهم».

(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِناثاً). كان العرب قبل محمد (ص) يزعمون ان الملائكة بنات اللّه: «أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً- ٤٠ الاسراء». و قد حملهم هذا الاعتقاد على أن يتخذوا تماثيل يسمونها أسماء الإناث، كاللات و العزى و مناة، و يرمزون بالأصنام الى الملائكة التي زعموا انها بنات اللّه .. و كانوا يتقربون بها الى اللّه زلفى في بدء الأمر، و مع مرور الأجيال تحولت تلك الأصنام عندهم إلى آلهة تخلق و ترزق .. و هكذا تتحول و تتطور زيارة قبور الأولياء- عند الاعراب و العوام- من تعظيم الشعائر

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٤١

و تقديس المبدأ الذي مات عليه صاحب القبر الى الاعتقاد بأنه قوة عليا تجلب النفع، و تدفع الضر.

(وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطاناً مَرِيداً). أي ان عبادة المشركين للأصنام هي في واقعها عبادة الشيطان نفسه، لأنه هو الذي أمرهم بها فأطاعوا أمره، و من أطاع غيره، و سلك مسالكه فهو عبد مأمور له.

(لَعَنَهُ اللهُ وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً). النصيب المفروض الحصة الواجبة، و المعنى ان الشيطان قال للّه، جل و عز: ان لي سهما فيمن خلقتهم لعبادتك، و قلت عنهم فيما قلت: «وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ- ٥٦ الذاريات، و ان هذا السهم فرض واجب لي يطيعني و يعصيك.

و تسأل: ان ظاهر الآية يدل على ان الشيطان شخص حقيقي، و انه يخاطب اللّه بقوة و ثقة، فهل الكلام جار على ظاهره، أو لا بد من التأويل؟.

الجواب: نقل صاحب تفسير المنار عن أستاذه الشيخ محمد عبده ان في كل فرد من أفراد الإنسان استعدادا لعمل الخير و الشر، و لاتباع الحق و الباطل، و الى هذا الاستعداد أشار سبحانه بقوله: «وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ- ١٠ البلد»، و ان النصيب المفروض للشيطان من الإنسان هو استعداده للشر الذي هو أحد النجدين.

و عليه يكون لفظ الشيطان كناية عن هذا الاستعداد.

و في ص ٣٠ من المجلد الأول تكلمنا عن المراد من الشيطان .. و غير بعيد أن يكون هذا القول الذي جاء على لسان الشيطان «**لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً**» أن يكون تصويرا لواقع العصاة الذين تغلّب فيهم جانب الاستعداد للشر على جانب الاستعداد للخير، و ليس خطابا حقيقيا مع اللّه سبحانه.

سياسة الشيطان و العلم الحديث:

و قال قائل: ان فكرة الشيطان سيطرت على عقول الناس يوم كان العلم مجرد كلمات تقال في حلقات الدرس، و سطور تملأ صفحات الكتب، و لا تتجاوزها الى العمل الا قليلا، أما اليوم فقد أصبحت فكرة الشيطان بشتى تفاسيرها خرافة

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٤٢

و أسطورة بعد أن صار العلم مقياسا لكل حقيقة، و أساسا لكل خطوة يخطوها الإنسان، و قوة في كل ميدان، و معجزة تحرك الحديد ليخرق الأرض آلاف الأمتار، يفجرها أنهرا من الذهب، و يطير في الجو الى القمر و المريخ، يخاطب أهل

الأرض من هناك بما يشاهد في رحلته.

الجواب: لا نظن أحدا يهوّن من شأن العلم و فوائده، و انه قوة و ثروة، و ان حاجة الناس اليه تماما كحاجتهم الى الماء و الصيام .. و لكن لا أحد يجهل ان العلم تماما كالإنسان فيه استعداد للخير و الشر، و انه حين يوجه الى الخير ينتج الطعام للجائعين، و الكساء للعراة، و العلاج للمرضى، و حين يوجه الى الشر يقتل و يدمر .. و الشر هو الركيزة الأولى لسياسة الشيطان الذي نعنيه. و قد أصبح العلم اليوم في يد السياسة تتجه به الى الفتك و الهدم، و السيطرة و الاستغلال.

و قد تضاعف نصيب الشر أو الشيطان- مهما شئت فعبر- بتقدم العلم و تطوره.

كان أعوان الشر فيما مضى يتسلحون بقوة العضلات، أما الآن، و بعد ان بلغ العلم من الجبروت ما بلغ فإن حزب الشيطان يتسلحون بالذرة و الصواريخ الموجهة، و ما اليها مما يزلزل الأرض من أعماقها.

و قرأت فيما قرأت ان أمريكا وضعت مخططا لشراء شباب العلم في أي مكان وجدوا أو يوجدون، و ان سمسارها المتجول استطاع في بعض زياراته لبريطانيا أن يعقد صفقة مع سبعمائة عالم للهجرة لأمريكا، و معظم هذه العقول يستغلها الساسة الأمريكيون في صنع الأجهزة و الآلات لغزو العالم كله، و السيطرة على مقدراته، و هؤلاء هم الشيطان عدو اللّه و الإنسان.

أما المدارس العصرية المنتشرة هنا و هناك فأكثرها من نصيب الشيطان، و لا شيء فيها يمت الى الدين و الخلق الكريم بصلة .. و هكذا استجابت العقول الكبيرة و الصغيرة في هذا العصر لدعوة الشر و الشيطان الذي أعلنها بقوله: «**لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً**».

(وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ). إضلال الشيطان للإنسان أن يزين له الحق باطلا، و الخير شرا، أو يوهمه انه لا حق و لا خير في الوجود، و لا جنة و لا نار، و ان الدنيا ملك لمن يحوزها كما قال «نيتشه» .. و في الحديث: «خلق إبليس

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٤٤٣

مزينا، و ليس اليه من الضلالة شيء» أما تمنية الشيطان للإنسان فهو أن يخيل اليه ادراك ما يتمناه من طول الأجل، و النجاة يوم الحساب و الجزاء، و ما الى ذلك من الأماني الكاذبة، و السعادة الموهومة.

(وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ). البتك القطع، يقال: بتكه، أي قطعه، و التبتيك للتكثير و المبالغة في البتك. و الانعام الإبل و البقر و الغنم، و كان العرب في الجاهلية يقطعون آذان بعض الانعام، و يوقفونها للأصنام، و يحرّمونها على أنفسهم، و يأتي التفصيل ان شاء اللّه عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة المائدة: «ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ».

و بعد ان كان الشر أو الشيطان يأمر حزبه في عصر الجاهلية بقطع آذان الانعام و تغيير خلق اللّه أصبح يأمرهم بإلقاء قنابل النابالم على النساء و الأطفال، و القنبلة الذرية على المدن ك «هيروشيما» و «ناكازاكي» لإفناء خلق اللّه .. و هذا من (حسنات) سيطرة الساسة على عبقرية العقول، و جبروت العلم.

(وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ- أي يطيعه- **فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً)**. حيث يصبح ضحية الأهواء و الشهوات، و أسير الأوهام و الخرافات.

(يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلاَّ غُرُوراً). حيث سار بهم على طريق التهلكة بعد ان زين لهم انه سبيل النجاة، فالزاني أو شارب الخمر- مثلا- يخيل اليه انه يتمتع باللذائذ، و هو في واقعه يتحمل أعظم المضار دنيا و آخرة.

(وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً). المحيص المخرج و المفر، و المعنى ان حزب الشيطان من المشركين و المفسدين لا نجاة لهم من عذاب اللّه .. و بعد ان ذكر سبحانه الوعيد أردفه بالوعد على سنته المعهودة من اقتران الترغيب بالترهيب، قال عز من قائل: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً). و في هذه الآية ثلاثة تأكيدات: الأول التأبيد الذي دل عليه لفظ (أبدا). و الثاني وعد اللّه حقا. و الثالث و من أصدق. و الغرض من هذا التكرار التنبيه الى ان مواعيد الشيطان كاذبة، و أمانيه فارغة، و أوامره باطلة، و ان قول اللّه هو الحق و الصدق، و طاعته هي الخير و السعادة.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٤٤

و تسأل: ان الوعد بالجنة في أكثر آياته يقترن الخلود فيها بالتأبيد، و أكثر آيات الوعد بالنار لا يقترن الخلود فيها بالتأبيد، فما هو السر؟

الجواب: السر ان الخلود عبارة عن طول المكث، و قد يكون الى الأبد، و قد لا يكون .. و من دخل الجنة فلا يخرج منها، فناسب ذلك ذكر التأبيد، أما من يدخل النار فقد ينقطع عذابه، و يخرج منها، و لهذا لم يقترن العذاب فيها بالتأبيد إلا في حالات خاصة، كالشرك و قتل العمد.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٢٣ الى ١٢٤]

لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (١٢٣) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (١٢٤)

اللغة:

النقير النكتة في ظهر النواة، و بها يضرب المثل في القلة.

الإعراب:

اسم ليس محذوف لدلالة الكلام عليه، أي ليس الأمر بأمانيكم. و من يعمل اسم شرط في محل رفع بالابتداء، و الخبر جملة يجز به. و لا يجد مجزوم عطفا على يجز به و جملة (مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ) لا محل لها من الاعراب، لأنها

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٤٥

كلام مستأنف. و من يعمل من الصالحات مفعول يعمل محذوف أي شيئا. و من الصالحات متعلق بمحذوف صفة لشيء. و من ذكر أو أنثى متعلق بمحذوف حال من الضمير في يعمل. و هو مؤمن مبتدأ و خبر، و الجملة حال ثانية. فأولئك مبتدأ، و الخبر يدخلون الجنة، و الجملة من المبتدأ أو الخبر جواب من يعمل.

المعنى:

ترتكز هاتان الآيتان على مبدأ بديهي، لا يجادل أحد فيه، و يرتفع بقيمته من مستوى التعديل و التغيير بتغير الأزمان و الأحوال، و التخصيص بالنساء أو الرجال، و هو «الإنسان مجزي بأعماله ان خيرا فخير، و ان شرا فشر» .. و تكرر هذا المعنى بأساليب شتى في كتاب اللّه، منها قوله في الآيتين: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ .. وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ». و منها: «لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ- ٥١ ابراهيم». و منها: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنى- ٣١ النجم» .. الى كثير من الآيات. و بعد هذا الإجمال نشرع بالتفصيل:

(لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ). قال الجاحدون لمن دعاهم الى الايمان: سواء علينا أ وعظت أم لم تكن من الواعظين، ان هذا الا خلق الأولين، و ما نحن بمعذبين. و قال اليهود و النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى. و قال قائل من المسلمين: ان النار خلقت لغير المسلمين .. و هكذا كل أناس فرحون بما يدينون .. فرد اللّه عليهم جميعا بقوله: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ» كائنا من كان، و ليس بين اللّه و بين أحد نسب و لا سبب إلا الإخلاص و العمل الصالح، و كفى دليلا على ذلك قوله تعالى: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ». و في الحديث: ان اللّه يقول غدا: اليوم أضع نسبكم، و أرفع نسبي، أين المتقون؟.

و قال الإمام جعفر الصادق (ع): «ما نحن إلا عبيد الذي خلقنا و اصطفانا، و اللّه مالنا على اللّه حجة، و لا معنا من اللّه براءة، و انّا لميتون و موقوفون

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٤٦

و مسؤولون، من أحب الغلاة فقد أبغضنا، و من أبغضهم فقد أحبنا، الغلاة كفار، و المفوضة مشركون «١»».

بين الرجل و المرأة:

(وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ).

ما دام الذكر و الأنثى سواء في التكليف و المسئولية تحتم أن يكونا سواء في الجزاء.

و مهما قيل في الفرق بين الرجل و المرأة في هذه الحياة فإنه لا فرق إطلاقا بينهما يوم الحق و الفصل. فالمقارنة ان صحت بوجه ما فإنها لا تصح بحال من حيث الجزاء على الحسنات و السيئات. و سبق الكلام عن المرأة عند تفسير الآية ٢٢٨ من سورة البقرة، فقرة «بين الرجل و المرأة» في الشريعة الإسلامية، المجلد الأول ص ٣٤٣.

و قوله تعالى: «وَ هُوَ مُؤْمِنٌ» شرط لدخول الجنة، كما هو صريح الآية:

«فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» و ليس شرطا لغيرها من الجزاء و المكافأة على العمل الصالح، فالكافر إذا عمل الخير لوجه الخير، لا للشهرة و الاتجار، كافاه اللّه عليه، لأنه عادل لا يضيع أجر من أحسن عملا، كيف و هو القائل: «هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ». و ليس من الضروري أن تكون الجنة جزاء المحسن، فقد يكون الجزاء في الدنيا، أو في الآخرة بتخفيف العذاب، أو لا بالجحيم و لا بالنعيم. و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ١٧٦ من سورة آل عمران فقرة «الكافر و عمل الخير»، و عند تفسير الآية ٣٤ من سورة النساء.

---

(١) المفوضة هم الذين قالوا: ان العبد مستقل بأفعاله، و ليس للّه فيها صنيع، على عكس المجبرة الذين قالوا: ان اللّه يخلق الأفعال في العبد، و ليس للعبد فيها صنع، أما أهل العدل فقالوا: لا جبر و لا تفويض، بل بين بين.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٤٧

[سورة النساء (٤): الآيات ١٢٥ الى ١٢٦]

وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ اتَّخَذَ اللهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (١٢٦)

اللغة:

الحنيف المائل عن الزيغ و الضلال. و الخليل مشتق من الخلة بضم الخاء، و هي المحبة.

الإعراب:

دينا تمييز. و ممن أسلم متعلق بأحسن، و للّه متعلق بأسلم، و هو محسن مبتدأ و خبر، و الجملة حال من الضمير بأسلم. و حنيفا حال من ملة ابراهيم، و فعيل يستوي فيه التأنيث و التذكير مثل ان رحمة اللّه قريب من المحسنين.

المعنى:

(وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ). المراد بأسلم استسلم و انقاد، و بالوجه الذات و النفس، و بالمحسن فاعل الحسنات و تارك السيئات.

و المعنى ان الكامل هو الذي يرجو اللّه و لا يرجو سواه في كل شيء، و يسلك السنن التي سنها سبحانه لخلقه في هذه الحياة، و بهذا وحده يكون العبد قريبا من خالقه، أما من يذل و يخضع لأرباب الدنيا طمعا فيما لديهم من مال و جاه فما هو من اللّه في شيء، حتى و لو قام الليل، و صام النهار.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٤٨

(وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً). أي اقتدى بإبراهيم (ع) الذي أعرض عن كل ما سوى اللّه، و قال لقومه: «أَ تُحاجُّونِّي فِي اللهِ وَ قَدْ هَدانِ وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ- ٨٠ الانعام».

و تسأل: لما ذا قال تعالى: **وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ**، و لم يقل ملة محمد؟

الجواب: أولا ان ملة ابراهيم و محمد شيء واحد: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ- ٦٨ آل عمران».

ثانيا: ان نبوة ابراهيم محل وفاق عند أهل الأديان جميعا، لا عند المسلمين فحسب، فالاحتجاج بها على غير المسلمين أقوى و أبلغ .. ان صح التعبير.

(وَ اتَّخَذَ اللهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً). لقد اختص اللّه ابراهيم (ع) بمنزلة عظمى تكاد تكون فوق النبوة و الرسالة، قال الإمام جعفر الصادق (ع): ان اللّه اتخذ ابراهيم عبدا قبل ان يتخذه نبيا، و اتخذه نبيا قبل أن يتخذه رسولا، و اتخذه رسولا قبل ان يتخذه خليلا.

(وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ). فهو مالك كل شيء، و مهيمن على كل شيء، و محيط بكل شيء.

و تسأل: ان هذا المعنى قد تكرر كثيرا في كتاب اللّه، فما هو السر؟

الجواب: السر أن يتنبه الإنسان، و يبقى دائما على ذكر ان اللّه وحده هو المتصرف بالكون، و ان أمره نافذ فيه، و انه على صلة دائمة بعلمه و قدرته و حكمته، و متى شعرت النفس بهذه الحقيقة عملت على مرضاة خالقها باتباع منهجه، و طاعة أوامره .. هذا، الى ان التكرار يأتي لمناسبة تستدعيه، يدركها المفسرون أحيانا، و تخفى عليهم حينا، و هي هنا ان البعض قد يتوهم ان اللّه اتخذ ابراهيم خليلا على نحو ما نتخذ نحن الأخلاء و الأصدقاء .. فدفع سبحانه هذا الوهم بأن اللّه جل و علا هو الخالق المالك لكل شيء، و ان ابراهيم عبد تحت سلطان الملك، و لكنه عبد مصطفى، لا كسائر العبيد.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٤٩

[سورة النساء (٤): آية ١٢٧]

وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِهِ عَلِيماً (١٢٧)

اللغة:

الاستفتاء طلب الفتوى، و الإفتاء اظهار المشكل، و الفتوى و الفتيا بمعنى واحد.

و القيام يطلق على معان شتى، و المراد بأن تقوموا هنا العناية و الاهتمام.

الإعراب:

اللّه يفتيكم مبتدأ و خبر، و الجملة محكية بالقول. و ما يتلى عليكم (ما) مبتدأ، و الخبر محذوف، أي المتلو في الكتاب أيضا يفتيكم في شأن النساء، و الجملة معطوفة على الجملة المحكية، و المراد بالمتلو في الكتاب الآيات السابقة في أول السورة، مثل قوله: «وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى». و في يتامى النساء متعلق بيتلى، و اضافة اليتامى الى النساء من باب اضافة الشيء الى جنسه، كساعة ذهب، أي من ذهب. و المستضعفين معطوف على يتامى النساء. و ان تقوموا في محل جر، أي في أن تقوموا.

المعنى:

ذكر سبحانه في أول هذه السورة طرفا من أحكام المرأة و اليتيم، و عقبه بذكر

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٥٠

أهل الكتاب و المنافقين و القتال، ثم عاد الى المرأة و اليتيم، و ذكر بعض أحكامها كتكملة لما افتتح به السورة من أحكام الأسرة .. و هذه هي طريقة القرآن ينتقل من شأن الى شأن، ثم يعود الى الأول بقصد التأثير في القلوب، و غيره مما تستدعيه الحكمة و الرفق بالعباد.

(وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ). أي يطلبون منك يا رسول اللّه ان تبين لهم أحكام النساء في الإرث و الزواج و نحوه. **(قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ)** و يدل هذا على ان تشريع الأحكام للّه وحده، و ليس للنبي منها الا التبليغ، و ثبت انه كان يسأل عما لم ينزل به وحي فلا يجيب، حتى ينزل عليه. **(وَ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ)**. أي ان اللّه يفتيكم في أمر النساء، و أيضا القرآن يفتيكم في أمرهن.

و تسأل: ان إفتاء القرآن هو إفتاء اللّه بالذات، فعطف أحدهما على الآخر عطف للشيء على نفسه؟.

الجواب: المراد بافتاء القرآن هنا ما تقدم بيانه بأول السورة، و هو قوله تعالى: «وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ».

و قوله: «وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ» الخ. و المراد بافتاء اللّه سبحانه ما بيّنه هنا مكملا لما سبق، و بديهة ان العطف يصح مع وجود الفارق بجهة من الجهات، كاختلاف زمان الشيء الواحد أو مكانه.

(اللاَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ). أي ان اللّه و القرآن يبينان لكم حكم النساء اللاتي منعتموهن مما فرض لهن من الإرث و الصداق .. فلقد كان عرب الجاهلية يظلمون المرأة، و يعاملونها معاملة السلع و الحيوانات. **(وَ تَرْغَبُونَ أَنْ**

تَنْكِحُوهُنَّ). كان الرجل منهم يضم اليتيمة الى نفسه، فان كانت جميلة نكحها و أكل مالها، و ان كانت دميمة منعها عن الزواج، حتى تموت و أخذ مالها ..

و ربما سبّب لها الموت لهذه الغاية. **(وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ)**. أي و يفتيكم أيضا في شأن الصبيان الصغار الذين لا تعطونهم نصيبهم من الميراث، و كانوا لا يورثون الا من يحمل السلاح، فنهى سبحانه عن ذلك، و جعل للذكر مثل حظ الأنثيين، و هذا تأكيد لما سبق بيانه في أول السورة. **(وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامىٰ بِالْقِسْطِ)**.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٥١

أي و يفتيكم أيضا أن تقوموا لليتامى بالعدل في أنفسهم و أموالهم، و ان تعطوا كل واحد منهم حقه كاملا أنثى كان، أو ذكرا، صغيرا، أو كبيرا. **(وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ** - مع اليتامى و النساء - **فَإِنَّ اللهَ كانَ بِهِ عَلِيماً)** يثيبكم عليه.

و خلاصة معنى هذه الآية ان المسلمين طلبوا من النبي أن يبين لهم أحكام النساء، فقال سبحانه لنبيه: قل لهم: ان اللّه قد بيّن لكم فيما سبق طرفا من هذه الأحكام، و هو الآن يبين لكم طرفا آخر منها .. و المهم أن تعدلوا و تعملوا بها، ثم بيّن سبحانه في الآية التالية حكم المرأة التي خافت النشوز و الإعراض من زوجها.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٢٨ الى ١٣٠]

وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٢٨) وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٢٩) وَ إِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَ كانَ اللهُ واسِعاً حَكِيماً (١٣٠)

اللغة:

النشوز الارتفاع، و نشوز أحد الزوجين ترفعه عن القيام بالحقوق الزوجية.

و الشح الافراط في الحرص، و الفرق بينه و بين البخل ان البخل يكون بالمال

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٥٢

خاصة، أما الشح فيكون به و بغيره، يقال: هو شحيح بمودتك، أي حريص على دوامها، و لا يقال: هو بخيل بمودتك، كما جاء في مجمع البيان.

الاعراب:

و ان امرأة (امرأة) فاعل لفعل محذوف دل عليه الفعل المذكور، أي و ان خافت امرأة خافت. و من بعلها متعلق بخافت، أو بمحذوف حال من (نشوزا).

و جناح اسم لا النافية للجنس. و المصدر المنسبك من أن يصلحا مجرور بفي.

و أحضرت الأنفس الشح، أحضرت تتعدى الى مفعولين بواسطة همزة التعدية، و الأنفس نائب فاعل ساد مسد المفعول الأول، و الشح مفعول ثان. و كل الميل قائم مقام المفعول المطلق، أي لا تميلوا ميلا كل الميل. و قيل: ان كل هي بذاتها مفعول مطلق، لأن لها حكم ما تضاف اليه. فان كان مصدرا كانت مصدرا، و ان كان ظرفا كانت ظرفا. و فتذروها مضارع مجزوم عطفا على فلا تميلوا. و كالمعلقة الكاف بمعنى مثل في محل نصب على الحال، و صاحب الحال الهاء في تذروها.

المعنى:

(وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً). قد يكون النشوز من الزوجة بامتناعها عن فراش الزوج، أو خروجها من البيت دون اذنه، و تقدمت الاشارة الى نشوزها عند تفسير الآية ٣٤ من هذه السورة .. و قد يكون النشوز من الزوج بايذائها و عدم الإنفاق عليها أو القسمة لها إذا كان عنده أكثر من زوجة، و قد تعرضت هذه الآية لخوف الزوجة من نشوز زوجها أو اعراضه عنها، و المراد بالاعراض جفوته الدالة على كرهه لها، أما انصرافه الى أشغاله و مشاكله فعليها ان تعذره فيه، و تصبر عليه، ما دام غير كاره لها.

(فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً). إذا خشيت المرأة أن يؤدي نشوز الزوج الى طلاقها، أو تركها كالمعلقة لا مزوّجة، و لا مطلقة، إذا كان

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٥٣

كذلك فلا بأس عليه، و لا عليها أن يتفقا فيما بينهما مباشرة، أو بواسطة أحد الطيبين، أن يتفقا و يصطلحا على أن تتنازل له عن بعض حقوقها المادية أو الأدبية، لتبقى في عصمته، و تحيا معه حياة هادئة.

(وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ) من الشقاق و الطلاق، فقد جاء في الحديث: «أبغض الحلال الى اللّه الطلاق» و تجدر الاشارة الى ان ما تبذله المرأة لزوجها من أجل الألفة أو الطلاق لا يحل إلا إذا كان عن طيب نفس، قال تعالى: «فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً- ٤ النساء».

(وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ). أي ان الشح حاضر دائما في الأنفس، لا يغيب عنها، حتى ساعة البذل، فان اللوعة التي يحس بها الباذل، و يخفيها عند ما يبذل هي الشح بالذات، و القصد من قوله: «**وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ**» ان المرأة لا تتنازل عن حقها للرجل بسهولة، و لا الرجل يتسامح معها من غير عوض، و يجب أن لا يغيب عنا ان الآية الكريمة تتحدث عن حياة الزوجين مع عدم الوئام و الوفاق، أما مع صلاح الحال، و التئام الأخلاق فلا موجب للبذل و التصالح، بل لا يرى أحد الزوجين انه يملك شيئا دون صاحبه، ما داما كذلك.

(وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً). هذه دعوة من اللّه سبحانه الى كل من الزوجين أن يحسن العشرة مع صاحبه، و يتقي أسباب الخلاف و الشقاق.

(وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ) العدل بين النساء على نوعين: مقدور كالمساواة في الإنفاق، و طيب الحديث. و غير مقدور كالمحبة و ميل القلب، بل و الجماع أيضا .. فقد ينشط الرجل للواحدة ما لا ينشط للأخرى ..

و العدل بين النساء المطلوب هو العدل في الإنفاق، لأنه مستطاع، أما العدل في الحب و ما اليه مما لا يملكه الإنسان فلا يكلف به، و بهذا يفرق بين هذه الآية، و بين قوله تعالى في أول السورة: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا بين النساء».

قال الإمام جعفر الصادق (ع): أما قوله: فان خفتم أن لا تعدلوا فانه عنى به النفقة، و أما قوله: و لن تستطيعوا أن تعدلوا فانه عنى به المودة.

و نحن من الذين يؤمنون ايمانا قاطعا بأنه لا شيء أصعب منالا من العدالة،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٥٤

لأنها في حقيقتها و جوهرها التحرر من سيطرة الشهوات، كما جاء في بعض الأخبار ان العادل من خالف هواه، و أطاع

مولاه، و لا يتسنى هذا الا للصفوة.

(فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ) مع الزوجة المحبوبة، و تحرموا الأخرى من حقوقها (فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ) لا مزوجة لها ما للزوجات، و لا مطلقة تستطيع الزواج بمن تريد.

(وَ إِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ). ينبغي قبل كل شيء أن يعمل الزوجان على ازالة أسباب الخلاف و الشقاق بينهما، لأن الصلح خير، فان تعذر فالطلاق هو الأفضل دفعا لأشد الضررين .. و فضل اللّه و رزقه يتسع للطرفين اجتمعا أو افترقا .. فقد يسخر للمطلقة رجلا خيرا من الأول، و يسخر للمطلق امرأة خيرا من الأولى.

و الخلاصة ان ما تقدم يدور حول محور واحد هو «فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» و الإمساك أفضل، مع عدم المفسدة، و معها فالتسريح هو الأفضل، فكما خلق اللّه علاجا ناجحا للأمراض الجسمية فقد خلق دواء منجحا للأمراض الاجتماعية.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٣١ الى ١٣٤]

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيداً (١٣١) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفى بِاللهِ وَكِيلاً (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كانَ اللهُ عَلى ذلِكَ قَدِيراً (١٣٣) مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ كانَ اللهُ سَمِيعاً بَصِيراً (١٣٤)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٥٥

الاعراب:

و إياكم معطوف على الذين، أي وصينا الذين أوتوا الكتاب و وصيناكم. و ان اتقوا (ان) للتفسير بمعنى أي مثل كتبت اليه أن أفعل كذا، أي افعل كذا، و يجوز أن تكون (ان) مصدرية، و المصدر المنسبك مجرور بجار محذوف متعلق بوصينا، و التقدير وصينا بتقوى اللّه. و كفى فعل ماض، و الباء زائدة، و لفظ الجلالة فاعل، و وكيلا حال، أو تمييز على معنى من وكيل.

المعنى:

(وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ). في المجلد الأول، و في هذا المجلد أيضا تكلمنا عن التكرار في القرآن بصورة عامة «١» و نتكلم الآن عن تكرار هذه الآية خاصة، لأنها أكثر الآيات ذكرا و تكرارا في القرآن، ثم نشير الى تكرارها هنا بصوره أخص، حيث ذكرت بنصها الحرفي مرتين في آية واحدة، و أعيدت كذلك مرة ثالثة في الآية التي تليها بلا فاصل.

أما سبب تكرارها بوجه عام فلأن موضوعها الكون الذي يستدل به، و بما يحويه على وجود اللّه و صفاته، كالعلم و القدرة و الارادة و الحكمة فهو الدليل الجامع لجميع الدلائل و المدلولات بشتى أنواعها .. و على هذا يكون ذكر هذه الآية ذكرا للدليل على وجود اللّه و عظمته.

و أما ذكرها هنا ثلاث مرات فانه للإشارة الى فوائد ثلاث: الأولى قال تعالى

(١) انظر ص ٩٦ من المجلد الأول، و تفسير الآية ١١٦ و ١٢٦ من هذه السورة.

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٤٥٦

في الآية السابقة: (يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِه) فناسب الاستدلال على هذه السعة بأن له ما في السموات و الأرض. الثانية قال: **(وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ)** أي هو غني عمن كفر لأن له ما في السموات و ما في الأرض.

الثالثة: قال: **(وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفى بِاللهِ وَكِيلاً إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ)**. و المراد انه قادر على افناء من يعصي، و إيجاد من يطيع، لأن له ما في السموات و ما في الأرض .. و على هذا فكل مرة من المرات الثلاث لها سبب موجب، و مقرونة بفائدة جديدة.

(مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ). أي ان ثواب الدنيا و الآخرة يمكن تحققهما و الحصول عليهما، مع الايمان و التقوى، و من ظن ان ثواب الدنيا لا يجتمع مع التقوى فهو مخطئ، لأن ما من شيء يحقق للإنسان سعادته و كرامته في هذه الحياة إلا و يقره الدين، بل يأمر به، و يحث عليه بشرط واحد، هو أن لا تكون سعادته شقاء لغيره، و كرامته امتهانا لسواه .. اذن لا تصادم أبدا بين ثواب الدنيا و ثواب الآخرة، و انما التضاد و التصادم بين الظلم و ثواب الآخرة، بين الغش و الخداع و السلب و النهب، و بين مرضاة اللّه و نعيمه و جنانه.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٣٥ الى ١٣٦]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١٣٥) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (١٣٦)

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٤٥٧

اللغة:

القسط بكسر القاف العدل، و مثله الأقساط. و اللي المطل، يقال: لوى فلان دين فلان، أي مطله، و في الحديث: «ليّ الواجد ظلم» أي مطل الغني جور.

الإعراب:

شهداء خبر ثان لكونوا، و يجوز أن يكون حالا من ضمير قوامين، لأن قوّام اسم فاعل. و على أنفسكم متعلق بمحذوف، أي و لو شهدتم على أنفسكم.

ان يكن غنيا اسم كان محذوف، أي ان يكن المشهود عليه غنيا. و قال:

أولى بهما، و لم يقل أولى به، مع ان الضمير يفرد و لا يثنى إذا عطف بأو لأن العطف هنا جرى على المعنى، لا على اللفظ، أي اللّه أولى بغنى الغني و فقر الفقير، لأن كل ذلك منه تعالى. و ان تعدلوا يجوز أن يكون المصدر مجرورا

باضافة مفعول من أجله محذوف، و التقدير فلا تتبعوا الهوى كراهية العدل، فكأنهم حرفوا الشهادة بغضا بالعدل فنهاهم اللّه عن ذلك، و يجوز أن يكون المصدر مجرورا بلام محذوفة، أي لأن تعدلوا، و المعنى اتركوا متابعة الهوى كي تصيروا موصوفين بصفة العدل.

بين الدين و أهل الدين:

ما رأيت آية في كتاب اللّه تتصل بالدين الا و أحسست بالبعد و التفاوت بين

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٥٨

الدين كما حدده اللّه في كتابه، و الدين كما نمارسه في سلوكنا .. نحن نتحدث عن الدين، و ندعو اليه على انه من اللّه، و انه ليس لنا من أمره شيء، و اننا عبيد له، تماما كما نحن عبيد للّه .. هذا ما أعلمناه و جهرنا به .. و لكن بين الدين كما أعلمناه و دعونا اليه، و بين سلوكنا الذي وصفناه بالدين- بون شاسع، و تضاد واضح .. و ان دل هذا على شيء فإنما يدل على انّا في حقيقة الأمر و الواقع منافقون، سواء أشعرنا بذلك، أم لم نشعر.

و لو فسرنا الدين بأن اللّه فوّض تشريع الحلال و الحرام الى الهيئة الدينية، كما يزعم بعض أهل الأديان، لكان بينه و بين سلوكنا شيء من الانسجام، اما ان نقول: ان الدين للّه، و من اللّه، ثم لا ننسجم معه في سلوكنا فهو النفاق بعينه.

قال تعالى: **(يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّٰامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدٰاءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوٰالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ)**.

و في الآية ١٥٢ من سورة الانعام: «وَ إِذٰا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كٰانَ ذٰا قُرْبىٰ وَ بِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا» و معناه ان الدين حاكم علينا و على آبائنا و أبنائنا، و انه إذا تصادمت المصلحة الشخصية مع الدين فعلينا ان نؤثر الدين، و لو أدى ذلك الى ذهاب النفس و النفيس، تماما كما فعل سيد الشهداء الحسين بن علي (ع) .. و لو قارن واحد من الناس هذه الحقيقة القرآنية مع سلوكنا لأنتهي الى اننا نؤثر مصالحنا و مصالح ذوينا على الدين، و إذا حقق و دقق في البحث آمن بأن المصدر الأول و الأخير للدين عندنا هو المصلحة و المنفعة، لا كتاب اللّه، و لا سنة رسول اللّه.

هذا هو واقعنا، أو واقع أكثرنا، أو واقع الكثير منا .. و لكن لا نشعر بهذا الواقع، و لا ننتبه اليه، لأن الأنانية قد طغت على عقولنا، و فصلتنا عن واقعنا و عن أنفسنا، و أعمتنا عن الحق، و أوهمتنا ان دين اللّه هو مصلحتنا بالذات، و ما عداها فليس بشيء.

أقول هذا، لا حقدا على أحد، و لا بدافع الحاجة و الحرمان .. فاني بفضل اللّه في غنى عن خلقه .. و لكن هذا ما أحسه في أعماقي، و يحس به كثيرون غيري من العارفين المنصفين، و لا بد لهذا الاحساس من واقع يعكسه- فيما

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٥٩

أعتقد- كما اعتقد انه لا دواء لهذا الداء إلا أن نتهم أنفسنا، و نعتقد انّا عاديون كغيرنا، لنا ميول و أهواء يجب أن نحذرها و نخالفها .. أقول هذا، و أنا على علم بأنه صرخة في واد، لأنه شكوى من أنفسنا لأنفسنا التي هي أعدى أعدائنا.

(إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللّٰهُ أَوْلىٰ بِهِمٰا). في كل فرد من أفراد الإنسان استعداد لتقبل الخير و الشر، و هو في الوقت نفسه مفطور على تخير الأول دون الثاني، بحيث لو خلي و فطرته لفعل ما يعتقد انه خير، و لا ينحرف عنه إلا لعلة خارجة عن ذاته و فطرته .. و مما استدل به علماء الكلام على هذه الحقيقة ان العاقل لو خيّر بين ان يصدق و يعطى دينارا، و بين أن يكذب و يعطى دينارا، و لا ضرر عليه فيهما لاختار الصدق على الكذب.

اذن، العاقل لا يكذب إلا لعلة، كالخوف أو الطمع، أو هوى مع قريب، أو كراهة لعدو، أو رحمة بفقير، أو مجاملة لغني، و

ما الى ذلك .. و قد نهى سبحانه عن الامتناع من الشهادة على الغني خوفا أو طمعا أو مجاملة، و عن الامتناع منها على الفقير لفقره و مسكنته، و قال، عظم من قال: (إِنْ يَكُنْ- المشهود عليه- غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا). أي أنه أرحم بالفقير منا، و أعرف بمصلحته و مصلحة الغني، و ما علينا نحن إلا أن نقول الحق، سواء أ كان لهما، أم عليهما.

و لم يذكر سبحانه من الدوافع الموجبة للزيغ و الانحراف إلا مجاملة الغني، و الرحمة بالفقير .. و لكن السبب عام، فالحق يجب أن يقال في كل موطن، و العدل يجب أن يتبع حتى مع أعداء الدين.

(فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا). أي لكي تعدلوا، و المعنى على هذا انكم تصيرون من أهل العدل بترك الهوى و مخالفته. و قيل: التقدير كراهة ان تعدلوا، أي انكم تتبعون الهوى كرها بالعدل، و ان اللّه نهاهم عن ذلك. و الأول أقرب.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٦٠

العدالة:

و اختلف الفقهاء في معنى العدالة، و أطالوا الكلام، فمنهم من قال: انها ظاهر الإسلام، مع عدم ظهور الفسق. و قال آخر: انها ملكة راسخة في النفس تبعث على فعل الواجب، و ترك المحرم. و ثالث: انها الستر و العفاف. و رابع انها ترك الكبائر، مع عدم الإصرار على الصغائر.

و في قوله تعالى: «فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا» إيماء الى أن العدالة هي مخالفة الهوى. و وصف علي أمير المؤمنين (ع) أخا له في اللّه فيما وصف انه «كان إذا بدهه- أي فجأه- أمران نظر أيهما أقرب الى الهوى فخالفه».

و قال: «كان أول عدله نفي الهوى عن نفسه».

و قال حفيده الإمام جعفر الصادق (ع): اما من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا لهواه، مطيعا لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه.

(وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً). اللّيّ هو المطل و التسويف، و المعنى لا تسوفوا في أداء الشهادة، و لا تعرضوا عنها .. ثم هدد و توعد بأن من يفعل ذلك يعلم به اللّه، و يعاقبه عليه.

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ). قد يؤمن الإنسان بالخالق المكون، و ينكر النبوة و الكتب السماوية، و قد يعترف بنبوة بعض الأنبياء دون بعض، و ببعض الكتب دون بعض، أو ينكر وجود الملائكة، أو اليوم الآخر. و قد بينت هذه الآية أركان الايمان التي يجب أن يعترف بها كل من ترك الشرك و الإلحاد، و يؤمن بها ككل لا يتجزأ، و هي الايمان باللّه و جميع رسله و كتبه و ملائكته و اليوم الآخر.

و على هذا يكون المراد بالذين آمنوا هم الذين تركوا الشرك و الإلحاد، و بآمنوا الثانية الايمان الحقيقي، لا الدوام و الثبات على الايمان كما قال المفسرون، و برسوله محمد (ص)، و بالكتاب الذي نزل على رسوله القرآن، و بالكتاب الذي أنزل من قبل كل كتاب سماوي نزل قبل بعثة الرسول الأعظم (ص).

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٦١

(وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً).

هذه الآية دليل واضح على ان الايمان بالغيب ركن من أركان الإسلام، و ان من لا يؤمن به فليس بمسلم .. و سبق نظير

هذه الآية، مع تفسيرها في المجلد الأول ص ٤٥٥ الآية ٢٨٥ من سورة البقرة.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٣٧ الى ١٣٩]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (١٣٩)

اللغة:

أصل البشارة الخبر السار الذي يظهر به السرور في بشرة الوجه، فإذا قال شخص لآخر: بشارة، أو أبشرك دون أن يذكر شيئا فهم منه على سبيل الإجمال ان هناك شيئا محبوبا، و لا يستعمل في المكروه إلا مع القرينة، و منه قوله تعالى: **بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً**.

الإعراب:

خبر **(لَمْ يَكُنِ اللهُ)** محذوف، و التقدير لم يكن اللّه مريدا لمغفرتهم، أو للغفران لهم. و جميعا حال من العزة، أو من ضمير خبر ان المحذوف الذي تعلق به لفظ (للّه).

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٦٢

المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً) قد يؤمن الإنسان بدين من الأديان، أو بمبدإ من المبادئ، و يتعصب له، و يناضل من أجله أهل الأديان و المبادئ الأخرى، ثم يدرس و يبحث، فيتبين له مواقع الخطأ فيه، فينفصل عنه، و ينضم الى صفوف الصالحين الذين كانوا بالأمس من ألد أعدائه .. و على هؤلاء أن يقبلوه و يرحبوا به، و ليس من حق أي انسان أن يعيب و ينكر عليه هذا العدول بعد ان سلك الطريق الصحيح الذي ظهر له، بل يجب أن يمدح و يكرم، لأن الرجوع عن الخطأ فضيلة، و الإصرار عليه رذيلة.

هذا إذا ثبت و دام على إيمانه الجديد، أما إذا عدل، و أعاد سيرته الأولى، ثم عدل، و أعاد .. و هكذا يفعل مرات و كرات، أما هذا فيجب نبذه و طرده، بل يجب أن يعاقب بأقسى العقوبات و أشدها .. و هذا ما التزمت به أهل الأديان، و أرباب المذاهب السياسية قديما و حديثا، لأن تقلبه هذا ان دل على شيء فإنما يدل على انه ساخر ماكر، و مفتر كذاب، يلج في الفساد و الغواية، و يزداد من الإثم و الضلالة كلما دخل و خرج .. و هذا و أمثاله هم المعنيون بقوله تعالى:

(آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً) بهذا التقلب و التلاعب **(لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ)** ما داموا متزلزلين يتقلبون بين الكفر و الايمان **(وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً)** لأنهم أضاعوا السبيل بسوء اختيارهم بعد ان عرفوه و سلكوه.

و الخلاصة ان المؤمن هو الذي يثبت على إيمانه مهما تقلبت الظروف، و اختلفت الأحوال، أما الذي يرتد مرة و مرة فهو أسوأ حالا ممن ثبت على الكفر و الإلحاد.

(بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً). قال الرازي: استعمل سبحانه البشارة بالعذاب للتهكم، تماما كما تقول العرب: تحيتك الضرب، و عتابك السيف.

و يلاحظ بأن أسلوب القرآن أبعد ما يكون عن التهكم .. و الأقرب ان المراد بالبشارة مجرد الاخبار، و جاز استعمالها في المكروه لوجود القرينة، كما أسلفنا

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٦٣

في فقرة اللغة.

(الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً). كل منا يريد أن يكون شيئا مذكورا في هذه الحياة، و قد يحرص بعض الناس أن يشتهر بالطيبة و الصلاح، أو بالفهم و العلم، و لكن البعض يريد العزة و الشهرة بأي شيء كان، و يبيع دينه من أجلها للشيطان، و يتخذه وليا يسمع له و يطيع.

و هنا يأتي السؤال في توبيخ و استنكار من رب العزة، لا من سواه: أ يطلب هؤلاء العزة من الشيطان و أوليائه الأدنياء الأذلاء؟ و هل العزة الا بالايمان و التقوى؟ .. لقد أذل الإسلام بعزته جميع الأديان، فكيف تطلب العزة ممن كفر به؟.

و المؤمنون الذين عناهم بقوله: «**مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**» هم الذين يعتز بهم الإسلام، لأنهم أعزوه و أعلوا كلمته بجهادهم و تضحياتهم .. و قد تكلمنا مفصلا عن موالاة الكافرين عند تفسير الآية ٢٨ من سورة آل عمران، فقرة «موالاة المؤمن للكافر».

[سورة النساء (٤): الآيات ١٤٠ الى ١٤١]

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٦٤

اللغة:

التربص الانتظار، و الاستحواذ الغلبة و الاستيلاء.

الإعراب:

ان إذا سمعتم (أن) مخففة من الثقيلة، و اسمها ضمير الشأن محذوف، أي انه، و الجملة من ان و ما بعدها خبر، و المصدر المنسبك في محل نصب مفعول لنزل، و التقدير نزل عليكم المنع من مجالستهم عند سماع الكفر منهم، و جملة يكفر بها حال من آيات اللّه. و ضمير معهم عائد على محذوف، و التقدير فلا تقعدوا مع الكافرين المستهزئين. و إذا ملغاة لتوسطها بين الاسم و الخبر. و مثل يوصف بها المذكر و المؤنث و المثنى و الجمع، يقال: هو و هي و هما و هم و هن مثله، و قد أخبر بها في هذه الآية عن الجمع **(إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ)** و وصف بها الاثنين في قوله تعالى: «أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا». و الذين يتربصون (الذين) صفة للكافرين و المنافقين.

المعنى:

(قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ – أي من قبل – **أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ)**. هذه الآية المدنية تذكر المسلمين بآية نزلت في مكة قبل الهجرة الى المدينة، و هي قوله

تعالى: «وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٤٦٥

حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ- ٦٨ الانعام». أما سبب هذا التذكير فهو ان بعض المسلمين- كما جاء في التفاسير- كانوا يجلسون في مجالس المشركين بمكة، و هم يخوضون في ذم محمد (ص)، و يستهزئون بالقرآن، و المسلمون ضعاف، لا يستطيعون الإنكار عليهم .. فنزلت آية الانعام تحذر المسلمين من المشركين، و تأمرهم أن يعرضوا عنهم و عن مجالسهم حين يسمعون الكفر و الاستهزاء بآيات اللّه.

و تمضي الأيام، و يهاجر المسلمون الى المدينة، و فيها يهود و منافقون أظهروا الإسلام، و أضمروا الكفر، و أعاد بعض المسلمين السيرة الأولى، و جالسوا اليهود و المنافقين بالمدينة، و هم يخوضون في ذم الإسلام و نبيه، فنزلت هذه الآية المدنية التي نفسرها، لتذكر المسلمين بآية الانعام السابقة، و تأمرهم بمقاطعة الكافرين و المنافقين المستهزئين بآيات اللّه.

و أيا كان سبب نزول الآية، أو المخاطب بها فإنها عامة الدلالة على وجوب الاعراض عن كل من يخوض بالباطل، و لا يختص هذا الوجوب بمن كان يجالس الكافرين في مكة، و المنافقين في المدينة، و لا بمن خوطب بهذه الآية بناء على انها موجهة لخاص، لا لعام. و في الحديث: الوحدة خير من قرين السوء. و في ثان: إياكم و مجالسة الموتى، فقيل: و من هم الموتى يا رسول اللّه؟. قال: كل ضال عن الايمان، جائر في الأحكام. و في نهج البلاغة:

مجالسة أهل الهوى منساة للايمان، و محضرة للشيطان.

(إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ). الراضي بالكفر كافر، و بالإثم آثم، مهما كان نوعه باتفاق الفقهاء و العلماء، و قد تواتر الحديث: العامل بالظلم، و المعين له، و الراضي به شركاء .. و بالأولى من رضي بالكفر. و في نهج البلاغة: الراضي بفعل قوم كالداخل فيه، و على كل داخل إثمان، إثم العمل به، و إثم الرضا به.

(إِنَّ اللهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً). و لنا ان نؤلف من قوله هذا، و قوله: **(إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ)** ان نؤلف قياسا منطقيا، يتألف من مقدمتين ينتجان قضية حتمية بديهية، و نقول هكذا: كل من رضي بالكفر فهو كافر، لقوله تعالى: **(إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ)**، و كل كافر فهو في جهنم،

تفسير الكاشف، ج ٢، ص ٤٦٦

لقوله: **(إِنَّ اللهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ)** اذن، كل من رضي بالكفر فهو كافر.

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). ترسم هذه الآية صورة لحال المنافقين إذا وقعت الحرب بين المسلمين و المشركين، و تتلخص هذه الصورة بأن المنافقين كانوا يخرجون مع المسلمين في حروبهم للدس و التثبيط و تفتيت الصفوف، و في الوقت نفسه يتظاهرون بأنهم خرجوا لنصرة المسلمين، و ينتظرون: فان كان الظفر للمسلمين قالوا لهم: كنا معكم، فنحن و أنتم شركاء في الغنيمة، و ان كان للمشركين قالوا لهم: نحن الطابور الخامس، فأين الأجر؟.

و هكذا يمسكون العصا من وسطها.

و أبلغ ما قرأت في وصف المنافقين ما قاله علي أمير المؤمنين (ع): «قد أعدوا لكل حق باطلا، و لكل قائم مائلا، و لكل باب مفتاحا، و لكل ليل مصباحا». و هؤلاء موجودون في كل عصر، و تضاعف عددهم في البلاد العربية يوما بعد يوم

منذ ان ظهر فيها الذهب الأسود، و اتخذوا الوطنية شعارا لهم، تماما كما تظاهر المنافقون بالإسلام في عهد الرسول (ص) .. فان تغلب الأحرار المناضلون على المحتكرين و المستغلين قال لهم منافقو العصر: ألم نكن معكم؟

و ان نجا المستغلون بفريستهم قالوا لهم: ألم نمنع عنكم الأحرار؟.

و تسأل: لما ذا عبّر سبحانه عن ظفر المسلمين بالفتح من اللّه، حيث قال:

«فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ» و عبر عن ظفر الكافرين بالنصيب حيث قال:

(وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ)؟.

الجواب: ان ظفر المسلمين هو ظفر للحق الذي يدوم و يبقى ما دام أهله متبعين لسنة اللّه و أمره من أعداد العدة، فناسب التعبير عنه بفتح من اللّه، أما ظفر الباطل فانه مؤقت لا يلبث حتى يزول أمام أهل الحق إذا اجتمعت كلمتهم على جهاده و نضاله .. و قديما قيل: دولة الباطل ساعة، و دولة الحق الى قيام الساعة.

(وَ لَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً). استدل الفقهاء بهذه الآية على ان اللّه سبحانه لم يشرع حكما يستدعي أية سلطة، و ولاية لغير المسلم على

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٦٧

المسلم، و فرعوا على ذلك كثيرا من الأحكام، منها إذا كان أبو الطفل مسلما، و امه غير مسلمة فلا حق لها في حضانة الطفل، لأن الولد يتبع أشرف الأبوين دينا، و يكون حكمه حكم المسلم، و منها ان المسلم لا يجوز له أن يوصي بأولاده الصغار الى غير المسلم، و ان فعل بطلت الوصية. و منها ان الأب انما تكون له الولاية على أولاده إذا اتحد معهم في الدين، أما إذا كانوا مسلمين، و الأب غير مسلم فلا ولاية له عليهم. و منها ان حكم الحاكم غير المسلم لا ينفذ بحق المسلم، و ان كان حقا .. الى غير ذلك من الأحكام.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٤٢ الى ١٤٣]

إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣)

اللغة:

المراد بيخادعون انهم كانوا يظهرون الايمان، و يضمرون الكفر، و المراد بخادعهم ان اللّه مجازيهم بالعقاب على خداعهم هذا. و كسالى جمع كسلان، و هو المتباطئ المتثاقل. و المذبذب من يتردد بين جانبين، و يتكرر منه ذلك.

الإعراب:

جملة و هو خادعهم مستأنفة لا محل لها من الاعراب، كأنّ سائلا يسأل:

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٦٨

ما هو جزاء المخادعين؟ فأجيب بأن وبال خداعهم يرجع عليهم. كسالى حال من الواو في قاموا. و جملة يراءون حال ثانية. و قليلا نعت لمصدر محذوف، أي إلا ذكرا قليلا. مذبذبين حال من المنافقين. لا إلى هؤلاء و لا الى هؤلاء متعلق بمحذوف حال، أي غير منسوبين لا الى المؤمنين و لا إلى الكافرين.

المعنى:

(إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ). المراد بخداعهم للّه اظهارهم الايمان للرسول مع إضمارهم الكفر، لأن

من خان الرسول فقد خان اللّه، قال سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ يُبٰايِعُونَكَ إِنَّمٰا يُبٰايِعُونَ اللهَ- ١٠ الفتح». و المراد بخداع اللّه لهم انه تعالى يعاقبهم على خداعهم و نفاقهم، من باب اطلاق السبب و ارادة المسبب، و قد وصف اللّه تعالى نفسه في كتابه العزيز بالتواب و الشاكر، لأنه يقبل من التائب توبته، و يثيب الشاكر على شكره.

(وَ إِذٰا قٰامُوا إِلَى الصَّلٰاةِ قٰامُوا كُسٰالىٰ). و كيف ينشطون لها، و هم بها كافرون؟. لا يرجون ثوابا على فعلها، و لا عقابا على تركها، و إنما أتوا بها صيدا للدنيا، و طريقا الى الكسب، قال تعالى: «وَ إِنَّهٰا لَكَبِيرَةٌ إِلاّٰ عَلَى الْخٰاشِعِينَ- ٤٥ البقرة.»

و تسأل: إذا صلى بدافع التقرب الى اللّه، و مع ذلك أحب أن يراه الناس ليحسبوه من الصالحين، أو ليدفع عنه تهمة التهاون بالدين، فهل يكون هذا رياء؟.

الجواب: كلا، ما دام الباعث الأول هو أمر اللّه و مرضاته، و ما عداه تبع له .. فقد سئل الإمام الصادق (ع) عن الرجل: يعمل الشيء من الخير فيراه انسان، فيسره ذلك؟. قال: لا بأس، ما من أحد إلا و هو يحب أن يظهر له في الناس الخير إذا لم يكن ذلك لذلك. أي إذا لم يكن الفعل لمجرد الاظهار فقط.

(يُرٰاؤُنَ النّٰاسَ). لأنهم لا يصلون للّه، بل للصيد و الربح. **(وَ لاٰ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاّٰ قَلِيلاً)**. أي الا حين يراهم الناس، أما إذا انفردوا فلا يذكرونه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٦٩

إطلاقا، قال الإمام جعفر الصادق (ع): للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده: و ينشط إذا كان الناس عنده، و يحب ان يحمد بما لم يفعل.

هل كل الناس مراؤن؟

و تسأل: ما من أحد يظهر أمام الناس على حقيقته، و يقول لهم كل ما يعتقد، و من الذي يقول لكل واحد ما يعرفه منه؟. و لو قال لعدّ من المجانين، بل من الذي لا يفعل و يتصرف- أحيانا- على غير ما يحب و يريد؟. ثم الى أين المفر من عادات المجتمع و قيمه؟.

و هل باستطاعتك إذا التقيت بمن تكره، و ابتدأك بقوله: أنا مشتاق الى رؤيتك.

هل باستطاعتك أن تجيبه بأني أكره أن أراك؟ و إذا أجبته بهذا المكروه فهل أنت مصيب في نظر الناس، بل و في نظرك أيضا؟. و أخيرا، هل كل الناس مراؤن منحرفون لأنهم لا يعتقدون بكل ما يقولون، و لا يؤمنون بكل ما يفعلون؟

الجواب: فرق بين الرياء و المداراة، فالرياء ان تظهر الصلاح نفاقا و افتراء، لتقف مع الصالحين، و لست منهم، و المداراة ان تكون لطيفا في معاملة الناس، دون أن تهدف الى شيء الا ان تعيش معهم في وئام و وفاق .. صحيح انك تتصرف- أحيانا- تبعا لتقاليد المجتمع، فتهني أو تعزي، أو تبتسم و تحترم إنسانا مجاملا، لا مؤمنا، و لكن هذا تصرف سليم لا غبار عليه، و لا تعد معه مرائيا ما دمت في فعلك و تصرفك متفقا مع المجتمع .. و أيضا لا يجب عليك إذا صدرت منك خطيئة- و أينا المعصوم- ان تذيعها و تعلنها على الناس.

أجل، يجب ان لا تبدو لهم قديسا لا خطيئة له.

و صحيح أيضا انك كاذب في قولك لمن تكره: أنا أشوق، و لكنه كذب في المصلحة و حسن الخلق، قال تعالى: «وَ قُولُوا لِلنّٰاسِ حُسْناً- ٨٣ البقرة».

و قال: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ- ٢٤ ابراهيم». و قال:

«اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً- ٤٤ طه». و في الحديث:

«الكلمة الطيبة صدقة يثاب بها قائلها بما يثاب به أولو الفضل و الإحسان». و فيه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٧٠

أيضا: «أمرني ربي بالمداراة، كما أمرني بالفرائض». و أجمع الفقهاء على ان الكذب واجب إذا توقف عليه حفظ النفس البريئة، و خلاصها من الهلاك، و ان الصدق حرام في النميمة و الغيبة، فالنمام صادق، و المغتاب صادق، و لكنهما مذمومان عند اللّه و الناس «١».

و بعد، فان الرياء المحرم هو ان يتظاهر المرء أمام الناس بما ليس فيه، فيريهم الخير و الصلاح من نفسه، ليحظى عندهم بمكان الصالحين الخيرين، و هو من الأشرار المفسدين.

(مذبذبين). يتظاهرون تارة مع المسلمين، و تارة مع الكافرين، و هم في الواقع **(لا إِلى هؤُلاءِ وَ لا إِلى هؤُلاءِ)**. بل الى منافعهم و مطامعهم .. يقبلون كل يد تقبض على منفعتهم، أو على شيء منها، قذرة كانت اليد، أو طاهرة.

(وَ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً). أي ان اللّه سبحانه قد تخلى عنهم، و أوكلهم الى أنفسهم لعنادهم و تمردهم على الحق، و من كان هذا شأنه فلن يؤوب الى رشد. و لا بد من التنبيه الى ان حكمة اللّه تعالى تستدعي ان لا يتخلى عن عبده، تماما كما لا تتخلى الوالدة عن وليدها، الا إذا كان العبد هو السبب الموجب لتخلي اللّه عنه لولوجه في العصيان و التمرد، كما تتخلى الأم عن ابنها لغلوه في العقوق. و تقدم هذا النص القرآني بالحرف في الآية ٨٨ من هذه السورة، و تكلمنا عنها هناك مفصلا، فقرة «الإضلال من اللّه سلبي لا ايجابي»، كما بسطنا القول في أقسام الهدى و الضلال عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة، المجلد الأول ص ٧٠.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٤٤ الى ١٤٧]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً (١٤٤) إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (١٤٦) ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كانَ اللهُ شاكِراً عَلِيماً (١٤٧)

---

(١) نصوص الكتاب و السنة تقوم على أساس العمل بما فيه مصلحة، و ترك ما فيه مفسدة، فحيث تكون المصلحة يكون الأمر، و حيث تكون المفسدة يكون النهي، و من هنا جاز الكذب مع المصلحة، و حرم الصدق مع المفسدة المترتبة على الغيبة و النميمة.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٧١

اللغة:

السلطان الحجة. و الدرك بسكون الراء و فتحها عبارة عن الطبقة أو الدرجة من الجانب الأسفل من الشيء. و تشعر هذه الآية ان دار العذاب طبقات بعضها أسفل من بعض. و شاكرا، أي يجازي على الشكر، كما بينا في الآية السابقة.

الاعراب:

من النار متعلق بمحذوف حالا من الدرك. و الذين تابوا (الذين) في موضع نصب على الاستثناء من الضمير في (لهم). و ما يفعل اللّه (ما) استفهام في موضع نصب بيفعل.

المعنى:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ). تقدمت هذه الآية مع تفسيرها في سورة آل عمران الآية ٣٠، فقرة أقسام الأولياء و موالاة المؤمن للكافر.

(أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً). السلطان الحجة، و كل من

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٧٢

لم يكن على بينة من دينه، أو زاغ عن طريق الهداية بعد أن استبان له فقد جعل للّه الحجة البالغة من نفسه على نفسه .. اللهم انّا نعترف بأنك لا تعاقب إلا بعد قيام الحجة، و أيضا نقر و نعترف بقيام الحجة علينا، بل نهتز و نرتجف خوفا من بطشك، و نعوذ منه بعفوك و كرمك .. اذن لا داعي لأن توقفنا بين يديك للمحاكمة و الحساب، و التحقيق و التدقيق.

(إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً). لأن العقوبة على قدر الجريمة، و لا جريمة أعظم من النفاق الذي جمع بين الكفر و الكذب، و كلاهما من أمهات الرذائل.

(إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ). بعد ان هدد و توعد سبحانه المنافقين بأشد العقوبات أرشدهم الى التوبة، طريق الخلاص و النجاة، فهي وحدها النصير و الشفيع اليه تعالى .. و هي في يدهم و طوع ارادتهم، فمن قصر و توانى فلومه على نفسه .. و هذه حجة أخرى على كل مذنب يضيفها جل و عز الى حججه البالغة التي لا يبلغها عد و لا حصر ..

و عقدنا فصلا خاصا للتوبة و التائبين بعنوان التوبة و الفطرة عند تفسير الآية ١٨ من هذه السورة. و قد أطال المفسرون الكلام في بيان الفرق بين معطوفات هذه الآية، و هي أصلحوا و اعتصموا و أخلصوا .. و الذي نراه ان لفظ التوبة يتضمن هذه الأوصاف بكاملها، و لا نجد فرقا جوهريا بينها، و انما نص عليها و اكدها للاشارة الى ما كان عليه المنافقون من التردد و التمرد، و ان اللّه سبحانه لا يقبل توبتهم، و لا يجعلهم في عداد المؤمنين إلا إذا ثبتوا و استمروا على التوبة، و انهم إذا ارتدوا بعد التوبة، و فعلوا كما يفعلون فإنهم يضيفون الارتداد الى كفرهم و افترائهم و ذبذبتهم، و لا جزاء للارتداد الا القتل في الدنيا، و العذاب الأليم في الآخرة.

اللّه و الإمام زين العابدين:

(ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ). أبدا .. انه غني عن كل شيء في ذاته و صفاته،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٧٣

و الا لم يكن خالقا، و انما يحاسب و يعاقب جزاء وفاقا .. و لا غنى لمخلوق عنه في وجوده و بقائه، و جميع حركاته و سكناته، و إلا لم يكن مخلوقا .. و الآن تعال معي- أيها القارئ- لنستمع بخشوع و إجلال الى هذه النفحات من الإمام زين العابدين:

«اللهم اني امرؤ حقير، و خطري يسير، و ليس عذابي مما يزيد في ملكك مثقال ذرة، و لو ان عذابي مما يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه، و أحببت أن يكون ذلك لك، و لكن سلطانك أعظم، و ملكك أدوم من أن تزيده طاعة المطيعين، أو

تنقصه معصية المذنبين».

ليست هذه المناجاة رموزا تومئ الى الوجد و الشوق لجمال القدس و جلاله، كما يفعل الصوفية، و لا مجرد صلاة و خوف من عذاب اللّه، و ان دل عليه ظاهر الكلام، و انما هي توجيه لكل قوي يريد البطش بالضعفاء الذين لا حول لهم معه و لا طول .. و ان الأولى و الأليق بقدرته مع ضعفهم هو العفو و الصفح، و ليس التعذيب و التنكيل .. ان القوة لا تكون فضيلة و كمالا الا مع الإعطاء و التفضل.

ان الحاجة أو الشراسة هي الدافع و الباعث على التنكيل بمن لا يجد مهربا من القوي الا اليه .. و القوي الكامل غني عن المستضعفين، منزه عما يشين.

و بعد، فان العفو خير، و نحن بحاجة اليه، و اللّه قادر عليه، و لا أحد أولى به منه، فعفوه- اذن- كائن لا محالة .. نقول هذا، و نحن من أخشى عباد اللّه للّه.

(ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كانَ اللهُ شاكِراً عَلِيماً). يعلم من أطاع و شكر، و يوفيه أجور المطيعين الشاكرين .. آمنا باللّه وحده، مبتهلين اليه سبحانه ان يوفقنا لشكره و طاعته.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٧٥

الجزء السّادس

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٧٧

[سورة النساء (٤): الآيات ١٤٨ الى ١٤٩]

لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَ كانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً (١٤٨) إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً (١٤٩)

الإعراب:

بالسوء متعلق بالجهر و من القول متعلق بمحذوف حال من السوء. و من ظلم استثناء منقطع، على معنى و لكن من ظلمه ظالم فله أن يجهر بالشكوى من ظلمه.

و يجوز أن يكون استثناء متصلا على تقدير حذف مضاف، أي الا جهر من ظلم، و هو الأرجح.

المعنى:

قال تعالى في تحريم الغيبة: «وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً- ١٢ الحجرات».

و مما قاله في تحريم الظلم: «أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ- ٤٤ الاعراف». و قال في الآية التي نفسرها: **(لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ)**.

و إذا عطفنا هذه على آية الغيبة يكون المعنى لا يذكر بعضكم بعضا بالعيوب و السيئات إلا من كان مظلوما فله أن يعلن ظلامته، و يجهر بسيئات من ظلمه.

و معنى الظلم معروف، اما الغيبة المحرمة فقد حددها الفقهاء بأن تذكر غيرك بما يكره في حال غيابه عنك، كهتك عرضه و التفكه به و اضحاك الناس منه، سواء أ كان ذلك بما هو فيه، أم كان كذبا و افتراء .. و استثنوا من تحريم الغيبة

الظالم لغيره، و الظالم لنفسه بتجاهره بالفسق و عدم مبالاته بما يقول، و يقال له، و في مكاسب الشيخ الأنصاري ان موارد الاستثناء لا تنحصر في عدد، لأن الغيبة

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٧٨

انما تحرم إذا لم يكن في التشهير مصلحة أقوى و إلا وجب الإعلان و التشهير تغليبا لأقوى المصلحتين، «كما هي الحال في كل معصية من حقوق اللّه و حقوق الإنسان، و قد نبه على ذلك أكثر من واحد».

و على هذا تجوز شرعا الاضرابات و المظاهرات ضد حكام الجور، بل قد تجب إذا انحصر الطريق في رفع الظلم بها، على شريطة ان لا تؤدي الى الشغب و الإضرار بالغير، لأن اللّه سبحانه لا يطاع من حيث يعصى، فالإسلام يرعى للإنسان قداسته و كرامته، حتى يعتدي على كرامة غيره، و عندها ترتفع عنه و عن كرامته الصيانة و الحصانة، و يحل هتكه و اذلاله.

و تجدر الاشارة الى ان الظلم لا يختص بحكام الجور و أعوانهم، فأي انسان اعتدى على غيره بفعل أو قول، أو منعه حقه، أو مطله به فهو ظالم، قال رسول اللّه (ص): ليّ الواجد ظلم. و في حديث آخر: الواجد يحل عرضه.

و الواجد هو الذي لا يفي بالدين مع قدرته على الوفاء .. و روى أهل البيت عن جدهم (ص): «من عامل الناس، فلم يظلمهم، و حدثهم فلم يكذبهم، و وعدهم فلم يخلفهم- فهو ممن كملت مروءته، و وجبت اخوته، و حرمت غيبته». حتى الكاذب و المخلف بوعده لا حرمة له .. و هكذا يحفظ الإسلام حقوق الفرد ما دام قائما بحقوق الانسانية التي تتمثل فيه و في غيره، و متى هانت عليه كان أهلا للاحتقار و الهوان.

(إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ). هذا ترغيب في الخير سرا و علانية. **(أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كانَ عَفُوّاً قَدِيراً)**. أجل، يحسن العفو عن المسيء، و لكن حين يكون العفو عنه خيرا له، و لا ضرر فيه على المجتمع، أما إذا كان وسيلة الى تشجيع المسيء على الاساءة و الى انتشار الفساد فان العقاب هو المتعين، و الا اختل النظام، و ساد الأشرار، و استحالت الحياة، قال تعالى: «وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ». و قال: «وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ».

[سورة النساء (٤): الآيات ١٥٠ الى ١٥٢]

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (١٥١) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ كانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٥٢)

الاعراب:

ذلك تستعمل بمعنى الافراد و التثنية و الجمع، و قد استعملت هنا في التثنية، حيث أشير بها الى الإيمان ببعض، و الكفر ببعض. و حقا نصب على المصدرية، أي يحق حقا، أو حقّ حقا.

المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ). آمن اليهود بموسى و التوراة، و كفروا بعيسى و محمد، و آمن النصارى بعيسى و الإنجيل و كفروا بمحمد و القرآن، و آمن المسلمون بالجميع، لأن الإيمان في نظر الإسلام وحدة لا تتجزأ، و لا سبيل عنده إطلاقا الى التفكيك و التفريق بين عناصره، و هي الإيمان باللّه و اليوم الآخر و ملائكته و جميع رسله و كتبه، و من كفر بواحد منها فحكمه

يوم القيامة حكم من كفر بالجميع.

(وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً). أي بين الكفر و الايمان، مع انه لا واسطة بينهما، حتى المشكك يعد مع الكفار .. و إذا سأل سائل عن حكم الجاهل بنبوة نبي من الأنبياء أحلناه على تفسير الآية ١١٥ من سورة آل عمران، فقرة «حكم تارك الإسلام».

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٨٠

(أُولٰئِكَ هُمُ الْكٰافِرُونَ حَقًّا). و ان آمنوا ببعض، لأن الإيمان بالجميع وحدة لا تتجزأ.

(وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ). و هؤلاء هم المسلمون أتباع محمد بن عبد اللّه الذي أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء، و قال: الأنبياء جميعهم اخوة، دينهم واحد، و أممهم شتى. و في رواية ثانية: الأنبياء بنو علات. و سبق الكلام مفصلا عن ذلك عند تفسير الآية ١٣٦ من هذه السورة، و الآية ٢٨٥ من سورة البقرة، المجلد الأول صفحة ٤٥٥.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٥٣ الى ١٥٤]

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتٰابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتٰاباً مِنَ السَّمٰاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَقٰالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ فَعَفَوْنٰا عَنْ ذٰلِكَ وَ آتَيْنٰا مُوسىٰ سُلْطٰاناً مُبِيناً (١٥٣) وَ رَفَعْنٰا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثٰاقِهِمْ وَ قُلْنٰا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبٰابَ سُجَّداً وَ قُلْنٰا لَهُمْ لاٰ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَ أَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِيثٰاقاً غَلِيظاً (١٥٤)

اللغة:

لا تعدوا بإسكان العين و تخفيف الدال بمعنى تجاوز الحد، و المراد به هنا عدم العمل يوم السبت، و قريء بتشديد الدال بمعنى لا تعتدوا من الاعتداء.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٨١

الاعراب:

أكبر صفة لمفعول مطلق محذوف، أي سؤالا أكبر. و جهرة أيضا صفة لمفعول مطلق محذوف، أي رؤية جهرة. و بميثاقهم على حذف مضاف، أي بنقض ميثاقهم، و المرور متعلق برفعنا.

المعنى:

(يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتٰابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتٰاباً مِنَ السَّمٰاءِ). المراد بأهل الكتاب هنا يهود المدينة الذين وقفوا من محمد (ص) موقف العدو المتعنت، و كادوا له الكيد المستمر، و كانوا أول من ابتلي بهم من أهل الكتاب .. و من تعنتهم و وقحتهم ما أشار اليه سبحانه في هذه الآية من طلبهم أن ينزل النبي عليهم كتابا من السماء يشهد له، على أن يروه رأي العين، و بديهة انهم قالوا ذلك على سبيل التعنت، لا طلبا للحجة، لأن ما تقدم من معجزاته كافية وافية في الاقتناع لمن طلب الحق لوجه الحق .. و قد تولى اللّه تعالى الاجابة عن نبيه، حيث قال عز من قائل:

(فَقَدْ سَأَلُوا مُوسىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ). أي لا غرابة و لا عجب إذا سألوك يا محمد أن تنزل عليهم كتابا من السماء فلقد سألوا موسى أكبر و أعظم من ذلك، سألوه ان يروا اللّه بالذات، **(فَقٰالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصّٰاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَتْهُمُ الْبَيِّنٰاتُ)**. سبق تفسير سؤالهم هذا و اتخاذهم العجل في سورة البقرة الآية ٥٤-

٥٧، المجلد الأول ص ١٠٤.

و تكلمنا عن جواز رؤية اللّه و أقوال المذاهب في ذلك ص ١٠٧.

و معلوم ان الذين سألوا الرؤية جهرة، و اتخذوا العجل إلها هم اليهود الأولون، لا يهود المدينة .. و لكن هؤلاء راضون و مؤمنون بكل ما فعل الآباء و الأجداد، و من هنا صحت النسبة اليهم.

(وَ آتَيْنا مُوسىٰ سُلْطاناً مُبِيناً). المراد بالسلطان الحجة الظاهرة، و البرهان القاطع، و لكن اليهود يهون عليهم كل شيء، و لا يكترثون بشيء إلا بواحد

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٨٢

من اثنين: اما المنفعة، و اما القوة، و من أجل هذا خوفهم اللّه سبحانه بالجبل الذي أشار اليه بقوله:

(وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ). الطور اسم الجبل الذي ناجى موسى عليه ربه، و في سورة التين: (وَ طُورِ سِينِينَ) قال المفسرون: سينين و سيناء اسمان للموضع الذي فيه الجبل. أمر اللّه بني إسرائيل على لسان موسى أن يعملوا بالتوراة، فأبوا، فرفع الجبل فوقهم تخويفا، حتى قبلوا. و قوله تعالى **(بِمِيثاقِهِمْ)** المراد بنقض ميثاقهم الذي قطعوه على أنفسهم بأن يلتزموا بالدين، ثم رجعوا عنه، و لولا الجبل لم يعودوا اليه. اذن، فلا عجب إذا تمردت إسرائيل على الأنظمة الدولية و رفضت قرارات الأمم المتحدة، و مجلس الأمن، و نقضت جميع العهود و المواثيق مرات و كرات، و لولا الخوف لم تقف عند حد .. لا عجب و لا غرابة، انها تنسجم بذلك مع تاريخ أسلافها الذين رفع اللّه فوق رؤوسهم الطور كي يفوا بالعهد و الميثاق.

(وَ قُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً). مر تفسيره في الآية ٥٨ من سورة البقرة، المجلد الأول ص ١٠٩. **(وَ قُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ)**. أيضا مر تفسيره في سورة البقرة الآية ٦٦، المجلد الأول ص ١٢٠.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٥٥ الى ١٥٩]

فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اللهِ وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلىٰ مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً (١٥٦) وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّباعَ الظَّنِّ وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَ كانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٥٨) وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (١٥٩)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٨٣

اللغة:

غلف جمع اغلف، و هو المغطى بغلاف. و البهتان الكذب الذي يتحير فيه من شدته.

الاعراب:

ما في قوله: **(فَبِما نَقْضِهِمْ)**، زائدة، أي فينقضهم، و المجرور متعلق بمحذوف، أي لعنّاهم. الا قليلا منصوب على الاستثناء من ضمير يؤمنون، و يجوز أن يكون صفة لمفعول مطلق محذوف، أي ايمانا قليلا، بمعنى النقص و الضعف. و عيسى ابن مريم عطف بيان من المسيح، و الكلمات الثلاث عيسى و ابن و مريم بمنزلة الكلمة الواحدة، مثل لا رجل

ظريف في الدار- هكذا جاء في مجمع البيان- و رسول اللّه صفة لعيسى. و لفي شك منه (منه) متعلق بمحذوف صفة لشك، أي لفي شك حادث منه، و لا يجوز أن يتعلق بشك، لأنه لا يقال: شككت منه، و انما يقال: شككت فيه. و ما لهم به من علم (ما) نافية، و من زائدة و علم مبتدأ، و ما لهم متعلق بمحذوف خبر. و اتباع الظن منصوب على الاستثناء المنقطع. و يقينا منصوب على المصدرية، أي تيقنوا يقينا، و يجوز أن يكون صفة لمفعول مطلق محذوف، أي قتلا يقينا. و ان من أهل الكتاب (ان) نافية، و من أهل الكتاب متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير ما أحد كائن من أهل الكتاب.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٨٤

المعنى:

(فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ). أي لعناهم بسبب نقضهم الميثاق الذي التزموا به، و أبرموه على أنفسهم، و هو أن يؤمنوا و يعملوا بما جاءهم به موسى (ع) .. ثم غيّروا و بدّلوا، و حرّموا ما أحل اللّه، و حللوا ما حرم. **(وَ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اللهِ)**. و هي الحجج و الدلائل على نبوة عيسى و محمد (ص). **(وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ)** كزكريا و يحيى بعد ان قامت الأدلة على نبوّتهما. **(وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ)**. أي مغطاة لا يصل اليها شيء من دعوة محمد (ص)، قالوا هذا للرسول الأعظم تيئيسا له من ايمانهم بنبوته، و استجابتهم الى دعوته. **(بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ)**. جملة معترضة بين المعطوفات، جاءت للرد على قولهم:

(قُلُوبُنا غُلْفٌ) و المعنى ليست قلوبكم غلفا بطبيعتها، و انما كفركم بمحمد و تماديكم في الغي و الضلال هو الذي جعلها صلدة كالحجارة، أو أشد قسوة.

و بعد ان بلغت قلوبهم مبلغا لا تنفتح معه للحق بحال أصبحوا كمن خلقهم اللّه بلا قلوب، و بهذا الاعتبار صحت نسبة الطبع عليها الى اللّه سبحانه. (أنظر تفسير الآية ٧ من صورة البقرة، ج ١ ص ٥٣). **(فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً)**.

كعبد اللّه بن سلام، و ثعلبة بن سعية، و أسد بن عبيد اللّه و غيرهم. **(وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً)**. كرر سبحانه نسبة الكفر الى اليهود ثلاث مرات: الأولى بمناسبة ذكره لجحودهم آيات اللّه و قتلهم الأنبياء. الثانية بمناسبة قولهم: قلوبنا غلف. الثالثة عند ذكره لقولهم على مريم المنكر الذي لا يقوله الا اليهود الذين تناصرهم أمريكا «المسيحية» و تزودهم بالسلاح ليعتدوا على القدس، و ينتهكوا الشعائر الدينية التي يقدسها المسيحيون و المسلمون، بخاصة الكنائس و مقابر المسيحيين «١».

(وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ). و صفوه برسول

---

(١) أكتب هذه الكلمات يوم ٢٨- ٤- ١٩٦٨، و إسرائيل تعتزم اقامة عرض عسكري كبير في مدينة القدس المحتلة يوم ٢- ٥- ٦٨، على الرغم من قرار مجلس الأمن الذي أصدره بالإجماع على الغاء هذا العرض.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٨٥

اللّه تهكما به و بدعوته. (وَ مٰا قَتَلُوهُ وَ مٰا صَلَبُوهُ وَ لٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ). لما صمم اليهود على قتل السيد المسيح ألقى اللّه شبهه على أحد المجرمين المستحقين للقتل، و قيل: ان هذا المجرم هو يهوذا الذي قاد الحملة ضد عيسى، فأخذه اليهود، و عذبوه و صلبوه معتقدين انه السيد المسيح، و بعد الصلب فقدوا صاحبهم، فارتبكوا و تحيروا، و قالوا: ان كان المصلوب عيسى فأين صاحبنا؟ و ان كان المصلوب صاحبنا فأين عيسى؟.

(وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ). اختلف اليهود و النصارى في السيد المسيح (ع)، و وقفوا منه موقفين متناقضين، فقال اليهود: هو ابن زنا.

و قال النصارى هو ابن اللّه. و أيضا قال اليهود: صلبناه، و دفن تحت الأرض الى غير رجعة. و قال النصارى: انه صلب و دفن، و لكنه قام من تحت التراب، و رجع الى الدنيا بعد ثلاثة أيام .. فرد اللّه سبحانه على الجميع بقوله:

(مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبٰاعَ الظَّنِّ). و الظن لا يغني عن الحق شيئا، و الحق اليقين الذي لا ريب فيه هو ما أنبأنا اللّه به في قوله: (وَ مٰا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ). هذه هي الحقيقة رفع الى اللّه تعالى، لا قتل و لا صلب.

و هنا تتوارد الأسئلة: كيف حصل الرفع؟ و متى؟ قبل صلب الشبيه، أو بعده؟ و هل الرفع كان بالروح فقط، أو بها و بالجسد؟ و هل رفع الى السماء الثانية أو الثالثة، أو غيرها؟ و ما ذا يصنع هناك؟ و هل ينزل قبيل الساعة الى الأرض؟ الى غير ذلك من الأسئلة التي أجاب عنها القصاصون بما يشبه الأساطير.

و القرآن الكريم لم يتعرض لشيء من ذلك من قريب أو بعيد، و كل ما دلت عليه آياته ان السيد المسيح لم يقتل و لم يصلب، و ان اللّه رفعه اليه، و ان الذي قتل أو صلب شخص آخر، تخيل القتلة انه المسيح، و لا شيء في القرآن أكثر من ذلك، و نحن لا نخرج عن نصوصه في مثل هذا الموضوع إلا بحديث متواتر ..

بل لا نهتم بهذه الأسئلة و أجوبتها ما دمنا غير مسؤولين عنها، و لا مكلفين بها.

و سبق أن تعرضنا لما قيل في المسيح عند تفسير الآية ٥٨ من سورة آل عمران، فقرة الاختلاف في عيسى.

و للتفكيه ننقل هذه الاسطورة عن بعض التفاسير، تقول الاسطورة: ان اللّه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٨٦

رفع عيسى اليه، و كساه حلة من نور، و أنبت له جناحين من ريش، و منعه من الطعام و الشراب، و صيره من الملائكة يطير معهم حول العرش، و جعل فيه طبيعتين: ناسوتية، و ملائكية ..

(وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتٰابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ). أي ما أحد من أهل الكتاب الا و يؤمن بعيسى قبل أن يموت ذلك الأحد من أهل الكتاب، فضمير به يعود على عيسى، و ضمير موته يعود على أحد، و المراد بأهل الكتاب اليهود و النصارى .. و قد جاء في بعض الروايات ان كل انسان عند ما يعاني سكرة الموت ينكشف له الحق عما كان يعتقده في دار الدنيا، و هذه الآية تشهد بالصحة لتلك الروايات، حيث دلت بظاهرها على ان كل كتابي يهوديا كان أو نصرانيا لا بد أن يؤمن ايمانا صحيحا بعيسى بعد سكرة الموت، فاليهودي الذي كان يقول عن عيسى: انه ساحر و ابن فاعلة يعدل عن ذلك، و يؤمن بأنه نبي مرسل، و ان امه صدّيقة، و النصراني الذي كان يقول: انه ابن اللّه، و ثالث ثلاثة يؤمن بأنه عبد من عباد اللّه المخلصين.

و ليس هذا بمحال في نظر العقل، و قد أخبر به الوحي، و كل ما أخبر به الوحي، و لم ينكره العقل وجب التصديق به على كل من يؤمن باللّه و اليوم الآخر، أما من لا يؤمن إلا بما يقع تحت المجهر فلا يصدق- قطعا- و عليه أن لا يصدق

من يقول له: لك عقل و روح و وعي و عاطفة .. لأنها لا تقع تحت المجهر، و لا تنالها المعدات و الآلات بالاختبار و التحليل، و صدق من قال:

من فقد الايمان باللّه فقد نفسه.

و تسأل: و أية جدوى من الإخبار بأن الحق ينكشف لأهل الكتاب عند سكرة الموت، مع العلم أنهم في هذه الحال يعجزون عن ادراك ما فات؟.

الجواب: الغرض من ذلك هو الحث على المبادرة الى تصحيح ايمانهم قبل أن تجتمع عليهم حسرة الفوت و سكرة الموت، تماما كالغرض من الإخبار عن الجنة و النار.

(وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً). يشهد غدا عيسى (ع) على اليهود بأنهم ناصبوه العداء كفرا و عنادا لما جاءهم به من اللّه، و يشهد على النصارى

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٨٧

بأنهم غالوا فيه غلوا تجاوزوا ما أمرهم به من عبادة اللّه وحده، «ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ- ١١٧ المائدة .. و كل نبي، و طليعتهم محمد (ص)، يشهد على من زاغ و انحرف من أمته عما جاءهم به و بلّغهم إياه. «وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ- ٨٩ النحل».

[سورة النساء (٤): الآيات ١٦٠ الى ١٦٢]

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً (١٦٠) وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٦١) لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً (١٦٢)

الإعراب:

فبظلمهم و بصدهم متعلقان بحرمنا. و كثيرا صفة لمفعول مطلق محذوف، أي صدا كثيرا. و قد نهوا عنه الجملة حال. و في العلم متعلق «بالراسخون».

و منهم متعلق بمحذوف حال من الضمير في «الراسخون». و المقيمين منصوب بفعل محذوف، أي أعني أو أمدح المقيمين الصلاة، و قال قائل: هذا من خطأ الكتّاب. و يرده ان الأئمة و القراء و العلماء لا يقرون أمة محمد (ص) على الخطأ في غير كتابة القرآن، فكيف في كتابته؟.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٨٨

أجل، يتجه هذا السؤال: لما ذا نصب المقيمين الصلاة على المدح، دون غيرها من المعطوفات؟.

و نجيب: قد يكون ذلك لإبراز قيمة الصلاة و عظمتها، و انها عمود الدين و الايمان، إذا قبلت قبل ما سواها، و إذا ردت رد سواها. و الصلاة مفعول للمقيمين. و المؤتون الزكاة خبر مبتدأ محذوف، أي و هم المؤتون الزكاة.

المعنى:

(فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً). ما زال الكلام عن اليهود و قبائحهم، فقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة وقاحتهم بطلبهم رؤية اللّه جهرة، و عبادتهم العجل، و اعتداءهم

في السبت، و نقضهم الميثاق، و كفرهم بآيات اللّه، و قتلهم الأنبياء، و قولهم قلوبنا غلف، و افتراءهم على مريم، و تبجحهم بقتل المسيح .. و ذكر هنا صدهم عن سبيل اللّه، و أكلهم الربا و الرشوة، و انه سبحانه بسبب هذه القبائح و الفضائح حرم عليهم في الدنيا بعض الطيبات التي كانت حلالا لهم و لغيرهم.

(وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ). معطوف على بظلم من الذين هادوا.

و قيل: ان اليهود أول من سنّ الربا و شرّع تحليله، و تكلمنا عنه مفصلا عند تفسير الآية ٢٧٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٣٣. **(وَ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ)**. كالرشوة و غيرها من الوجوه المحرمة، و قد وصفهم سبحانه في الآية ٤٢ من سورة المائدة بأنهم: «سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ». أما الطيبات التي حرمها عليهم فهي التي أشار اليها سبحانه بقوله: «وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ» ١٤٦ الأنعام.

و إذا قارنا بين سيرة اليهود منذ القديم، بخاصة في عهد موسى و عيسى و محمد، و بين وسائلهم و طرائقهم اليوم لم نجد أي فرق بين يهود الأمس و يهود اليوم، من حيث الضلال و الفساد، و العداء للانسانية و قيمها، و عدم الخضوع الا (للطور) يرفع فوق رؤوسهم .. و ان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان الشر

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٨٩

طبع أصيل في اليهود، و جبلة لا تنفك عنهم، و لا ينفكون عنها، مهما تغيرت الأزمان، و تطورت الأحوال، تماما كما لا ينفك اللدغ عن طبع العقارب، و نفث السموم عن جبلة الأفاعي، و إذا وجد في كل انسان استعداد للخير و الشر فان طبيعة اليهود متمحضة للشر وحده. و إذا وجد منهم بين الحين و الحين من يعرف الحق، و يعمل به فانه قليل نادر، و النادر لا ينقض القاعدة، بل يكرسها، و قد استثنى سبحانه هذه القلة بقوله:

(لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ). الراسخون في العلم هم العلماء العاملون بعلمهم، لا المحيطون بما دوّن في الكتب، و المحققون المدققون في أبحاثهم و نظرياتهم، و ان لم يعملوا- كما يتوهم-. و قد استوحينا هذا المعنى من قول علي أمير المؤمنين (ع):

«العلم يهتف بالعمل، فان أجابه و الا ارتحل عنه».

و تسأل: ان اللّه سبحانه عطف (المؤمنون) على (الراسخون في العلم) و أخبر انهما معا يؤمنون بالقرآن و التوراة و الإنجيل، و هذا الإخبار يصح بالنسبة الى الراسخين في العلم من اليهود، و لا يصح بالنسبة الى المؤمنين بمحمد (ص)، لأن معناه على هذا ان المؤمنين يؤمنون، و هو أشبه بقول القائل: الواقفون يقفون، و النائمون ينامون، و القرآن منزه عن مثله، فما هو التأويل؟.

الجواب: ان هذا السؤال أو الإشكال انما يتجه لو فسرنا المؤمنين في الآية بالمؤمنين من صحابة الرسول من غير أهل الكتاب، كما فعل صاحب مجمع البيان، و لم يمنعه الرازي و صاحب المنار و أكثر المفسرين .. أما إذا فسرنا المؤمنين باليهود المقلدين للراسخين في العلم منهم فلا يتجه السؤال، إذا يكون المعنى ان الراسخين في العلم من اليهود و الآخذين بأقوالهم من أهل ملتهم يؤمنون بالقرآن و التوراة و الإنجيل، أولئك يؤمنون استدلالا، و هؤلاء يؤمنون تقليدا. و نحن نميل الى هذا التفسير: و نرجحه على الأول.

(وَ الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ). و قد كثر الكلام حول نصب المقيمين، حتى روي عن عثمان و عائشة انه لحن، و أبطل الرازي

ذلك بقوله: «ان المصحف منقول بالتواتر عن رسول اللّه (ص) فكيف يمكن ثبوت اللحن فيه». و الصحيح انه

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٩٠

منصوب على المدح، أي أمدح المقيمين الصلاة، و الغرض الإيماء الى فضل الصلاة و خطرها، كما ذكرنا في فقرة اللغة. **(وَ الْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ)** خبر لمبتدأ محذوف، أي و هم المؤتون الزكاة، و المعنى ان المصلين الذين يستحقون المدح هم الذين يقرنون اقامة الصلاة بإيتاء الزكاة. **(وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ)** عطف على **(الْمُؤْتُونَ الزَّكاةَ)**. أما جزاء الجميع فقد أشار اليه بقوله: **(أُولئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً)**.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٦٣ الى ١٦٦]

إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِيسى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (١٦٣) وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً (١٦٤) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٦٥) لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى بِاللهِ شَهِيداً (١٦٦)

اللغة:

الزبور الكتاب، على وزن فعول بمعنى مفعول، أي مكتوب.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٩١

الاعراب:

كما أوحينا الكاف بمعنى مثل نعت لمفعول مطلق محذوف، أي وحيا مثل الذي أوحينا. و رسلا الأولى مفعول لفعل محذوف، تقديره و قصصنا رسلا، و مثلها رسلا مبشرين، أي أرسلنا رسلا مبشرين، و يجوز أن تكون بدلا من رسل المتقدمة. و مبشرين حال من رسل، و يجوز أن يكون صاحب الحال نكرة في بعض الموارد، كما في الآية لأنه مفيد. و المصدر المنسبك من لئلا يكون متعلق بالفعل المحذوف، و هو أرسلنا. و حجة اسم كان، و للناس متعلق بمحذوف خبرها، و على اللّه متعلق بمحذوف حالا من حجة. و بعلمه متعلق بمحذوف حالا من هاء أنزله.

المعنى:

(إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِيسى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً). الأسباط واحدها سبط، و سبط الرجل ولد ولده، و المراد بالأسباط هنا الاثنا عشر سبطا من اثني عشر ابنا ليعقوب بن اسحق بن ابراهيم، و الزبور الكتاب بمعنى المكتوب، و المراد بالوحي الى الأسباط الوحي الى الأنبياء منهم، لا الوحي اليهم جميعا.

و هذه الآية و ما بعدها تتصل بالآيات السابقة، و وجه الصلة ان اللّه سبحانه حكى فيما تقدم عن أهل الكتاب انهم يؤمنون بفكرة النبوة من حيث هي، و يعترفون بأن للّه رسلا، و لكنهم لا يعترفون بهم جميعا، بل يؤمنون ببعض، و يكفرون ببعض، و محمد من هذا البعض الذين كفروا بنبوتهم، و بيّن سبحانه هناك ان من كفر بنبوة واحد من أنبيائه فهو كمن كفر باللّه، و ان الايمان الصحيح هو الإيمان باللّه و اليوم الآخر، و ملائكته و جميع كتبه و رسله.

ثم قرر سبحانه في الآية التي نفسرها و ما بعدها ان من اعترف بمبدإ النبوة من حيث هو، و آمن بنبوة واحد كائنا من كان

يلزمه قهرا ان يؤمن بنبوة

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٩٢

محمد (ص)، لأن اللّه سبحانه قد أوحى اليه كما أوحى الى غيره من الأنبياء، و أظهر على يده المعجزات كما أظهر على يد غيره «و ما حصل به الاتفاق لا يكون سببا للافتراق» و من جزأ و فرق فقد فرق بين الشيء و نفسه.

(وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ). بعد أن ذكر سبحانه جملة من أسماء الرسل في الآية السابقة قال لنبيه الأكرم: و هناك أيضا غير هؤلاء من الرسل قصصنا عليك البعض منهم قبل تنزيل هذه السورة، و البعض الآخر لم نقصصهم عليك .. و جاء في تفسير المنار ان أجمع الآيات لأسماء الأنبياء الآية ٨٤ من سورة الانعام: «وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ». و منهم هود و صالح و شعيب، و هم من العرب».

قال سبحانه: **(وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ)** دون أن يشير الى عدد الذين لم يذكرهم لنبيه، و لكن أهل الفضول أبوا الا الإحصاء، و هم فيه بين إفراط و تفريط، فمن قائل: ثلاثمائة و ثلاثة عشر. و قائل: ألف ألف و أربعمائة و أربعة و عشرون ألفا. و ثالث: ثمانية آلاف نصفهم من بني إسرائيل. و رابع:

مائة و أربعة و عشرون ألفا. و كل هذه الأقوال و غيرها رجم بالغيب، و الصحيح ان اللّه أعلم بعدتهم و هويتهم.

هل الأنبياء كلهم شرقيون؟

و هنا تساؤل يعرض لكل انسان، و هو: هل الأنبياء كلهم شرقيون، و لا غربي واحد منهم؟. و إذا كانوا كلهم من الشرق، فهل فيهم من الصين و اليابان و الهند، و ما اليها من بلاد الشرق الأقصى؟. ثم على فرض ان جميع الأنبياء شرقيون، فكيف تجمع بين هذا، و بين المبدأ القائل: ان اللّه لا يترك الناس سدى، و ان حكمته و رحمته تقتضي أن يرسل اليهم جميعا رسلا «مبشرين

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٩٣

و منذرين» يذكرونهم و يبصرونهم لئلا يكون لهم على اللّه حجة؟ و هل يقبل هذا المبدأ التخصيص بشعب، دون شعب، و بجنس، دون جنس؟.

الجواب: ان هذا المبدأ الذي يقول: ان اللّه لا يترك الناس سدى، و انه لا بد أن يلقي الحجة عليهم قبل الحساب و العقاب هو مبدأ عام لا يقبل التخصيص بأرض شرقية، و لا غربية، و لا بجنس أبيض أو أصفر أو أسود .. و لكن الحجة لا تنحصر بوجود النبي بذاته في كل بلد، و في كل جيل، بل تكون به، أو بكتاب منزل، أو بشريعة إلهية يقوم عليها نواب عن النبي، حتى إذا توفاه اللّه بقيت الحجة من بعده قائمة بين الناس، قال أمير المؤمنين (ع) في الخطبة الأولى من نهج البلاغة: «لم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجة قائمة». و الحجة النائب عن النبي، و المحجة الشريعة التي أتى بها من عند اللّه، فكل واحد من هذه الأربعة منفردا أو منضما الى نظيره تقوم به الحجة للّه على الناس.

و بهذا نجد تفسير الآية ٣٦ من سورة النحل: «وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ». و الآية ٣٥ من سورة فاطر: «وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ». و الآية ٤١ من النساء: «فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ

عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً». فالمراد بالرسول في الآية الأولى، و بالنذير في الثانية، و بالشهيد في الثالثة- واحد من الأربعة: الرسول بشخصه أو نائبه أو الكتاب المنزل أو الشريعة القائمة، و معلوم ان الثلاثة الأخيرة تنتهي الى النبي، و لهذا صح اسناد الشهادة و ما اليها الى النبي.

و هنا سؤال يفرض نفسه، و هو: لما ذا لم تذكر العقل مع ما ذكرت من الحجج، مع ان اللّه يحتج به كما يحتج بالنبي؟.

الجواب: ان العقل حجة ما في ذلك ريب، و لكنه حجة مستقلة في معرفة وجود اللّه، أما فيما عداها كمعرفة اليوم الآخر، و حلال اللّه و حرامه فانه يحتاج الى موقظ و منبه يرشده اليها، و يرسم له المنهج الصحيح لإدراكها، فوظيفة العقل في هذا الميدان الذي نحن بصدده هي أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول من موجبات الإيمان، و دلائل الهدى الى خير الدنيا و الآخرة، و متى فهم عن الرسول أقر و أذعن من غير تردد.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٩٤

و بعد هذا التمهيد الذي لا بد منه لمعرفة موضوعنا نعود الى السؤال: هل كل الأنبياء شرقيون؟ و نجيب: كلا، و إذا لم تصل إلينا أخبار المرسلين لأمم الغرب، و بعض أمم الشرق فليس معنى هذا ان اللّه لم يرسل اليهم أحدا منهم ..

و أيضا ليس من الضروري لالقاء الحجة على أهل الغرب أن يكون الرسول منهم و فيهم، بل قد يكون شرقيا، و مع ذلك تعم رسالته الشرق و الغرب، و يكون التبليغ بواسطة خلفائه و المندوبين عنه أو عنهم، كما هو الشأن في محمد (ص) الذي خاطبه اللّه بقوله: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ كَافَّةً لِلنّٰاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النّٰاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ- ٢٨ سبأ». و بقوله: «وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ رَحْمَةً لِلْعٰالَمِينَ- ١٠٧ الأنبياء» و قد أشارت بعض الكتب الدينية الموغلة في القدم الى ان رسالة محمد (ص) عامة و انها رحمة للعالمين، و فوق ذلك ذكرت اسم أبي لهب بالحرف و نصبه العداء لرسول اللّه (ص)، قال عبد الحق فديارتي في كتاب محمد في الأسفار الدينية العالمية:

«ان اسم الرسول العربي مكتوب بلفظه العربي احمد في «السامافيدا» من كتب البراهمة. و قد ورد في الفقرة السادسة و الفقرة الثامنة من الجزء الثاني، و نصها ان أحمد تلقى الشريعة من ربه، و هي مملوءة بالحكمة .. و ان وصف الكعبة ثابت في كتاب «الآثار فافيدا» و انه قد جاء في كتاب «زندافستا» الذي اشتهر باسم الكتاب المقدس في المجوسية، جاء الإخبار عن نبي يوصف بأنه رحمة للعالمين يدعو الى إله واحد لم يكن له كفؤا أحد، و يتصدى له عدو يسمى أبو لهب» «١».

و محال أن يصدر هذا الإخبار من غير الخالق .. انه وحي من اللّه الى نبي من أنبيائه، ما في ذلك ريب .. و إلا فمن الذي يتنبأ و يصدق في نبوته انه بعد آلاف السنين أو مئاتها يوجد رجل يسمى أحمد، و يدعو الى عبادة الواحد الأحد،

---

(١) كتاب محمد في الاسفار العالمية مطبوع باللغة الانكليزية، و نقل عنه العقاد في كتاب العبقريات الإسلامية تحت عنوان الطوالع و النبوات، و نقلنا نحن عن العقاد.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٩٥

و يتصدى له عدو، اسمه أبو لهب؟ ... ان في هذا الاخبار دلالة واضحة صادقة على أمرين: الأول صدق محمد في نبوته،

و عموم رسالته. الثاني ان اللّه سبحانه قد أرسل في القديم البعيد أنبياء لم نسمع بهم و لا بقصصهم. ثم ما يدرينا ان الذين نقرأ أو نسمع عنهم باسم الحكماء كانوا من الأنبياء، و ان تعاليمهم كلها أو جلها قد درست أو حرفت؟.

و بعد، فان بعثة الأنبياء للشرق و الغرب موضوع هام، و يتسع لكتاب مستقل، أما هذه المناسبة، و هي تفسير قوله تعالى: «وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ» فإنها لا تتسع لأكثر مما ذكرنا، و ربما تجاوزنا، و نرجو اللّه سبحانه أن يتيح لهذا الموضوع العلمي النافع من يتمتع بالعلم و الصبر على البحث و التنقيب.

(وَ كَلَّمَ اللهُ مُوسىٰ تَكْلِيماً). لم يذكر اللّه سبحانه موسى مع من ذكر من الأنبياء في الآية، و أفرد له هذه الجملة، لأنه تعالى قد خصه بالتكليم من دونهم، مع العلم ان الجميع قد تلقوا كلامه جل و علا، و لكن لتلقي لهذا الكلام صورا ذكرها جلت كلمته في الآية ٥١ من الشورى: «وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً» .. اذن تكلم موسى كان من وراء حجاب .. و لكن لا يعلم أحد طبيعة هذا الحجاب، و كيف تم، و قد سكت اللّه عن ذلك، فنسكت نحن عما سكت اللّه عنه، و على أية حال فان تخصيص موسى بالتكليم لا ينقص من مكانة سائر الأنبياء، و لا يدل على انه أفضل و أكمل، كلا، فان إرسال الروح الأمين الى خاتم النبيين هو أعلى المراتب و أكملها.

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ).

ان قاعدة لا عقاب بلا بيان كما يعبر الفقهاء، أو لا عقوبة بلا نص كما يقول أهل الشرائع الوضعية، ان هذه واضحة بذاتها لا تحتاج الى دليل، بل هي دليل على غيرها .. و حيث ان اللّه سبحانه لم يترك الإنسان سدى، بل أمره و نهاه، و لا بد من إبلاغه الأمر و النهي، حتى تقوم عليه الحجة لو خالف، و الا كانت الحجة له فيما لا يعرف إلا بالوحي، و حيث ان الرسل وسطاء بين اللّه و خلقه في تبليغ أحكامه و وعده و وعيده، لذلك أرسل اللّه مبشرين و منذرين

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٩٦

لئلا يدع مجالا لاعتذارات و تعللات: «وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ- أي من قبل البيان- لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى- ١٣٤ طه». و تكلمنا عن قاعدة قبح العقاب بلا بيان في ج ١ ص ٢٤٧.

(لٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفىٰ بِاللهِ شَهِيداً). الشهادة تكون بالأقوال، و تكون بالأفعال، كشهادة الكون بوجود المكون و قدرته، و شهادة البذل بكرم الباذل وجوده، و شهادة الاقدام بشجاعة المقدم و بأسه، و هذه الشهادة أدل و أقوى من شهادة الأقوال التي يتطرق اليها الشك و الريب.

و من الشهادة بالأفعال شهادة اللّه لمحمد (ص)، حيث زوده بالدلائل و المعجزات على صدقه، و منها القرآن الكريم الذي أنزله اللّه عليه بعلمه، و معنى (بعلمه) ان القرآن من علم اللّه، لا من علم المخلوقين الذي هو عرضة للأخطاء و الأهواء، أما شهادة الملائكة فإنها تبع لشهادة اللّه التي تغني عن كل شهادة، و لذا قال تعالى: «وَ كَفىٰ بِاللهِ شَهِيداً».

و بعد، فما من أحد الا و يود لو صدّقه الناس فيما يقول، و لكن العاقل لا يهتم إطلاقا ان كذّب و ردّت عليه أقواله، ما دام على يقين من صدقه ..

و هذا ما تهدف اليه الآية، فكأن اللّه سبحانه يقول لنبيه: لا يهمك تكذيب من كذّب بنبوتك، و اعراض من أعرض عن دعوتك، ما دمت عندي صادقا مصدقا .. فهذه الآية تهدف الى ما تهدف اليه الآية ٨ من فاطر: «فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ».

[سورة النساء (٤): الآيات ١٦٧ الى ١٧٠]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً (١٦٧) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً (١٦٩) يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الأَرْضِ وَ كانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧٠)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٩٧

الاعراب:

لم يكن اللّه ليغفر لهم خبر كان محذوف أي لم يكن مريدا ليغفر لهم، و الا طريق جهنم نصب على الاستثناء المتصل من الطريق التي وقعت نكرة في سياق النفي. خالدين حال. و خيرا خبر كان المحذوفة مع اسمها، أي يكن الإيمان خيرا، و قيل مفعول لفعل محذوف، أي و آتوا خيرا.

المعنى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً). قال الرازي و غيره من المفسرين: هذه الأوصاف تنطبق على اليهود، لأنهم كفروا بالإسلام، و صدوا غيرهم عنه بإلقاء الشبهات في قلوب البسطاء.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً). يرى بعض المفسرين ان الآية الأولى مختصة باليهود، و هذه بالمشركين، و ان اليهود قد صدوا عن الإسلام بإلقاء الشبهات، و ان المشركين صدوا عنه بالظلم، حيث أعلنوا الحرب على محمد (ص)، و دارت بينه و بينهم المعارك أكثر من مرة، و لا يغفر اللّه لهم و لا لغيرهم ما داموا على الضلال، و لا يرشدهم في الآخرة الا الى طريق جهنم، لأنهم في الدنيا سلكوا طريق الضلالة، و انحرفوا عن طريق الهداية رغم الإنذار و الإخطار. و قوله أبدا دليل على خلودهم في النار، و عدم انقطاع العذاب عنهم، و لولا لفظ التأبيد لكان لفظ الخلود محتملا للدوام و الاستمرار، و لطول أمد المكث في جهنم.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٩٨

(يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ).

المراد بالرسول محمد (ص)، و النداء عام لكل انسان في كل زمان و مكان، لأن الإيمان برسالة محمد و دعوته ايمان بالحق، و وجوب الايمان بالحق لا يختص بفرد، دون فرد، و لا بوقت دون وقت، و قوله تعالى: **(بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ)** يشعر بأن الإسلام لا يقر أي سلطان الا سلطان الحق، فمن أعطاه الطاعة فهو عند اللّه من المقربين، و من عصى **(فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الأَرْضِ وَ كانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً)**. لا تخفى عليه طاعة من أطاع، و لا معصية من عصى، و قضت حكمته ان يجازي كلا بما يستحقه من الثواب و العقاب.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٧١ الى ١٧٣]

يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الأَرْضِ وَ كَفى بِاللهِ وَكِيلاً (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَ اسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٤٩٩

اللغة:

الغلو مجاوزة الحد. و الاستنكاف الامتناع عن الشيء أنفة و كبرا. و الاستكبار أن يجعل الإنسان نفسه كبيرة فوق ما هي عليه.

الإعراب:

المسيح مبتدأ و عيسى عطف بيان. و رسول اللّه خبر. و كلمته عطف على الرسول. و جملة ألقاها حال. و ثلاثة خبر لمبتدأ محذوف، أي آلهتنا ثلاثة.

و خيرا مفعول لفعل محذوف، أي و قولوا خيرا. و المصدر المنسبك من أن يكون مجرور بمن محذوفه، و المجرور متعلق بسبحانه، و جميعا حال من ضمير فسيحشرهم.

المعنى:

لا نعرف دينا أكّد و تشدد في عقيدة التوحيد كالإسلام، فلا شبيه و لا ند للّه، و لا حلول و لا اتحاد «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» هذا هو الأساس الذي ترتكز عليه عقيدة الإسلام، و من الطريف قول من قال: «إذا كان اللّه قادرا على كل شيء فينبغي أن يكون قادرا على أن يخلق إلها مثله؟ .. و وجه الطرافة أو الغرابة في هذا القول انه يجمع بين صفة الخالق و المخلوق، و العابد و المعبود في ذات واحدة، و بديهة ان المخلوق لا يكون إلها خالقا .. اللهم الا عند من قال:

ان في المسيح طبيعتين: لاهوتية و ناسوتية. و تكلمنا عما قيل في السيد المسيح عند تفسير الآية ٥٨ من سورة آل عمران، و عن التوحيد و نفي الشريك و الأقانيم الثلاثة عند تفسير الآية ٥٠ من سورة النساء التي ما زلنا معها في التفسير، و تكلمنا عن الغلو عند تفسير الآية ١٢٨ من سورة آل عمران، و نعود ثانية الى هذا الموضوع لقوله تعالى:

(يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لاٰ تَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ إِلاَّ الْحَقَّ). قال كل من اليهود و النصارى قولا تجاوزوا فيه الحق .. فاليهود أنزلوه الى الحضيض،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٠٠

و النصارى رفعوه الى الالوهية، و قال المسلمون فيه ما قاله القرآن، و هو قول وسط بين القولين، و كان الخطاب في الآيات السابقة موجها الى اليهود، و هو في هذه الآيات موجه الى النصارى بدليل قوله تعالى: **(وَ لاٰ تَقُولُوا ثَلاٰثَةٌ)** و هذا هو الغلو في الدين، و القول على اللّه بالباطل، لأنه تعالى منزه عن الشريك و الشبيه، و الحلول و الاتحاد، و الولد و الصاحبة.

القرآن و المبشرون بالتثليث:

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّٰهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاٰهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ).

هذه هي حقيقة عيسى، و بها قال المسلمون .. رسول اللّه، و كفى تماما كإبراهيم و موسى و محمد و سائر الأنبياء .. و وقفنا مع المبشرين بالمسيحية في مكان سابق من هذا التفسير، و نقف معهم الآن عند تفسير هذه الآية، لأن لهم قصة معها، ستعرفها مما يلي، و نبدأ الحديث بالسؤال، كعادتنا في ارادة الإيضاح، ليمضي القارئ معنا الى النهاية من غير سأم

أو ملل.

سؤال: كيف يكون عيسى كغيره من الأنبياء، و قد ولدوا جميعا من آبائهم، و ولد هو من غير أب خارقا لما هو مألوف و معروف؟.

و تولى سبحانه بنفسه الاجابة عن هذا السؤال، و أوجزه بهذا الإيجاز الرائع:

(وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ). و معناه بضرب من الشرح و التفصيل ان قول النصارى: ولد عيسى من غير أب قول صحيح، و صحيح أيضا قولهم: ان هذا يخالف المألوف .. و لكن الخطأ الجسيم في قولهم: ان هذه المخالفة دليل على ربوبية عيسى .. و وجه الخطأ انه لا ملازمة بين عدم الابوة، و بين وجود الربوبية، و إلا فانه يلزم ان يكون آدم ربا، بل هو أولى بالربوبية من عيسى- على منطقهم- لأنه خلق من غير أب و أم، و عيسى تولد من امه مريم .. هذا، الى ان خرق العادات ليس بعزيز، فقد كانت النار بردا و سلاما على ابراهيم، فينبغي أن يكون ربا، لأن ما حصل مخالف للمألوف.

ثم هل يكثر على من خلق الكون العجيب من لا شيء، خلقه بكلمة واحدة، و هي (كن فيكون)، هل يكثر عليه أن يخلق بهذه الكلمة رجلا من غير

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٠١

أب؟ هل خلق عيسى (ع) أعظم من خلق السموات و الأرض؟: «لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ- ٥٧ غافر» .. فكلمة (كن فيكون) هي نفس الكلمة التي أطلقها اللّه على عبده عيسى في قوله: **(وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ)** و معنى إلقائها الى مريم ان اللّه أعلمها على لسان ملائكته بهذا المولود: «إِذْ قٰالَتِ الْمَلاٰئِكَةُ يٰا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ- ٤٥ المائدة». فالكلمة هنا هي الكلمة هناك.

أما الروح التي نعت بها سبحانه عيسى في هذه الآية و غيرها فالمراد بها الحياة التي لا مصدر لها الا هو جل ثناؤه، و ان اللّه سبحانه قد وهبها لعيسى، كما وهبها لطينة آدم: «إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ إِنِّي خٰالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي- ٧١ ص». فالروح في طينة آدم هي الروح في رحم مريم. فما يقال في تلك يقال في هذه، و الفرق تحكم.

و حاول المبشرون من رجال الكنيسة أن يوهموا من لا علم له بالكتاب و أسرار اللغة ان قوله تعالى: **(وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ)** هو حجة لهم لا ردّ عليهم بعد أن فسروا كلمة اللّه و روح اللّه بالمعنى المساوي للّه و صفاته، لا بأثر من آثار قدرته و عظمته، كما هو الحق .. و لو جاءت (كلمة اللّه و روح اللّه) في سياق آخر لحملنا المبشرين في تفسيرهم الخاطئ على غير المكر و الخداع .. و لكن المبشرين قد انتزعوا الكلمتين- بسوء نية- من بين نهيين: أحدهما نهي عن الغلو في السيد المسيح (ع)، و ثانيهما نهي عن القول بالتثليث، و نسبة الولد اليه تعالى، ثم فسروا الكلمتين بما يتفق مع أغراضهم و مقاصدهم، كما لو جاءتا في قاموس من قواميس اللغة .. و لا معنى لهذا الا التدليس و التلبيس.

و نعيد الآية بمجموعها احترازا من غفلة القارئ عنها: **(يٰا أَهْلَ الْكِتٰابِ لاٰ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لاٰ تَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّٰهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاهٰا إِلىٰ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رُسُلِهِ وَ لاٰ تَقُولُوا ثَلاٰثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللّٰهُ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ سُبْحٰانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مٰا فِي السَّماواتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ وَ كَفىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلاً)**.

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٠٢

فهل بعد هذا النص مبرر لتفسير كلمة اللّه و روح اللّه بذاته و صفاته؟ بل لا مبرر لهذا التفسير، حتى و لو جاءت الكلمتان في القرآن منفردتين مستقلتين، لا يسوغ هذا التفسير بوجه من الوجوه، مع نسبتهما الى القرآن الذي قال بلسان مبين: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ- ٧٣ المائدة». أبعد هذا التكفير الصريح يقال: ان القرآن يؤيد النصارى في قولهم: المسيح هو اللّه، أو ابن اللّه، أو فيه صفة من صفات اللّه؟ و إذا كان القرآن حجة في بعض آياته أو كلماته فيجب أن يكون حجة أيضا في قوله: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ). و في قوله: (يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) «١» و إذا لم يكن القرآن حجة في قوله هذا فيجب أن لا يكون حجة في غيره ... أما الايمان بالجميع، و اما الكفر بالجميع، و التفكيك خداع و تدليس.

لقد أساء المبشرون أو الكثير منهم الى السيد المسيح، و الى أنفسهم، أساءوا بالتحريف و التزييف الذي ذكرنا منه كلمتين على سبيل المثال، دون الحصر ..

و لنفترض ان رجلا عاديا انخدع لهم، فهل يكون هذا ربحا للمسيح و المسيحية؟

و ما ذا تكون النتيجة لو انكشف له الغطاء، كما انكشف تطوعهم لصالح جهة معينة، و لم يجدهم التستر باسم التبشير، و الدعوة الى الصلاة و التكبير.

(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لاَ الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ). لأنه لا طريق لهم الى ثواب اللّه، و النجاة من عذابه إلا الإخلاص في العبودية له وحده.

(وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً). و هناك ينتظرهم العذاب الأليم. و لا شيء عندنا لتفسير قوله تعالى: **(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ** الى آخر الآية، لأنها أوضح من أن تفسر .. حتى قولي: و هناك

---

(١) و أغرب ما قرأت قول بعض المبشرين و المستشرقين: ان محمدا أخذ تعاليمه من الإنجيل و الأحبار، و نسأل هؤلاء: هل أخذ محمد هاتين الآيتين، و ما اليهما من الآيات و الأحاديث التي كفرت النصارى، و نعت عليهم ما اعتقدوا و ما حرفوا من دين السيد المسيح (ع)، هل أخذ محمد هذه التعاليم من الإنجيل و رجالات الكنيسة في عصره؟ .. إذن، يكون هذا اعترافا منهم بالكفر على أنفسهم ..

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٠٣

ينتظرهم العذاب الأليم قلته لمجرد الاستهلاك و ملء الفراغ، كما لاحظ القارئ ..

و هكذا فعل غيري من أهل التفاسير، قال شيخهم الطبري: «لن يستنكف يعني لن يأنف ... و من يستنكف يعني من يتعاظم». و قال فيلسوفهم الرازي:

«لن يستنكف قال الزجاج: أي لن يأنف ... و من يستنكف المعنى من استنكف».

إلى آخر الآية ١٧٣ .. و مثله كثير، و هو ما عناه الشاعر بقوله: (و فسر الماء بعد الجهد بالماء).

و قد فعلوه عن علم و عمد، لا لشيء إلا لأن مفسر القرآن الكريم يجب- بزعمهم- أن يفسر كل ما جاء فيه، و ان كان

واضحا ذاهلين عما قالوه في تفسير قوله تعالى: «مِنْهُ آياتٌ مُحكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ، وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ» و ان المحكمات هي الواضحات، و ان توضيحها من أشكل المشكلات.

[سورة النساء (٤): الآيات ١٧٤ الى ١٧٥]

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً (١٧٥)

اللغة:

البرهان الحجة. و المراد بالنور هنا القرآن. و الاعتصام باللّه الامتناع به من المكروه .. و المراد بالصراط المستقيم الدين القويم.

الإعراب:

صراطا مفعول ثان ليهديهم، لأنها بمعنى يعرفهم. و اليه متعلق بمستقيم،

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٠٤

لا بيهديهم، أو بمحذوف حالا من الصراط، و المعنى يهديهم اللّه صراطا مؤديا اليه تعالى.

المعنى:

(يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً). تعرضت الآيات السابقة لمحاجة اليهود و النصارى، و بعد أن أقام سبحانه الحجة على الجميع دعا الناس عامة الى الإيمان بمحمد (ص) و القرآن الكريم، فقد اتفق المفسرون على ان المراد بالبرهان محمد، و بالنور المبين القرآن، و كل من سنة محمد و كتاب اللّه برهان قاطع على احقاق الحق، و إبطال الباطل، و نور ساطع يهدي للتي هي أقوم، لأنهما ينطقان بالوحي عن اللّه، لا عن سواه: «قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ- ٩ الأحقاف» .. «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ- ٣١ آل عمران».

أما الدليل على انهما وحي من اللّه، و انهما برهان و نور فلا يتلخص بكلمات تقال في تفسير آية من الآيات، و قد وضع المتخصصون فيه مئات الكتب، و ذكرنا الكثير مما جاء فيها في مطاوي هذا التفسير، و سنذكر أيضا الكثير كلما دعت المناسبة، و على طالب الحق ان يبحث و يتتبع .. أجل، شيء واحد نسأل هذا الطالب ان لا يذهل عنه، و هو أن يقارن بين تعاليم القرآن، و تعاليم غيره من كتب الأديان .. و أيضا يقارن بين تاريخه و تاريخها، و المراحل التي مرت بها عبر القرون و الأجيال .. و يبحث أيضا بصورة خاصة عن عدد الأناجيل و اشتهارها، و كم كانت في القرن الأول و الثاني الميلاديين؟ و لما ذا انعقد المجمع المسكوني في نيقية سنة ٣٢٥ م الذي ضم ألفين و أربعين أسقفا يمثلون جميع الكنائس في العالم المسيحي؟ و ما ذا تم في هذا المجمع؟ و هل اتفق جميع الأساقفة على ان عيسى إله، أو ان فئة منهم قالت: انه بشر مخلوق، و أخرى قالت: هو إله؟

و هل تعرض هذا المجمع للعنصر الثالث روح القدس، و أتى على ذكر ألوهيته، أو ان الذي أقر ألوهية هذا العنصر هو المجمع الذي انعقد في القسطنطينية

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٠٥

سنة ٣٨١ م، و لم يعرف هذا العنصر من قبل هذا التاريخ.

نرغب الى طالب الحق أن يبحث عن هذه الجهات، و نحن معه في النتيجة التي ينتهي اليها آية تكون.

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً).

الضمائر الثلاثة في به و منه و اليه كلها تعود الى اللّه ..

و بعض المفسرين فرّق بين الرحمة و الفضل بأن الرحمة تكون في الدنيا، و الفضل يكون في الآخرة. و قال آخر نقلا عن ابن عباس: ان الرحمة هي الجنة، و ان الفضل ما لا عين رأت، و لا اذن سمعت .. و يلاحظ بأن هذا أراد أن يفرق فجمع، لأن هذا الوصف هو للجنة بالذات .. أما نحن فلا نرى أي فرق بين رحمة اللّه و فضله .. و يكفي لصحة العطف المفارقة في اللفظ .. و عطف بعض المترادفات على بعض في اللغة العربية كثير و مستحسن، و يسمى بعطف التفسير.

و معنى الآية بمجموعها ان من آمن باللّه، و اتكل عليه، دون سواه فهو في رحمة اللّه و فضله دنيا و آخرة، أما في الدنيا فان اللّه يمنحه التوفيق و الهداية الى الطريق المؤدية الى الحق، لا ينحرف عنه أبدا، و اما في الآخرة فروح و ريحان و جنة نعيم، و أخصر تفسير لهذه الآية الكريمة قول علي أمير المؤمنين (ع):

«رب رحيم، و دين قويم». و كل امرئ و ما يختار.

[سورة النساء (٤): آية ١٧٦]

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجالاً وَ نِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٠٦

الإعراب:

في الكلالة متعلق بيفتيكم، لا بيستفتونك كما قيل. و امرؤ فاعل لفعل محذوف أي ان هلك امرؤ هلك، و هذا المحذوف لا يجوز ذكره و إظهاره، لأن الموجود يغني عنه. و جملة ليس له ولد حال من ضمير هلك. و له اخت أيضا الجملة حال. و هو يرثها الجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب. و اختلف المفسرون و النحاة في اعراب **(فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ)**. و اعراب **(وَ إِنْ كانُوا إِخْوَةً)** و سبب الاختلاف ان ألف كانتا ضمير يعود على الأختين، و واو كانوا على الاخوة، كما هو المفهوم من السياق، و على هذا يكون المعنى فان كانت الأختين أختين، أو الاثنتين اثنتين. و ان كان الاخوة اخوة .. و ليس من شك ان كلام القرآن منزه عن مثل هذا.

و ذكروا وجوها كثيرة لصحة هذا التعبير أرجحها- فيما نظن- ما قاله صاحب البحر المحيط: ان المراد بضمير كانتا الوارثتان، لا الأختان، و يدل على ذلك سياق الكلام، و ان هناك صفة محذوفة لاثنتين، و الصفة و الموصوف خبر كانتا، و التقدير هكذا: فان كانت الوارثتان اثنتين من الأخوات، أي أختين، و هذا كلام مستقيم، لأن الوارثتين أعم من الأختين، فقد تكونان بنتين، و قد تكونان جدتين أو عمتين أو خالتين. و كذلك ضمير كانوا يعود على الورثة، و يكون المعنى و ان كان الورثة اخوة للميت.

و رجالا و نساء بدل من اخوة، و يسمى بدل مفصل من مجمل. و ان تضلوا على حذف مضاف مفعول لأجله، أي يبين اللّه لكم مخافة ضلالكم.

المعنى:

(يَسْتَفْتُونَكَ- يا محمد- قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ). الكلالة في اللغة الاحاطة، و يراد بها في الميراث قرابة الإنسان، ما عدا الوالدين و الأولاد، كالاخوة و الأعمام، لأن الوالدين كالعمودين، و قد يوصف الميت المورّث

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٠٧

بالكلالة على معنى انه قد ورّث غير أولاده و والديه، و قد يوصف بها الحي الوارث، على معنى الوارث من غير صنف الآباء و الأبناء، و النتيجة واحدة في الوصفين، و قد جاءت لفظة الكلالة في آيتين من القرآن الكريم، و في سورة النساء بالذات، الأولى في أول السورة، و المراد بالكلالة هناك اخوة الميت من أمه فقط. و الآية الثانية هي هذه التي نفسرها، و المراد بالكلالة فيها اخوة الميت و أخواته لأبيه و أمه، أو لأبيه فقط.

(إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ). ذكر و لا أنثى، لأن الولد يطلق على كل مولود، قال سبحانه: «مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ- ٩١ المؤمنون».

و أيضا ليس له أحد الوالدين، لأن لفظ كلالة يومئ الى ذلك، بالاضافة الى الإخبار. (وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ). المراد بالأخت هنا الشقيقة، و هي الأخت من الأب و الأم، و مع عدمها تقوم مقامها الأخت من الأب فقط، أما الأخت من الأم فقط فقد سبق بيان حكمها في أول السورة الآية ١١. و إذا لم يكن مع الأخت الشقيقة أو من الأب فقط ولد و لا أحد الوالدين تأخذ النصف بالفرض، و النصف الثاني بالرد، و تنفرد وحدها بجميع التركة عند الشيعة سواء أ كان للميت عصبة أو لم يكن، أما السنة فيعطون النصف الباقي للعصبة ان كان، و الا أخذت الأخت جميع التركة، فالخلاف بينهم و بين الشيعة في حال وجود العصبة فقط.

(وَ هُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ) ذكر و لا أنثى، و لا أحد الوالدين، و يحرز جميع التركة بالإرث بإجماع المذاهب. (فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ). أي كانت الوارثتان اثنتين من الأخوات الشقيقات، أو من الأب فقط، كما قدمنا في فقرة اللغة .. و أجمعت المذاهب الإسلامية على ان حكم البنات حكم البنتين، دون تفاوت، و عليه يكون المعنى فان كانتا اثنتين فصاعدا. (فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ) الميت أخا كان أو أختا.

(وَ إِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَ نِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ). بعد ان بيّن نصيب الأخت المنفردة، و نصيب الأختين و ما فوق اللتين أو اللاتي لا أخ معهما أو معهن، بعد هذا بيّن حكم اجتماع الأخوة و الأخوات بأنهم يقتسمون للذكر

تفسير الكاشف، ج٢، ص ٥٠٨

مثل حظ الأنثيين. و تقدم الكلام فصلا و مطولا عن ارث البنات و الأخوات عند تفسير الآية ١١ من هذه السورة مع أقوال السنة و الشيعة و أدلتهم و محاكمتها، و بيان الحق بالأرقام.

و بانتهاء تفسيرنا لسورة النساء ينتهي المجلد الثاني، و الحمد للّه الذي وفقنا لذلك، و هو سبحانه المسئول أن يوفقنا لإكمال بقية المجلدات بالنبي و آله، عليه و عليهم أزكى التحيات، و أفضل الصلوات.